

صِيْدُ الْخَائِطِ

للحافظ أبي الفرج عبد الرحمن بن الجوزي

عني بنشره

محمد بن الجابري

(طبع بنفقة)

مكتبة الخزانة
اصحها اولاً وجمعها من اجتهادنا
بشارع عبد العزيز بمصر

الطبعة الاولى

سنة ١٣٤٥ هـ = ١٩٢٧ م

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيد المرشدين ،
وأشرف المرسلين ، سيدنا محمد وآله وصحبه والتابعين لهم بإحسان الى
يوم الدين .

وبعد : فاني أقدم لحضرات العلماء ، وجمهور الأُدباء والفضلاء ،
في عموم الأقطار الاسلامية هذا الكتاب القيم الموسوم
صيد الخاطر تأليف امام الواعظين ، وكبير المفسرين ، الحافظ
جمال الدين أبي الفرج عبيد الرحمن بن الجوزي . والكتاب في جملة
وتفصيله خواطر « بسكولوجية » جاشت في صدر المؤلف فأرسلها
بالاخلاص والنزاهة اللتين امتاز بهما في جميع كتبه ؛ متوخيا بها ايقاظ
النفوس ، واصلاح السرائر . وقد قال رحمه الله تعالى في الحث على مطالعة

كتاب هذا كلمته التي يوصي بها ولده في آخر رسالته المسماة لفتة السكبد
الى نصيحة الولد :

« وتلمح كتاب صيد الخاطر ، فانك تقع بواقعات تصلح لك أمر
دينك ودنياك »

ولذلك رأينا من الفائدة نشره ليعم النفع به ان شاء الله تعالى . وقد
اعتمدنا في طبعه على نسختين خطيتين : احدهما تفضل بها حضرة صاحب
السعادة « أحمد بك طلعت » متع الله عالم الأدب بحياته . والأخرى
محفوطة بدار الكتب المصرية وهي من كتب الامير مصطفى فاضل
باشا ، ويرجع الفضل في مشتراها وحفظها في مصر الى المرحوم أحمد
طلعت باشا والد سعادة أحمد طلعت بك . فكما نلنا فضل نشر هذا
الكتاب راجع أولا وآخرأ على « آل طلعت » جزاهم الله خيراً عن أهل
العلم والادب .

أما التعريف بالمؤلف فسيجده القارىء مطولاً على حدة في رسالة
خاصة - تحت الطبع - غني بجمعها وتنسيقها حضرة الاستاذ الفاضل
الشيخ أحمد محمد شاكر القاغى الشرعى نجل صاحب الفضيلة الاستاذ
الكبير الشيخ محمد شاكر وكيل مشيخة الازهر سابقاً مع استقصاء
أسماء مؤلفاته وذكر ما طبع منها والاشارة الى ما يوجد منها في المكاتب

العامّة . ومنها يقف القارئ تفصيلاً على سيرة هذا الإمام ويعلم مكانته
من العلم والعمل والله الموفق

مصر - في ١٥ ذى الحجة سنة ١٣٤٥ و ١٥ يونيه سنة ١٩٢٧

كتبه محمد أمين الخالنجي

الكتبي عفا الله عنه

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قال الشيخ الامام العالم، أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد بن الجوزي، رحمه الله تعالى عليه. الحمد لله حمداً يبلغ رضاه، وصلى الله على أشرف من اجتباه، وعلى من صاحبه ووالاه، وسلم تسليماً لا يدرك مثناه. لما كانت الخواطر تجول في تصفح أشياء تعرض لها، ثم تعرض عنها فتذهب؛ كان من أولى الأمور حفظ ما يخطر لسكياً ينسى. وقد قال عليه الصلاة والسلام: لا يموت المؤمن حتى يفتقدوا له بالكتابة، ولم يفتقدوا له شيء، فانشغل عن اثباته فيذهب، فأنشأه عليه. ورأيت من نفسي أنني كلما فتحت بصر التفكير، سئح له من عجائب الغيب، ما لم يكن في حساب فأنشأ عليه من كتيب التفهيم ما لا يجوز التفريط فيه، فجعلت هذا الكتاب قيداً - لصيد الخاطر - والله ولي النفع أنه قريب مجيب.

١ - فصل - قد تعرض عند سماع المواعظ للسامع بقطة، فإذا انفصل عن مجلس الذكر عادت الفسوة والغفلة. فتدبرت السبب في ذلك فعرفته ثم رأيت الناس يتفاوتون في ذلك، فالحالة العامة أن القلب لا يكون على صفة من اليقظة عند سماع المواعظ بعدها لسببين: أحدهما أن المواعظ كالسياط، والسياط لا تؤلم بعد انقضائها إيلامها وقت وقوعها؛ والثاني، أن حالة سماع المواعظ يكون الإنسان فيها مزاج العلة؛ قد تخلى بجسمه وفكره عن أسباب الدنيا، وانصت بحضور قلبه، فإذ عاد إلى الشواغل اجتذبه بآفاتها، وكيف يصح أن يكون كما كان. وهذه حالة تم الخلق، إلا أن أرباب اليقظة يتفاوتون في بقاء الآثار. فمنهم من يعزم بلا تردد ويمضي من غير التفات، فلو

توقف بهم ركب الطبع لضجوا كما قال حنظلة عن نفسه : نافق حنظلة ،
ومنهم أقوام يميل بهم الطبع الى الغفلة أحيانا ، ويدعوهم ما تقدم من المواعظ
الى العمل أحيانا فهم كالسنبلة تميلها الرياح ، وأقوام لا يؤثر فيهم الا بمقدار
سماعه ، كما دحرجته على صفوان .

٢ - فصل - جواذب الطبع الى الدنيا كثيرة ، ثم هي من داخل ،
وذكر الآخرة أمر خارج عن الطبع ، ثم هي ^(١) من خارج ، وربما ظن من لا علم
له أن جواذب الآخرة أقوى ، لما يسمع من الوعيد في القرآن ، وليس كذلك
لأن مثل الطبع في ميله الى الدنيا ، كالماء الجارى فانه يطلب المهبوط ، وانما
رفعه الى فوق يحتاج الى التكلف ، ولهذا أجاب معاون الشرع : بالترغيب
والترهيب يقوى جند العقل ، فاما الطبع فجواذبه كثيرة ، وليس العجب أن
يغلب ، انما العجب أن يغلب .

٣ - فصل - من عاين بعين بصيرته تنهى الأمور في بداياتها ،
نال خيرها ، ونجى من شرها ومن لم ير العواقب غلب عليه الحس ، فعاد
عليه بالألم ، ما طلب منه السلامة ، وبالنصب ما رجا منه الراحة . ويبان هذا
في المستقبل ، يتبين بذكر الماضى وهو أنك لا تخلو ، أن تكون عصيت
الله فى عمرك ، أو أطعته ، فأين لذة معصيتك ؟ وأين تعب طاعتك : هيهات
رحل كل بما فيه : فليت الذنوب اذ تخلصت خلت ، وأزيدك فى هذا بياننا مثل
ساعة الموت ، وانظر الى مرارت الحسرات على التفريط ، ولا أقول كيف
تغلب حلاوة اللذات ، لأن حلاوة اللذات استعالت حنظلا ، فبقيت مرارة
الأسى بلا مقاوم . أتراك ما علمت أن الأمر بعواقبه . فراقب العواقب

تسلم ، ولا تمل مع هوى الحس تندم .

٤ - فصل - من تفكر في عواقب الدنيا ، أخذ الحذر ، ومن أيقن بطول الطريق تأهب للسفر ، ما أعجب امرئ يأمن يوقن بامرئ ثم ينساه ، ويتحقق ضرر حال ثم يغشاه ؛ وتحشى الناس والله أحق أن تحشاه . تغلبك نفسك على ما تظن ، ولا تغلبها على ما تستيقن . أعجب العجائب ، سرورك بغرورك ، وسهوك في لهوك ، عما قد خبي لك . تغتر بصحتك وتنسى ذو السقم ، وتفرح بعافيتك غافلا عن قرب الالم ، لقد أراك مصرع غيرك ، مصرعك ، وأبدى مضجع سواك ، قبل المات مضجعك ، وقد شغلك نيل لذاتك ، عن ذكر خراب ذاتك :

كأنك لم تسمع باخبار من مضى ولم تر في الباقيين ما يصنع الدهر
فان كنت لا تدري فتلك ديارهم محالها مجال الريح بعدك والقبر
كم رأيت صاحب منزل مائزل لحده ، حتى نزل ؛ ولم شاهدت والى قصر ، وليه عدوه لما عزل ؛ فيا من كل لحظة الى هذا يسرى ، وفعله فعل من لا يفهم ولا يدري :

وكيف تنام العين وهي قريرة ؟ ولم تدري من اين المحلين تنزل ؟

٥ - فصل - من قارب الفتنة ، بعدت عنه السلامة ومن . ادعى الصبر ، وكل الى نفسه . ورب نظرة لم تناظر ؛ وأحق الاشياء بالضبط والقهر ، اللسان والعين ، فايك اياك أن تغتر بعزمك ، على ترك الهوى ، مع مقاربة الفتنة . فان الهوى مكيد ، وكمن شجاع في صف الحرب اغتيل . فاتاه مالم يحتسب ممن يأنف للنظر اليه ؛ واذا ذكر حمزة مع وحشى :^(١)

(١) اشارة الى مقتل حمزة عم النبي صلى الله عليه وسلم بيد وحشى

فتبصر ولا تشم كل برق رب برق فيه صواعق حين
واغضض الطرف تسترح من غرام تكسى فيه ثوب ذل وشين
فبلاء الفتى موافقة النفس — س وبدى الهوى طموح العين

٦ - فصل - أعظم المعاقبة أن لا يحس المعاقب بالعقوبة . واشد من ذلك (أن) يقع السرور بما هو عقوبة ، كالفرح بالمال الحرام ، والتمكن من الذنوب ومن هذه حاله . لا يفوذبطاعة وانى تدبرت أحوال أكثر العلماء والمتزهدين فرأيتهم في عقوبات لا يحسون بها ، ومعظمها من قبل طلبهم للرياسة ، فالعالم منهم ، يغضب أن رد عليه خطأؤه ، والواعظ متصنع بوعظه ، والمتزهّد منافق أو مرآئى . فاول عقوباتهم ، اعراضهم عن الحق شغلا بالخلق ومن خفى عقوباتهم سلب حلاوة المناجاة ، ولذة التعبد ، الارجال مؤمنون ، ونساء مؤمنات ، يحفظ الله بهم الارض ، بواطنهم كظواهرهم ، بلى أجلى ، وسرائرهم كعلائقهم ، بل أحلى ، وهمهم عند الثريا ، بل أعلى ، ان عرفوا تنكروا ، وان رثيت لهم كرامة ، أنكروا . فالناس في غفلاتهم ، وهم في قطع فلاتهم ، تحبهم ، بقاع الارض ، وتفرح بهم أملاك السماء نسأل الله عز وجل التوفيق لاتباعهم ، وان يجعلنا من أتباعهم

٧ - فصل - من علامة كمال العقل ، علو الهمة والراضى بالدون دنى :

ولم أرفى عيوب الناس عيباً كنقص القادرين على التمام

٨ - فصل - سبхан من سبقت محبته لاحبابه ، فدحهم على ما وهب لهم ، واشترى منهم ما أعطاهم ، وقدم المتأخر من أوصافهم ، لموضع ايثارهم ، فباهى بهم في صومهم ، وأحب خلوف أفواههم . يالها من حالة مصونة لا يقدر عليها كل طالب : ولا يبلغ كنه وصفها كل خاطب :

٩- فصل - الواجب على العاقل أخذ العدة لرحيله ، فانه لا يعلم متى يفجؤه أمر ربه ، ولا يدري متى يستدعى ، واني رأيت خلقا كثيرا غرم الشباب ونسوا فقد الاقران ، وألهام طول الأمل . وربما قال العالم المحض لنفسه : اشتغل بالعلم ثم اعمل به فيتساهل في الزهد ^(١) بحجة الراحة ، ويؤخر الرجا لتحقيق التوبة ، ولا يتحاشى من غيبة أوسماعها ، ومن كسب شبهة يأمل أن يحوها بالورع ، وينسى ان الموت قد يبعث . فالعاقل من اعطى كل لحظة حقها من الواجب عليه ، فان بفته الموت رؤى مستمدا ، وان نال الأمل ازداد خيرا .

١٠- فصل - خطرت لي فكرة فيما يجري على كثير من العالم من المصائب الشديدة ، والبلايا العظيمة ، التي تنهاى الى نهاية الصعوبة فقلت . سبحان الله ! ان الله أكرم الأكرمين ، والكرم يوجب المسامحة فما وجه هذه المعاقبة ؟ فتفكرت ، فرأيت كثيرا من الناس في وجودهم كالعدم ، لا يتصفحون أدلة الوجدانيه ، ولا ينظرون في أوامر الله تعالى ونواهيه ، بل يجرون على عاداتهم كالبهايم ، فان وافق الشرع مرادهم ، والا فمعوهم على أغراضهم . وبعد حصول الدينار ، لا يباليون أمن حلال كان أم من حرام ! وان سهلت عليهم الصلاة ، فعلوها وان لم تسهل تركوها ، وفيهم من يبارز بالذنوب العظيمة ، مع نوع معرفة المناهي ، وربما قويت معرفة عالم منهم ، وتفاقت ذنوبه ، فعلمت أن العقوبات ، وان عظمت دون اجرامهم ، فاذا وقعت عقوبة لتمعص ذنبا ، صاح مستغيثهم : ترى هذا بأي ذنب ؟ وينسى ماقد كان ، مما تنازل الأرض لبعضه وقد يهان الشيخ

في كبره ، حتى ترحمه القلوب ، ولا يدري أن ذلك لا هماله حق الله تعالى في شبابه ، فمتى رأيت معافيا ، فاعلم أنه لذنوب .

١١ - فصل - تأملت التجاسدين العلماء ، فرأيت منشأه من حب

الدنيا ، فإن علماء الآخرة يتوادون ولا يتحاسدون ، كما قال عز وجل « ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا » وقال تعالى : « والذين جاؤا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولاخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل في قلوبنا غلا للذين آمنوا » وقد كان أبو الدرداء : يدعو كل ليلة لجماعة من اخوانه .

وقال الامام أحمد بن حنبل لولد الشافعي : أبوك من الستة الذين أدعو لهم كل ليلة وقت السحر . والأمر الفارق بين الفئتين : أن علماء الدنيا ، ينظرون في الرياسة فيها ، ويحبون كثرة الجمع والثناء ؛ وعلماء الآخرة ، بمعزل من ايثار ذلك ، وقد كانوا يتخوفونه ، ويرحمون من بلى به ، وكان النخعي :

لا يستند الى سارية . وقال علقمة : أكره أن يوطأ عقي . ويقال علقمة ، وكان بعضهم : اذا جلس اليه أكثر من أربعة ، قام عنهم . وكانوا يتدافعون

الفتوى . ويحبون الحمول ، ومثل القوم ، كمثل راكب البحر ، وقد خب ،

فعنده شغل الى أن يوقن بالنجاة ، وانما كان بعضهم يدعو لبعض ، ويستفيد

منه ، لأنهم ركب نصاحبوا فتوادوا ، فالأيام والليالي مواحلهم الى سفر الجنة .

١٢ - فصل - من أحب تصفية الاحوال ، فليجتهد في تصفية

الاعمال . قال عز وجل : « وأن لو استقاموا على الطريقة ، لأسقيناهم ماء

غدقا » وقال النبي صلى الله عليه وسلم فيما يروى عن ربه عز وجل : لو ان

عبادي أطاعوني لسقيتهم المطر بالليل ، وأطلعت عليهم الشمس بالنهار ، ولم

اسمعهم صوت الرعد . وقال صلى الله عليه وسلم : البر لا يبلى ، والاثم

لا ينسى والديان لا ينام^(١) وكما تدين تدان . وقال ابو سليمان الداراني : من صفى صفى له ومن كدر كدر عليه ، ومن احسن في ليلة كوفي في نهاره ، ومن احسن في نهاره كوفي في ليله . وكان شيخ يدور في المجالس ، ويقول من سره أن تدوم له العافية ، فليثق الله عز وجل ، وكان الفضيل بن عياض ، يقول : انى لأعصى الله ، فأعرف ذلك في خلق دابتي ، وجاريتي . واعلم وفقك الله - انه لا يحس بضربة مبنج ، وانما يعرف الزيادة من النقصان المحاسب لنفسه ، ومتى رأيت تكديرا في حال فاذا كر نعمة ما شكرت ، أو زلة قد فعلت ، واحذر من نفاق النعم ، ومفاجأة النقم ، ولا تغتر بسعة بساط الحلم ، فربما عجل انقباضه . وقد قال الله عز وجل : « ان الله لا يغير ما بقوم ، حتى يغيروا ما بأنفسهم » وكان ابو علي الروذباري ، يقول : من الاغترار أن تسمى ، فيحسن اليك ، فتترك التوبة ، توها انك تسامح في الهفوات .

١٣ - فصل - تفكرت يوما في التكليف ، فرأيت ان ينقسم الى سهل وصعب ، فاما السهل ، فهو أعمال الجوارح ، الا أن منه ما هو اصعب من بعض ، فالوضوء والصلاة أسهل من الصوم ، والصوم ربما كان عند قوم أسهل من الزكاة ، واما الصعب فيتفاوت ، فبعضها اصعب من بعض ، فمن المستصعب ، النظر والاستدلال الموصلان الى معرفة الخالق . فهذا صعب عند من غلبت عليه أمور الحس ، سهل عند أهل العقل ، ومن المستصعب غلبة الهوى ، وقهر النفوس ، وكف أ كف الطباع عن التصرف فيما يؤثره ، وكل هذا يسهل على العاقل النظر في ثوابه ، ورجاء عاقبته ، وان شق عاجلا

«١» وفي رواية : والديان لا يموت اعلم ما شئت كما تدين تدان .

ولنا أصعب التكليف وأعجبها ، انه قد ثبتت حكمة الخالق عند العقل ، ثم يراه يفقر المتشاغل بالعلم ، المقبل على العبادة حتى يعضه الفقر بناجذيه ، فيذل للجاهل في طلب القوت ، وينفي الفاسق مع الجهل ، حتى تفيض الدنيا عليه ، ثم تراه ينشئ الاجسام ويحكمها ، ثم ينقض بناء الشباب في مبدأ أمره ، وعند استكمال بنائه فاذا به قد عاد هشيما ، ثم تراه يؤلم الاطفال ، حتى يرحمهم كل طبع ، ثم يقال له . اياك أن تشك في انه أرحم الراحمين ، ثم يسمع بارسال موسى الى فرعون ، ويقال له : اعتقد ان الله تعالى اصل فرعون ، واعلم انه ما كان لآدم بدء من أكل الشجرة وقد وبخ بقوله : « وعصى آدم ربه » وفي مثل هذه الاشياء نحير خلق ، حتى خرجوا الى الكفر والتكذيب ، ولو فتشوا على سر هذه الاشياء ، لعلموا ان تسليم هذه الامور ، تكليف العقل ليدعن ، وهذا أصل اذا فهم ، حصل السلامة والتسليم . نسأل الله عز وجل أن يكشف لنا الغوامض ، التي حيرت من ضل انه قريب مجيب .

١٤ - - فصل - ينبغي للانسان أن يعرف شرف زمانه ، وقدر وقته ، فلا يضيع منه لحظة في غير قربة ، ويقدم الافضل فالافضل من القول والعمل . ولتكن نيته في الخير قائمة ، من غير فتور بما يعجز عنه البدن من العمل ، كما جاء في الحديث : نية المؤمن خير من عمله . وقد كان جماعة من السلف . يبادرون اللحظات . فنقل عن عامر بن عبد قيس : أن رجلا قال له كلمني ، فقال له : امسك الشمس وقال ابن ثابت البناني : ذهبت ألقن أبي ، فقال يا بني دعني ، فاني في وردي السادس . ودخلوا على بعض السلف عند موته ، وهو يصلي ، فقيل له ، فقال : الآن تطوى صحيفتي . فاذا علم الانسان وان بالغ في الجدد بان الموت يقطعه عن العمل ، عمل في حياته

ما يدوم له أجره بعد موته ، فإن كان له شيء من الدنيا ، وقف وقفاً ، وغرس غرساً ، وأجرى نهراً ، ويسمى في تحصيل ذرية تذكر الله بعده ، فيكون الأجر له ، أو أن يصنف كتاباً من العلم ، فإن تصنيف العالم ولده المخلد ، وأن يكون عاملاً بالخير ، عالماً فيه ، فينقل من فعله ما يقتدى الغير به ، فذلك الذي لم يمت

• قد مات قوم وهم في الناس أحياء •

١٥ - فصل - رأيت من أعظم حيل الشيطان ومكره : أن يخبط أرباب الأموال بالآمال ، والتشاغل بالذات القاطعة عن الآخرة وأعمالها ، فإذا أهلهم بالمال تحريضا على جمعه ، وحثا على تحصيله ، أمرهم بحراسته بخلا به ، فذلك من متين حيله ، وقوى مكره . ثم دفن في هذا الأمر من دقائق الحيل الخفية ، أن خوف من جمعه المؤمنين ، فنفر طالب الآخرة منه ، وبادر التائب ، يخرج مافي يده ولا يزال الشيطان ، يحرضه على الزهد ، ويأمره بالترك ، ويخوفه من طرقات الكسب ، اظهاراً لنصحه وحفظ دينه . وفي خفايا ذلك عجائب من مكره ، وربما تكلم الشيطان على لسان بعض المشايخ الذين يقتدى بهم التائب ، فيقول له : اخرج من مالك وادخل في زمرة الزهاد ومتى كان لك غداء أو عشاء ، فليست من أهل الزهد ، ولا تنال مراتب العزم ، وربما كرر عليه الأحاديث البعيدة عن الصحة والواردة على سبب ولعنى ، فإذا أخرج مافي يده . وتمطل عن مكاسبه ، عاد يعلق طمعه بصلة الإخوان . أو يحسن عنده صحبة السلطان ، لأنه لا يقوى على طريق الزهد والترك إلا أياماً ، ثم يعود الطبع فيقاضى مطلوباته ، فيقع في أقبح مما فر منه ، ويبذل أول السلع في التحصيل دينه وعرضه ، ويصير

متمند لابه، ويقف في مقام اليد السفلى . ولو أنه نظر في سير الرجال ونبلاهم وتأمل صحاح الاحاديث، عن رؤسائهم، اعلم ان الخليل عليه الصلاة والسلام كان كثير المال، حتى ضاقت بادتة بمواشيه، وكذلك لوط عليه الصلاة والسلام، وكثير من الانبياء عليهم الصلاة والسلام. والجم الغفير من الصحابة. وانما صبروا عند العدم، ولم يمتنعوا من كسب ما يصلحهم، ولا من تناول المباح عند الوجود. وكان أبو بكر رضى الله عنه: يخرج للتجارة والرسول صلى الله عليه وسلم حى. وكان اكثرهم: يخرج فاضل ما يأخذ من بيت المال، ويسلم من ذل الحاجة الى الاخوان. وقد كان ابن عمر: لا يرد شيئا، ولا يسأل. وانى تأملت اكثر أهل الدين والعلم على هذه الحال، فوجدت العلم شغلهم عن المكاسب فى بداياتهم، فلما احتاجوا الى نفوسهم ذلوا، وهم أحق بالعرز، وقد كانوا قديما يكفيهم من بيت المال فضلات الاخوان، فلما عدمت فى هذا الاوان، لم يقدر متدين على شىء الا يبذل شىء من دينه، وليته قدّر فرما تلف الدين ولم يحصل له شىء. فالواجب على العاقل ان يحفظ مامعه، وان يجتهد فى الكسب ليربح مداراة ظالم، أو مداهنة جاهل، ولا يلتفت الى ترهات المتصوفة، الذين يدعون فى الفقر ما يدعون. فذا الفقر الا مرض العجزة، وللصابر على الفقر ثواب الصابر على المرض. اللهم الا ان يكون جباننا عن التصرف، مقتنعا بالكفاف، فليس ذلك من مراتب الابطال، بل هو من مقامات الجبناء الزهاد، واما المكاسب ليكون المعطى لا المعطى، والمتصدق لا المتصدق عليه، فهى من مراتب الشجعان الفضلاء. ومن تأمل هذا علم شرف الغنى ومخاطرة الفقر.

١٦ - فصل - تأملت احوال الفضلاء، فوجدتهم فى الاغلب

قد بنحسو من حظوظ الدنيا ، ورأيت الدنيا - غالبا - في أيدي أهل النقائص ، فنظرت في الفضلاء ، فاذا هم يتأسفون على ما فاتهم مما ناله أولوا النقص ، وربما تقطع بعضهم أسفا على ذلك . فخاطبت بعض المتأسفين فقلت له : ويحك ندبر أمرك ، فانت غالط من وجوه أحدها : انه ان كانت لك همة في طلب الدنيا ، فاجتهد في طلبها تريح التأسف على فوتها ، فان قومك متأسفا على ما ناله غيرك ، مع قصور اجتهادك غاية العجز ، والثاني : ان الدنيا انما تراد لتعمر لا لتعمر ، وهذا هو الذي يدلك عليه علمك ويبلغه فهمك ، وما يناله أهل النقص من فضولها يؤذى ابدانهم واديانهم ، فاذا عرفت ذلك ثم تأسفت على فقد ما فقدته أضلح لك ، كان تأسفك عقوبة لتأسفك على ما تعلم المصلحة في بعده ، فاقنع بذلك عذابا جلا ، أن سلمت من العذاب الآجل ، والثالث : انك قد علمت بنحس حظ الآدمي في الجملة ، من مطاعم الدنيا ولذاتها بالاضافة الى الحيوان البهيم ، لانه " ينال ذلك اكثر مقدارا مع أمن ، وانت تناله مع خوف وقلة مقدار ، فاذا ضوعف حظك من ذلك لجنسك كان لاحقا بالحيوان البهيم من جهة أنه يشغله ذلك عن تحصيل فضائل ، وتخفيف المؤن بحيث صاحبه على نيل مراتب ، فاذا آثرت مع قلة الفضول الفضول ، عدت على ما علمت بالازراء فشنت علمك ودلت على اختلاط رأيك

١٧ - فصل - تأملت أقدام العلماء بالعقاب على شهوات النفس

المنهى عنها ، فرأيتها مرتبة تراحم الكفر لولا تلوح معنى : وهو أن الناس عند واقعة المحذور ينقسمون ، فمنهم جاهل بالمحذور انه محذور ، فهذا نوع عذر ، ومنهم من يظن المحذور مكروها ، لا محرما فهذا قريب من

الأول، وربما دخل في هذا القسم آدم صلى الله عليه وسلم، ومنهم من يتأول فيغلط، كما يقال ان آدم عليه الصلاة والسلام . نهى عن شجرة بعينها ، فاكل من جنسها لا من عينها ، ومنهم من يعلم التحريم ، غير ان غلبات الشهوة أنسته تذكر ذاك ، فشغله ما رأى عما يعلم ، ولهذا لا يذكر السارق القطع بل . يغيب بكليته في نيل الحظ ، ولا يذكر راكب الفاحشة الفضيحة ولا الحد ، لأن ما يرى يذهله عما يعلم . ومنهم من يعلم الخطر ويذكره ، غير أن الأخذ بالحزم أولى بالعاقل ، كيف وقد علم أن هذا الملك الحكيم قطع اليد في ربع دينار ، وهدم بناء الجسم المحكم بالرجم بالحجارة ، لالتذاذ ساعة . وخسف . ومسح . واغرق .

١٨ - فصل - من تأمل افعال الباري سبحانه ، رآها على قانون العدل ، وشاهد الجزاء مرصدا للمجازاة ، ولو بعد حين . فلا ينبغي ان يغتر مسامح . فالجزاء قديماً آخر . ومن أقبح الذنوب التي قد أعد لها الجزاء العظيم الاصرار على الذنب ، ثم يصانع صاحبه باستغفار وصلاة وتعبد ، وعنده ان المصانة تنفع . وأعظم الخلق اغتراراً من أتى ما يكرهه الله . وطلب منه ما يحبه هو ، كما روى في الحديث . والعاجز من اتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأماني . ومما ينبغي للعاقل أن يترصده ، وقوع الجزاء ، فان ابن سيرين قال : غيرت رجلاً فقلت : يا مفلس ، فأفلس بعد أربعين سنة . وقال ابن الجلاب : رأني شيخ لي وأنا انظر الى أمره ، فقال : ما هذا لتجدن غيبها ، فنسيت القرآن بعد أربعين سنة . وبالضد من هذا كل من عمل خيراً أو صمحت نية ، فلينتظر جزاءها الحسن ، وان امتدت المدة . قال الله عز وجل : « انه من يتق ويصبر فان الله لا يضيع أجر المحسنين » وقال عليه الصلاة

والسلام : من غصّ بصره عن محاسن امرأة اثابه الله ايمانا ، يجد حلاوته في قلبه . فليعلم العاقل أن ميزان العدل لا يحابي .

١٩ - فصل - تأملت أحوال الصوفية والزهاد، فوجدت أكثرها منحرفا عن الشريعة ، بين جهل بالشرع ، وابتداع بالرأى ، يستدلون بآيات لا يفهمون معناها ، وبأحاديث لها أسباب ، وجمهورها لا يثبت . فن ذلك ، أنهم سمعوا في القرآن العزيز : « وما الحياة الدنيا الا متاع الزور ، انما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة » ثم سمعوا في الحديث : « الدنيا أهون على الله من شاة ميتة على أهلها ، فبالنوا في هجرها من غير بحث عن حقيقتها ، وذلك أنه ما لم يعرف حقيقة الشيء فلا يجوز أن يمدح ولا أن يذم . فاذا بحثنا عن الدنيا رأينا هذه الأرض البسيطة التي جعلت قرارا للخلق ، يخرج منها أقواتهم ، ويدفن فيها أمواتهم . ومثل هذا لا يذم لموضع المصلحة فيه ورأينا ما عليها من ماء ، وزرع ، وحيوان ، كله لمصالح الآدمي ، وفيه حفظ لسبب بقاءه ، ورأينا بقاء الآدمي سببا لمعرفة ربه ، وطاعته اياه وخدمته ، وما كان سببا لبقاء العارف العابد يمدح ولا يذم . فبان لنا أن الذم انما هو لأفعال الجاهل ، أو العاصي في الدنيا ، فانه اذا اقتنى المال المباح ، وأدى زكاته ، لم يلم ؛ فقد علم ما خلف الزير ، وابن عوف وغيرهما ، وبلغت صدقة علي - رضي الله عنه - اربعين الفا . وخلف ابن مسعود : تسعين الفا ، وكان الليث بن سعد : يشتغل كل سنة عشرين الفا وكان سفيان : يتجر بمال ، وكان ابن مهدي . يشتغل كل سنة الف دينار . وان أكثر من النكاح والسراري كان ممدوحا لا ملوما ، فقد كان للنبي صلى الله عليه وسلم زوجات ، وسراري . وجمهور الصحابة ، كانوا على الاكثار من ذلك وكان

لعلي بن أبي طالب - رضى الله عنه - اربع حرائر ، وسبع عشرة امة ،
وتزوج ولده الحسن نحواً من اربعمائة . فان طالب التزوج الاولاد ، فهو
الغاية فى التعبد ، وان أراد التلذذ فباح ، يندرج فيه من التعبد ما لا يحصى ،
من اعفاف نفسه والمرأة ، الى غير ذلك . وقد أنفق موسى - عليه
السلام - من عمره الشريف عشر سنين فى مهر بنت شعيب ، فلولا أن
النكاح من أفضل الاشياء ، لما ذهب كثير من زمان الانبياء فيه وقد قال
ابن عباس رضى الله عنهما : خيار هذه الامة أكثرها نساء ، وكانت بطاً
جارية له وينزل فى اخرى . وقالت سرية الربيع بن خيثم : كان الربيع يعزل .
وأما المطعم فالمراد منه تقوية هذا البدن لخدمة الله عز وجل ، وحق على ذى
الناقة أن يكرمها لتحمله ، وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم : يأكل ما وجد ،
فان وجد اللحم أكله ، ويأكل لحم الدجاج ، وأحب الاشياء اليه الحلوى
والعسل . وما نقل عنه انه امتنع من مباح . وجىء على رضى الله عنه
بفالزوج فاكل منه ، وقال ما هذا ؟ قالوا : يوم النوروز ، فقال : نورزونا كل
يوم وانما يكره الا كل فوق الشبع ، واللبس على وجه الاختيال والبطر .
وقد اقتنع اقوام بالدون من ذلك ، لان الحلال الصافى لا يكاد يمكن فيه تحصيل
المراد ، والا فقد لبس النبي صلى الله عليه وسلم : حلة اشترى له - بسبع
وعشرين بعيراً - وكان لتميم الدارى : حلة اشترى بألف درهم ، يعلى فيها
بالليل . فجاء اقوام ، فاظهروا التزهّد ، وابتسكروا طريقة زينها لهم الهوى ، ثم
تطلبوا لها الدليل ، وانما ينبغى للانسان أن يتبع الدليل لا أن يتبع طريقاً
ويتطلب دليلها ، ثم انقسموا : فمنهم متصنع فى الظاهر ، ليث الشرى فى
الباطن ، يتناول فى خلواته الشهوات ، وينعكف على اللذات . ويرى الناس

بزيه أنه متصوف متزهّد، وما تزهد الا القميص . واذا نظر الى أحواله
فَعنده كبر فرعون . ومنهم سليم الباطن ، الا أنه بالشرع جاهل . ومنهم
من تصدر وصنف فافتدى به الجاهلون في هذه الطريقة ، وكانوا كعمى
اتبعوا أعمى ، ولو أنهم تلمحوا للأمر الاول ، الذى كان عليه الرسول صلى
الله عليه وسلم والصحابة رضى الله عنهم ، لما زاغوا . ولقد كان جماعة من
المحققين ، لا يبالون بمعظم في النفوس اذا حاد عن الشريعة ، بل يوسعونه
لوما . فنقل عن أحمد أنه قال له المروزي : ما تقول في النكاح ؟ فقال سنة النبي
صلى الله عليه وسلم ، فقال فقد قال ابراهيم . قال : فصاح بي وقال جئتنا بينيات
الطريق : وقيل له أن سر يا السقطى قال : لما خلق الله تعالى الحروف ،
وقف الالف وسجدت الباء ، فقال . نفروا الناس عنه . واعلم أن المحقق
لا يهوله اسم معظم ، كما قال رجل لعل بن أبي طالب رضى الله عنه : أتظن
انا نظان أن طلحة والزبير ، كانا على الباطل ؟ فقال له : ان الحق لا يعرف
بالرجال ، اعرف الحق تعرف أهله . ولعمري أنه قد وقر في النفوس تعظيم
اقوام ، فاذا نقل عنهم شيء فسمعه جاهل بالشرع ، قبله لتعظيمهم في نفسه
كما ينقل عن أبي يزيد رضى الله عنه ، انه قال : تراعت على نفسى خلفت
لا أشرب الماء سنة وهذا اذا صح عنه ، كان خطأ قبيحا ، وزلة فاحشة ،
لأن الماء ينفذ الأغذية الى البدن ، ولا يقوم مقامه شيء ، فاذا لم يشرب
فقد سعى في اذى بدنه ، وقد كان يستعذب الماء لرسول الله صلى الله عليه
وسلم ، افترى هذا فعل من يعلم : أن نفسه ليست له ، وأنه لا يجوز التصرف
فيها الا عن اذن مالِكها وكذلك ينقلون عن بعض الصوفية ، أنه قال :
سرت الى مكة على طريق التوكل حافيا ، فكانت الشوكة تدخل في رجلى

فاحكها بالارض ولا أرفعها، وكان عليّ مسح، فكانت غيبي إذا آلمتني
أدلكها بالمسح فذهبت إحدى عيني. وأمثال هذا كثير وربما حملها القصاص
على الكرامات، وعظموها عند العوام، فيغابل لهم أن فاعل هذا أعلى
مرتبة من الشافعي، وأحمد. ولعمري أن هذا من أعظم الذنوب وأقبح
العيوب، لأن الله تعالى قال: «ولا تقتلوا أنفسكم» وقال النبي صلى الله عليه
وسلم: إن لنفسك عليك حقا: وقد طلب أبو بكر رضي الله عنه، في
طريق الهجرة للنبي صلى الله عليه وسلم، ظلا حتى رأى صخرة ففرش له
في ظلها. وقد نقل عن قدماء هذه الأمة بدايات هذا التفريط، وكان سببا
من وجهين. أحدهما الجهل بالعلم، والثاني: قرب المهد بالرهبانية وقد كان
الحسن يعيب فرقدا السنجي، ومالك بن دينار، في زهدهما، فرثي عنده
طعام فيه لحم، فقال: لا رغبي مالك، ولا صحننا فرقد. ورأى على فرقد
كساء، فقال: يا فرقد ان أكثر أهل النار أصحاب الأكسية. وكم قد زوق
قاص مجلسه بذكر أقوام خرجوا إلى السياحة بلا زاد ولا ماء، وهو
لا يعلم أن هذا من أقبح الأفعال؛ وإن الله تعالى لا يجرب عليه، فربما
سمعه جاهل من التائبين، فخرج فمات في الطريق، فصار للقاتل نصيب
من ثمنه. وكم يروون عن ذي النون: أنه لقي امرأة في السياحة فكلما
وكلمته، وينسون الأحاديث الصحاح: لا يحل لامرأة أن تسافر يوما وليلة
إلا بمحرم؛ وكم ينقلون: أن أقواما مشوا على الماء وقد قال إبراهيم الخليل:
لا يصح أن أحدا مشى على الماء قط؛ فإذا سمعوا هذا قالوا: أنكروا
كرامات الأولياء الصالحين؛ فنقول: لسنا من المنكرين لها، بل نتبع
مأصحا، والصالحون هم الذين يتبعون الشرع، ولا يتعبدون بأرائهم. وفي

الحديث: ان بنى اسرائيل شددوا، فشدد الله عليهم. ولم يبحثون على الفقر حتى حملوا خلقا على اخراج أموالهم، ثم آل بهم الأمر الى التسخط عند الحاجة، واما الى التعرض بسؤال الناس. ولم تأذى مسلم بأمرهم الناس بالتقلل؛ وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: ثلث طعام، وثلث شراب، وثلث نفس، فما قنعوا حتى امروا بالمبالغة في التقلل. فحكى ابو طالب المكي في قوت القلوب: ان فيهم من كان يزن قوته بكُرَّةٍ^(١) رطبة، ففي كل ليلة يذهب من رطوبتها قليل، وكنت انا بمن اقتدى بقوله في الصبا، فضايق المعنى وأوجب ذلك، مرض سنين. أفترى هذا شيء يقتضيه الحكمة، أو نذب اليه الشرع؟ وانما مطية الآدمي قواه، فاذا سعى في تقليلها ضعف عن العبادة. فانالو دخلنا ديار الروم، فوجدنا أثمان الخمر واجر الفجور، كان لنا حلالا بوصف الغنيمة. أفترى حلالا على معنى أن الحبة من الذهب لم تنتقل مذ خرجت من المعدن، على وجه لا يجوز: فهذا شيء لم ينظر فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم. او ليس قد سمعت أن الصدقة عليه حرام، فلما تصدق على بُرَيْرة بلحمت فاهدته، جازله اكل تلك العين لتغير الوصف. وقد قال احمد بن حنبل: اكره التقلل من الطعام، فان اقواما فعلوه فمجزوا عن الفرائض، وهذا صحيح. فان التقلل لا يزال يتقلل، الى أن يعجز عن النوافل ثم الفرائض، ثم يعجز عن مباشرة اهله واعفاهم، وعن بذل القوى في الكسب لهم، وعن فعل خير قد كان يفعله، ولا يهوانك ما تسمعه من الاحاديث، التي تحث على الجوع، فان المراد بها إما الحث على الصوم، واما النهي عن مقاومة الشبع. فاما تنقيص اللطيم على الدوام،

(١) في الاحمدية: بكربة رطبة. وهي كربة النخل

فؤثر في القوى ، فلا يجوز . ثم في هؤلاء المذمومين من يرى هجر اللحم ،
والنبي صلى الله عليه وسلم كان يود أن يأكله كل يوم ، واسمع مني بلا
محابة ، لا نحتجن على باسماء الرجال ، فتقول قد قال بشر وقال ابراهيم
ابن ادم ، وان من احتج بالرسول صلى الله عليه وسلم واصحابه رضوان الله
عليهم أقوى حجة ، على أن لافعال أولئك وجوها نحملها عليهم بحسن
الظن . ولقد ذكرت بعض مشايخنا ما يروى عن جماعة من السادات ،
أنهم دفنوا كتبهم ، فقلت له : ما وجه هذا ؟ فقال : أحسن ما نقول أن
نسكت ، يشير الى ان هذا جهل من فاعله ، وتأولت انالهم : فقلت ، لعل
ما دفنوا من كتبهم ، فيها شيء من الرأى ، فما رأوا أن يعمل الناس به ،
ولقد روينا في الحديث ، عن احمد بن ابى الحوارى : أنه اخذ كتبه فرمى
بها في البحر : وقال ، نعم الدليل كنت : ولا حاجة لنا الى الدليل ، بعد
الوصول الى الدلول . وهذا اذا أحسنا به الظن ، قلنا كان فيها من كلامهم
ما لا يرتضيه ، فاما اذا كانت علومها صحيحة ، كان هذا من أخش الاضاعة
وانا وان تأولت لهم هذا ، فهو تأويل صحيح في حق العلماء منهم ، لأننا قد
روينا عن سفيان الثوري : أنه قد أوصى بدفن كتبه ، وكان ندم على أشياء
كتبها ، عن قوم ، وقال : حملني شهوة الحديث — وهذا لانه كان يكتب
عن الضعفاء والمتروكين — فكانه لما عسر عليه التمييز ، اوصى بدفن الكل .
وكذلك من كان له رأى من كلامه ثم رجع عنه ، جاز أن يدفن الكتب
التي فيها ذلك ، فهذا وجه التأويل للعلماء . فاما المتزهدون ، الذين رأوا
صورة فمل العلماء ، ودفنوا كتبها صالحة امثلا تشغلهم عن التعبد ، فانه جهل
منهم ، لأنهم شرعوا في اطفاء مصباح يضيء لهم ، مع الاقدام على تضييع

مال لا يحل . ومن جملة من عمل بواقعة دفن كتب العلم ، يوسف بن أسباط
ثم لم يصبر عن التحديث خلط فعد في الضعفاء . أنبانا عبد الوهاب بن
البارك ، قال أخبرنا محمد بن المظفر الشامي ، قال أخبرنا أحمد بن محمد
العتيقي ، قال حدثنا يوسف بن أحمد ، قال حدثنا محمد بن عمرو العقيلي ،
قال حدثنا محمد بن عيسى ، قال أخبرنا أحمد بن خالد الخلال . قال : سمعت
شعيب بن حرب يقول قلت ليوسف بن أسباط كيف صنعت بكتبك؟ قال :
جئت الى الجزيرة ، فلما نضب الماء دفنتها حتى جاء الماء عليها ، فذهبت . قلت :
ما حملك على ذلك؟ قال : أردت أن يكون الهم هما واحدا . قال العقيلي : وحدثني
آدم ، قال سمعت البخاري قال قال صدقة : دفن يوسف بن أسباط كتبه ،
وكان بعد يغلب عليه ، فلا يحى . كما ينبغي ، وقال المؤلف قلت : الظاهر ان هذه
كتب علم ينفع ، ولكن قلة العلم أوجبت هذا التفريط ، الذي قصد به
الخير ، وهو شر . فلو كانت كتبه من جنس كتب الثوري ، فإن فيها . عن ضعفاء
ولم يصح له التمييز قرب الحال . إنما تعامله بجمع الهم ، هو الدليل على أنها
ليست كذلك ، فانظر الى قلة العلم ، ماذا تؤثر مع أهل الخير . ولقد بلغنا
في الحديث عن بعض من نعظمه ، ونزوره ، انه كان على شاطئ دجلة ، فبال
ثم تيمم ، فقليل له الماء قريب منك ، فقال خفت ان لا أبلغه ، وهذا وان
كان يدل على قصر الامل ، الا ان الفقهاء اذا سمعوا مثل هذا الحديث تلاعبوا
به ، من جهة ان التيمم ، إنما يصح عند عدم الماء ، فاذا كان الماء موجودا
كان تحريك اليدين ، بالتيمم عبثا . وليس من ضرورة وجود الماء ان
يكون الى جانب المحدث ، بل لو كان على أذرع كثيرة ، كان موجودا ،
فلا فعل للتيمم ، ولا أثر حيثئذ . ومن تأمل هذه الأشياء ، علم ان فقيها

واحدًا ، وإن قل اتباعه ، وخَفَّتْ اذاماتُ أشيائه ، أفضل من ألوف تتمسح
العوام بهم تبركا ، ويشيع جنازهم ما لا يحصى . وهل الناس إلا صاحب
أثر تتبعه ، أو فقيه يفهم مراد الشرع ويفتي به : نعوذ بالله من الجهل ، وتعظيم
الاسلاف تقليداً لهم بغير دليل ! فإن من ورد المشرب الاول رأى سائر
المشارب كدرة ، والمحنة العظمى مدائح العوام . فكم غرت كما قال على رضى
الله عنه : ما أبقي خفق النعال وراء الحقي ، من عقولهم شيئاً . ولقد رأينا
وسمنا من العوام ، أنهم يمدحون الشخص ، فيقولون : لا ينام الليل ، ولا
يفطر النهار ، ولا يعرف زوجة ، ولا يذوق من شهوات الدنيا شيئاً ، قد
نحل جسمه ، ودق عظمه ، حتى أنه يصلى قاعداً ، فهو خير من العلماء الذين
يأكلون ويتمتعون . ذلك مبالغهم من العلم ، ولو علموا أن الدنيا لو اجتمعت
في لقمة فتناولها عالم يفتى عن الله ، ويخير بشريعته ، كانت فتوى واحدة
منه يرشد بها إلى الله تعالى خيراً وأفضل من عبادة ذلك العابد باقى عمره ! وقد
قال ابن عباس رضى الله عنهما : فقيه واحد ، أشد على إبليس من ألف
عابد . ومن سمع هذا الكلام فلا يظن أنى أمدح من لا يعمل بعلمه ، وإنما
أمدح العاملين بالعلم ، وهو أعلم بمصالح أنفسهم ، فقد كان فيهم من يصلح
على خشن العيش ، كأحمد بن حنبل ، وكان فيهم ، من يستعمل رقيق
العيش ، كسفيان الثوري ، مع ورعه ، ومالك مع تدينه ، والشافعي مع قوة
فقهه ، ولا ينبغي أن يطالب الإنسان بما يقوى عليه غيره ، فيضعف هو
عنه ، فإن الإنسان أعرف بصلاح نفسه . وقد قالت رابعة : إن كان
صلاح قلبك في الفالوذج فكله ، ولا تكونن أيها السامع ممن يرى صور
الزهد . فرب متنعم لا يريد التنعم ، وإنما يقصد المصلحة . وليس كل بدن

يقوى على الخشونة خصوصاً من قد لاقى الكدَّ وأجهدته الفكر ، أو مضه الفقر ، فانه ان لم يرفق بنفسه ، ترك واجباً عليه من الرفق ، فهذه جملة لو شرحتها بذكر الاخبار والمنقولات ، لطالت غير انى سطرتها على عجل حين جالت في خاطرى ، والله ولى النفع برحمته .

٢٠ - فصل - قد أشكل على الناس أمر النفس وما هيئتها ، مع اجماعهم على وجودها ، ولا يضر الجهل بذاتها مع اثباتها ، ثم أشكل عليهم مصيرها بعد الموت ، ومذهب أهل الحق ان لها وجوداً بدموتها ، وانها تنعم وتعذب ، قال احمد بن حنبل : أرواح المؤمنين فى الجنة ، وأرواح الكفار فى النار ، وقد جاء فى أحاديث الشهداء : انها فى حواصل طير خضر تعلق من شجر الجنة . وقد أخذ بعض الجهلة بظواهر أحاديث النعيم ، فقال : ان الموتى يأكلون فى القبور ، وينكحون ، والصواب من ذلك ، ان النفس تخرج بعد الموت الى نعيم أو عذاب ، وانها تجدد ذلك الى يوم القيامة ، فاذا كانت القيامة ، أعيدت الى الجسد ليتكامل لها التمتع بالوسائل وطوقه - فى حواصل طير خضر - دليل على ان النفوس لا تنال لذة الابوابطة ، إلا ان تلك اللذة لذة مطعم أو مشرب ، فأما لذات المعارف والعلوم فيجوز ان تنالها بذاتها ، مع عدم الوسائل . والمقصود من هذا المذکور انى رأيت بعض الاتزعاج من الموت ، وملاحظة النفس بعين العدم عنده ، فقلت لها : ان كنت مصدقة للشريعة فقد أخبرت بما تعرفين ، ولا وجه للانكار ، وان كان هناك ريب فى أخبار الشريعة ، صار الكلام فى بيان صحة الشريعة . فقالت : لا ريب عندى ، قلت : فاجتهدى فى تصحيح الايمان ، وتحقيق التقوى ، وابشرى حينئذ بالراحة من ساعة الموت ، فانى لا أخاف عليك

الا من التقصير في العمل ، واعلمى ان تفاوت النعيم بمقدار درجات الفضائل
فارتفعى باجنحة الجلد الى أعلا أبراجها، واحذرى من قانص هوى، أو شرك
غرة والله ، الموفق .

٢١- فصل - قلت يوماً في مجلسي : لو ان الجبال حملت ما حملت

لعجزت ، فلما عدت الى منزلى ، قالت لى النفس : كيف قلت هذا ، وربما
أوهم الناس ان بك بلاء وأنت في عافية في نفسك وأهلك ؟ وهل الذى
حملت الا التكليف الذى يحمله الخلق كلهم ؟ فاجبه هذه الشكوى . فأجبتها
انى لما عجزت عما حملت ، قلت هذه الكلمة لاعلى سبيل الشكوى ، ولكن
للاسترواح ، وقد قال كثير من الصحابة والتابعين قبلى : ليتنا لم نخلق ؛
وما ذاك الا لانقال عجزوا عنها ، ثم من ظن ان التكليف سهلة فما عرفها
أتوى يظن الظان ان التكليف غسل الاعضاء برطل من الماء ، أو الوقوف في
محراب ، لاداء ركعتين ؟ هيهات ؛ هذا أسهل التكليف ، وان التكليف هو
الذى عجزت عنه الجبال ، ومن جملته : أننى اذا رأيت القدر يجري بما لا يفهمه
العقل ، ألزمت العقل الاذعان المقدر ، فكان من أصعب التكليف ،
وخصوصاً فيما لا يعلم العقل معناه كايلام الاطفال ، وذبح الحيوان ، مع
الاعتقاد بأن المقدر لذلك والآمر به أرحم الراحمين . فهذا مما يتعجز العقل
فيه ، فيكون تكليف التسليم ، وترك الاعتراض . فكم بين تكليف البدن
وتكليف العقل ؛ ولو شرحت هذا لطال غير انى أعتذر عما قلته ، فاقول
عن نفسى ، وما يازمنى حال غيرى : أننى رجل حبيب الى العلم من زمان
الطفولة فتشاغلت به ، ثم لم يحبب الى فن واحد منه ، بل فنونه ، ثم
لا تقتصر همتى في فن على بعضه ، بل أروم استقصاءه ، والزمان لا يوسع ،

والعمر أضيق، والشوق يقوى، والعجز يظهر^(١) فيبقى وقوف بعض المطلوبات حشرات، ثم ان العلم دلى على معرفة المعبود، وحثني على خدمته، ثم صاحبت بي الادلة عليه اليه، فوقفت بين يديه، فرأيت في نعمته وعرفته بصفاته، وعانيت بصيرتي من الطافه مادعاني الى الهيمان في محبته، وحر كني الى التخلي لخدمته، وصار يملكني أمر كالوجد كلما ذكرته، فعادت نفسي في خدمتي له، أحلى عندي من كل حلاوة، فكلمات الى الانقطاع عن الشواغل الى الخلوة، صاح بي العلم أين تمضي؟ أتعرض عني وأنا سبب معرفتك؟ فاقول له: انما كنت دليلا وبعد الوصول يستغنى عن الدليل، قال: هيهات! كلما زدت، زادت معرفتك بمحبتك، وفهمت كيف القرب منه، ودليل هذا، انك تعلم غداً، انك اليوم في نقصان، أو ماسمعه يقول لنبيه صلى الله عليه وسلم: «وقل رب زدني علماً». ثم الست تبغى القرب منه فاشتغل، بدلالة عبادته عليه، فهي حالات الانبياء عليهم الصلاة والسلام. أما علمت انهم آثروا تعليم الخلق، على خلوات التعبد، لعلهم ان ذلك أثر عند حبيبتهم؟ أما قال الرسول صلى الله عليه وسلم، لعل رضى الله عنه: لأن يهدي الله بك رجلاً، خير لك من حمر النعم؟ فلما فهمت صدق هذه المقالة، تهوتت على تلك الحالة، وكلما تشاغل بجمع الناس، تفرق همي، واذا وجدت مرادى من نفعمهم، ضمت أنا، فأبقى في حيز التحير متردداً، لا أدري على أى القدمين أعتمد، فاذا وقفت متحيراً صاح العلم، قم اكسب العيال، وادأب في تحصيل ولد يذكرك الله، فاذا شرعت في ذلك قاص ضرع الدنيا وقت الحلب، ورأيت باب المعاش مسدوداً في وجهي، لأن صناعة

العلم شغلتنى عن تعلم صناعة ، فاذا التفت الى ابناء الدنيا ، رأيتهم لا يبيعون شيئا من سلمها الا بدين المشتري أوليت من نافقهم أو رايأهم ناك من ديناهم . بل ربما ذهب دينه ولم يحصل مراده ، فان قال الضجر اهرب . قال : الشرع كفى بالمرء إثما ان يضيع من يقوت . وان قال العزم انفرد . قال : فكيف بمن تعول . فغاية الامر انى اشرع فى التقلل من الدنيا ، وقد ربيت فى نعيمها ، وغذيت بلبانها ، ولطف مزاجى فوق لطف وضعه بالعادة . فاذا غيرت لباسى وخشنت مطعمى ، لأن القوت لا يحتمل الانبساط نفر الطبع لفراق العادة ، فخل للمرض فقطع عن واجبات ، وأوقع فى آفات . ومعلوم ان اين اللقمة بعد التحصيل من الوجوه المستطابة وتخشينها لمن لم يألف سعى فى تلف النفس . فأقول : كيف اصنع وما الذى افعل ؟ وأخلو ؟ بنفسى فى خلواتى وازيد من البكاء على نقص حالأتى . واقول : اصف حال العلماء : وجسمى يضعف عن اعادة العلم ، وحال الزهاد ، وبدنى لا يقوى على الزهد ، وحال المحبين ، ومخالطة الخلق تشتت همى ، وتنقش صور المحبوبات من الهوى فى نفسى . فتصدأ مرآة قلبى وشجرة المحبة تحتاج الى تربية فى تربة طيبة ، لتسقى ماء الخلوة . من دولاب الفكرة ، وان آثرت التكسب لم اطق . وان تعرضت لأبناء الدنيا مع ان طبعى الأنفة من الذل ، وتدبى بمنعنى ، فلا يبقى للميل مع هذين الجاذبين أثر . ومخالطة الخلق تؤذى النفس مع الانفاس ، ولا تحقيق التوبة اقدر عليه ، ولا نيل مرتبة من علم أو عمل أو محبة يصح لى . فاذا رأيتنى كما قال الفائل :

الثقاه فى الماء مكتوفا وقال له اياك اياك ان تبتل بالماء

تجبرت في أمرى ، وبكيت على عمرى ، وأنادى في فلوات خلواتى بما سمعته
من بعض العوام وكأنه وصف حالى :

واحسرتنى كم ادارى فيك تعثرى مثل الأسير بلا حيل ولا سبرى
ما حيلتى فى الهوى قد ضاع تديرى لما شكات جناحى قلت لى طبرى

٢٢ - فصل - تأملت أمر الدنيا والآخرة فوجدت حوادث

الدنيا حسية طبيعية ، وحوادث الآخرة إيمانية يقينية . والحسيات أقوى
جذبا لمن لم يقوى علمه ويقينه . والحوادث انما تبقى بكثرة أسبابها
فخالطة الناس ، ورؤية المستحسنات ، والتعرض بالملذوذات ، يقوى
حوادث الحس والعزلة والفكر . والنظر فى العلم يقوى حوادث الآخرة .
وبين هذا بان الانسان اذا خرج يمشى فى الاسواق ويبصر زينة الدنيا ثم
دخل الى المقابر فتفكر ورق قلبه فانه يحس بين الحالتين فرقا بينا ، وسبب
ذلك التعرض بأسباب الحوادث ، فعليك بالعزلة والذكر والنظر فى
العلم ، فان العزلة حمية والفكر والعلم أدوية . والدواء مع التخليط لا ينفع ،
وقد تمكنت منك اخلاط المخالطة للخلق ، والتخليط فى الافعال . فإيس لك
دواء الا ما وصفت لك ، فأما اذا خالطت الخلق وتعرضت للشهوات ،
ثم رمت صلاح القلب رمت الممتنع .

٢٣ - فصل - تأملت حرص النفس على ما منعت منه ، فرأيت

حرصها يزيد على قدر قوة النعم ، ورأيت فى السرب الاول أن آدم عليه
السلام لما نهى عن الشجرة حرص عليها مع كثرة الاشجار المغنية عنها وفى
الامثال : المرء حريص على ما منع ، وتوافق الى ما لم ينل . ويقال : لو أمر
الناس بالجوع لصبروا ، ولو نهوا عن تفطيت البعر لرغبوا فيه ، وقالوا

مانهنا عنه الا لشيء . وقد قيل :

* أحب شيء الى الانسان ما منعا *

فلما بحثت عن سبب ذلك وجدت سببين ، أحدهما : ان النفس لا تصبر على الحصر فانه يكفى حصرها في البدن صورة : فاذا حصرت في المعنى بمنع زاد طيشها ولهذا لو قعد الانسان في بيته شهرا لم يصعب عليه ، ولو قيل له : لا تخرج من بيتك يوما طال عليه . والثاني : انها يشق عليها الدخول تحت حكم ، ولهذا تستلذ الحرام ، ولا تكاد تستطيب المباح . ولذلك يسهل عليها التعبد على ما ترى وتؤثر لا على ما يؤثر .

٢٤ - فصل - ما زالت نفسى تنازعنى بما يوجبه مجلس الوعظ ،

وتوبة التائبين ، ورؤية الزاهدين . الى الزهد والانقطاع عن الخلق والانفراد بالآخرة ، فتأملت ذلك فوجدت عمومهم من الشيطان فان الشيطان يرى انه لا يخلو لى مجلس من خلق لا يحرصون ، يكون ويندبون على ذنوبهم ، ويقوم فى الغالب جماعة يتوبون ويقطعون شعور الصبا . وربما اتفق خمسين ومائة . ولقد تاب عندى فى بعض الايام اكثر من مائة ، وعمومهم صبيان قد نشأوا على اللعب والانهماك فى المعاصى . فكأن الشيطان لبعده غوره فى الشر رآنى اجتذب الى من اجتذب منه ، فأراد ان يشغلنى عن ذلك بما يزخره لىخلو هو بمن اجتذبه من يده ، ولقد حسن الى الانقطاع عن المجالس وقال : لا يخلو من تصنع للخلق . فقلت : اما زخرفة الالفاظ وتزويقها ، واخراج المعنى من مستحسن العبارة ففضيلة لارذيلة : وأما ان أقصد الناس بما لا يجوز فى الشرع فعاذ الله ، ثم رأيت يرينى فى التزهد قطع اسباب . ظاهرها الاباحة من الاكتساب . فقلت : له فان طاب

لى الزهد ، وتمكنت من العزلة ، فنفذ ما يبدى أو احتاج بعض عائلتى ،
ألست اعود القهقرى ؟ فدعى اجمع ما يسد خلتى ويصوننى عن مسئلة
الناس ، فان مد عمرى . كان نعم السبب . والا كان للعائلة . ولا اكون
كراكب أراق ماءه لرؤية سراب ، فلما ندم وقت الفوات لم ينتفع بالندم ،
وانما الصواب توطئة المضجع قبل النوم ، وجمع المال الساد للخلّة قبل
الكبر ، اخذا بالحزم ، وقد قال الرسول صلى الله عليه وسلم : لأن تترك
ورثتك أغنياء خير لك من أن تتركهم عالة يتكففون الناس . وقال : نعم
المال الصالح ، الرجل الصالح . وأما الانقطاع فينبغى ان تكون العزلة عن
الشر لا عن الخير ، والعزلة عن الشر واجبة على كل حال . وأما تعليم الطالبين
وهداية المريدين ، فانه عبادة العالم . وان من تفضيل بعض العلماء إثاره
للتنفل بالصلاة والصوم ، عن تصنيف كتاب ، أو تعليم علم ينفع لأن ذلك
بذر يكثر ريعه ، ويمتد زمان نفعه . وانما تميل النفس الى ما يزخره الشيطان
من ذلك لمعنيين . أحدهما : حب البطالة لأن الانقطاع عندها اسهل .
والثانى : حب المدحة فانها اذا توسمت بالزهد كان ميل العوام اليها أكثر ،
فعليك بالنظر فى السرب الاول ، فكمن مع السرب المقدم . وهم الرسول صلى
الله عليه وسلم واصحابه ، رضى الله تعالى عنهم فهل نقل عن أحد منهم
ما ابتدعه جهلة المتزهدين والمتصوفة ، من الانقطاع عن العلم ؟ والانفراد
عن الخلق ، وهل كان شغل الانبياء الا معانات الخلق ؟ وحتم على الخير
ونهم عن الشر . إلا أن ينقطع من ليس بعالم يقصد الكف عن الشر ،
فذاك فى مرتبة المحتى يخاف شر التخليط . فأما الطبيب العالم بما يتناول
فانه ينتفع بما يناله .

٢٥ - فصل - تأملت المراد من الخلق فاذا هو الذل واعتقاد التقصير والعجز، ومثلت العلماء والزهاد العاملين صنفين، فاقت في صف العلماء مالكا وسفيان وأبا حنيفة والشافعي واحمد، وفي صف العباد مالك بن دينار ورابعة ومعروفا السكرخي وبشر بن الحارث. فكلمنا جد العباد في العبادة وصاح بهم لسان الحال عباداتكم لا يعتمدكم نفعها وإنما يتعدى نفع العلماء وهم ورثة الانبياء، وخلفاء الله في الارض وهم الذين عليهم المعول، ولهم الفضل، اذا أظرفوا وانكسروا وعلموا صدق تلك الحال وجاء مالك بن دينار الى الحسن يتعلم منه ويقول: الحسن استاذنا، واذا رأى العلماء لهم بالعلم فضلا صاح لسان الحال بالعلماء وهل المراد من العلم الا العمل. وقال احمد بن حنبل. وهل يراد بالعلم الا لما وصل اليه معروف: وصح عن سفيان الثوري قال: وددت ان يدي قطعت ولم اكتب الحديث. وقالت ام الدرداء لرجل: هل عملت بماءمت؟ قال: لا. قالت: فلم تستكثر من حجة الله عليك: وقال أبو الدرداء: ويل لمن لم يعلم ولم يعمل مرة: وويل لمن علم ولم يعمل سبعين مرة. وقال الفضيل: يغفر للجاهل سبعون ذنبا. قبل ان يغفر للعالم ذنب واحد، فما يبلغ من الكل قوله تعالى: «أفمن يعلم كمن لا يعلم». وجاء سفيان الى رابعة: فجلس بين يديها ينتفع بكلامها، فدل العلماء العلم على أن المقصود منه العمل به، وانه آلة فانكسروا واعترفوا بالتقصير. فحصل الكل على الاعتراف والذل، فاستخرجت المعرفة منهم حقيقة العبودية باعترافهم، فذلك هو المقصود من التكليف.

٢٦ - فصل - تأملت قوله تعالى «يحبهم ويحبونه». فاذا النفس تأبى، اثبات محبة للخالق توجب قلنا، وقالت محبته طاعته فتدبرت ذلك

فاذا بها قد جهلت ذلك لغلبة الحس وبيان هذا : ان محبة الحس لا تعدى
 الصور الذاتية ، ومحبة العلم والعمل ترى الصور المعنوية فتحبها . فانما ترى
 خلقا يحبون أبا بكر رضى الله عنه ، وخلقاً يحبون علياً ابن أبى طالب
 رضى الله عنه ، وقوماً يتمصبون لآحمد بن حنبل ، وقوماً للاشعري ،
 فيقتتلون ويبذلون النفوس فى ذلك وليسوا بمن رأى صور القوم ، ولا
 صور القوم توجب المحبة . ولكن لما تصورت لهم المعانى فداتهم على كمال
 القوم فى العلوم ، وقع الحب لتلك الصور التى شوهدت بأعين البصائر ،
 فكيف بمن ضيع تلك الصور المعنوية وأبدلها ، وكيف لأحب من وهب
 لى ملذوذات حسى ، وعرفنى ملذوذات علمى ، فان التذاذى بالعلم وادراك
 العلوم أولى من جميع اللذات الحسية ، فهو الذى علمنى وخلق لى ادراكا
 وهدانى الى ما أدركته . ثم انه يتجلى لى فى كل لحظة فى مخلوق جديد
 أراه فيه باتقان ذلك الصنع وحسن ذاك المصنوع . فكل محبوباتى منه
 وعنه وبه ، الحسية والمعنوية ، وتسهيل سبل الادراك به ، والمدركات منه ،
 وألذ من كل لذة عرفانى له ، فلو لا تعليمه ماعرفته ، وكيف لأحب من
 أنا به ، وبقائى منه ، وتديرى بيده ، ورجوعى اليه ، وكل مستحسن محبوب
 هو صنعه وحسنه وزينه وعطف النفوس اليه ، فكذلك الكامل القدرة
 أحسن من المقدور ، والعجيب الصنعة أكمل من المصنوع ، ومعنى الادراك
 احلى عرفانا من المدرك ، ولو اننا رأينا نقشاً عجيباً لاستغرقنا تعظيم النقش
 وتهويل شأنه ، وظريف حكمته عن حب المنقوش ، وهذا مما ترقى اليه
 الافكار الصافية ، اذا خرق نظرها الحسيات ونفذ الى ماورائها ، فحينئذ
 تقع محبة الخالق ضرورة ، وعلى قدر رؤية الصانع فى المصنوع يقع الحب له .

فان قوى أوجب قلقا وشوقا، وان مال بالعارف الى مقام الهيبة أوجبت خوفا، وان انحرف به الى تلمح الكرم أوجب رجاء قويا، « وقد علم كل اناس مشربهم » .

٢٧ - فصل - تأملت حالا عجيبة، وهى ان الله سبحانه وتعالى قد

بنى هذه الاجسام متقنة على قانون الحكمة فدل بذلك المصنوع على كمال قدرته، ولطيف حكمته. ثم عاد فنقضها فتحيرت العقول بعد اذعانها له بالحكمة فى سر ذلك الفعل. فاعلمت أنها ستعادل للمعاد وان هذه البنية لم تخلق الا لتجوز فى مجاز المعرفة، وتتجر فى موسم المعاملة، فسكنت العقول لذلك. ثم رأت أشياء من هذا الجنس أظرف منه، مثل اخترام شاب ما بلغ بعض المقصود بنيانه، وأعجب من ذلك أخذ طفل من اكف أبويه يتملأن. ولا يظهر سر سلبه والله الغنى عن أخذه، وهما أشد الخلق فقرا الى بقاءه. وأظرف منه ابقاء هرم لا يدرى معنى البقاء، ولبس له فيه الا مجرد أذى. ومن هذا الجنس تقدير الرزق على المؤمن الحكيم، وتوسمته على الكافر الاحمق، فى نظائر لهذه المذكورات يتحير العقل فى تعليلها، فيبقى مبهورا. فلم أزل أتمحج جملة التكاليف، فاذا عجزت قوى العقل عن الاطلاع على حكمة ذلك وقد ثبت لها حكمة الفاعل، علمت قصورها عن درك جميع المطلوب فاذهنت مقربة بالمعجز. وبذلك يؤدى مفروض تكليفها، فلو قيل للعقل: قد ثبت عندك حكمة الخالق بما بنى أفيجوز ان ينقدح فى حكمته انه نقض؟ لقال: لا لأنى عرفت بالبرهان انه حكيم، وانا أعجز عن ادراك علل، فاسلم على رغبى مقرا بمعجزى .

٢٨ - فصل - تأملت في فوائد النكاح ومعانيه وموضوعه .
 فرأيت ان الأصل الأكبر في وضعه وجود النسل ، لأن هذا الحيوان لا يزال يتحلل ثم يخلف المتحلل الغذاء ، ثم يتحلل من الاجزاء الاصلية مالا يخلفه شيء . فاذا لم يكن بذ من فوائده ، وكان المراد امتداد أزمان الدنيا جعل النسل خلفا عن الأصل ، ولما كانت صورة النكاح تأبأها النفوس الشريفة من كشف العورة وملافاة مالا يستحسن لنفسه ، جعلت الشهوة تحت ليحصل المقصود ثم رأيت هذا المقصود الاصلى يتبعه شيء آخر ، وهو استفراغ هذا الماء الذي يؤذى دوام احتقانه ، فان المنى ينفصل من الهضم الرابع فهو من اصفى جوهر الغذاء ، وأجوده ، ثم يجتمع . فهو احد الذخائر للنفس فانها تدخر لبقائها وقوتها الدم ، ثم المنى ، ثم تدخر التفل الذي هو من اعمدة البدن كأنه لخوف عدم غيره فاذا زاد اجتماع المنى اقلق على نحو اقلق البول للحاقن ، الا أن افلاقه من حيث المعنى اكثر من اقلق البول من حيث الصورة ، فتوجب كثرة اجتماعه ، وطول احتباسه ، امراضا صعبة . لانه يترقي من بخاره الى الدماغ فيؤذى - وربما أحدث سمية - ومتى كان المزاج سليما فالطبع يطلب بروز المنى اذا اجتمع كما يطلب بروز البول ، وقد ينحرف بعض الامزجة فيقل اجتماعه عنده فيندر طلبه لأخراجه ، وانما تتكلم عن المزاج الصحيح . فاقول : قد بينت انه اذا وقع به احتباسه اوجب امراضا وجددا افكارا رديئة ، وجلب العشق والوسوسة الى غير ذلك من الآفات . وقد نجد صحيح المزاج يخرج ذلك اذا اجتمع وهو بعد متقلقل ، فكأنه الآكل الذي لا يشبع فبحثت عن ذلك فرأيت وقوع الخلل في المنكوح اما لدمايته ، وفيبح منظره ، او لآفة فيه او لأنه

غير مطلوب للنفس حينئذ يخرج منه ويبقى بعضه فاذا أردت معرفة ما يدلك على ذلك فقس مقدار خروج المني في المحل المشتهى . وفي المحل الذي هو دونه ، كالوطىء بين الفخذين بالإضافة الى الوطىء في محل النكاح ، وكوطىء البكر بالإضافة الى وطىء الثيب . فعلم حينئذ ان تخير المنكوح يستقصى فضول المني، فيحصل للنفس كمال اللذة ، لموضع كمال بروز الفضول . ثم قد يؤثر هذا في الولد أيضا فانه اذا كان من شابين قد حبسا انفسهما عن النكاح مديدة كان الولد أقوى منه من غيرهما ، او من المدمن على النكاح في الاغلب ، ولهذا كره نكاح الاقارب لأنه مما يقبض النفس عن انبساطها ، فيتمخيل الانسان أنه ينكح بعضه ومدح نكاح الغرائب لهذا المعنى ، ومن هذا الفن يحصل كثير من المقصود من دفع هذه الفضول المؤذية بمنكوح مستجد ، وان كان مستقبح الصورة مالا يحصل به في العادة . ومثال هذا ان الطاعم اذا امتلأ خبزا ولما حيث لم يبق فيه فضل لتناول لقمة ، قدمت اليه الحلوى فيتناول ، فلو قدم اعجب منها لتناول لأن الجودة لها معنى عجيب . وذلك أن النفس لا تميل الى ما الفت ، وتطلب غير ما عرفت ، ويتمخيل لها في الجديد نوع مراد فاذا لم تجد مرادها صدفت الى جديد آخر ، فكأنها قد علمت وجود غرض تام بلا كدر ، وهي تتخيله فيما تراه . وفي هذا المعنى دليل مدفون على البعث لأن خلق همته متعلقة بلا متعلق نوع عبث . فافهم هذا ، فاذا رأت النفس عيوب ماخالطت في الدنيا عادت تطلب جديدا ، ولذلك قال الحكماء : العشق العمى عن عيوب المحبوب . فمن تأمل عيوبه سلا ، ولذلك يستحب للمرأة ان لا تبعد عن زوجها بعدا تنسيه اياها ، ولا تقرب منه قربا يملها ، وكذلك يستحب له لثلا

يلمها أو يظهر لديه مكنونات عيوبها ، وينبغي له أن لا يطلع منها على عورة ،
ويجتهد في أن لا يشم منها الاطيب ريح ، الى غير ذلك من الخصال التي تستعملها
النساء الحكيمات . فانهن يعلمن ذلك بفطرهن من غير احتياج ، فاما
الجاهلات فانهن لا ينظرن في هذا فيتمجل التفات الازواج عنهن . فمن اراد
نجابة الولد وقضاء الوطر فليتخير المنكوح ان كان زوجة نلينظر اليها فاذا
وقعت في نفسه فليتزوجها ، ولينظر في كيفية وقوعها في نفسه . فان علامة
تعلق حبها بالقلب انه لا يكاد يصرف الطرف عنه ، فاذا انصرف الطرف قلق
القلب بتقاضى النظرة . فهذا الغاية ودونه مراتب على مقاديرها يكون بلوغ
الاغراض ، وان كان جارية تشتري فلينظر اليها البلع من ذلك النظر ، ومن
قدر على منطقة المرأة او مكاملتها بما يوجب التنبيه ثم ليرى ذلك منها فان
الحسن في الفم والعينين . وقد نص احمد : على جواز ان يبصر الرجل من المرأة
التي يريد نكاحها ما هو عورة يشير الى ما يزيد على الوجه ، ومن أمكنه ان
يؤخر العقد أو شراء الجارية لينظر كيف توقان قلبه فانه لا يخفى على العاقل
توقان النفس لاجل المستجد ، وتوقانها لاجل الحب ، فاذا رأى قلق الحب اقدم .
فانه قد أخبرنا محمد بن عبد الباقي قال أخبرنا احمد بن احمد قال أخبرنا أبو
نعيم قال حدثنا سليمان بن احمد قال حدثنا عبد الجبار بن ابي عامر قال حدثني
ابي قال حدثني خالد بن سلام قال حدثنا عطاء الخراساني قال : مكتوب في
التوراة كل تزويج على غير هوى حسرة وندامة الى يوم القيامة . ثم ينبغي للمتخير
أن يتفكر في الاخلاق فانها من الخفى فان الصورة اذا خلت من المعنى كانت
كخضراء الدمن ، فان نجابة الولد مقصودة ، وفراغ النفس من الاهتمام بود
محبوس اصل عظيم . يوجب اقبال القلب على المهمات . ومن فرغ من الهيات

العارضة اقبل على المهمات الاصلية . ولهذا جاء في الحديث : لا يقضى القاضى بين اثنين وهو غضبان . واذا وضع العشاء وحضرت العشاء حضر فابدؤا بالعشاء . فن قدر على امرأة صالحة في الصورة والمعنى فليغمض عن عوراتها ، ولتجهد هي في مرضيه من غير قرب يمل ، ولا بعد ينسى ، ولتقدم على التصنع له يحصل الغرضان منها الولد وقضاء الوطر ، مع الاحتراز الذى أوصيت به . تدوم الصحبة ويحصل الغناء بها عن غيرها . فان قدر على الاستكثار فأضاف اليها - واما عالما انه يبلغ الغرض الذى يفرغ قلبه زيادة تفرغ كان أفضل لحاله ، فان خاف من وجود الغيرة ما يشغل القلب الذى قد اهتممنا بجمع همته ، أو خاف وجود مستحسنة تشغل قلبه عن ذكر الآخرة ، أو يطلب منه ما يوجب خروجه عن الورع ، ويدخل فيما أوصيت به انه يبعد في المستحسنيات العفاف . فليبالغ الواجد لهن في حفظهن وسترهن ، فان وجد ما لا يرضيه عجل الاستبدال ، فانه سبب السلو فان قدر على الاقتصار فان الاقتصار على الواحدة أولى . فان كانت على الغرض قنع ، وان لم تكن استبدل ونكاح المرأة المحبوبة يستفرغ الماء المجتمع ، فيوجب نجاسة الولد وتمامه ، وقضاء الوطر بكماله . ومن خاف وجود الغيرة فعليه بالسراى فانهم أقل غيرة . والاستظراف لهن أمكن من استظراف الزوجات ، وقد كان جماعة يمكنهم الجمع وكان النساء يصبرن فكان لداود عليه الصلاة والسلام مائة امرأة ، ولسليمان عليه الصلاة والسلام ألف امرأة ، وقد علم حال نبينا صلى الله عليه وسلم وأصحابه ، وقد كان لأمر المؤمنين على رضى الله عنه أربع حرائر ، وسبع عشرة سرية . وتزوج ابنه الحسن رضى الله عنه بنحو من أربع مائة الى غير هذا مما يطول ذكره . فانهم ما أشرت اليه تفز به ان شاء الله تعالى .

٢٩ - فصل -- كل شيء خالق الله تعالى في الدنيا فهو أنموذج في الآخرة، وكل شيء يجري فيها أنموذج ما يجري في الآخرة . فأما المخلوق منها فقال ابن عباس رضي الله عنهما : ليس في الجنة شيء يشبه ما في الدنيا إلا الأسماء . وهذا لأن الله تعالى شوق بنعيم إلى نعيم وخوف بعذاب من عذاب ، فأما ما يجري في الدنيا فكل ظالم معاقب في العاجل على ظلمه قبل الآجل وكل مذنّب ذنبا ، وهو معنى قوله تعالى : « من يعمل سوءا يجز به » . وربما رأى العاصي سلامة بدنه وماله فظن أن لا عقوبة ، وغفلته عما عوقب به عقوبة ، وقد قال الحكماء : المعصية بعد المعصية عقاب المعصية ، والحسنة بعد الحسنة ثواب الحسنة ، وربما كان العقاب العاجل معنويا كما قال بعض احبار بني اسرائيل : يا رب كم اعصيتك ولا تماقبنى : فقيل له : كم أعاقبك وأنت لا تدري ، اليس قد حرمتك حلاوة مناجاتي ! فن تأمل هذا الجنس من المعاقبة وجده بالمرصاد ، حتى قال وهب بن الورد : وقد سئل أيجد لذة الطاعة من يعصى : فقال : ولا من هم . فرب شخص اطلق بصره فحرم اعتبار بصيرته ، أو لسانه فحرم صفاء قلبه ، أو أثر شبهة في مطعمه فاظلم سره ، وحرم قيام الليل وحلاوة المناجاة الى غير ذلك . وهذا امر يعرفه اهل محاسبة النفوس ، وعلى ضده يجد من يتق الله تعالى من حسن الجزاء على التقوى عاجلا ، كما في حديث ابى امامة عن النبي صلى الله عليه وسلم يقول الله تعالى : النظرة الى المرأة سهم مسهوم من سهام الشيطان ، من تركه ابتغاء مرضاتي آتيته ايمانا يجد حلاوته في قلبه ، فهذه نبذة من هذا الجنس تنبه على مغفلها . فاما المقابلة الصريحة في الظاهر فقل ان نحتبس ، ومن ذلك قول النبي صلى الله عليه وسلم : الصبحة تمنع الرزق ، وان العبد ليحرم الرزق

بالذنب يصيبه . وقد روى المفسرون : أن كل شخص من الأسباط جاء بأثني عشر ولدا وجاء يوسف بأحد عشر بالهمة ^(١) . ومثل هذا إذا تأمله ذو بصيرة رأى الجزاء وفهم كما قال الفضيل : انى لأعصى الله عز وجل فأعرف فى خاق دابتي وجاريتي ، وعن ^(٢) عثمان النيسابورى : انه انقطع شسع نعله فى مضيه الى الجمعة فتموق لأصلاحه ساعة . ثم قال : انما انقطع لأنى ما اغتسلت غسل للجمعة . ومن عجائب الجزاء فى الدنيا انه لما امتدت أيدى الظلم من اخوة يوسف وشروه بثمان بخرس امتدت أكفهم بين يديه بالطلب ، يقولون : « وتصدق علينا » ولما صبر هو يوم الهمة ملك المرأة حلالا ، ولما بنت عليه بدعواها : « ما جزاء من أراد باهلك سوءا » انطقها الحق بقولها : « انارودته » ولو أن شخصا ترك معصية لأجل الله تعالى لرأى ثمرة ذلك وكذلك اذا فعل طاعة . وفى الحديث : اذا أملتكم فتاجروا الله بالصدقة . أى عاملوه لزبادة الارباح العاجلة ، ولقد رأينا من سامح نفسه بما يمنع منه الشرع ، طلبا للراحة العاجلة ، فانقلبت أحواله الى التنفص العاجل ، وعكست عليه المقاصد . حكى بعض المشايخ : انه اشترى فى زمن شبابه جارية قال فلما ملكتها تأقت نفسى اليها فما زلت اسأل الفقهاء اعمل مخلوقا يرخص لى . فكلهم قال : لا يجوز النظر اليها بشهوة ، ولا لمسها ، ولا جماعها الا بعد حيضها . قال : فسألها فاخبرتني أنها اشتريت وهى حائض . فقلت : قرب الأمر ، فسألت الفقهاء فقالوا : لا يعتمد بهذه الحيضة حتى تحيض فى ملكه ، قال : فقلت لنفسي وهى شديدة التوقان لقوة الشهوة ، وتمكن القدرة ، وقرب المصافحة . ما تقولين فقالت : الايمان بالصبر على الجمر

(١) يشير الى قصته مع امرأة العزيز (٢) فى الاحمدية أبى عثمان .

شئت أو أبيت ، فصبرت الى ان حان ذلك فاثابني الله تعالى على ذلك الصبر
بنيل ما هو أعلا منها وارفع .

٣٠ - فصل - نظرت في الأدلة على الحق سبحانه وتعالى فوجدتها

أكثر من الرمل ، ورأيت من أعجيبها ان الانسان قد يخفى ما لا يرضاه الله عز وجل ، فيظهره الله سبحانه عليه ولو بعد حين ، وينطق الالسنه به وان لم يشاهده الناس . وربما أوقع صاحبه في آفة يفضحه بها بين الخلق فيكون جوارا لكل ما اخفى من الذنوب ، وذلك ليعلم الناس ان هنالك من يجازى على الزل ، ولا ينفع من قدره وقدرته حجاب ولا استتار ، ولا يضام لديه عمل . وكذلك يخفى الانسان الطاعة فتظهر عليه ويتحدث الناس بها وباكثر منها ، حتى أنهم لا يعرفون له ذنبا ولا يذكرونه الا بالمحاسن ، ليعلم أن هنالك ربا لا يضيع عمل عامل ، وان قلوب الناس لتعرف حال الشخص وتحميه ، أو تأباه ، وتذمه ، أو تمدحه . وربما لم يتحقق ما بينه وبين الله تعالى فانه يكفيه كل هم ، ويدفع عنه كل شر ، وما أصلح عبدا ما بينه وبين الخلق دون الحق ، الا انعكس مقصوده وعاد حامده ذاما .

٣١ - فصل - تأملت الأرض ومن عليها بعين فكرى ، فرأيت

خرايها أكثر من عمرائها ، ثم نظرت في المعمور منها ، فوجدت الكفار مستواين على أكثره ، ووجدت أهل الاسلام فى الارض قليلا بالاضافة الى الكفار ، ثم تأملت المسلمين فرأيت الاكساب قد شغلت جمهورهم عن الرازق ، وأعرضت بهم عن العلم الدال عليه . فالسلطان مشغول بالأمر والنهى والذات المعارضة له ، ومياه أغراضه جارية لا شكر لها . ولا يتلقاه أحد بموعظة بل بالمدح التى تقوى هوى النفس ، وانما ينبغى ان تقاوم

الأعراض بأضداها . كما قال عمر بن المهاجر : قال لى عمر بن عبد العزيز ، اذا رأيتنى قد حدثت عن الحق فخذ بثيابى وهزنى ، وقل مالك يا عمر . وقال عمر ابن الخطاب رضى الله عنه . رحم الله من اهدى الينا عيوبنا ، فاحوج الخلق الى النصائح والمواعظ ، السلطان . وأما جنوده فجمهورهم فى سكر الهوى ، وزينة الدنيا ، وقد انضاف الى ذلك الجهل ، وعدم العلم ، فلا يؤلمهم ذنب ، ولا ينزعجون من لبس حرير ، أو شرب خمر ، حتى ربما قال بعضهم : ايش يعمل الجندى . ايلبس القطن ؟ ثم اخذهم للأشياء من غير وجهها ، فالظلم معهم كالطبع . وأرباب البوادي قد غمرهم الجهل وأهل القرى . فكذلك تقلبهم فى الانجاس ، والتهوين لأمر الصلوات ، وربما صلت المرأة منهن قاعدة . ثم نظرت فى التجار فرأيتهم قد غلب عليهم الحرص ، حتى لا يرون سوى وجوه الكسب كيف كانت ؛ وصار الربا فى معاملاتهم فاشيا ، فلا يبالي أحدهم من أين حصل له الدنيا ، وهم فى باب الزكاة مفرطون ، ولا يستوحشون من تركها إلا من عصم الله . ثم نظرت فى أرباب المعاش ، فوجدت الغش فى معاملاتهم عاما ، والتطفيف والبخس ، وهم مع هذا مغمورون بالجهل . ورأيت عامة من له ولد يشغله ببعض هذه الاشغال طالبا للكسب قبل ان يعرف ما يجب عليه وما يتأدب به . ثم نظرت فى النساء ، فرأيتهن قليلات الدين ، عظيمات الجهل ، ما عندهن من الآخرة خبر الا من عصم الله . فقلت : واعجبا فمن بقى لخدمة الله عز وجل ؛ ومعرفة فنظرت فاذا العلماء ، والمتعلمون ، والعباد ، والمتزهدون . فتأملت العباد ، والمتزهدين فرأيت جمهورهم يتعبد بغير علم ، ويأنس الى تعظيمه ، وتقييل يده وكثرة أتباعه ، حتى ان أحدهم لو أضرط الى أن يشتري حاجة من السوق لم يفعل ،

لثلاثين كسر جاهه ، ثم تترقي بهم رتبة الناموس الى ان لا يعودوا صريضا ، ولا يشهدوا جنازة ، الا ان يكون عظيم القدر عندهم . ولا يتزاودون ، بل ربما ظن بعضهم على بعض ، فقد صارت النواميس كالآوثان يعبدونها ولا يعلمون وفيهم من يقدم على الفتوى بجهل اثلا يخل ناموس التصدر ، ثم يعيبوا العلماء لحرصهم على الدنيا ولا يعلمون ان اللذوم من الدنيا ما هم فيه ، لا تناول المباحات . ثم تأملت العلماء والمتعلمين . فرأيت القليل من المتعلمين من عليه أماراة النجابة ، لان أماراة النجابة طلب العلم للعمل به ، وجهودهم يطلب ما يصيره شبكة للكسب . اما لياخذ قضاء مكان أولي صير قاضي بلد ، أو قدر ما يتميز به عن أبناء جنسه ثم يكتفى . ثم تأملت العلماء فرأيت أكثرهم يتلاعب به الهوى وليستخذه ، فهو يؤثر ما يصده العلم عنه ، ويقبل على ما ينهيه ، ولا يكاد يجد ذوق معاملة الله سبحانه ، وانما همته ان يقول . الا ان الله لا يخلى الارض من قائم له بالحجة ، جامع بين العلم والعمل . عارف بحقوق الله تعالى ، خائف منه . فذلك قطب الدنيا ، ومتى مات اخلف الله عوضه ، وربما لم يمت حتى يرى من يصلح للنيابة عنه في كل نائبه . ومثل هذا لا تخلو الارض منه . فهو في مقام النبي في الأمة ، وهذا الذي أصفه يكون قائما بالاصول ، حافظا للحدود ، وربما قل علمه او قلت معاملته . فاما الكاملون في جميع الأدوات فيندرج وجودهم ، فيكون في الزمان البعيد منهم واحد . ولقد سبرت السلف كلهم فاردت ان استخرج منهم من جمع بين العلم حتى صار من المجتهدين ، وبين العمل حتى صار قدوة للعابدين ، فلم أر أكثر من ثلاثة : اولهم الحسن البصري ، وثانيهم سفيان الثوري ، وثالثهم احمد بن حنبل ، وقد افردت لاخبار كل واحد منهم كتابا ، وما انكر على من ربههم

بسميد بن المسيب ، وان كان في السلف سادات ، الا ان اكثرهم غلب عليه فن ، فنقص من الآخر ، فمنهم من غاب عليه العلم ، ومنهم من غلب عليه العمل ، وكل هؤلاء كان له الحظ الوافر من العلم ، والنصيب الاوفى من المعاملة والمعرفة ، ولا يؤيس من وجود من يحدو حذوهم ، وان كان الفضل بالسبق لهم . فقد أطلع الله عز وجل الخضر على ما خفي من موسى عليهما السلام . فخرائن الله مملوءة وعطاؤه لا يتف على شخص . ولقد حكى لى عن ابن عقيل انه كان يقول عن نفسه : انا عملت في قارب ثم كسر ، وهذا غلط فن اين له ؟ فكم معجب بنفسه كشف له من غير ما عاد يحقر نفسه على ذلك ، وكم من متأخر سبق متقدما ، وقد قيل :

ان الاليالى والايام حاملة وليس يعلم غير الله ماتلد

٣٢ - فصل - رأيت ميل النفس الى الشهوات زائدا في المقدار

حتى انها اذا مالت مالت بالقلب والعقل والذهن ، فلا يكاد ينتفع بشىء من البدن . فصحت بها يوما وقد مالت بكليتها الى شهوة ، ويحك قفى لحظة اكلمك كلمات ثم افعل ما بدالك . قالت : قل أسمع . قلت : قد تقرر قلة ميلك الى المباحات من الشهوات ، واما جل ميلك الى المحرمات . فانا اكشف لك عن الأمرين ، فربما رأيت الحلوين مرين . اما المباحات من الشهوات : فطلقة لك ولكن طريقها صعب ، لأن المال قد يعجز عنها ، والكسب قد لا يحصل معظمها ، والوقت الشريف يذهب بذلك . ثم شغل القلب بها وقت التحصيل ، وفي حالة الحصول ، ويحذر الفوات . ثم ينغصها من النقص ما لا يخفى على مميز إن كان مطعماً فالشبع يحدث آفات ، وإن كان شخصاً فللملل أو الفراق ، أو سوء الخلق . ثم ألد النكاح أكثره أيها نا للبدن ،

الى غير ذلك مما يطول شرحه . وأما المحرمات : فيشتمل على ما اشرنا اليه من المباحات . ويزيد بايهان بانها آفة العرض وخوف عقاب الدنيا وفضيحتها ، ووعيد الآخرة ، ثم الجزع كلما ذكرها النائب ، وفي قوة قهر الهوى لذة تزيد على كل لذة . ألا ترى الى كل مغلوب بالهوى كيف يكون ذليلاً ، لأنه قهر . بخلاف غالب الهوى فانه يكون قوى القلب ، عزيزاً لأنه قهر فالحذر الحذر من رؤية المشتهى بعين الحسن ، كما يرى اللص لذة أخذ المال من الخزانة ، ولا يرى بعين فكره القطع . ويفتح عين البصيرة لتأمل العواقب واستحالة اللذة نغصة ، وانقلابها عن كونها لذة إما للملل أو لغيره من الآفات ، أو لانقطاعها بامتناع الحبيب . فتكون المعصية الاولى كلقمة تناولها جائع ، فما ردت كلب الجوع ، بل شهت الطعام . وليتذكر الانسان لذة قهر الهوى مع تأمل فوائد الصبر عنه ، فمن وفق لذلك كانت سلامته قريبة منه .

٣٣ - فصل - خطر الى خاطر والمجلس قد طاب ، والقلوب قد حضرت ، والعيون جارية ، والرؤس مطرقة ، والنفوس قد ندمت على تفریطها ، والعزائم قد نهضت لاصلاح شؤونها ، والسنة اللوم تعمل في الباطن على تضيق الحزم وترك الحذر . فقلت لنفسي : ما بال هذه اليقظة لا تدوم ، فاني أرى النفس واليقظة في المجلس متصافان متصادقان ، فاذا قمنا عن هذه التربة ، وقعت الغربة ، فتألمات ذلك فرأيت أن النفس ما تزال متيقظة ، والقلب ما يزال عارفاً ، غير أن القواطع كثيرة ، والفكر الذي ينبغي استعماله في معرفة الله سبحانه وتعالى قد كل . مما يستعمل في اجتلاب الدنيا ، وتحصيل حوائج النفوس ، والقلب منغمس في ذلك ،

والبدن أسير مستخدم . بينا الفكر يحول في اجتلاب الطعام والشراب والكسوة ، وينظر في صدد ذلك ، وما يدخره لغده وسنته ، اهتم بخروج الحدث وتشاغل بالطهارة ، ثم اهتم بخروج الفضلات المؤذية - ومنها النى - . فاحتاج الى النكاح ، فعلم انه لا يصح الا باكتساب كسب الدنيا . فتفكر في ذلك وعمل بمقتضاه ، ثم جاء الولد فاهتم به وله ، واذا الفكر عامل في أصول الدنيا وفروعها ، فاذا حضر الانسان المجلس فانه لا يخرج جائعاً . ولا حافئاً . بل يحضر جامعاً لهمة ، ناسياً ما كان من الدنيا على ذكره . فيخلو الوعظ بالقلب فيذكره بما ألف ، ويجذبه بما عرف ، فينهض عمال القلب في زوارق عرفانه . فيحضرون النفس الى باب المطالبة بالتفريط ، ويؤاخذون الحس بما مضى من العيوب ، فتجربى عيون الندم ، وتنقصد عزائم الاستدراك . ولو أن هذه النفس خلت عن المعهودات التى وصفها ، لتشاغلت بخدمة بارئها . ولو وقعت في سورة حبه ، لاستوحشت عن الكل شغلاً بقربه . ولهذا اعتمد الزهاد الخلوات ، وتشاغلوا بقطع المعوقات ، وعلى قدر مجاهدتهم فى ذلك نالوا من الخدمة مرادهم ، كما ان الحصاد على مقدار البذر . غير انى تلمحت فى هذه الحالة - دقيقة - وهو أن النفس لو دامت لها اليقظة لوقعت فيما هو شر من فوت ما فاتها . وهو المعجب بحالها ، والاحتقار بجنسها ، وربما ترقى بقوة علمها وعرفانها ، الى دعوى لى ، وعندى ، واستحق . فتركها فى حومة ذنوبها تتخبط ، فاذا وقفت على الشاطئ قامت بحق ذلة العبودية أولى لها . هذا حكم الغالب من الخلق ، ولذلك شغلوا عن هذا المقام . فمن بذر فصلح له : فلا بد له من هفوة يراقبها عين الخوف من عقابها رفقاً بها ، نصيح له عبوديته ، وتسلم له

عبادته ، والى هذا المعنى أشار الحديث الصحيح : لو لم تذبوا لذهب الله بكم وجاء بقوم يذنبون فيستغفرون فيغفر لهم .

٣٤ - فصل - تفكرت فرأيت أن حفظ المال من المتعين ، وما يسميه جهلة المتزهدين توكلا من اخراج ما في اليد ليس بالمشروع . فان النبي صلى الله عليه وسلم قال لكعب بن مالك : امسك عليك بعض مالك ؛ او كما قال له . وقال لسعد : لأن تترك ورثتك أغنياء خير من أن تتركهم عالة يتكففون الناس . فان اعترض جاهل فقال : فقد جاء أبو بكر رضي الله عنه بكل ماله . فالجواب : أن أبا بكر صاحب جاش وتجارة ، فاذا أخرج الكل اممكنه ان يستدين عليه . فيتمعيش . فمن كان على هذه الصفة لا اذم اخراجه لماله وانما الذم متطرق الى من يخرج ماله وليس من أرباب المعاش او يكون من أولئك الا أنه ينقطع عن المعاش فيبقى كلا على الناس ، يستعطيهم ويعتقد انه على الفتوح ، وقلبه متعلق بالخلق ، وطموحه ناشب فيهم . ومتى حرك يابه نهض قلبه . وقال : رزق قد جاء . وهذا أمر قبيح بمن يقدر به على المعاش : وان لم يقدر كان اخراج ما يملك أقبح ، لأنه يتعلق قلبه بما في أيدي الناس . وربما ذل لبعضهم ، او ترين له بالزهد ، واقل احواله أن يزاحم الفقراء والمكافيف والزمنى في الزكاة . فعليك بالشرب الاول ، فانظر هل فيهم من فعل ما يفعله جهلة المتزهدين . وقد أشرت في اول هذا الى أنهم كسبوا وخلفوا الاموال ، فرد الى الشرب الاول الذي لم يطرق فانه الصافي ، واحذر من المشاريع المطروقة بالآراء الفاسدة الخارجة في المعنى كالكمين على الشريعة ، مذمنة بلسان حالها أن الشرع ناقص يحتاج الى ما تمت به بما تمت به .

واعلم وفقك الله تعالى ان البدن كالمطية ، ولا بد من علف المطية ، والاهتمام به . فاذا أهملت ذلك كان سبباً لوقوفك عن السير وقد رؤى سلمان رضي الله عنه : يحمل طعاماً على عاتقه فقيل له : اتفعل هذا وانت صاحب رسول الله ﷺ ؟ فقال : ان النفس اذا حرزت قوتها اطمانت . وقال سفيان الثوري : اذا حصلت قوت شهير فتعبد . وقد جاء أقوام ليس عندهم سوى الدعاوى فقالوا : هذا شك في الرأى والثقة به أولى . فايك واياهم . وربما ورد مثل هذا عن بعض صدور الزهاد من السلف فلا يعول عليه ، ولا يهولنك خلافهم . فقد قال أبو بكر المروزي : سمعت أحمد بن حنبل يرغب في النكاح . فقلت له : قال ابن آدم فما تركني أنعم حتى صاح على ، وقال : أذكر لك حال رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه ، وتأتيني بينات الطريق . واعلم وفقك الله : انه لو رفض الاسباب شخص يدعى الزهد . وقال : لا آكل ولا أشرب ، ولا أقوم من الشمس في الحر ، ولا أستدفئ من البرد ، كان عاصياً بالاجماع . وكذلك لو قال وله عائلة : لا أكتسب ورزقهم على الله تعالى ، فأصابهم أذى كان آثماً . كما قال عليه الصلاة والسلام : كفى بالمرء إثمًا أن يضيع من يقوت . واعلم ان الاهتمام بالكسب يجمع الهم ، ويفرغ القلب ، ويقطع الطمع في الخلق ، فان الطمع له حق يتقاضاه . وقد بين الشرع ذلك فقال : إن لنفسك عليك حقاً ، وأن لعينك عليك حقاً . ومثال الطمع مع المريد السالك ، كمثل كلب لا يعرف الطارق ، فكل من رآه يمشى نبج عليه ، فان القى اليه كسرة سكنت عنه . فالمراد من الاهتمام بذلك جمع الهم لا غير فافهم هذه الاصول فان فهمها مهم .

٣٥ - فصل - تأملت في شهوات الدنيا فرأيتها مصائد هلاك ،

ونخوخ تلف ، فمن قوى عقله على طبعه وحكم عليه يسلم ، ومن غلب طبعه فيا سرعة هلكته . ولقد رأيت بعض أبناء الدنيا كان يتوق في التسرى . ثم يستعمل الحمرات المهيجة للباه ، فما لبث أن انحلت حرارته الغريزية وتلف . ولم أر في شهوات النفس أسرع هلاكا من هذه الشهوة ، فانه كلما مال الانسان الى شخص مستحسن أوجب ذلك حركة الباه زائدا عن العادة ، واذا رأى أحسن منه زادت الحركة وكثر خروج المنى زائدا عن الأول ، فيفنى جوهر الحياة أسرع شىء ، وبالضد من هذا أن تكون المرأة مستقبحة فلا يوجب نكاحها خروج الفضلة المؤذية كما ينبغي ، فيقع التأذى بالاحتباس وقوة التوق الى منكوح ، وكذلك المفرط في الاكل فانه يبنى على نفسه كثيراً من الجنايات ، والمقصر في مقدار القوت كذلك . فعلمت - أن أفضل الامور أوساطها ، والدنيا مفازة فينبغى أن يكون السابق فيها العقل ، فمن سلم زمام راحلته الى طبعه وهواه ، فيا عجلة تلفه - هذا فيما يتعلق بالبدن والدنيا - فقس عليه أمر الآخرة فافهم .

٣٦ - فصل - بلغنى عن بعض زهاد زماننا انه قدم اليه طعام

فقال : لا آكل . فقيل له : لم ؟ قال : لأن نفسى تشتهيه ، وانا منذ سنين ما بلغت نفسى ما تشتهى . فقلت : لقد خفيت طريق الصواب عن هذا من وجهين ، وسبب خفائها عدم العلم . أما الوجه الاول : فان النبى صلى الله عليه وسلم لم يكن على هذا ولا أصحابه ، وقد كان عليه الصلاة والسلام يأكل لحم الدجاج ، وبحب الحلوى والعسل ، ودخل فرقد السنجى على الحسن وهو يأكل الفالودج . فقال : يا فرقد ما تقول في هذا : فقال لا آكله

ولأحب من أكله . فقال الحسن : لعاب النحل . بلباب البر . مع سمن البقر .
هل يعيبه مسلم ؟ وجاء رجل الى الحسن فقال : ان لي جاراً لا يأكل
الفاوذج . فقال : ولم ؟ قال يقول لا أؤدى شكره ، فقال : ان جارك جاهل
وهل يؤدى شكر الماء البارد ؟ وكان سفيان الثوري : يحمل في سفره
الفاوذج . والحمل المشوى . ويقول : ان الدابة اذا أحسن اليها عملت ، وما
حدث في الزهاد بعدم أمور من هذا الفن مسروقة من الرهبانية وأنا
خائف من قوله تعالى : « لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم » . « ولا
تعقدوا » . ولا يحفظ عن أحد من السلف الاول من الصحابة من هذا
الفن شيء الا أن يكون ذلك لعارض ، وسبب ما يروى عن ابن عمر رضي
الله عنهما : أنه اشتهى شيئاً فأثر به فقيراً ، واعتق جاريته رميته ، وقال :
انها أحب الخلق الى ، فهذا وأمثاله حسن ، لانه اثار بما هو أجود عند
النفس من غيره ، واكثر لها من سواء ، فاذا وقع في بعض الاوقات ،
كسرت بذلك الفاعل سورة هواها أن تطغى بنيل كل ما تريد ، فأما
من دام على مخالفتها على الاطلاق ، فانه يعمى قلبها ، ويبلد خواطرها ،
ويشتت عزائها ، فيؤذيها أكثر مما ينفعها ، وقد قال ابراهيم بن أدهم :
أن القلب اذا أكره عمى ، ونحت مقالته سر لطيف . وهو ان الله عز وجل
قد وضع طبيعة الآدمي على معنى عجيب . وهو انها تختار الشيء من
الشهوات مما يصلحها ، فتعلم باختيارها له صلاحه . وصلاحها به . وقد
قال حكماء الطب : ينبغي ان يفسح للنفس فيما تشتهي من المطاعم . وان
كان فيه نوع ضرر . لانها انما تختار ما يلائمها ، فاذا قمعها الزاهد في مثل هذا
ماد على بدنه بالضرر ، ولولا جواذب في الباطن من الطبيعة ما بقى البدن ؟

فإن الشهوة للطعام تبور ، فإذا وقعت الغنية بما يتناول كفت الشهوة ،
فالشهوة مريد ورائد ، ونعم الباعث على مصلحة البدن ، غير أنها إذا
أفرطت وقع الأذى ، ومتى منعت ما تريد على الإطلاق مع الأمن من فساد
العاقبة عاد ذلك بفساد أحوال النفس ، ووهن الجسم . واختلاف السقم .
الذى تتداعى به الجملة ، مثل أن يمتد الماء عند اشتداد العطش ، والغذاء
عند الجوع ، والجماع عند قوة الشهوة ، والنوم عند غلبته ، حتى أن المغتم
إذا لم يتروح بالشكوى قتله الكمد ، فهذا أصل إذا فهمه هذا الزاهد . علم
أنه قد خالف طريق الرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه . من حيث
النقل ، وخالف الموضوع في الحكمة ، ولا يلزم على هذا قول القائل : فمن
ابن يصفو المطعم ؛ لأنه إذا لم يصفو كان الترك ورعاً ، وإنما الكلام في
المطعم الذى ليس فيه مايؤذى في باب الورع ، وكان ماشرحته جواباً
للقائل — ما أبلغ نفسى شهوة على الإطلاق ، والوجه الثانى : أنى أخاف على
الزاهد أن تكون شهوته انقلبت إلى الترك . فصار يشتهى أن لا يتناول ،
وللنفس في هذا مكر خفى ، ورياءً دقيق ، فإن سلمت من الرياء للخلق ،
كانت الآفة من جهة تعلقها بمثل هذا الفعل ، وادلالها في الباطن به ، فهذه
مخاطرة وغلط ، وربما قال بعض الجهال : هذا صد عن الخير والزهد ،
وليس كذلك . فإن الحديث قد صح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه
قال : كل عمل ليس عليه امرنا فهو رد ، ولا ينبغي أن يغتر بعبادة جريج ،
ولا بتقوى ذى الخويصرة ، ولقد دخل المزهدون في طرق لم يسلكها
الرسول صلى الله عليه وسلم ، ولا أصحابه . من أظهار التخشع الزائد في
الحد ، والتنوق في تخشين اللبس ، وأشباه صار العوام يستحسنونها ،

وصارت لاقوام كالمعاش يجتنون من ارباحها ، تقبيل اليد ، وتوفير التوفير ، وحراسة الناموس ، واكثرهم في خلوته؛ على غير حالته في جلوته، وقد كان ابن سيرين يضحك بين الناس قهقهة ، واذا خلا بالليل فكأنه قتل أهل القرية . فנסأل الله تعالى علما نافعا فهو الاصل ، فتي حصل أوجب معرفة المعبود عز وجل ، وحرك الى خدمته بمقتضى ما شرعه واحبه ، وسلك بصاحبه طريق الاخلاص ، واصل الاصول — العلم ، وانفع العلوم النظر في سير الرسول صلى الله عليه وسلم واصحابه . « أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده » .

٣٧ - فصل - تأملت جهاد النفس فرأيت أعظم الجهاد ، ورأيت

خلقا من العلماء والزهاد لا يفهمون معناه ، لأن فيهم من منعهما حظوظها على الاطلاق ، وذلك غلط من وجهين ، أحدهما : انه رب مانع لها شهوة اعطاها بالمنع اوفى منها ، مثل ان يمنعهما مباحا فيشتهر بمنعه اياها ذلك فيرضى النفس بالمنع لانها قد استبدلت به المدح ، واخفى من ذلك أن يرى بمنعه اياها ما منع انه قد فضل من سواه ، من لم يمنعهما ذلك ، وهذه دفائن تحتاج الى مناقش فهم يخلصها ، والوجه الثاني : أننا قد كلفنا حفظها ومن أسباب حفظها ميلها الى الاشياء التي تقيمها ، فلا بد من اعطائها ما يقيمها ، وأكثر ذلك أو كله ما تشبهه ، ونحن كالوكلاء في حفظها . لانها ليست لنا بل هي وديعة عندنا ، فمنعها حقوقها على الاطلاق خطر ، ثم رب شد أوجب استرخاء ، ورب مضيق على نفسه فرت منه فصعب عليه تلافيها ، وانما الجهاد لها كجهاد المريض العاقل ، يحماها على مكروهاها في تناول ما رجو به العافية ، ويذوب في المرارة قليلا من الحلاوة ، ويتناول من الاغذية مقدار ما يصفه

الطبيب . ولا تحمله شهوته على موافقة غرضها من مطعم ربما جرّ جوعاً ،
ومن لقمة ربما حرمت لقماً ، فكذلك المؤمن العاقل لا يترك لجامها ،
ولا يهمل مقودها ، بل يرخي لها في وقت والطول ^(١) بيده ، فدامت على
الجادة لم يضايقها في التضيق عليها ، فاذا رآها قد مالت ردها باللطف ،
فان ونت وأبت ، والا فبالعنف ، ويجسها في مقام المداراة ، كالزوجة التي
مبنى عقلها على الضعف والقلّة ، فهي تدارى عند نشوزها بالوعظ ، فان لم
تصلح فبالهجر ، فان لم تستقم فبالضرب . وليس في سياط التأديب أجود
من سوط عزم — هذه مجاهدة من حيث العمل ، فاما من حيث وعظها
وتأنيبها ، فينبغي لمن رآها تسكن للخلاق ، وتعرض بالدناءة من الاخلاق
أن يعرفها تعظيم خالفها لها . فيقول : الست التي قال فيك خلقتك يدي ،
واسجدت لك ملائكتي ، وارتضاك للخلافة في أرضه ، وراسلك ، واقترض
منك واشترى ؟ فان رآها تتكبر ، قال لها : هل أنت الاقطرة من ماء
مهيّن ، تقتلك شرقة ، وتؤلمك بقة . وأن رأى تقصيرها عرفها حق الموالى
على العبيد ، وان ونت في العمل ، حذنها بجزيل الاجر . وان مالت الى
الهوى ، خوفها عظيم الوزر . ثم يحذرهما عاجل العقوبة الحسية ، كقوله
تعالى : « قل أرأيتم ان أخذ الله سمعكم وأبصاركم » . والمعنوية كقوله تعالى :
« ساصرف عن آياتي الذين يتكبرون في الارض بغير الحق » فهذا جهاد
بالقول ، وذاك جهاد بالفعل .

٣٨ - فصل - رأيت من البلاء العجائب . أن المؤمن يدعو فلا
يجاب ، فيكرر الدعاء وتطول المدة ولا يرى أثراً للإجابة ، فينبغي له أن

« ١ » في الهندية : والطواء بيده .

يعلم أن هذا من البلاء الذي يحتاج الى الصبر ، وما يعرض للنفس من الوسواس في تأخير الجواب . مرض يحتاج الى طب ، ولقد عرض لى من هذا الجنس . فانه نزلت بى نازلة ، فدعوت وبالغت ، فلم أرى الاجابة ، فأخذ ابليس يحول فى حلبات كيده ، فتارة يقول : الكرم واسع والبخل معدوم ، فما فائدة تأخير الجواب ؟ فقلت له : اخساً يالعين ، فما أحتاج الى تقاضى ، ولا أرضاك وكيلا ، ثم عدت الى نفسى فقلت : اياك ومسا كنة وسوسته ، فانه لو لم يكن فى تأخير الاجابة الا أن يبنوك المقدر فى محاربة العدو لكفى فى الحكمة . قالت : فسئلتنى عن تأخير الاجابة فى مثل هذه النازلة . فقلت : قد ثبت بالبرهان ان الله عز وجل مالك ، والممالك التصرف بالمنع والعطاء ، فلا وجه للاعتراض عليه ، والثانى : انه قد ثبتت حكمته بالادلة القاطعة ، فربما رأيت الشئ مصلحة والحكمة لا تقتضيه ، وقد يخفى فى الحكمة فيما يفعله الطبيب ، من أشياء تؤذى فى الظاهر يقصد بها المصلحة ، فاعمل هذا من ذاك . والثالث : انه قد يكون التأخير مصلحة ، والاستعجال مضره ، وقد قال النبى صلى الله عليه وسلم : لا يزال العبد فى خير ما لم يستعجل ، يقول دعوت فلم يستجب لى . والرابع : انه قد يكون امتناع الاجابة لآفة فيك فربما يكون فى مأكولك شبهة ، أو قلبك وقت الدعاء فى غفلة ، أو تزداد عقوبتك فى منع حاجتك لذنب ما صدقت فى التوبة منه ، فابحى عن بعض هذه الاسباب لعلك تقى بالمقصود ، كما روى عن أبى يزيد رضى الله عنه : انه نزل بعض الاعاجم فى داره ، فجاء فرآه ، فوقف بباب الدار ، وأمر بعض أصحابه فدخل ، فقلع طينا جديدا قد طينه ، فقام الاعجمى وخرج ، فسئل أبو يزيد عن ذلك فقال : هذا

الطين من وجه فيه شبهة ، فلما زالت الشبهة زال صاحبها . وعن ابراهيم الخواص رحمة الله عليه : انه خرج لانكار منكر ، فنبهه كلب له فمنعه ان يمضي ، فعاد ودخل المسجد ، وصلى ثم خرج ، فبصص الكلب له فمضى ، وانكر فزال المنكر ، فسئل عن تلك الحال فقال : كان عندي منكر . فمنعني الكلب ، فلما عدت ثبت من ذلك ، فكان ما رأيتم . والخامس : انه ينبغي ان يقع البحث عن مقصودك بهذا المطلوب ، فربما كان في حصوله زيادة إثم ، أو تأخير عن مرتبة خير ، فكان المنع أصلح ، وقد روى عن بعض السلف انه كان يسأل الله الغزو ، فهتف به هاتف : انك ان غزوت أسرت ، وان أسرت تنصرت . والسادس : انه ربما كان فقد ما فقدته سببا للوقوف على الباب واللاجاء وحصوله سببا للاشتغال به عن المسؤل ، وهذا الظاهر بدليل انه لولا هذه النازلة ما رأيناك على باب اللاجاء ، فالحق عز وجل علم من الخلق اشتغالهم بالبر عنه ، فلذعهم في خلال النعم بموارض تدفعهم الى بابه ، يستغيثون به ، فهذا من النعم في طي البلاء ، وانما البلاء المحض . ما يشغلك عنه ، فأما ما يقيمك بين يديه ، فيه جمالك . وقد حكى عن يحيى البكا انه رأى ربه عز وجل في المنام ، فقال : يارب كم أدعوك ولا تجيبني . فقال : يا يحيى اني أحب ان اسمع صوتك ، واذا تدبرت هذه الاشياء تشاغلتما بما هو أنفع لك ، من حصول ما فاتك من دفع خال ، أو اعتذار من زلل ، أو وقوف على الباب الى رب الارباب .

٣٩ - فصل - من نزلت به بلية ، فاراد تمحيقها ، فليتم صورها أكثر مما هي تهن . ولتخايل ثوابها ولتتوهم نزول أعظم منها ، يرى الربح في الاقتصار عليها ، ولتلمح سرعة زوالها ، فانه لولا كرب الشدة ،

ماركهم جيت ساعات الراحة ، وليعلم أن مدة مقامها عنده ، كمدة مقام الضيف فليتنفقد حوائجه في كل لحظة ، فيا سرعة انقضاء مقامه ، ويا لذة مدايحه وبشره في المحافل ، ووصف المضيف بالكرم . فكذلك الشدة ، ينبغي أن تراعى الساعات ، ويتفقد فيها أحوال النفس ، ويتلمح الجوارح ، مخافة أن يبدو من اللسان كلمة ، أو من القلب تسخط ، فكأن قد لاح فجر الاجر ، فأُنجاب ليل البلاء ، ومدح السارى بقطع الدجى ، فما طلعة شمس الجزاء ، الا وقد وصل منزل السلامة .

٤٠ - فصل - لما رأيت رأى نفسى في العلم حسناً ، فهي تقدمه على كل شئ ، وتمتدح الدليل ، وتفضل ساعة التشاغل به على ساعات النوافل ، وتقول : أقوى دلائل على فضله على النوافل . انى رأيت كثيراً ممن شغلهم نوافل الصلاة والصوم عن نوافل العلم ، عاد ذلك عليهم بالقدرح في الاصول ، فرأيتها في هذا على الجادة السليمة ^(١) والرأى الصحيح ، الا أنى رأيتها واقفة مع صورة التشاغل بالعلم ، فصحت بها فما الذى أفادك العلم ؟ أين الخوف ، أين القلق ، أين الحذر ، أو ما سمعت بأخبار أخيار الأخبار في تعبدهم واجتهادهم ؟ أما كان الرسول صلى الله عليه وسلم سيد الكل ، ثم انه قام حتى ورمت قدماه ، أما كان أبو بكر رضى الله عنه شجى النسيج ، كثير البكاء ، أما كان فى خد عمر رضى الله عنه خطين من آثار الدموع ، أما كان عثمان رضى الله عنه يختم القرآن فى ركعة ، أما كان على رضى الله عنه يبكى بالليل فى محرابه حتى تخضل لحيته بالدموع ، ويقول : يا دنيا غرى غرى ، أما كان الحسن البصرى على قوة القلق ، أما كان سعيد بن المسيب ملازماً

للمسجد فلم تفتحه صلاة في جماعة أربعين سنة ، أما صام الاسود بن يزيد حتى اخضر واصفر ؟ أما قالت بنت الربيع بن خيثم له : مالي أرى الناس ينامون وأنت لاتنام ؟ فقال : أن أباك يخاف البيات ، أما كان أبو مسلم الخولاني يعلق سوطا في المسجد يؤدب نفسه اذا فتر ؟ أما صام يزيد الرقاشي أربعين سنة ، وكان يقول : والهفاه سبقتني العابدون ، وقطع بي . أما صام منصور بن المعتمر أربعين سنة ؟ أما كان سفيان الثوري يبكي الدم من الخوف ؟ أما كان ابراهيم بن أدهم يبول الدم من الخوف ؟ أما تعلمين أخيار الأئمة الأربعة في زهدهم وتعبدهم ، أبو حنيفة ، ومالك ، والشافعي ، وأحمد . احذري من الاخلاص الى صورة العلم ، مع ترك العمل به ، فانها حالة الكسالى الزمنى :

وخذ لك منك على مهلة ومقبل عيشك لم يدبر
وخف هجمة لا تقيل العنا وتطوى الورود على المصدر
ومثل لنفسك أى الرعي ل "يضمك في حلبة المحشر

٤١ - فصل - مما يزيد العلم عندى فضلا ، ان قومنا شاغلوا بالتعبد عن العلم . فوقفوا عن الوصول الى حقائق الطلب ، فروى عن بعض القدماء انه قال لرجل : يا أبا الوليد ، ان كنت أبا الوليد ، يتورع ان يكنيه ولا ولد له . ولو أوغل هذا في العلم لعلم ان النبي صلى الله عليه وسلم : كنى صهيبا ابا يحيى ، وكنى طفلا (يا ابا عمير ، ما فعل النغير) وقال بعض المتزهدين : قيل لى يوما كل من هذا اللبن . فقلت : هذا يضرني ، ثم وقفت بعد مدة عند الكعبة فقلت : اللهم انك تعلم انى ما أشركت بك طرفة عين ، فهتف

« ١ » في هامش الهندية : الرعيل بالعين المهملة والياء المشناة التحتية . قال في النهاية

يقال للقطعة من الفرسان رعلة وجماعة الخيل رعيل . وفيها : الروابي بدل الورود .

بي هاتف - ولا يوم اللين - وهذا لو صح جاز أن يكون تأديبا له ،
لثلا يقف مع الاسباب ناسيا للمسبب ، والا فالرسول صلى الله عليه وسلم
قد قال : ما زالت أكلة خيبر تعاودني حتى الآن قطعت ابهرى . وقال : ما نفعى
مال كمال ابى بكر ، ومن المتزهدين اقوام يرون التوكل قطع الاسباب
كلها ، وهذا جهل بالعلم . فان النبي صلى الله عليه وسلم : دخل الغار ، وشاور
الطبيب ، ولبس الدرع ، وحفر الخندق ، ودخل مكة في جوار المطعم بن
عدى وكان كافرا ، وقال لسعد : لأن تدع ورثتك اغنياء خير لك من ان
تدعهم حالة يتكففون الناس ، فالوقوف مع الاسباب مع نسيان المسبب
غلط ، والعمل على الاسباب مع تعلق القلب بالمسبب هو المشروع ، وكل
هذه الظلمات انما تقطع بمصباح العلم ، ولقد ضل من مشى في ظلمة الجهل
او في زقاق الهوى .

٤٢ - فصل - ما أزال اتعجب ممن يرى تفضيل الملائكة على
الانبياء والاولياء ، فان كان التفضيل بالصور . فصورة الآدمى أعجب
من ذوى اجنحة ، وان تركت صورة الآدمى لاجل اوساخها المنوطة بها
فالصورة ليست الآدمى ، انما هي قالب . ثم قد استحسن منها ما يستقبح
في العبادة ، مثل خلوف فم الصائم ، ودم الشهداء ، والنوم في الصلاة ،
فبقيت صورة معمورة ، وصار الحكم للمعنى . ألهم مرتبة يحبهم ، او
فضيلة يباهى بهم . وكيف دار الأمر فقد سجدوا لنا . وهو صريح في
تفضيلنا عليهم ، فان كان التفضيل بالعلم فقد علمت القصة ، يوم «لا علم لنا» . «يا آدم
انبثهم» . وان فضلت الملائكة بجوهرية ذواتهم فجوهرية ارواحنا من ذلك
الجنس ، وعلينا اثقال اعباء الجسم ، بالله لو لا احتياج الراكب الى الناقة فهو

يتوقف لطلب علقها ، ويرفق في السير ، بها لطرق أرض منى قبل العشر .
واعجبا اتفضل الملائكة بكثرة التعبد : فثام صعاد ^(١) ، أوتعجب من الماء
إذا جرى ، أو من منحدر يسرع ، انما العجب من مصاعد ؛ بلى قد يتصور
منهم الخلاف ، ودعوى الالهية . لقد رتهم على ذلك الصخور ، وشق الارض
لذلك توعدوا : «ومن يقل منهم انى إله من دونه فذلك نجزيه جهنم » ، لكنهم
يعلمون عقوبة الحق فيحذروه . فاما بعدنا عن المعرفة الحقيقية وضعف يقيننا
بالناهي ، وغلبة شهوتنا مع الغفلة . تحتاج الى جهاد أعظم من جهادهم ، تالله
لو ابتلى احد المقربين بما ابتلينا به ، لم يقدر على التماسك ، يصبح احدا وخطاب
الشرع يقول له : الكسب لعائلتك ، واحذر في كسبك . وقد تمكن منه
ماليس من فعله ، كحب الاهل ، وعلق الولد بنياط القلب ، واحتياج
بدنه الى مالا بد منه ، فتارة يقال للخليل عليه السلام : اذبح ولدك بيدك ؛
واقطع ثمرة فؤادك بكفك ، ثم قم الى المنجنيق لترمي في النار . وتارة يقال
لموسى عليه السلام : صم شهرا ليلا ونهارا ، ثم يقال للغضبان : اكظم ، وللبصير
اغضض ، ولذى المقول اصمت ، ولستلذ النوم تهجد ، ولمن مات حبيبه
اصبر ، ولمن أصيب في بدنه اشكر ، وللواقف في الجهاد بين اثنين لا يحل
ان تفر . ثم اعلم أن الموت يأتى باصعب المرات فينزع الروح عن البدن ،
فاذا نزل فائت ، واعلم أنك ممزق في القبر فلا تتسخط لأنه مما يجرى به
القدر ، وان وقع بك مرض فلا تشك الى الخلق ، فهل للملائكة من
هذه الاشياء شيء ؟ وهل ثم إعبادة ساذجة ليس فيها مقاومة طبع ، ولا
رد هوى ، وهل هى إلا عبادة صورية بين ركوع وسجود وتسبيح ، فإن

عبادتهم المعنوية من عبادتنا؟ ثم اكثروا في خدمتنا بين كتبة علينا، ودافعين عنا، ومسخرين لأرسال الريح والمطر، والكبر وظائفهم الاستغفار لنا، فكيف يفضلون علينا بلا علة ظاهرة؟ وأما حكمت على محك التجارب منهم هاروت وماروت، فخرجوا أقبح من بهرج، ولا تظن أنى أعتقد في تعبد الملائكة نوع تقصير، لأنهم شديداً الأشفاق والخوف. أعلمهم بعظمة الخالق لكن طمأنينة من لم يخط، تقوى نفسه. وانزعاج الغايص في الزلل ترقى روحه إلى التراقي، فأعرفوا أخوانى شرف أقداركم، وصونوا جواهركم عن تدنيسها بلوم الذنوب. فأنتم معرض الفضل على الملائكة، فاحذروا أن تحطمكم الذنوب إلى حضيض البهائم، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

٤٣ - فصل - رأيت كثيراً من الخلق وعالماً من العلماء، لا يذهبون عن البحث عن أصول الأشياء التي أمروا بعلم جهابها، من غير بحث عن حقايقها. كالروح مثلاً. فإن الله تعالى سترها بقوله: «قل الروح من أمر ربي» فلم يقنعوا. وأخذوا يبحثون عن ماهيتها ولا يقومون بشيء. ولا يثبت لأحد منهم برهان على ما يدعيه، وكذلك العقل. فإنه موجود بلا شك، كما أن الروح موجودة بلا شك كلاهما يعرف بآثاره لا بحقيقة ذاته فإن قال قائل: فما السر في كتم هذه الأشياء؟ قلت: لأن النفس ما تزال تترقى من حالة إلى حالة فلما طلعت على هذه الأشياء لترقى إلى خالقها. فكان ستر مادونه زيادة في تعظيمه لأنه إذا كان بعض مخلوقاته يعلم جملة^(١) فهو أجل وأعلى، ولو قال قائل: ما للصواعق. وما البرق. وما الزلازل؟ قلنا: شيء مزعج، ويكفى. والسر في ستر هذا. أنه لو كشفت حقائقه خف مقدار تعظيمه.

«١» في السخنين «يعلم جملة» وفي الهندية يجهل يعلم جهله.

ومن تلمح هذا الفصل علم أنه فصل عزيز فاذا ثبت هذا في المخلوقات فالخالق اجل وأعلا. فينبغي ان يوقف في اثباته على دليل وجوده ، ثم يستدل على جواز بعثه رسله ، ثم تتلقى أوصافه من كتبه ورسله ، ولا يزاد على ذلك . ولقد بحث خلق كثير عن صفاته بأرأيهم فعاد وبال ذلك عليهم ، واذا قلنا : أنه موجود وعلمنا من كلامه أنه سميع ، بصير ، حي ، قادر . كفانا هذا في صفاته ، ولا نخوض في شيء آخر . وكذلك نقول : متكلم والقرآن كلامه . ولا تتكلف ما فوق ذلك ، ولم يقل السلف تلاوة ومتلو ، وقراءة ومقروء ، ولا قالوا استوى على العرش بذاته ، ولا قالوا ينزل بذاته ، بل أطاقوا ماورد من غير زيادة ، ونقول لما ثبت بالدليل مالا يجوز عليه ، وهذه كلمات كالمثال فقس عليها جميع الصفات . تفزسايا من تعطيل ، متخلصا من تشبيه .

٤٤ - فصل - رأيت أكثر الخلق في وجودهم كالمدومين ، فمنهم من لا يعرف الخالق ، ومنهم من يثبت على مقتضى حسه ، ومنهم من لا يفهم المقصود من التكليف . فترى المترسمين بالزهد يدأبون في القيام والقعود ، ويتركون الشهوات ، وينسون ماقد أنسوا به من شهوة الشهرة ، وتقبيل الايادي . ولو كلم أحدهم قال : المثلث يقال هذا ؛ ومن فلان الفاسق ، فهو لاء لا يفهمون المقصود . وكذلك كثير من العلماء . في احتقارهم غيرهم ، والتكبر في نفوسهم ، فتعجبت كيف يصلح هؤلاء لمجاورة الحق ، وسكنى الجنة ؛ فرأيت ان الفائدة في وجودهم في الدنيا ، تجانس الفائدة في دخولهم الجنة ، فانهم في الدنيا بين معتبر به . يعرف عارف الله سبحانه نعمة الله عليه . بما كشف له مما غطى عن ذاك ، ويتم النظام بالافتداء . تصور اولئك ، فان العارف لا يتسع وقته لمخالطة من يقف مع الصورة ، فازهد كراعي البهم .

والعالم كمؤدب الصبيان ، والعارف ملقن الحكمة ، ولولا نفاط ^(١) الملك وحارسه . ووقادأتونه . ماتم عيشه ، فمن تمام عيش العارف استعمال أوْلئك بحسبهم ، فاذا وصلوا اليه حرر مانعهم ^(٢) ، وفيهم من لا يصل اليه ، فيكون وجود أوْلئك كزيادة - لا - في الكلام . هي حشو ، وهي مؤكدة ، فان قال قائل : فهب هذا يصح في الدنيا . فكيف في الجنة ؟ والجواب . ان الانس بالجيران مطلوب ، ورؤية القاصر من تمام لذة الكامل ^(٣) ، ولكل شرب . ومن تأمل ما اشترت اليه كفاه رمز لفظي عن تطويل الشرح ،

٤٥ - فصل - لما تلمحت تدير الصانع في سوق رزقي . بتسخير السحاب ، وانزال المطر برفق ، والبذر تحت الأرض . كالموتى ، قد عفن ينتظر نفخة من صور الحياة ، فاذا به اهتز خضراً ، وانقطع عنه الماء ، مديد الطلب يستعطى ، وامال رأسه خاضعاً ، ولبس حلل التغير ، فهو محتاج الى ما أنا محتاج اليه من حرارة الشمس ، وبرودة الماء ، ولطف النسيم ، وتروية الارض . فسبحان من أرانى فيما يرينى به . كيف ترويتى فى الاصل ، فيما أتيها النفس التى قد اطلعت على بعض حكمه ، قبيح بك والله الاقبال على غيره ، ثم العجب كيف تقبلين على فقير مثلك ، ينادى لسان حاله بى مثل ما بك ، يا حمام ! فارجمى الى الاصل الاول ، واطلبي من المسبب ، وياطوبى لك أن عرفتيه ، فان عرفانه ملك الدنيا والآخرة .

٤٦ - فصل - كنت فى بداية الصبوة . قد اهتمت سلوك طريق الزهاد ، بادامة الصوم والصلاة ، وحببت الى الخلوة . فكنت أجد قلباً

« ١ » فى الأحمدية : نفاط بالغين المعجبة والظاء المشالة . « ٢ » فى الهندية : مانعهم .

« ٣ » فى المصرية والاحمدية لذة الكلام .

طيباً . وكانت عين بصيرتي قوية الحدة تتأسف على لحظة تمضي في غير طاعة ، وتبادر الوقت في اغتنام الطاعات ، ولي نوع انس وحلاوة مناجاة . فانهى الأمر الى ان صار بمض ولالة الامور يستحسن كلامي ، فأمالني اليه فقال الطبع ، ففقدت تلك الحلاوة ، ثم استمالني آخر . فكنت اتقى مخالطته ومطاعمه ، لخوف الشبهات . وكانت حالي قريية ، ثم جاء التأويل فانبسطت فيما يباح ، فعدم ما كنت أجد . وصارت المخالطة توجب ظلمة في القلب الى ان عدم النور كله ، فكان حنيني الى ما ضاع مني يوجب ازعاج أهل المجلس ، فيتوبون ويصلحون . واخرج مفلسا فيما بيني وبين حالي . وكثر ضجيجي من مرضي ، وعجزت عن طب نفسي ، فلجأت الى قبور الصالحين ، وتوسلت في صلاحي ، فاجتذبتني لطف مولاي بي الى الخلوة على كراهة مني ، ورد قلبي على بعد نفوره عني ، وأراني عيب ما كنت أوثره ، فافقت من مرض غفلي ! وقلت في مناجاة خلوتي : سيدي كيف اقدر على شكرك ؟ وبأى لسان انطق بمدحك ؟ اذ لم تؤاخذني على غفلي ، ونبهتني من رقدتي ، واصلحت حالي على كره من طبعي ، فما أربحني فيما سلب مني إذ كانت ثمرته اللجا اليك ، وما أوفر جمعي اذ ثمرته اقبالك^(١) على الخلوة بك ، وما أغنانني اذ أفقرتني اليك ، وما آنسني اذ أوحشتني بالتجارب لخلقك ، آه على زمان ضاع في غير خدمتك ! أسفا لوقت مضى في غير طاعتك ! قد كنت اذا انتهيت وقت الفجر لا يؤلمني نومي طول الليل ، واذا انسليخ عني النهار لا يوجعني ضياع ذلك اليوم ، وما علمت ان عدم الاحساس لقوة المرض . فالآن قد هبت نسائم العافية ، فاحسست

بالألم فاستدلت على الصحة . فبإعظيم الانعام تم إلى العافية ، آه من سكر
لم يعلم قدر عربده إلا في وقت الافاقة ؛ لقد فتقت ما يصعب رتقه . فوأسفا
على بضاعة ضاعت ، وعلى ملاح تعب في موج الشمال مصاعداً مدة ثم
غلبه النوم فرد إلى مكانه الأول ، يا من يقرأ تحذيري من التخليط . فاني
وان كنت خنت نفسي بالفعل ، نصيح لآخواني بالقول ، احذروا آخواني
من الترخص فيما لا يؤمن فسادة . فان الشيطان يزين المباح في أول مرتبة .
ثم يجر إلى الجناح . فتلمحوا المآل ، وافهموا الحال ، وربما أراكم الغاية الصالحة ،
وكان في الطريق إليها نوع مخالفة ، فيكفي الاعتبار في تلك الحال . بآبيكم
« هل ادلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى » ؛ انما تأمل آدم الغاية وهي الخلد .
ولكنه غلط في الطريق . وهذا أعجب مصايد إبليس يصيد بها العلماء ،
يتأولون لعواقب المصالح ، فيستعجلون ضرر المفاسد . مثاله أن يقول للعالم
ادخل على هذا الظالم فاشفع في مظلوم ، فيستعجل الداخل رؤية المنكرات ،
ويتزلزل دينه . وربما وقع في شرك صار به أظلم من ذلك الظالم ، فمن لم يثق
بدينه فليحذر من المصائد ، فانها خفية . واسلم ما للجبان العزلة ، خصوصاً
في زمان قد مات فيه المعروف ، وعاش المنكر ، ولم يبق لاهل العلم وقع
عند الولاية . فمن داخلهم دخل معهم فيما لا يجوز ، ولم يقدر على جذبهم مما
هم فيه . ثم من تأمل العلماء الذين يعملون لهم في الولايات يراهم منسلخين
من نفع العلم قد صاروا كالشرط . فليس إلا العزلة عن الخلق . والاعراض
عن كل تأويل فاسد في المخالطة ، ولأن انفع نفسي وحدي . خير لي من
أن أنفع غيري واتضرر ، فالحذر الحذر من خواذع التأويلات ، وفواسد
الفتاوى ، والصبر الصبر على ما توجبها العزلة . فانه ان انفردت بمولاك

فتفتح لك باب معرفته . فهات كل صعب ، وطاب كل مر ، وتيسر كل عسر ، وحصلت كل مطلوب ، والله الموفق بفضله ، ولا حول ولا قوة الا به .

٤٧ - فصل - تأملت على نفسي تأويلا في مباح انال به شيئا من الدنيا ، الا انه في باب الورع كدر . فرأيت به أولا قد احتاب در الدين فذهبت حلاوة المعاملة لله تعالى ، ثم عاد فقلص ضرع حلي له فوقع الفقد للحالين ، فقلت لنفسي : مامثلك الا كمثل وال ظالم جمع من غير حله ، فصدور . فاخذ منه الذي جمع واجتر مالم يجمع . فالحذر الحذر من فساد التأويل ، فان الله تعالى لا يخادع ، ولا ينال ما عنده بمصيبته .

٤٨ - فصل - رأيت نفسي كلما صفا فكرها ، أو انعطت بدارج ، أو زادت قبور الصالحين ، تتحرك همتها في طلب العزلة . والاقبال على معاملة الله تعالى . فقلت لها يوما : وقد كلتني في ذلك . حديثني ما مقصودك ؟ وما نهاية مطلوبك ؟ أتراك تريدني مني أن اسكن قفرا لا أنيس به ، فتفتوتني صلاة الجماعة . ويضيع مني ما قد علمته لفقد من أعلمه ، وان آكل الخشب الذي لم اتعوده ، فيقع نضوى طالحا في يومين . وان البس الخشن الذي لا اطيعه . فلا أدري من كرب محمولي أين أنا ؟ وان أتشال عن طلب ذرية تتعبد بعدي مع بقاء القدرة على الطلب . بالله ! مانفعني العلم الذي بذلت فيه عمري ان وافقتك ، وانا اعرفك غلط ما وقع لك بالعلم . اعلمى ان البدن مطية ، والمطية اذا لم يرفق بها لم تصل براكبها الى المنزل ، وليس مرادى بالرفق الا كشار من الشهوات ، وانما اعنى أخذ البلغة الصالحة للبدن ، فحينئذ يصفو الفكر ، ويصح العقل ، ويقوى الذهن ،

ألا ترى الى تأثير المعوقات عن صفاء الذهن في قوله عليه الصلاة والسلام:
لا يقضى القاضي بين اثنين وهو غضبان ، وقاس العلماء على ذلك الجوع
وما يجرى مجراه من كونه حاقنا . أو حاقبا ^(١) . وهل الطبع الا ككتاب
يشغله الآكل ، فاذا رمى له ما يتشاغل به طاب له الأكل . فاما
الانفراد والعزلة فمن الشر لا عن الخير . ولو كان فيها لك وقع خير لنقل
عن رسول الله صلى الله عليه وسلم . وعن اصحابه رضى الله عنهم . هيبات
لقد عرفت ان اقواما دام بهم التقلل واليبس الى ان تغير فكرهم ، وقوى
الخلط السوداوى عليهم ، فاستوحشوا من الناس ، ومنهم من اجتمعت له من
المآكل الرديئة اخلاط مجة . فبقى اليوم واليومين والثلاثة لا يأكل وهو
يظن ذلك من امداد اللطف ، واذا به من سوء الهضم . وفيهم من ترقى
به الخلط الى رؤية الاشباح فيظنها الملائكة ، فالله الله في العلم . والله
الله في العقل ، فان نور العقل لا ينبغي ان يتعرض باطفائه ، والعلم لا يجوز
الميل الى تنقيصه ، فاذا حفظا حفظا وظائف الزمان ، ودفعوا مايؤذى ،
وجلبوا مايصلح ، وصارت القوانين مستقيمة في المطعم والمشرى والمخالطة .
فقلت لى النفس : فوظف لى وظيفة واحسبني مريضا قد كتبت له شربة .
فقلت لها : قد دلتك على العلم وهو طبيب ملازم . يصف كل لحظة لكل
داء يعرض دواء يلام ، وفي الجملة ينبئ لك ملازمة تقوى الله عز وجل في
المنطق والنظر ، وجميع الجوارح ، وتحقق الحلال في المطعم ، وايداع كل
لحظة مايصلح لها من الخير ، ومناهية الزمان في الافضل ، ومجانبة مايؤدى
الى مايؤذى من نقص ربح أو وقوع خسران . ولا تعملى عملا الا بعد

تقديم النية ، وتأهبي لمزعج الموت فكأن قد ، وما عندك من مجيئه في أى وقت يكون ، ولا تتعرضي لمصالح البدن . بل وفريها عليه وناوليه اياها على قانون الصواب ، لاعلى مقتضى الهوى ، فان اصلاح البدن سبب لاصلاح الدين : ودعى الرعونة التى يدل عليها الجهل لا العلم ، من قول النفس فلان يا كل الخل والبقل ، وفلان لا ينام الليل ، فاحلى ماتطيقين . وما قد علمت قوة البدن عليه فان البهيمة اذا أقبلت الى نهر أو ساقية . فضربت لتقفز . لم تفعل حتى تزن نفسها ، فان علمت فيها قوة الطفر طفرت ، وان علمت أنها لا تطيق لم تفعل ، ولو قتلت . وليس كل الابدان تتساوى فى الطاقة ، ولقد حمل اقوام من المجاهدات فى بداياتهم اشياء أوجبت امراضا قطعتهم عن خير ، وتسخطت قلوبهم بوقوعها ، فعليك بالعالم . فانه شفاء من كل داء ، والله الموفق .

٤٩ - فصل - عجبت من اقوام يدعون العلم ، ويميلون الى التشبيهه بحملهم الاحاديث على ظواهرها ، فلو أنهم أمروها كما جاءت ساموا . لأن من أمر ما جاء مصر من غير اعتراض ولا تعرض ، فاقال شيئا لاله ولا عليه ، ولكن اقواما قصرت علومهم ، فرأت أن حمل الكلام على غير ظاهره نوع تعطيل ، ولو فهموا سعة اللغة لم يظنوا هذا . وما هم الا بمثابة قول الحجاج - كاتبه وقد مدحته الخنساء فقالت :

اذا هبط الحجاج ارضا مريضة تتبع اقصى داءها فشفاهها

شفاهها من الداء العضال الذى بها غلام اذا هز القناة شفاهها

فلما أتمت القصيدة . قال : لكاتبه اقطع لسانها . فجاء ذلك الكاتب المغفل بالموسى . فقالت له : ويلك انما قال اجزل لها العطاء . ثم ذهبت الى الحجاج

فقلت : كادوا الله يقطع مقولي . فكذلك الظاهرية الذين لم يسلموا بالتسليم ، فانه من قرأ الآيات والاحاديث ولم يزد . لم ، ألمه . وهذه طريقة السلف . فأما من قال : الحديث يقتضى كذا ، ويحمل على كذا ، مثل ان يقول استوى على العرش بذاته ، وينزل الى السماء الدنيا بذاته فهذه زيادة فهمها قائلها من الحس لا من النقل ، ولقد عجبت لرجل أنداسى يقال له ابن عبد البر . صنف كتاب التمهيد . فذكر فيه حديث النزول الى السماء الدنيا فقال : هذا يدل على أن الله تعالى على العرش . لانه لولا ذلك لما كان لقوله ينزل معنى . وهذا كلام جاهل بمعرفة الله عز وجل . لأن هذا استسلف من حسه ما يعرفه من نزول الاجسام . ففاس صفة الحق عليه ، فاين هؤلاء واتباع الأثر ، ولقد تكلموا باقبح ما يتكلم به المتأولون ، ثم عابوا المتكلمين ،

واعلم أيها الطالب للرشاد . أنه قد سبق اليينا من العقل والنقل اصلان راسخان . عليهما امر الاحاديث كلها ، أما النقل فقوله سبحانه وتعالى : « ليس كمثله شيء » . ومن فهم هذا لم يحمل وصفه على ما يوجب الحس . وأما العقل فانه قد علم مباينة الصانع للمصنوعات ، واستدل على حدثها بتغيرها ، ودخول الانفعال عليها ، فثبت له قدم الصانع ، واعجبا كل العجب من راد لم يفهم : أليس في الحديث الصحيح . أن الموت يذبح بين الجنة والنار ، أو ليس العقل اذا استغنى في هذا صرف الأمر عن حقيقته لما ثبت عند من يفهم ماهية الموت فقال : الموت عرض يوجب بطلان الحياة . فكيف يمت الموت ؟ فاذا قيل له فما تصنع بالحديث . قال : هذا ضرب مثل باقامة صورة ليعلم بتلك الصورة الحسية فوات ذلك المعنى . قلنا له : فقد روى في الصحيح . تأتى البقرة وآل عمران كأنهما غمامتان . فقال : الكلام لا يكون غمامة ، ولا

يتشبه بها ، قلنا له افتعل النقل ، قال : لا ، ولكن يأتي ثوابهما ، قلنا : فما الدليل الصارف لك عن هذه الحقائق . فقال : علمى بان الكلام لا يتشبه بالاجسام ، والموت لا يذبح ذبح الانعام ، ولقد علمتم سعة لغة العرب . ما ضاقت اعطانكم من سماع مثل هذا ، فقال العلماء صدقت . هكذا نقول في تفسير مجيء البقرة ، وفي ذبح الموت ، فقال : واعجبوا لكم صرفتم عن الموت الكلام ما لا يليق بهما ، حفظا لما علمتم من حقايقهما فكيف لم تصرفوا عن الاله القديم ما يوجب التشبيه له بخلقه ، بما قد دل الدليل على تنزيهه عنه ، فما زال يجادل الخصوم بهذه الادلة . ويقول : لا أقطع حتى أقطع ، فما قطع حتى قطع .

٥٠ - فصل - تفكرت في السر الذي أوجب حذف آية الرجم من القرآن لفظا . مع ثبوت حكمها اجماعا ، فوجدت لذلك معنيين . أحدهما : لطف الله تعالى بعباده في أنه لا يواجههم بأعظم المشاق . بل ذكر الجلد ، وستر الرجم ، ومن هذا المعنى قال بعض العلماء : ان الله تعالى قال في المكروهات « كتب عليكم الصيام » . على لفظ لم يسم فاعله . وان كان قد علم أنه هو الكاتب ، فلما جاء الى ما يوجب الراحة قال « كتب على نفسه الرحمة » والوجه الثاني : أنه يبين بذلك فضل الأمة في بذلها النفوس قنوعا ببعض الادلة فان الاتفاق لما وقع على ذلك الحكم كان دليلا . الا أنه ليس كالدليل المتفق لاجله ، ومن هذا الجنس شروع الخليل عليه الصلاة والسلام . في ذبح ولده بمنام ، وان كان الوحي في اليقظة أكد .

٥١ - فصل - عرضت لي حالة لجأت فيها بقلبي الى الله تعالى وحده ، عالما بأنه لا يقدر على جلب نقى ودفع ضرى سواه ، ثم قتت أتمرض بالاسباب .

فانكر على يقينى. وقال : هذا قدح فى التوكل ، فقلت : ليس كذلك . فان
الله تعالى وضع من الحكم وكان معنى حالى ان ما وضعت لا يفيد وان وجوده
كالعدم . وما زالت الاسباب فى الشرع كقوله تعالى : « واذا كنت فيهم
فاقت لهم الصلاة فلتقم طائفة منهم معك واياخذوا أسلحتهم » وقال تعالى
« فذروه فى سبيله » وقد ظاهر النبي صلى الله عليه وسلم بين درعين ، وشاور
طبيين ، ولما خرج الى الطائف . لم يقدر على دخول مكة . حتى بعث الى
المطعم بن عدى فقال ادخل فى جوارك ، وقد كان يمكنه ان يدخل متوكلا بلا
سبب . فاذا جعل الشرع الامور منوطة بالاسباب . كان اعراضى عن
الاسباب دفعا للحكمة ، ولهذا ارى أن التداوى مندوب اليه ، وقد ذهب
صاحب مذهبي ^(١) الى أن ترك التداوى أفضل ، ومنعنى الدليل من اتباعه
فى هذا فان الحديث الصحيح أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : ما أنزل الله
داء الا وأنزل له دواء فتداؤوا ومرتبة هذه اللفظة الأمر ، والأمر اما ان
يكون واجبا . أو ندبا . ولم يسبقه حظر . فيقال : هو امر إباحة ، وكانت
عائشة رضى الله عنها تقول : تعلمت الطب من كثرة امراض رسول الله
صلى الله عليه وسلم . وما ينعت له ، وقال عليه الصلاة والسلام لعلى بن أبى
طالب رضى الله عنه : « كل من هذا فانه أوفق لك من هذا » ومن ذهب الى
أن تركه أفضل احتج بقوله عليه الصلاة والسلام : « يدخل الجنة سبعون
الفا بلا حساب » ثم وصفهم فقال « لا يكتوون ، ولا يسترقون ، ولا
يتطيرون ، وعلى ربهم يتوكلون » وهذا لا ينافى التداوى . لانه قد كان أقوام
يكتوون لئلا يمرضوا ويسترقون لئلا تصيبهم نكبة ، وقد كوى عليه الصلاة

(١) يعنى به الامام احمد بن حنبل

والسلام سعد بن زرارة ، ورخص في الرقية في الحديث الصحيح . فعلمنا أن المراد ما أشرنا إليه . وإذا عرفت الحاجة الى اسهال الطبع . رأيت أن اكل البلوط مما يمنع عنه علمي ، وشرب ماء التمر هندی أوفق ، وهذا طب . فإذا لم أشرب ما يوافقني . ثم قلت اللهم عافني ، قالت لي الحكمة : أما سمعت أعقلها وتوكل ؟ اشرب وقيل عافني ، ولا تكن كمن بز زرعه وبين النهر كف من تراب ، تكاسل ان يرفعه بيده ، ثم قام يصلي صلاة الاستسقاء ، وما هذه الحالة الا كحال من سافر على التجربة ، وانما سافر على التجربة لانه يجرب بربه عز وجل هل يرزقه اولا . وقد تقدم الامر اليه : « وتزودوا » فقال : لا أتزود . فهذا هالك قبل ان يهلكه ، ولو جاء وقت صلاة وليس معه ماء ، ليم على تفريطه ، وقيل له : هـ لا تستصحب الماء قبل المفازة ، فاحذر الحذر من افعال اقوام دققوا فمرقوا عن الاوضاع الدينية . وظنوا أن كمال الدين بالخروج عن الطباع ، والمخالفة للاوضاع ، ولولا قوة العلم والرسوخ فيه . لما قدرت على شرح هذا ولا عرفته . فافهم ما أشرت اليه . فهو انفع لك من كراريس تسمعها . ولكن مع اهل المعاني لا مع اهل الحشو .

٥٢ - فصل - تلمحت على خلق كثير من الناس اهمال ابدانهم ، فمنهم من لا ينظف فمه بالخلل بعد الاكل . ومنهم من لا ينقى يديه في غسلها من الزم ، ومنهم من لا يكاد يستاك وفيهم من لا يكتحل ، وفيهم من لا يراعى الا بطل الى غير ذلك فيعود هذا الاهمال بالخلل في الدين والدنيا ، أما الدين فانه قد امر المؤمن بالتنظف والاغتسال للجمعة لاجل اجتماعه بالناس ، ونهى عن دخول المسجد اذا أكل الثوم ، وأمر الشرع بتنقية البراجم . وقص الاظفار . والسواك . والاستحداد . وغير ذلك من الآداب ، فاذا

أهمل ذلك ترك مسنون الشرع . وربما تعدى بعض ذلك الى فساد العبادة ،
 مثل ان يهمل اظفاره فيجمع تحته الوسخ المانع للماء في الوضوء ان يصل ،
 وأما الدنيا فاني رأيت جماعة من المهملين انفسهم . يتقدمون الى السراير .
 والغفلة التي أوجبت اهمالهم انفسهم . أوجب جهلهم بالاذى الحادث عنهم .
 فاذا أخذوا في مناجاة السر . لم يمكن ان أصدف عنهم ، لانهم يقصدون السر .
 فالتقى الشدائد من ريح افواههم ، ولعل اكثرهم من وقت انتباههم ما أمر
 أصبمه على اسنانه ، ثم يوجب مثل هذا نفور المرأة ، وقد لا تستحسن ذكر
 ذلك للرجل ، فيشمر ذلك التفاتها عنه وقد كان ابن عباس رضى الله عنهما
 يقول : انى لأحب ان أنزين للمرأة . كما أحب ان تزين لى ، وفي الناس من
 يقول : هذا تصنع وليس بشيء . فان الله تعالى زيننا لما خلقنا . لان للعين
 حظا في النظر ، ومن تأمل اهداب العين والحاجبين . وحسن ترتيب
 الخلقة . علم أن الله تعالى زين الآدمى ، وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم
 أنظف الناس وأطيب الناس وفي الحديث عنه صلى الله عليه وسلم يرفع يديه .
 حتى تبين عفرة ابطيه ، وكان ساقه ربما انكشف فيكنها جارة وكان لا
 يفارقه السواك وكان يكره ان يشم منه ريح ليست طيبة . وفي حديث أنس
 الصحيح : ما شانه الله بيضاء . وقد قالت الحكماء : من نظف ثوبه نل
 همه ، ومن طاب ريحه زاد عقله ، وقال عليه الصلاة والسلام لاصحابه
 : « ما لكم تدخلون على فلحاء . استاكوا » وقد فضلت الصلاة بالسواك ،
 على الصلاة بغير سواك ، فالمتنظف ينعم نفسه ، ويرفع منها عتدها ، ^(١) وقد
 قال الحكماء : من طال ظفره قصرت يده . ثم أنه يقرب من قلوب الخلق ،

(١) في المصرية «عبدتها» كذا مهمل في الاحدية عندها . وفي الهندية عتدها وليحرر

وتجبه النفوس ، لنظافته وطيبه وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يحب الطيب . ثم انه يؤنس الزوجة بتلك الحال . فان النساء شقائق الرجال ، فكما أنه يكره الشيء منها فكذلك هي تكرهه ، وربما صبر هو على ما يكره وهي لا تصبر ، وقد رأيت جماعة يزعمون أنهم زهاد . وهم من افذر الناس ، وذلك أنهم ما قوت مهم العلم . وأما ما يحكى عن داود الطائي : أنه قيل له لو سرخت لحيتك ، فقال : انى عنها مشغول ، فهذا قول معتذر عن العمل بالسنة ، والاخبار عن غيبته عن نفسه بشدة خوفه من الآخرة ، ولو كان مفيقا لذلك لم يتركه ، فلا يحتاج بحال المغلوبين ومن تأمل خصائص الرسول صلى الله عليه وسلم رأى كاملا في العلم والعمل ، فيه يكون الاقتداء وهو الحجة على الخلق .

٥٣- فصل - تأملت مبالغة ارباب الدنيا في اتقاء الحر والبرد . فرأيتها تعكس المقصود في باب الحكمة . وانما تحصل مجرد دلالة ولا خير في لذة تعقب ألما فأما الحر فأنهم يشربون الماء المثلوج . وذلك على غاية في الضرر ، واهل الطب يقولون : انه يحدث امراضا صعبة يظهر اثرها في وقت الشيخوخة . ويصنعون الخيوش المضاعفة ، وفي البرد يصنعون اللبود المانعة للبرد ، وهذا من حيث الحكمة مضادا ما وضعه الله تعالى . فانه جعل الحر لتحلل الاخلاط ، والبرد لجودها ، فيجعلون هم جميع السنة ربيعا . فتعكس الحكمة التي وضع الحر والبرد لها ، ويرجع الاذى على الابدان ، ولا يظن سامع هذا اني أمره بملاقاة الحر والبرد وانما أقول له : لا يفرط في التوقي . ويعرض في الحر لما يحلل بعض الاخلاط ، الى حد لا يؤثر في القوة . وفي البرد بأن يصيبك منه الأمر القريب لا المؤذى ، فان الحر والبرد لمصالح البدن . وقد كانت بعض الأمراء يصون نفسه من الحر

والبرد أصلاً فزاد^(١) جوفه فمات عاجلاً ، وقد ذكرت قصته في كتاب
لقط المنافع في علم الطب .

٥٤ - فصل - ليس في التكليف أصعب من الصبر على القضاء ،
ولافيه أفضل من الرضى به ، فاما الصبر : فهو فرض . واما الرضا فهو فضل
وانما أصعب الصبر لأن القدر يجري في الاغلب بمكروه النفس ، وليس
مكروه النفس يقف على المرض والاذى في البدن ، بل هو يتنوع حتى
يتحير العقل في جريان القدر ، فمن ذلك : أنك اذا رأيت مغموراً بالدنيا قد سالت
له أوديتها حتى لا يدري ما يصنع بالمال . فهو يصوغه أو انى يستعملها .
ومعلوم أن البلور والعقيق والشبه ، قد يكون أحسن منها صورة ، غير أن
قلة مبالاته بالشريعة جعلت عنده وجود النهى كعدمه ، ويلبس الحرير .
ويظلم الناس . والدنيا منصبة عليه ، ثم يرى خلقاً من أهل الدين . وطلاب
العلم . مغمورين بالفقر والبلاء ، مقهورين تحت ولاية ذلك الظالم ، فينثذ
يحد الشيطان طريقاً للوسواس ويبتدى بالقدح في حكمة القدر ، فيحتاج
المؤمن الى صبر على ما يلقى من الضر في الدنيا ، وعلى جدال ابليس في
ذلك ، وكذلك في تسليط الكفار على المسلمين والفساق على أهل الدين . وابلغ
من هذا إبلام الحيوان ، وتعذيب الاطفال ، ففي مثل هذه المواطن يتمحض
الايمان ، ومما يقوى الصبر على الحالتين النقل والعقل . أما النقل فالقرآن
والسنة . أما القرآن فنقسم الى قسمين . احدهما بيان سبب إعطاء الكافر
والعاصي ، فمن ذلك قوله تعالى : « إنما نملى لهم ليزدادوا إثماً » ، « ولولا أن
يكون الناس أمة واحدة . لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سقفاً من

(١) كذا في الإحمدية والهنديّة . وفي المصريّة فبرد الحر

فضة» ، « واذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسدوا فيها». وفي القرآن من هذا كثير ، والقسم الثاني : «آيتلاء المؤمنين بما يلقى كقوله تعالى: «أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم» «أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم . مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم الباساء والضراء وزلوا» «أم حسبتم أن تتركوا ولما يعلم الله الذين آمنوا منكم» وفي القرآن من هذا كثير . وأما السنة فمنقسمة الى قول وحال . اما الحال : فانه عليه السلام كان يتقلب على رمال حصير تؤثر في جنبه ، فبكى عمر رضى الله عنه . وقال : كسرى وقيصر في الحرير والدياج ، فقال له صلى الله عليه وسلم : «أفى شك انت يا عمر؟ ألا ترضى أن تكون لنا الآخرة ولهم الدنيا ؟» وأما القول فكقوله عليه الصلاة والسلام : «لو أن الدنيا تساوى عند الله جناح بعوضة ماسقى كافراً منها شربة ماء» . واما العقل : فانه يقوى عساكر الصبر بجنود منها أن يقول : قد ثبتت عندي الأدلة القاطعة بحكمة المقدّر . فلا أترك الأصل الثابت لما يظنه الجاهل خلا . ومنها أن يقول : ما قد استهولته ايها الناظر من بسط يد العاصي هي قبض في المعنى ، وما قد أثر عندك من قبض يد الطائع بسط في المعنى ، لأن ذلك البسط يوجب عقاباً طويلاً ، وهذا القبض يؤثر انبساطاً في الأجر جزيلاً ، فزمان الرجلين ينقضى عن قريب . والمراحل تطوى . والركبان في الحثيث . ومنها ان يقول : قد ثبت ان المؤمن بالله كالاجير ، وأن زمن التكليف كيباض نهار ، ولا ينبغي للمستعمل في الطين ان يلبس نظيف الثياب ، بل ينبغي أن يصابر ساعات العمل ، فاذا فرغ تنظف ولبس اجود ثيابه . فمن ترفه وقت العمل ندم وقت تفريق الاجرة . وعوقب على التواني فيما كلف ، فهذه النبذة تقوى أزر الصبر . وأزديها

بسطا فاقول : أترى اذا أريد اتخاذ شهداء ، فكيف لا يُخلق اقوام يبسطوا ايديهم لقتل المؤمنين ، أفيجوز ان يفتك بعمر الامثل أبي لؤاؤة ؟ وبعلي الا مثل ابن ملجم : أفيصح ان يقتل يحيى بن زكريا الاجبار كافر ، ولو أن عين الفهم زال عنها غشاء العشا . لرأيت السبب لا الاسباب ، والمقدر لا الاقدا ، فصبرت على بلائه . ايثاراً لما يريد ، ومن ههنا ينشأ الرضى . كما قيل لبعض اهل البلاء : ادع الله بالعافية ، فقال : أحبه الى احبه الى الله عز وجل

ان كان رضاكم في سهرى فسلام الله على وسنى

٥٥ - فصل - لما انتهت كتابة الفصل المتقدم . هتف بي هاتف

من باطنى . دعنى من شرح الصبر على الاقدار ، فانى قد اكتفيت بأنموذج ما شرحت . ووصف حال الرضى . فانى أجد نسيما من ذكره فيه روح للروح ، فقلت : أيها الهاتف اسمع الجواب . وافهم الصواب . ان الرضى من جملة ثمرات المعرفة ، فاذا عرفته رضيت بقضائه ، وقد يجرى فى ضمن القضاء مرارات . يجده بعض طعمها الراضى ، أما العارف فتقل عنده المرارات لقوة حلاوة المعرفة ، فاذا ترقى بالمعرفة الى المحبة ، صارت مرارة الاقدار . حلاوة كما قال القائل :

عذابه فيك عذب	وبعدك فيه قرب
وانت عندى كروحي	بل أنت منها أحب
حسبى من الحب أنى	لما نحب أحب

وقال بعض المحبين فى هذا المعنى :

ويقبض من سواك الفعل عندى فتفعله فيحسن منك ذا كا
فصاح بي الهاتف . جدنى بماذا أرضى ، قدرانى أرضى فى اقداره بالمرض

والفقر ، أفأرضى بالكسل عن خدمته ، والبعد عن أهل محبته ؟ فين لي
 ماالذى يدخل تحت الرضى ، مما لايدخل . فقلت له : نعم ماسألت . فاسمع
 الفرق سماع من التى السمع وهو شهيد ، أرض بمانه . فاما الكسل والتخلف
 فذاك منسوب اليك ، فلا ترض به من فعلك ، وكن مستوفيا حقه عليك ،
 مناقشا نفسك فيما يقربك منه ، غير راض منها بالتوانى فى المجاهدة ، فاما
 مايصدر من افضيته المجردة التى لا كسب لك فيها . فكن راضيا بها كما
 قالت رابعة رحمة الله عليها : وقد ذكر عندها رجل من العباد يلتقط من
 مزبلة فيا كل ، فقيل هل لاسأل الله تعالى ان يجعل رزقه من غير هذا ؟
 فقالت : انالراضى لايتخير ومن ذاق طعم المعرفة . وجد فيه طعم المحبة ،
 فوقع الرضى عنده ضرورة ، فينبغى الاجتهاد فى طلب المعرفة بالادلة ، ثم
 العمل بمقتضى المعرفة بالجد فى الخدمة ، لعل ذلك يورث المحبة ، فقد قال
 سبحانه وتعالى ، لايزال العبد يتقرب الى بالنوافل حتى أحبه . فاذا احبته
 كنت سمعه الذى يسمع به ، وبصره الذى يبصر به . فذلك الغنى الا كبر ،
 وواقراه .

٥٦ - فصل - رأيت جمهور العلماء يشغلهم طلبهم للعلم فى زمن
 الصبا عن المعاش ، فيحتاجون الى مالا بد منه . فلا يصلهم من بيت المال
 شىء ، ولا من صلات الاخوان مايكفى ، فيحتاجون الى التعرض بالاذل ، فلم أر
 فى ذلك من الحكمة الاسيبين . احدهما : قمع اعجابهم بهذا الاذلال ، والثانى :
 نفع اولئك بثوابهم ، ثم أمعنت الفكر فتمحنت نكتة لطيفة ، وهو أن
 النفس الايمة اذا رأت حال الدنيا كذلك . لم تساكنها بالقلب ، ونبت
 عنها بالعزم ، ورأت اقرب الأشياء شبيهاها . مزبلة عليها الكلاب ، أو

غائطا يؤتى لضرورة ، فاذا نزل الموت بالرحلة عن مثل هذه الدار . لم يكن للقلب بها متعلق متمكن قهون حينئذ .

٥٧ - فصل - مازال جماعة من المتزهدين يزرون على كثير من العلماء اذا انبسطوا في مباحات والذي يحملهم على هذا الجهل . فلو كان عندهم فضل علم ما عابوهم ؛ وهذا لأن الطباع لا تتساوى ، فرب شخص يصلح على خشونة العيش ، وآخر لا يصلح على ذلك ، ولا يجوز لاحد ان يحمل غيره على ما يطيقه هو . غير أن لنا ضابطا هو الشرع ، فيه الرخصة وفيه العزيمة . فلا ينبغي ان يلام من حصر نفسه في ذلك الضابط ، ورب رخصة كانت افضل من عزائم . لتأثير نفعها ، ولو علم المتزهدون أن العلم يوجب المعرفة بالله تعالى . فتنبت القلوب من خوفه ، وتمحل الاجسام للحذر منه فوجب التاطف بالاجسام حفظا لقوة الراحة . ولأن آلة العلم والحفظ . القلب والفكر ، فاذا رفعت الآلة جاد العمل ، وهذا أمر لا يعلم الا بالعلم . فلجهل المتزهدين بالعلم أنكروا ما لم يعلموا . وظنوا أن المراد إمتاع الابدان ، وانضاء الرواحل ، وما علموا أن الخوف المضني يحتاج الى راحة مقاومة ، كما قال القائل : روحوا القلوب تعي الذكر .

٥٨ - فصل - ليس في الوجود شيء اشرف من العلم ، كيف لا وهو الدليل . فاذا عدم وقع الضلال ، وان من خفي مكائد الشيطان ان يزين في نفس الانسان التعبد . ليشغله عن افضل التعبد وهو العلم ، حتى أنه زين لجماعة من القدماء أنهم دفنوا كتبهم ورموها في البحر . وهذا قد ورد عن جماعة . وأحسن ظني بهم ان أقول : كان فيها شيء من رأيهم وكلامهم فاحبوا انتشاره ، والا فتي كان فيها علم مفيد صحيح لا يخاف عواقبه . كان

رميها اضاعة للمال لا يحل ، وقد دنت حيلة ابليس الى جماعة من المتصوفة حتى منعوا من حمل المحابر تلامذتهم ، حتى قال جعفر الخلدي : لو تركني الصوفية جئتكم باسناد الدنيا ، كتبت مجلسا عن أبي العباس الدوري فلقيني بعض الصوفية فقال : دع علم الورق ، وعليك بعلم الخرق . ورأيت محبرة مع بعض الصوفية . فقال له صوفي : استر عورتك وقد انشدوا للشبلي :
إذا طالبوني بعلم الورق برزت عليهم بعلم الخرق

وهذا من خفي حيل ابليس ولقد صدق عليهم ابليس ظنه ، وإنما فعل وزينه عندهم لسببين . احدهما : أنه أرادهم يمشون في الظلمة ، والثاني : ان تصفح العلم كل يوم يزيد في العالم . ويكشف له ما كان خفي عنه ، ويقوى ايمانه ومعرفته ، ويريه عيب كثير من مسالكه . اذا تصفح منهاج الرسول صلى الله عليه وسلم . والصحابة . فأراد ابليس سد تلك الطرق باخفي حيلة ، فآظهر أن المقصود العمل لا العلم لنفسه ، وخفي على المخدوع أن العلم عمل وأى عمل ، فاحذر من هذه الخديعة الخفية ، فان العلم هو الاصل الاعظم ، والنور الاكبر . وربما كان تقلب الاوراق افضل من الصوم والصلاة . والحج والغزو ، وكمن معرض عن العلم يخوض في عذاب من الهوى في تعبده . ويضيع كثيرا من الفرض بالنفل ويشغل بما يزعمه الافضل عن الواجب ، ولو كانت عنده شعلة من نور العلم لاهتدى ، فتأمل ما ذكرت لك ترشد ان شاء الله تعالى .

٥٩ - فصل - مرّ بي حمّالان تحت جذع ثقيل وهما يتجاوبان بانشاد التنغم . وكلمات الاستراحة ، فاحدهما يصفى الى مايقوله الآخر ثم يعيده أو يجيبه بمثله ، والاخر همته مثل ذلك . فرأيت انهما لو لم يفعلا

هذا زادت المشقة عليهما ، وثقل الأمر ، وكلما فعلا هذا هان الأمر ، فتأملت السبب في ذلك . فإذا به تعليق فكر كل واحد منهما بما يقوله الآخر ، وطربه به ، وإحالة فكره في الجواب بمثل ذلك . فينقطع الطريق ، وينسى ثقل المحمول ، فاخذت من هذا إشارة عجيبة ورأيت الإنسان قد حمل من التكليف أموراً صعبة ، ومن أثقل ما حمل مداراة نفسه ، وتكليفها الصبر عما تحب . وعلى ما تكره . فرأيت الصواب قطع طريق الصبر بالتسلية والتلطيف للنفس ، كما قال الشاعر :

فإن تشكت فعلها المجرة من ضوء الصباح وعدّها بالرواح ضحى
ومن هذا ما يحكى عن بشر الحافي رحمة الله عليه : سار ومعه رجل في طريق
فعطش صاحبه . فقال له أنشرب من هذا البئر فقال بشر اصبر إلى البئر الآخر ،
فلما وصلا إليها قال له البئر الأخرى . فما زال يعمل . ثم التفت إليه فقال له :
هكذا تنقطع الدنيا . ومن فهم هذا الأصل علل النفس وتلطّف بها ووعدّها
الجميل لتصبر على ما قد حملت كما كان بعض السلف يقول لنفسه : والله ما
أريد بمنعك من هذا الذي تحبين إلا الإشفاق عليك ، وقال أبو يزيد رحمة الله
عليه : ما زلت أسوق نفسي إلى الله تعالى وهي تبكى . حتى سقتها وهي
تضحك ، وأعلم أن مداراة النفس والتلطّف بها لازم ، وبذلك ينقطع الطريق
فهذا رمز إلى الإشارة . وشرحه يطول .

٦٠ - فصل - تأملت أشياء تجرى في مجالس الوعظ . يمتدّها

العوام وجهال العلماء قربة وهي منكر وبعد ، وذاك أن المقرئ يطرب
ويخرج الألحان إلى الغناء ، والواعظ ينشد بتطريب أشعار المجنون وليلى ،
فيصفق هذا . ويخرق ثوبه هذا . ويعتقد أن ذلك قربة ومعلوم أن هذه

الالخان كاللوسيقى . يوجب طرباً للنفوس ، فالتعرض بما يوجب الفساد غلط عظيم . وينبغي الاحتساب على الوعاظ في هذا . وكذلك المقابريون . منهم فأنهم يهيجون الحزان ليكثر بكاء النساء . فيعطون على ذلك الاجرة ، ولو أنهم أمروا بالصبر لم ترد النسوة ذلك ، وهذه اضداد للشرع ، قال ابن عقيل : حضرنا عزاء رجل قد مات له ولد ، فقرأ المقرئ يا أسفى على يوسف ، فقلت له : هذه نياحة بالقرآن . وفي الوعاظ من يتكلم على طريق المعرفة والمحبة ، فترى الحائك والسوقي الذى لا يعرف فرائض تلك الصلاة يمزق اثوابه دعوى لمحبة الله تعالى ، والصافي حالاً منهم وهو أصلحهم يتخايل بوجهه شخصاً هو الخالق ، فيبكيه شوقه اليه لما يسمع من عظمته ورحمته وجماله ، وليس ما يتخايلونه المعبود ، لان المعبود لا يقع فى خيال ، وبعد هذا فالتحقيق مع العوام صعب ، ولا يكادون ينتفعون بحق الحق . الا أن الواعظ مأمور بان لا يتعدى الصواب ، ولا يتعرض لما يفسدهم . بل يجذبهم الى ما يصلح بالطف وجه ، وهذا يحتاج الى صناعة ، فان من العوام من يعجبه حسن اللفظ ، ومنهم من يعجبه الاشارة ، ومنهم من ينقاد بببت من الشعر ، واحوج الناس الى البلاغة الواعظ ليجمع مطالبهم ، لكنه ينبغي أن ينظر فى اللازم الواجب ، وان يعطيهم من المباح فى اللفظ . قدر الملح فى الطعام ، ثم يجذبهم الى العزائم . ويمرهم الطريق الحق وقد حضر احمد بن حنبل : فسمع كلام الحارث المحاسبي فبكى . ثم قال : لا يعجبني الحضور . وانما بكى لأن الحال اوجبت البكاء ، وقد كان جماعة من السلف يرون تخليط القصص . فينهون عن الحضور عندهم . وهذا على الاطلاق لا يحسن اليوم . لانه كان الناس فى ذلك الزمان متشاغلين بالعلم ، فأوا حضور القصص صاددا لهم ،

واليوم كثر الاعراض عن العلم ، فانفع ما للعامى مجلس الوعظ ، يرده عن ذنب ، ويحركه الى توبة ، وانما الخلل فى القاص . فليتنق الله عز وجل .

٦١- فصل - من أضر الاشياء على العوام كلام المتأولين . والنفاة

للصفات والاضافات ، فان الانبياء عليهم الصلاة والسلام . بالغوا فى الاثبات ليتقرر فى أنفس العوام وجود الخالق ، فان النفوس تأنس بالاثبات فاذا سمع العامى ما يوجب النفي . طرد عن قلبه الاثبات ، فكان أعظم ضرر عليه ، وكان هذا المنزه من العلماء على زعمه ، مقاوما لاثبات الانبياء عليهم الصلاة والسلام بالمحو ، وشارعاً فى إبطال ما يفتنون به ، ويبيان هذا ان الله تعالى أخبر باستوائه على العرش . فأنست النفوس الى أثبات الاله ووجوده ، قال تعالى « ويبقى وجه ربك » وقال تعالى « بل يدها مبسوطتان » وقال « غضب الله عليهم » « رضى الله عنهم » وأخبر أنه ينزل الى السماء الدنيا وقال : قلوب العباد بين أصبعين ، وقال كتب التوراة بيده ، وكتب كتاباً فهو عنده فوق العرش ، الى غير ذلك مما يطول ذكره . فاذا امتلأ العامى والصبى من الاثبات . وكاد يأنس من الاوصاف بما يفهمه الحس قيل له : « ليس كمثله شيء » فحى من قلبه ما نقشه الخيال ، وتبقى الفاظ الاثبات متمكنة ، ولهذا أقر الشرع على مثل هذا ، فسمع منشداً يقول : وفوق العرش رب العالمينا ، فضحك وقال له آخر : أو يضحك ربنا ؟ فقال نعم ، وقال : إنه على عرشه هكذا ، كل هذا ليقرر الاثبات فى النفوس ، وأكثرا لخلق لا يعرفون الاثبات الا على ما يعلمون من الشاهد ، فيقنع منهم بذلك الى أن يفهموا التنزيه ، ولهذا اصحح أسلام^(١) من القتل بالسجود ، فأما اذا ابتدأ بالعامى الفارغ من فهم الاثبات . فقلنا : ليس فى السماء . ولا

على العرش . ولا يوصف بيد . وكلامه صفة قائمة بذاته . وليس عندنا منه شيء . ولا يتصور نزوله ، أنمحي من قلبه تعظيم المصحف ، ولم يترصع في سره أثبات إله ، وهذه جناية عظيمة على الانبياء . توجب نقض ماتعبوا في بيانه ، ولا يجوز لعالم أن يأتي الى عقيدة عامي قد أنس بالأثبات فيهموشها ، فإنه يفسد ويصعب صلاحه ، فاما العالم فانا قد امناء لأنه لا يخفى عليه استحالة تجدد صفة الله تعالى ، وأنه لا يجوز أن يكون أبتوى كما يعلم ، ولا يجوز أن يكون محمولا ، ولا أن يوصف بملاصقة ومس ، ولا أن ينتقل ولا يخفى عليه أن المراد بتقليب القلوب بين أصبعين الاعلام بالتحكم في القلوب فان ما يدبره الانسان بين اصبعين هو متحكم فيه الى الغاية ، ولا يحتاج الى تأويل من قال الا صبع الاثر الحسن ، فالقلوب بين أثرين من آثار الربوبية ، وهما الاقامه : والازاغه . ولا الى تأويل من قال : يدها نعمته ، لأنه اذا فهم أن المقصود الاثبات . وقد حدثنا بما نعقل . وضربت لنا الامثال بما نعلم ، وقد ثبت عندنا بالاصل المقطوع به انه لا يجوز عليه ما يعرفه الحس ، علمنا المقصود بذكر ذلك ، واصلاح ما نقول للعوام : أمروا هذه الاشياء كما جاءت ، ولا تتعرضوا لتأويلها ، وكل ذلك يقصد به حفظ الاثبات ، وهذا الذي قصده السلف . وكان احد يمنع من ان يقال : انقضى بالقرآن مخلوق او غير مخلوق ، كل ذلك ليحمل على الاتباع ، وتبقى الفاظ الاثبات على حالها ، واجهل الناس من جاء الى ما قصد النبي صلى الله عليه وسلم تعظيمه . فاضعف في النفوس قوى التعظيم ، قال النبي صلى الله عليه وسلم : لا تسافروا بالقرآن الى أرض العدو — يشير الى المصحف — ومنع الشافعي ان يحمله المحدث بعلاقته تعظيما له ، فاذا جاء متحذلق فقال : الكلام صفة قائمة بذات المتكلم . فغنى قوله هذا

ان ماهنا شيء يحترم ، فهذا قد ضاد بما اتى به مقصود الشرع ، وينبغي ان يفهم أوضاع الشرع ومقاصد الانبياء عليهم الصلاة والسلام ، وقد منعوا من كشف ما قد قنع الشرع ، فنهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الكلام فى القدر . ونهى على الاختلاف . لأن هذه الاشياء تخرج الى ما يؤذى ، فان الباحث عن القدر اذا بلغ فهمه الى أن يقول قضا وعاقب تزلزل أيمانه بالعدل ، وان قال : لم يقدر ولم يقض تزلزل أيمانه بالقدر ، والملك ، فكان الاولى ترك الخوض فى هذه الاشياء ، ولعل قائل يقول : هذا منع لنا عن الاطلاع على الحقائق ، وأمر بالوقوف مع التقليد ، فاقول : لا . إنما أعلمك أن المراد منك الايمان بالجمال ، وما أمرت بالتنقيح مع أن قوى فهمك تعجز عن ادراك الحقائق فان الخليل عليه الصلاة والسلام قال : ارنى كيف تحيى ، فاراه ميتا حيى ، ولم يره كيف احياه . لأن قواه تعجز عن ادراك ذلك . وقد كان النبي ﷺ بعث ليبين للناس ما نزل اليهم . يقنع من الناس بنفس الاقرار واعتقاد الجمال ، وكذلك كانت الصحابة . فانقل عنهم أنهم تكلموا فى تلاوة وملتو ، وقراءة ومقروء ولا أنهم قالوا استوى بمعنى استولى وينزل بمعنى يرحم ، بل قنعوا باثبات الجمال التى تثبت التعظيم عند النفوس ، وكفوا كف الخيال بقوله : « ليس كمثله شيء » . ثم هذا منكر ونكير إنما يسألان عن الاصول المجملة فيقولان . من ربك ؟ وما دينك ؟ ومن نبيك ؟ ومن فهم هذا الفصل سلم من تشبيه المجسمة ، وتعطيل المعطلة ، ووقف على جادة السلف الاول ، والله الموفق .

٦٢ - فصل - قرأت هذه الآية . « قل أرأيتم ان أخذ الله سمعكم وابصاركم وختم على قلوبكم من إله غير الله يأتكم به » فلاحى منها اشارة

كدت أطيش منها ، وذلك أنه ان كان عنى بالآية نفس السمع والبصر فان السمع آلة لادراك المسموع ، والبصر آلة لادراك المبصرات ، فهما يعرضان ذلك على القلب ، فيتدبر . ويعتبر . فاذا عرضت المخلوقات على السمع والبصر ، فالوصلا الى القلب اخبارها من أنها تدل على الخالق ، وتحمل على طاعة الصانع ، ويحذر من بطشه عند مخالفته ، وان عنى معنى السمع والبصر . فذلك يكون بذهولهما عن حقائق ما أدركا ، شغلا بالهوى . فيعاقب الانسان بسبب معانى تلك الآلات ، فيرى وكأنه ما رأى ويسمع وكأنه ما سمع ، والقلب ذاهل عن ما يتأدى به ، فيبقى الانسان خاطئا على نفسه لا يدري ما يراد به . لا يؤثر عنده أنه يبلى ، ولا تنفعه موعظة نجلي ، ولا يدري اين هو . ولا المراد منه ، ولا الى اين يحمل ، وانما يلاحظ بالطبع مصالح عاجلته ولا يتفكر في خسران آجلته ، لا يعتبر برفيقه ، ولا يتعظ بصديقه ، ولا يزود لطريقه كما قال الشاعر :

الناس في غفلة والموت يوقظهم وما يفيقون حتى ينقد العمر
يشيعون اهلهم يجمعهم وينظرون الى ما فيه قد فتروا^(١)
ويرجعون الى احلام غفلتهم كأنهم مارأوا شيئا ولا نظروا
وهذه حالة اكثر الناس ، فنعوذ بالله من سلب فوائد الآلات ، فانها أقيج الحالات .

٦٣ - فصل - نظرت فيما تكلم به الحكماء في العشق واسبابه وأدويته وصنفت في ذلك كتابا بسميته بدم الهوى ، وذكر فيه عن الحكماء أنهم قالوا : سبب العشق حركة نفس فارغة ، وأنهم اختلفوا . فقال قوم منهم

« ١ » في الاحمدية : قد قبروا .

لا يعرض العشق الا لظراف الناس . وقال آخرون : بل لأهل الغفلة منهم
عن تأمل الحقائق ، الا أنه خطرلى بعد ذلك معنى عجيب أشرحه ههنا .
وهو أنه لا يتمكن العشق الا مع واقف جامد . فاما ارباب صمود الهمم
فانها كلما تخيلت ماتوجه المحبة فلاححت عيوبه لها ، إما بالفكر فيه أو
بالمخالطة له ، تسالت وتعلقت بمطلوب آخر فلا يقف على درجة العشق
الموجب للتمسك بتلك الصورة ، العامى عن عيوبها ، الا جامد واقف ،
وأما ارباب الأنفة من النقائص ، فانهم أبدا فى الترقى ، لا يصدم صادم ،
فاذا علفت الطباع محبة شخص لم يباغوا مرتبة العشق المستأثر ، بل ربما
مالوا ميلا شديدا ، أما فى البداية لقلة التفكير أو لقلة المخالطة والاطلاع على
العيوب ، واما لتشتت بعض الخلل الممدوحة بالنفوس من جهة مناسبة
وقعت بين الشخصين ، كالظريف مع الظريف ، والفظن مع الفطن ،
فيوجب ذلك المحبة ، فاما العشق فلا فهم أبدا فى السير . فلا يوقف وابل
الطبع يتبع حادى الفهم ، فان للطبع متعلقا لأنجده فى الدنيا ، لأنه يروم
مالا يصح وجوده من الكمال فى الاشخاص ، فاذا تلمح عيوبها نفر ، وأما
متعلق القلوب من محبة الخالق البادى . فهو مانع لها من الوقوف مع سواه ،
وان كانت محبته لا تجانس محبة المخلوقين ، غير أن ارباب المعرفة ولهى قد
شغلهم حبه عن حب غيره ، وصارت الطباع مستغرقة لقوة معرفة القلوب
ومحبتها كما قالت رابعة :

أحب حبيبا لأعاب بحبه وأحبيتهم من فى هواه عيوب
ولقد روى عن بعض فقراء الزهاد أنه مر بامرأة فاعجبته ، فخطبها الى ايها ،
فزوجه وجاء به الى المنزل والبسه غير خلقانه ، فلما جن الليل صاح الفقير

ثياني ثياني . فقدت ما كنت أجده ، فهذه عثرة في طريق هذا الفقير دلته على أنه منحرف عن الجادة ، وانما تعثرى هذه الحالات ارباب المعرفة بالله عز وجل واهل الأنفة من الرذائل . وقد قال ابن سمود : اذا أعجبت احدكم امرأة فليذكر مآثيها ، ومثال هذه الحال أن العقل يغيب عند استغلاء تناول المشهى من الطعام ، عن التفكير في تقابه في الفهم وبلعه ، ويذهل عند الجماع عن ملاقات الفاذورات لقوة غلبة الشهوة ، وينسى عند بلع الرضاب استحالته عن الغذاء ، وفي تغطية تلك الاحوال مصالح ، الا أن ارباب اليقظة يعترهم من غير طلب لها في غالب أحوالهم ، فينغص عليهم لذيق العيش ، ويوجب الأنفة من رذالة الهوى ، وعلى قدر النظر في العواقب يخف العشق عن قلب العاشق ، وعلى قدر جمود الذهن يقوى القلق ، قال المتنبي :

لو فكر العاشق في منتهى حسن الذي يثبته لم يثبه

ومجموع ما أردت شرحه . أن طباع المتيقظين تترقي فلا تقف مع شخص مستحسن ، وسبب ترقيا التفكير في نقص ذلك الشخص وعيوبه ، أو في طلب ما هو أعم منه ، وقلوب العارفين تترقي الى معروفها ، فيعتبر في معبر الاعتبار ، فاما اهل الغفلة فجمودهم في الحالتين ، وغفاتهم عن المقامير ، يوجب اسرهم وقسرهم وحيرتهم .

٦٤ - فصل - عرض لي أمر يحتاج الى سؤال الله عز وجل ودعائه ، فدعوت وسألت . فاخذ بعض أهل الخير يدعو معي ، فرأيت نوعا من أثر الاجابة ، فقالت لي نفسي : هذا بسؤال ذلك العبد لا بسؤالك ، فقلت لها : أما أنا فاني أعرف من نفسي من الذنوب والتقصير ما يوجب منع الجواب ، غير أنه يجوز أن يكون أنا الذي أجب ، لأن هذا الداعي الصالح سليم مما ظنه

من نفسى ، اذ معى انكسار تقصيرى ومعه الفرح بمعاملته ، وربما كان الاعتراف بالتقصير أنجح فى الحوائج ، على أننى أنا وهو نطلب من الفضل لا بأعمالنا ، فاذا وقفت أنا على قدم الانكسار معترفا بذنوبى . وقالت أعطونى بفضلكم فالى فى سؤالى شئ أجبت به ، وربما ألمح ذاك حسن عمله وكان صاداله . فلا تكسر بى أيتها النفس فيكفينى كسر علمى بى لى ، ومعى من العلم للموجب للدب ، والاعتراف بالتقصير ، وشدة الفقر الى ماسألت ، ويقىنى بفضل المطلوب عنه ، ما ليس مع ذلك العابد ، فبارك الله فى عبادته ، وربما كان اعترافى بتقصيرى أوفى .

٦٥ - فصل - قرأت من غرائب العلم . وعجائب الحكم . على بعض من يدعى العلم ، قرأته يتلوى من سماع ذلك ، ولا يطلع على غوره ، ولا يشرأب الى ما يأتى ، فصرفت عن اسماء شيئا آخر وقلت : انما يصاح مثل هذا لذى لب يتأقاه تلقى العطشان الماء ، ثم أخذت من هذه اشارة - جعلت - لو كان هذا يفهم ماجرى ومدخى لحسن ما صنعت لعظم قدره عندى ، ولأدبته محاسن مجموعاتى وكلامى ، ولكنه لما لم أره اهلا صرفتها عنه ، وصدفت بنظرى اليه وكانت الاشارة أن الله عز وجل : قد صنف هذه المخلوقات فاحسن التركيب ، واحكم الترتيب ثم عرضها على الالباب ، فأى لبأ أوغل فى النظر مدح على قدر فهمه فاحبه المصنف ، وكذلك أنزل القرآن بمحتوى على عجائب الحكم ، فمن فتشه بيد الفهم . وحادثه فى خلوة الفكر . استجلب رضى المتكلم به وحظى الزانى لديه ، ومن كان للذهن مستغرق الفهم بالحسيات . صرف عن ذلك المقام ، قال الله عز وجل : « سأصرف عن آياتى الذين يتكبرن فى الارض بغير الحق » .

٦٦ - فصل - دعوت يوم افقلت اللهم بلغنى آمالى من العلم والعمل ، واطل عمرى لا يبلغ ما أحب من ذلك ، فعارضنى وسواس من ابليس ، فقال : ثم ماذا أليس الموت ، فما الذى ينفع طول الحياة : فقلت له : يا أبله . لو فهمت ماتحت سؤالى علمت أنه ليس بعيب ، أليس فى كل يوم يزيد علمى ومعرفتى ، فتكثر ثمار غرسى ، فاشكر يعنى يوم حصادى ؟ ^(١) أفسرنى أننى مت منذ عشرين سنة ، لا والله ؟ لأننى ما كنت أعرف الله تعالى عشر معرفتى به اليوم وكل ذلك ثمرة الحياة التى فيها اجتنيت أدلة الوجدانية ، وارتقيت عن حضيض التقليد الى يفاع البصيرة ، واطلعت على علوم زادها قدرى ، وتجوهرت بها نفسى ، ثم زاد غرسى لآخرتى ، وقويت تجارتى فى انقاذ المباحضين من التعالميز ، وقد قال لسيد المرسلين : « وقل رب زدنى علما » وفى صحيح مسلم من حديث أبى هريرة رضى الله عنه . عن النبى ﷺ أنه قال : لا يزيد المؤمن عمره الا خيرا ، وفى حديث جابر بن عبد الله رضى الله عنهما . قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم . إن من السعادة ان يطول عمر العبد ويزفه الله عز وجل الابابة ، فياليتنى قدرت على عمر نوح ، فان العلم كثير ، وكلما حصل منه حاصل رفع ونفع .

٦٧ - فصل - قلوب العارفين يغار عاينها من الاسباب وان كانت لا تساكينها لانهم لما انفردت لمعرفتها انفرد لها بقولى امورها ، فاذا عرضت بالاسباب محى اثر الاسباب : « ويوم حنين اذ أعجبتمكم كثير تكم فلم تغن عنكم شيئا » . وتأمل فى حال يعقوب وحذره على يوسف عليهما السلام . حتى قال : أخاف ان يأكله الذئب . فقالوا : « أكله الذئب » فلما جاء اوان الفرج ،

(١) فى الهندية : فاستكثر بذرى يوم حصادى

خرج يهودا بالقميص فسبقه الريح « انى لاجد ريح يوسف » وكذلك قول يوسف عليه السلام للساقى : « اذكرنى عند ربك » فعوقب بان لبت سبع سنين ، وان كان يوسف عليه السلام يعلم أنه لا خلاص الا باذن الله ، وأن التعرض بالاسباب مشروع ، غير أن الغيرة أثرت العقوبة ، ومن هذا قصة صريم عليها السلام « وكفلها زكريا » فغار المسبب من مساكنة الاسباب : « كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقا » ومن هذا القبيل ما روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : أبى الله ان يرزق عبده المؤمن الا من حيث لا يحتسب . والاسباب طريق ، ولا بد من سلوكها . والعارف لا يساكنها غير أنه يحل له امرها مالا يحل لغيره من أنها لا تساكُن ، وربما عرفت أن مال اليها وان كان ميله لا يقبله ، غير أنه اقل الهفوات يوجب الادب ، لا طوفن الليلة على مائة امرأة ، تلد كل واحدة منهن غلاما ، ولم يقل ان شاء الله . فما حملت الا واحدة جاءت بشق غلام ، ولقد طرقتنى حالة أوجبت التشبث ببعض الاسباب . الا أنه كان من ضرورة ذلك لقاء بعض الظلمة ، ومداراته بكلمة . فبينما أنا أفكر فى تلك الحال دخل على قارى فاستفتح . فتفاءلت بما يقرأ فقرا : « ولا تركنوا الى الذين ظلموا فتمسكم النار وما لكم من دون الله من أولياء ثم لا تنصرون » . فبهت من اجابتي على خاطرى ، وقلت لنفسي : اسمى فانى طلبت النصر فى هذه المداراة فاعلمنى القرآن أنى اذا ركنت الى ظالم فانى ماركنت لاجله من النصر ، فيا طوبى لمن عرف المسبب وتعلق به ، فانها الغاية القصوى ، فنسأل الله أن يرزقنا .

٦٨ - فصل - المؤمن لا يبالغ فى الذنوب وانما يقوى الهوى ويتوقد نيران الشهوة فيتحدّر ، وله مداد لا يعزم المؤمن على مواقفته ، ولا على العود

بعد فراغه ، ولا يستقصى في الانتقام ان غضب ، وينوى التوبة قبل الزل ،
وتأمل اخوة يوسف عليهم السلام . فانهم عزموا على التوبة قبل ابعاد
يوسف فقالوا : « اقتلوا يوسف » ثم زاد ذلك تعظيما فقالوا : « أو اطرحوه
ارضا » ثم عزموا على الانابة فقالوا : « وتكونوا من بعده قوما صالحين » .
فلما خرجوا به الى الصحراء هموا بقتله بمقتضى ما في القلوب من الحسد ، فقال
كبيرهم : « لا تقتلوا يوسف والقوه في غيابة الجب » ولم يرد ان يموت بل
يلتقطه بعض السيارة ، فاجابوا الى ذلك ، والسبب في هذه الاحوال أن
الايان على حسب قوته : فتارة يرد لها عند الهم ، وتارة يضعف فيردها عند
العزم ، وتارة عن بعض الفعل ، فاذا غلبت الغفلة ، ووقع الذنب ، فتر الطبع ،
فنهض الايمان العدل ، فينقص بالندم اضعاف ما ألتذ .

٦٩ - فصل - افضل الاشياء التزيد من العلم ، فانه من اقتصر
على ما يملكه فظنه كافيا استبد برأيه ، وصار تعظيمه لنفسه ما نعاله من
الاستفادة والمذاكرة تبين له خطاؤه ، وربما كان معظما في النفوس فلم
يتجاسر على الرد عليه ، ولو انه اظهر الاستفادة لأهديت اليه مساويه
فعاد عنها : واقد حكي ابن عقيل عن أبي المعالي الجويني انه قال : ان الله
تعالى يعلم جل الاشياء ولا يعلم التفاصيل ، ولا ادري أى شبهة وقعت في
وجه هذا المسكين حتى قال هذا ، وكذلك ابو حامد حين قال : النزول
التنقل ، والاستواء مماسة - وكيف اصف هذا بالفقه والزهد وهو لا يدري
ما يجوز على الله مما لا يجوز ، ولو انه ترك تعظيم نفسه لرد صبيان الكتاب
رأيه عليه . فبان له صدقهم . ومن هذا الفن ابو بكر بن مقسم : فانه عمل
كتاب الاحتجاج للقراء ، فاتي فيه بفوائد ، الا انه افسد علمه باجازته

ان يقرأ بما لم يقرأ به ، ثم تفاهم ذلك منه حتى اجاز ما يفسد المعنى ، مثل قوله تعالى : « فلما استيأسوا منه خلصوا » . فقال : يصاح ان يقال هنا نجيا اى خلصوا كراما برآء من السرقة ، وهذا سوء فهم للقصة ، فان الذى نسب الى السرقة فظهرت معه ما خلص ، فما الذى ينفع خلاصهم ، وانما سيقى القصة ليبين انهم انفردوا وتشاوروا فيما يصنعون ، وكيف يرجعون الى أيديهم وقد احتبس اخوهم ، فأى وجه للنجاة هاهنا ، ومن تأمل كتابه رأى فيه من هذا الجنس ما يزيد على الاحصاء أكثر من هذا الفن القبيح ، ولو انه اصغى الى علماء وقته . وترك تعظيم نفسه لبأن له الصواب ، غير ان اقتصار الرجل على علمه اذا مازجه نوع رؤية للنفس حبس من ادراك الصواب ، نعوذ بالله من ذلك .

٧٠ - فصل - تأملت قوله عز وجل : « يمينون عليك أن اسلموا قل لا اتنوا على اسلامكم بل الله يمين عليكم أن هذا كم للآيمان » . فرأيت فيه معنى عجيبا . وهو أنهم لما وهبت لهم العقول فتدبروا بها عيب الاصنام ، وعلموا انها لا تصلح للعبادة ، فوجهوا العبادة الى من فطر الاشياء . كانت هذه المعرفة ثمرة العقل الموهوب لهم الذى به باينوا البهائم ، فاذا آمنوا بفعلهم الذى ندب اليه العقل الموهوب ، فقد جهلوا قدر الموهوب ، وغفلوا عن من وهب . وأى شيء لهم فى الثمرة والشجرة ليست ملكا لهم ، فعلى هذا كل متعبد ومجتهد فى علم وعمل انما رأى بنور اليقظة ، وقوة الفهم والعقل ، صواب . فوقع على المطلوب ، فينبغى ان يوجه الشكر الى من بعث له فى ظلام الطبع القبس ، ومن هذا الفن حديث الثلاثة الذين دخلوا الغار ، فانحطت عليهم صخرة فسدت باب الغار ، فقالوا : تعالوا نتوسل بصالح

اعمالنا ، فقالوا كل منهم : فمات كذا وكذا ، وهؤلاء ان كانوا لاحظوا
 نعمة الواهب للعصمة عن الخطأ فتوسلوا بانعامه عليهم الذي اوجب
 تخصيصهم بتلك النعمة عن ابناء جنسهم ، فيه فتوسلوا اليه ، وان كانوا
 لاحظوا افعالهم فلمحوا جزاءها ظناً منهم أنهم هم الذين فعلوا فهم أهل
 غيبة لاحضور ، ويكون جواب مسألتهم لقطع مننهم الدائمة ، ومثل هذا
 رؤبة المتقي تقواه حتى انه يرى انه أفضل من كثير من الخلق ، وربما احتقر
 أهل المعاصي ونشمخ عليهم . وهذه غفلة من طريق السلوك ، وربما
 اخرجت . ولا أقول لك خالط الفساق احتقاراً لنفسك ، بل أغضب عليهم
 في الباطن واعرض عنهم في الظاهر وتلمح جريان الاقدار عليهم في
 الباطن فأكثروا لا يعرف لمن عصى ، وجهورهم لا يقصد العصيان ، بل
 يريد موافقة هواه . وعزيز عليه ان يعصى ، وفيهم من غلب عليه تلمح
 العفو والحلم فاحتقر ما يأتي لقوة يقينه بالعفو ، وهذه كلها ليست باعتذار
 لهم . ولكن تلمحه أنت يا صاحب التقوى ، واعلم ان الحجة عليك أو في
 من الحجة عليهم ، لأنك تعرف من تعصى ، وتعلم ما تأتي ، بل انظر الى
 تقلب القلوب بين اصبعين فرما دارت الدائرة فصرت المنقطع ، ووصل
 المقطوع ، فالمعجب ممن يدل بخير علمه ، وينسى من انعم ووفق .

٧١ - فصل - اعلم ان شرعنا مضبوط الاصول ، محروس القواعد ،

لا خلل فيه ولا دخل ، وكذلك كل الشرائع ، انما الآفة تدخل من المبتدعين
 في الدين أو الجاهل ، مثل ما أثر عند النصاري حين رأوا احياء الموتى على يد
 عيسى عليه السلام ، فتأملوا الفعل الخارق للعادة الذي لا يصلح للبشر ،
 فنسبوا الفاعل الى الالهية ، ولو تأملوا ذاته لعلموا أنها مركبة على النقائص

والحاجات ، وهذا القدر يكفي في عدم صلاح إلهيته ، فيعلم حينئذ أن ما جرى على يديه فعل غيره ، وقد يؤثر ذلك في الفروع . مثل ما روى أنه فرض على النصارى صوم شهر فزادوا عشرين يوماً ، ثم جعلوه في فصل من السنة بأرائهم ، ومن هذا الجنس تخبيط اليهود في الأصول والفروع ، وقد قارب الضلال في امتنا هذه المسالك ، وإن كان عمومهم قد حفظ من الشرك والشك والخلاف الظاهر الشنيع ، لأنهم أعقل الأمم وأفهمها ، غير أن الشيطان قارب بهم ولم يطمع في اغراقهم ، وإن كان قد اغرق بعضهم في بحار الضلال فمن ذلك أن الرسول صلى الله عليه وسلم : جاء بكتاب عزز من الله عز وجل قيل في صفة : « ما فرطنا في الكتاب من شيء » . وبين ما عساه يشكل مما يحتاج إلى بيانه بسنته كما قيل له : « لتبين للناس ما نزل إليهم » . فقال بعد البيان تركتكم على بيضاء نفية ، فجاء أقوام فلم يقنعوا بتبيينه . ولم يرضوا بطريقة أصحابه ، فبحثوا ثم انقسموا . فمنهم من تعرض لما تعب الشرع في إثباته في القلوب فحماه منها ، فإن القرآن والحديث يثبتان الإله عز وجل بأوصاف تقرر وجوده في النفوس ، كقوله تعالى « ثم استوى على العرش » وقوله تعالى « بل يدها مبسوطة » وقوله تعالى « واتصنع على عيني » وقول النبي صلى الله عليه وسلم : ينزل الله إلى السماء الدنيا ويوسط يده لمسيء الليل^(١) والنهار ، ويضحك ويغضب . وكل هذه الأشياء وإن كان ظاهرها يوجب تخايل التشبيه . فالمراد منها إثبات موجود ، فلما علم الشرع ما يطرق القلوب من التوهّمات عند سماعها قطع ذلك بقوله : « ليس كمثل شيء » . ثم إن هؤلاء القوم عادوا إلى القرآن الذي هو المعجز الأكبر . وقد قصد الشرع

تقرير وجوده فقال: « انا انزلناه » « نزل به الروح الامين » « فذرني ومن يكذب بهذا الحديث » « وهذا كتاب انزلناه ». واثبتته في القلوب بقوله تعالى: « في صدور الذين اوتوا العلم » وفي المصاحف بقوله تعالى: « في لوح محفوظ » وقول الرسول صلى الله عليه وسلم: لا تسافروا بالقرآن الى ارض العدو ، فقال قوم من هؤلاء مخلوق فاسقطوا حرمة من النفوس ، وقالوا: لم ينزل ولا يتصور نزوله . وكيف تنفصل الصفة عن الموصوف . وليس في المصحف الا حبر وورق ، فعادوا على ماتع الشارع في اثباته بالمحو ، كما قالوا : ان الله عز وجل ليس في السماء ، ولا يقال استوى على العرش ، ولا ينزل الى السماء الدنيا ، بل ذاك رحمته ، فحوا من القلوب ما يريد اثباته فيها ، وليس هذا مراد الشارع . وجاء آخرون فلم يقفوا على ما حده الشرع ، بل عملوا فيه بأرائهم فقالوا : الله على العرش ، ولم يقنعوا بقوله: « ثم استوى على العرش » ودفن لهم اقوام من سلفهم دفائن ، ووضعت لهم الملاحدة احاديث ، فلم يعلموا ما يجوز عليه مما لا يجوز ، فاثبتوا بها صفاته . وجهور الصحيح منها آت على توسع العرب فاخذوه هم على الظاهر ، فكانوا في ضرب المثل كجحا ، فان أمه قالت له : احفظ الباب ، فقلعه ومشى به ، فاخذ ما في الدار ، فلامته أمه . فقال : انما قلت احفظ الباب ، وما قلت احفظ الدار ، ولما تخيلوا صورة عظيمة على العرش ، اخذوا يتأولون ما ينافي وجودها على العرش ، مثل قوله : « ومن اتاني يمشي آتيته هرولة » . فقالوا : ليس المراد به دنو الباب ، وانما المراد قرب المنزل والحظ ، وقالوا في قوله تعالى: « الا أن يأتهم الله في ظلل » . هو محمول على ظاهرها في مجيء الذات ، فهم يحبونه عامما ويحرمونه عامما ، ويسمون

الاضافات الى الله تعالى صفات ، فانه قد أضاف اليه النفخ والروح ،
وابتوا خلقه باليد ، فلو قالوا خلقه لم يمكن انكار هذا بل قالوا هي صفة
تولى بها خاق آدم دون غيره فأى مزية كانت تكون لآدم فشغلهم النظر
فى فضيلة آدم ، عن النظر الى ما هو يليق بالحق ، مما لا يليق به فانه لا يجوز
عليه المس ، ولا العمل بالآلات ، وانما آدم اضافته اليه . فقالوا نطلق على
الله تعالى اسم الصورة لقوله : خلق آدم على صورته وفهموا هذا الحديث
وهو قوله عليه السلام : اذا ضرب احدكم فليجتنب الوجه ، ولا يقل قبح
الله وجهك ولا وجهها أشبه وجهك . فان الله خلق آدم على صورته . فلو
كان المراد به الله عز وجل لكان وجه الله سبحانه يشبه وجه هذا المخاصم
لان الحديث كذا جاء - ولا وجهها أشبه وجهك - ورووا حديث خولة
بنت حكيم : وان آخر وطئة وطئها الله بوج وما علموا النقل ولا السير
وقول الرسول صلى الله عليه وسلم : اللهم اشد وطأتك على مضر ، وان
المراد به ، آخر وقعة قاتل فيها المسلمون بوج . وهى غزاة حنين . فقالوا :
نحمل الخبر على ظاهره وأن الله وطئ ذلك المكان ، ولا شك ان عندهم
ان الله تعالى كان فى الارض ثم صعد الى السماء ، وكذلك قالوا فى قوله :
« ان الله لا يمل حتى تملوا » . قالوا : يجوز ان الله يوصف بالملل فجهلوا اللغة
وما علموا أنه لو كانت حتى ههنا للغاية لم تكن بمدح لأنه اذا مل حين
يمل فأى مدح وانما هو كقول الشاعر :

جلبت منى هذيل بخرق لا تمل الشر حتى يملوا

والمنى لا يمل وان ملوا . وقالوا فى قوله عليه الصلاة والسلام : الرحم
شجنة من الرحمن تتعلق بحقوى الرحمن . فقالوا - الحقو - صفة ذات

وذكروا احاديث لو رويت في نقض الوضوء ما قبلت وعمومها وضعته
 الملاحضة كما يروى عن عبد الله بن عمرو . قال : خلق الله الملائكة من نور الذراعين
 والصدر . فقالوا : ثبت هذا على ظاهره . ثم ارضوا العوام بقولهم ولا
 تثبت جوارح فكأنهم يقولون فلان قائم وما هو قائم ، فاختلف قولهم
 هل يطلق على الله عز وجل انه جالس او قائم كقوله تعالى : « قائما بالقسط »
 وهؤلاء أخس فهما من جحا لأن قوله قائما بالقسط لا يراد به القيام وانما
 هو كما يقال الامير قائم بالعدل . وانما ذكرت بعض اقوالهم لئلا يسكن الى
 شيء منها فالحذر من هؤلاء عبادة ، وانما الطريق طريق السلف على أننى
 اقول لك قد قال احمد بن حنبل رحمة الله عليه : من ضيق علم الرجل ان يقلد
 في دينه الرجال . فلا ينبغي أن تسمع من معظم في النفوس شيئا في الاصول
 فتقلده فيه ، ولو سمعت عن احد مالا يوافق الاصول الصحيحة فقل هذا
 من الراوى لانه قد ثبت عن ذلك الامام انه يقول بشيء من رأيه . فلو
 قدر ناصحته عنه فانه لا يقلد في الاصول ولا أبو بكر ولا عمر رضي الله عنهما
 فهذا أصل يجب البناء عليه فلا يهولنك ذكر معظم في النفوس ، وكان
 المقصود شرح هذا أن ديننا سليم ، وانما أدخل أقوام فيه ما تأذينا به ، ولقد
 أدخل المتزهدون في الدين ما ينفر الناس ، حتى انهم يرون أفعالهم
 فيستبعدون الطريق وأكثر أدلة هذه الطريق القصاص فان العامى اذا
 دخل الى مجلسهم وهو لا يحسن الوضوء كلوه بدقايق الجنيد ، واشارات
 الشبلى . فرأى ذلك العامى أن الطريق الواضح لزوم زاوية وترك الكسب
 للعائلة ومناجاة الحق في خلوة على زعمه . مع كونه لا يعرف أركان الصلاة
 ولا أدبه العلم ولا قوم أخلاقه مخالطة العلماء ، فلا يستفيد من خلوته إلا كما

يستفيد الحمار من الاصطبل . فإن امتد عليه الزمان في تقلله زاد يدهسه وربما خايلت له الما ليخوليا أشباحاً يظنهم الملائكة ثم يطاطيء رأسه ، ويمد يده للتقبيل . فكم قد رأينا من أكار ترك الزرع وقعد في زاوية فصار الى هذه الحالة فاستراح من تعبته ، فلو قيل له عد صريخاً قال مالى عادة فلعن الله عادة تخالف الشريعة . فيرى العامى بما يورده القصاص لم يرق الشرع هذه لا التى عليها الفقهاء ، فيقومون فى الضلال . ومن المتزهدين من لا يبالي بعمل بالشرع أم لا ثم تتفاوت جهالهم . فمنهم من سلك مذهب الإباحة ويقول الشيخ لا يعارض ، وينهىك فى المعاصى . ومنهم من يحفظ ناموسه فيفتى بغير علم ، لئلا يقال الشيخ لا يدري . ولقد حدثني الشيخ أبو حكيم رحمة الله عليه : أن الشريف الدحالي وكان يقصد فيزار ويتبرك به حضر عنده يوماً فسئل أبو حكيم — هل تحل المطلقة ثلاثاً اذا ولدت ذكراً — قال : فقلت لا والله . فقال لي الشريف : اسكت فوالله لقد افتيت الناس بأنها تحل من ههنا الى البصرة . وحكى لي الشيخ أبو حكيم أن جد آذاد^(١) الحداد وكان يتوسم بالعلم جاءت اليه امرأة فزوجها من رجل ولم يسأل عن انقضاء العدة ، فاعترضها الحاكم وفرق بينها وبين الزوج ، وانكر على الزوج قال : فلقيته المرأة . فقالت : ياسيدي أنا امرأة لا أعلم فكيف زوجتني . فقال : دعي حديثهم ما انت الا طاهرة مطهرة . وحدثني بعض الفقهاء عن رجل من العباد أنه كان يسجد للسهو سني . ويقول : والله ماسهوت ولكن افعله احترازاً . فقال له الفقيه : قد بطلت صلاتك كلها لأنك زدت سجوداً غير مشروع

ثم من الدخول الذي دخل في ديننا طريق المتصوفة فانهم سلكوا طرقا
أكثرها تنافي الشريعة ؛ وأهل التدين منهم يقللون ويخففون . وهذا ليس
بشرع حتى أن رجلا كان قريبا من زمانى يقال له كثير دخل الى جامع
المنصور وقال : عاهدت الله عهداً ونقضته ، فقد ألزمت نفسى أن لا تأكل
أربعين يوماً . فحدثني من رآه أنه بقى عشرة أيام ثم فى العشر الرابع . أشرف
على الموت . قال : فما نقضت حتى تفرغ ^(١) فصب فى حلقه ماء فسمعنا له
نشيشا كنشيش المقلاة ثم مات بعد أيام . فانظروا الى هذا المسكين وما فعله
به جهله . ومنهم من فسح لنفسه فى كل ما يحب من التمتع والذات واقتنع
من التصوف بالقميص والفوطة والعمامة اللطيفة ، ولم ينظر من أين يأكل ولا
من أين يشرب ، وخالط الأمراء من أرباب الدنيا ولباس الحرير ، وشراب
الخمور ، حفظا لماله وجاهه . ومنهم اقوام عملوا سننا لهم تلقوها من كلمات
أكثرها لا يثبت . ومنهم من أكب على سماع الغناء والرقص واللعب ثم
نقسموا هؤلاء فمنهم من يدعى العشيق فيه ، ومنهم من يقول بالحلول ، ومنهم
يسمع على وجه الهوى واللعب وكلا الطريقين يفسد العوام الفساد العام .
وهذا الشرح يطول وقد صنفت كتباً ترى فيها البسط الحسن ان شاء الله
الله تعالى . — منها تليس ابليس — والمقصود ان تعلم أن الشرع تام كامل فان
رزقت فهماله فانت تتبع الرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه ، وتترك بنيات
الطريق ولا تقلد دينك الرجال . فان فعلت فانك لا تحتاج الى وصية اخرى ،
واحذر جمود النقطة ، وانبساط المتكلمين ، وجوع المزهدين ، وشره اهل
الهوى ، ووقوف العلماء على صورة العلم ، من غير عمل ، وعمل المتعبدین بغير

علم ، ومن أيدى الله تعالى بلطفه ورزقه الفهم ، وأخرجه عن ربة التقليد ، وجعله أمة وحده في زمانه . لا يبالي بمن عبث ولا يلتفت الى من لام . قد سلم زمامه الى دليل واضح السبيل ، عصمنا الله وإياكم من تقليد المعظمين . وأهلنا اتباع الرسول صلى الله عليه وسلم ، فانه درة الوجود ، ومقصود الكون صلى الله عليه وسلم وعلى آله وأصحابه واتباعه ورزقنا اتباعه مع اتباعه .

٧٢ - فصل - اعلم أن الزمان لا يثبت على حال كما قال عز وجل : « وتلك

الايام نداد لها يزي الناس » . فتارة فقر وتارة غنى ، وتارة عز وتارة ذل ، وتارة يفرح الموالى وتارة يشمت الاعدى . فالسيد من لازم اصلا واحدا على كل حال . وهو تقوى الله عز وجل فانه ان استغنى ذاته ، وان افتقر فتحت له ابواب الصبر ، وان عوفي تمت النعمة عليه ، وان ابتلى جملته ، ولا يضره ان نزل به الزمان أو صعد ، أو اعراه أو أشبعه أو أجاعه . لأن جميع تلك الاشياء نزول وتغير . والتقوى اصل السلامة حارس لا ينام ، يأخذ باليد عند العثرة ، ويوافق على الحدود والمنكر من غرته لذة حصلت مع عدم التقوى فانها ستحول وتخليه خاسرا . ولازم التقوى في كل حال فانك لا ترى في الضيق الا السعة ، وفي المرض الا العافية ، هذا نقدها العاجل والآجل معلوم .

٧٣ - فصل - تأملت امرا عجيبا ، واصلا ظريفا ، وهو انه يبال الابتلاء على المؤمن . وعرض صور اللذات عليه مع قدرته على نيلها . وخصوصا ما كان في غير كلفة من تحصيله كحبيب موافق في خلوة حصينة . فقلت : سبحان الله ههنا يبين اثر الايمان لا في صلاة ركعتين ، والله ما صعد يوسف عليه السلام ولا سجد الا في مثل ذلك المقام ، فبالله عليكم يا اخواني تأملوا حاله لو كان وافق هواه من كان يكون . وقيسوا بين تلك الحالة وحالة آدم عليه

السلام، ثم زنوا بميزان العقل عقي تلك الخطيئة، وثمره هذا الصبر. واجملوا فهم الحال عدة لكم عند كل مشتهى، وان اللذات لتعرض على المؤمن فتق لقيها في صف حربه وقد تأخر عنه عسكر التدبر للعواقب هزم، وكأني أرى الواقع في بعض اشرا كها ولسان الحال يقول له قف مكانك؛ أنت وما اخترت لنفسك، فغاية أمره الندم والبكاء فان أمن اخراجه من تلك الهوة لم يخرج الا مدهونا بالخدوش، وكم من شخص ذات قدمه فارتفعت بعدها. ومن تأمل ذل اخوة يوسف عليهم السلام يوم: «وتصدق علينا» عرف شؤم الذلل ومن تدبر أحوالهم قاس ما بينهم وبين أخيه من الفروق. وان كانت توبتهم قبلت لانه ليس من رقع وخاط كمن ثوبه صحيح. ورب عظم هيض لم ينجبر فان جبر فملى وهي. فتيقظوا اخواني لمرض المشتبهات على النفوس، واستوثقوا من لجم الخيل، وانتهوا للغيمة اذا تراكم بالصعود الى تلة فرما مر الوادي فراح بالركب.

٧٤ - فصل - تأملت حالة عجيبة وهو أن المؤمن تنزل به النازلة فيدعو ويبالغ فلا يرى أثراً للاجابة، فاذا قارب اليأس نظر حينئذ الى قلبه فان كان راضيا بالاقدار غير قنوط من فضل الله عز وجل. فالغالب تعجيل الاجابة حينئذ لأن هناك يصلح الايمان والشيطان، وهناك تبين مقادير الرجال، وقد أشير الي هذا في قوله تعالى: حتى يقول الرسول «والذين آمنوا معه متى نصر الله». وكذلك جرى ليعقوب عليه السلام فانه لما فقد ولداً وطال الأمر عليه لم ييأس من الفرج فاخذ ولده الآخر ولم ينقطع أمله من فضل ربه «أن يأتيني بهم جميعاً». وكذلك قال زكريا عليه السلام «ولم أكن بدعائك رب شقياً». فإياك أن تستطيل مدة الاجابة وكن ناظراً الى

أنه المالك والى أنه الحكيم في التدبير والعالم بالمصالح، والى أنه يريد اختبارك ليلو أسراركم، والى أنه يريد أن يرى تضرعك، والى أنه يريد أن يأجرك بصبرك الى غير ذلك. والى أنه يبتليك بالتأخير لتجارب وسوسة إبليس وكل واحدة من هذه الاشياء تتوى الظن في فضله وتوجب الشكر له إذ أهلك بالبلاء الملائمات الى سؤاله، والفقر المضطر الى اللجأ اليه غنى. كله

٧٥ - فصل - لما كان بدن الآدمى لا يقوم الا باجتلاب المصالح ودفع المؤذى، ركب فيه الهوى ليكون سبباً لجلب النافع. والغضب ليكون سبباً لدفع المؤذى ولولا الهوى في المطعم، ماتناول الطعام، فلم يقد يذمه فجعل له اليه ميل وتوق. فاذا حصل له قدر ما يقيم بدنه زال التوق، وكذلك في المشرب والملبس والمنكح. وفائدة المنكح من وجهين. احدهما: ابقاء الجنس وهو معظم المقصودين. والثاني: دفع الفضيلة المحتقنة المؤذى احتقانها، ولولا تركيب الهوى المائل بصاحبه الى النكاح ما طابه احد: ففات النسل وآذى المحتقن. فاما العارفون فانهم فهم المقصود، وأما الجاهلون فانهم مالو مع الشهوة والهوى ولم يفهموا مقصود وضعها فضاغ زمانهم فيما لا طائل فيه، وفاتهم ما خلقوا لاجله واخرجهم هوام الى فساد المال وذهاب العرض والدين. ثم اداهم الى التلف، وكم قدر أينا من متنع يبالغ في شراء الجوارى ليحرك طبعه بالمستجد فما كان بأسرع من أن وهنت قواه الاصلية فتعجل تلفه، وكذلك رأينا من زاد غضبه فخرج عن الحد ففقدت نفسه وبمن يحبه. فمن علم أن هذه الاشياء انما خاقت اعانة للبدن على قطع مراحل الدنيا، ولم تخلق لنفس الالتذاذ وإنما جعلت اللذة فيها كالحيلة في ائصال النفع بها، إذ لو كان المقصود التمتع بها لما جعلت الحيوانات البهيمية اوفى حظاً من الآدمى منها، فطوبى لمن فهم حقائق

الوضع ، ولم يمل به الهوى عن فهم حكم المخلوقات .

٧٦ - فصل - من تأمل عواقب المعاصي رآها قبيحة ، واقد تفكرت في أقوام اعرفهم يقرّون بالزنا وغيره ، فارى من تعثرهم في الدنيا مع جلاذتهم ما لا يقف عند حد ، وكانهم قد البسوا ظلمة ، فالقلوب تنفر عنهم . فان اتسع لهم شيء فأكثره من مال الغير ، وان ضاق بهم أمر أخذوا يتسخطون على القدر ، هذا وقد شغلوا بهذه الأوساخ عن ذكر الآخرة ، ثم عكست فتفكرت في أقوام صابروا الهوى ، وتركوا ما لا يحل . فمنهم من قد أتيحت له ثمرات الدنيا من قوت مستلذ ، ومهاد مستطاب ، وعيش لذيد ، وجاه عريض ، فان ضاق بهم أمر وسعه الصبر ، وطيبه الرضى ، ففهمت بالحال معنى قوله تعالى : « انه من يتق ويصبر فان الله لا يضيع أجر المحسنين » .

٧٧ - فصل - ينبغي للعاقل أن يلازم باب مولاه على كل حال ، وان يتعلق بذيل فضله ان عصى وان أطاع ، وليكن له انس في خلوته به ، فان وقعت وحشة فليجتهد في رفع الموحش ، كما قال الشاعر :

أمتوحش أنت مما جنيد مت فاحسن اذا شئت واستأنس

فان رأى نفسه مائلا الى الدنيا طلبها منه ، أو الى الآخرة سأل التوفيق للعمل لها ، فان خاف ضرر ما يرومه من الدنيا سأل الله اصلاح قلبه ، وطب مرضه ، فانه اذا صلح لم يطلب ما يؤذيه ، ومن كان هكذا كان في العيش الرغد غير أن من ضرورة هذه الحال ملازمة التقوى ، فانه لا يصلح الانس الا بها ، وقد كان أرباب التقوى يتشاغلون عن كل شيء الا عن اللجأ والسؤال وفي الحديث : ان قتيبة بن مسلم لما صاف الترك هاله امرهم فقال : ابن محمد

ابن واسع ؛ فقيل هو في اقصى اليمينه جأنح على سية قوسه يومى باصبعه نحو السماء ، فقال قتيبة : تلك الاصبع الفاردة . احب الى من مائة الف سيف شهير ، و سنان طرير . فلما فتح عليهم قال له : ما كنت تصنع ؟ قال آخذ لك بمجامع الطرق .

٧٨- فصل - ينبغى لمن تظاهرت نعم الله عز وجل عليه أن يظهر منها ما يبين أثرها ، ولا يكشف جلتها ، وهذا من اعظم لذات الدنيا التى يأمر الحزم بتركها ، فان العين حق . وانى تفقدت النعم فرأيت اظهارها حلواً عند النفس الا أنها ان أظهرت لوديد لم يؤمن تشعث باطنه بالغيظ ، وان أظهرت لعدو فالظاهر اصابته بالعين لموضع الحسد ، الا أننى رأيت بعد الحسود كاللازم ، فانه فى حال البلاء يتشفى ، وفى حال النعم يصيب بالعين ولعمري ان النعم عليه يشتهى غيظ حسوده ، ولكنه لا يؤمن أن يخاطر بنعمته ، فان الغالب اصابة الحاسد لها بالعين ، فلا يساوى الالتذاذ باظهار ما غيظ به ما افسدت عينه باصابتها ، وكتمان الامور فى كل حال فعل الحازم ، فانه ان كشف مقدار سنه استهرموه ان كان كبيرا ، أو احتقروه ان كان صغيرا ، وان كشف ما يعتقده ناصبه الاضداد بالعداوة ، وان كشف قدر ماله استحقروه ان كان قليلا ، وحسدوه ان كان كثيرا ، وفى هذه الثلاثة يقول الشاعر :

احفظ لسانك لاتبح بثلاثة سن ومال ما استطعت ومذهب
فعلى الثلاثة تبلى بثلاثة بموه وممخرق ومكذب
وقس على ما ذكرت ما لم اذكره ، ولا تكن من المذاييع الغر الذين لا يحملون
اسرارهم حتى يفشونها الى من لا يصلح ، ودب كلمة جرى بها اللسان ،

هلك بها الانسان .

٧٩- فصل - رأيت كل من يعثر بشيء أو يزلق في مطر يلتفت الى ما عثر به ، فينظر اليه طبعاً موضوعاً في الخلق . اما ليحذر منه ان جاز عليه مرة أخرى من مثله ، أو لينظر مع احترازه وفهمه كيف فاته التحرز من مثل هذا ، فاخذت من ذلك اشارة وقلت : يامن عثر مراراً هل لا أبصرت ما الذي عثرك فاحترزت من مثله ، أو قبحت لنفسك مع حزمها تلك الواقعة ، فان الغالب ممن يلتفت أن معنى التفاته كيف عثر مثلي مع احترازه بمثل ما أرى ، فالعجب لك كيف عثرت بمثل الذنب الفلاني والذنب الفلاني ؟ كيف عرك زخرف تعلم بعقلك باطنه ، وترى بعين فكرك ما آله ؟ كيف آثرت فانياً على باق ؟ كيف بعث بوكسر ، كيف اخترت لذة رقدة على انتباه معاملة . أه لك لقد اشتريت بما بعث احمال ندم لا يقلها ظهر ، وتنكيس رأس أمسى بعيد الرفع ، ودموع حزن على قبح فعل ما لمددها انقطاع ، واقبح الكل أن يقال لك بماذا ؟ ومن اجل ماذا ؟ وهذا على ماذا ؟ يا من قلب الغرور عليه الصيحة ، ووزن له والميزان راكب .

٨٠- فصل - تأملت قوله تعالى : « فمن اتبع هداى فلا يضل ولا يشقى » . قال المفسرون : هداى رسول الله صلى الله عليه وسلم وكتابى . فوجدته على الحقيقة ان كل من تبع القرآن والسنة وعمل بما فيهما ، فقد سلم من الضلال بلا شك . وارتفع في حقه شقاء الآخرة بلا شك ، اذا مات على ذلك . وكذلك شقاء الدنيا فلا يشقى اصلاً . ويبين هذا قوله تعالى : « ومن يتق الله يجعل له مخرجاً » . فان رأيت في شدة قلبه من اليقين بالجزاء ما يصير الصاب عنده عسلاً ، والا غلب طيب العيش في كل حال ، والغالب انه لا ينزل

به شدة الا اذا انحرف عن جادة التقوى . فاما الملازم لطريق التقوى فلا آفة تطرقه ، والا بلية تنزل به ، هذا هو الاغلب . فان ندر من تطرقه البلايا مع التقوى . فذاك في الاغلب لتقدم ذنب يجازى عليه ، فان قدرنا عدم الذنب . فذاك لادخال ذهب صبره كير البلاء حتى يخرج تبراً أحمر فهو يرى عذوبة العذاب . لانه يشاهد المبتلى في البلاء الالم . قال الشبلي : أحبك الناس لنعمائك . وانا احبك لبلائك .

٨١ - فصل - لا ينال لذة المعاصي الا سكران الغفلة ، فاما المؤمن فانه لا يلتذ لأنه عند التذاذه يقف بازائه علم التحريم ، وحذر العقوبة ، فان قويت معرفته رأى بعين علمه قرب الناهي فيتغنص عيشه في حال التذاذه ، فان غلب سكر الهوى كان القلب متنغصاً بهذه المراقبات ، وان كان الطبع في شهوته وما هي الا لحظة ، ثم خذمن غريم ندم ملازم ، وبكاء متواصل ، واسف على ما كان مع طول الزمان ، حتى أنه لو تيقن العفو وقف بازائه حذر العتاب ، فافٍ للذنوب ما أقبح آثارها ، وما اسوأ أخبارها ، ولا كانت شهوة لا تنال الا بمقدار قوة الغفلة .

٨٢ - فصل - بكرت يوماً اطلب الخلوة الى جامع الرصافة . فجعلت اجول وحدي واتفكر في ذلك المكان ومن كان به من العلماء والصالحين ، ورأيت أقواماً قد جاورا فيه فسألت احدهم : منذ كم أنت هاهنا فاوما الى قريب من اربعين سنة ، فرأيت في بيت كثير الدرن والوسخ وجعلت اتفكر في حبسه لنفسه عن النكاح هذه المدة . فاخذت النفس تحسن ذلك ، وتذم الدنيا والاعترا ربها . فاقبل العلم ينكر على النفس ، ونهض الفهم لحقائق الامور ، وموضوع الشرع يقوى ما قال العلم . فينحل من

ذات ان قلت للنفس : اعلمى أن هؤلاء على ضربين : منهم من يجاهد نفسه في الصبر على هذه الاحوال فتفوته فضائل المخالطة لاهل العلم والعمل وطلب الولد ، ونفع الخلق ، وارتفاع نفسه بمجالسة اهل الفهم ، فيحدث له من نفسه حالة تشابه فيها الوحش فتؤثر الافراد لنفس الافراد . وربما حبس الطبع ، وساء الخلق . وربما حدث من حبس مآثه المحقق سمية أفسدت بدنه وعقله ، وربما أورثته الخلوة وسوسة ، وربما ظن انه من الاولياء وأستغنى بما يعرفه ، وربما خيل له الشيطان أشياء من الخيالات وهو يعدها كرامات ، وربما ظن أن الذي هو فيه الغاية ولا يدري أنه الى الكراهة اقرب ، فان رسول الله صلى الله عليه وسلم : نهى ان يبیت الرجل وحده ، وهؤلاء كل منهم يبیت وحده ، ونهى عن التبتل وهذا تبتل ، ونهى عن الرهبانية وهذا من خفي خدع ابليس التي يوقع بها في ورطات الضلال بالطف وجه واخفاء . والضرب الثاني : مشايخ قد فنوا فانقطعوا ضرورة ، اذ ليس لاحدهم مأوى فهم في مقام الزمى ، وان كان الضرب الاول قد قطعوا حبل نفوسهم في العلم والعمل والكسب وتعلقت همهم بفتوح يطرق عليهم الباب ، فرضوا بالعمى بعد البصر . وبالزمن بعد الاطلاق . فقالت لى النفس : لا ارضى لك هذا الذى نقوله ، فانك انما تميل الى ايشار نكاح المستحسنات والمطاعم المشتبهات فاذا لم تكن من اهل التعبد فلا تطعن فيهم . فقلت لها : ان فهمت حدثتك وان كنت تقلدين صور الاحوال فلا فهم لك . اما المستحسنات فان المقصود من النكاح اشياء منها طاب الولد ، ومنها شفاء النفس باخراج الفضلة المؤذية ، وكال خروجها لا يكون الا بوجود المستحسن . واعتبر هذا بالوطىء دون الفرج فانه يخرج من الفضلات

مالا يخرج بالوطني في الفراغ وبتمام خروج تلك الفضلة تفرغ النفس عن
 شواغلها فتدري اين هي كما تأمر القاضى بالا كل قبل الحكم . ونهاه عن الحكم
 وهو غضبان او حاقن . وبكمال بلوغ هذا الغرض يكون كمال الولد لتمام النطفة
 التي تخلق منها ، ثم للنفس حظ فهو يستوفيها استيفاء الناقة حظها من العلف
 في السفر ، وذلك يعين على سيرها ، واما المطاعم فالجاهل من يطلبها لذاتها
 او لنفس لذاتها . وانما المراد اصلاح عدم الناقة لجمع ههما . ونيل مرادها من
 غرضها الصارف لها عن الفكر في هواها ، واذا تأملت حال السرب الاول
 رأيت من هذا عجبا ، فان النبي صلى الله عليه وسلم اختار لنفسه عائشة
 رضى الله عنها وكانت مستحسنه ، ورأى زينب فاستحسنها فزوجهها ،
 وكذلك اختار صفية . وكان اذا وصف له امرأة بعث بخطيبها . وكان اعلى
 رضى الله عنه اربع حرائر . وسبع عشرة سرية مات عنهن ، وقبل هذه الامة
 فقد كان لداود عليه السلام مائة امرأة ولسليمان عليه السلام الف امرأة .
 فمن ادعى خلا في هذه الطرق . او ان هؤلاء آثروا هواهم . وانفقوا بضائع
 العمر في هذه الاغراض وغيرها أفضل . فقد ادعى على الكاملين
 النقصان وانما هو الناقص فهم لاهم ؟ وقد كان سفيان الثوري اذا سافر ففى
 سفرته حمل مشوية وفالودج ، وكان حسن الطعم ، وكان يقول إن الدابة
 اذا لم تحسن اليها لم تعمل ، وهذه الفنون التي أشرت اليها ان قصادت
 للحاجة اليها . أو لقضاء وطر النفس منها . او لبلوغ الاغراض الدينية
 والديوية منها . فكله قصد صحيح لا يعكر عليه حاله ، ومن يقوم ويقعد
 في ركعات لا يفهم معناها . وفي تسبيحات أكثر الفاظها ردية ، كلا ليس
 الا العلم الذي هو أفضل الصفات ، وأشرف العبادات ، وهو الآمر

بالمصالح . والناطق بالنصائح ، ثم منفعة العلم معروفة ، وزهد الزاهد لا يتعمد عتبة بابه ، وقد قال صلى الله عليه وسلم : لأن يهدي الله بك رجلاً خيراً لك مما طلعت عليه الشمس ، ثم اعتبر فضل الرسل على الأنبياء عليهم الصلاة والسلام . والجوارح على التي لا تصيد . والطين الذي يعمل منه ما ينتفع به على الطين في المقام ، وغاية العلماء تصرفهم بالعلم في المباح ، وأكثر المتزهدين جهلة يستعبدون تقبيل اليد لأجل تركهم ما أيسر ، فكم فوتت العزلة علماً يصلح به أصل الدين ، وكم أوقعت في بلية هلك بها الدين ، وإنما عزلة العالم عن الشر خسر ، والله الموفق .

٨٣ - فصل - ينبغي لكل ذي لب وفطنة أن يحذر عواقب المعاصي . فإنه ليس بين الآدمي وبين الله تعالى قرابة ولا رحم ، وإنما هو قائم بالقسط . حاكم بالعدل : وإن كان حلمه يسع الذنوب . إلا أنه إذا شاء عفا فعفا كل كفيف من الذنوب ، وإذا شاء أخذ باليسير ، فالحذر الحذر . ولقد رأيت أقواماً من المترفين كانوا يتقلبون في الظلم والمعاصي باطنة وظاهرة ، فتمعبوا من حيث لم يحتسبوا . فقلعت اصولهم . ونقض ما بنوا من قواعد حكموها لذرائعهم ، وما كان ذلك إلا أنهم أهملوا جانب الحق عز وجل ، وظنوا أن ما يفعلونه من خير يقاوم ما يجري من شر ، فالت سفينة ظنونهم . فدخلها من ماء الكيد ما أغرقهم ، ورأيت أقواماً من المنتسبين إلى العلم أهملوا انظر الحق عز وجل اليهم في الخلوات . فمضى محاسن ذكركم في الجلوات . فكانوا موجودين كالمعدومين ، لا حلاوة لرؤيتهم ، ولا قلب يحن إلى لقاءهم ، فآله الله في مراقبة الحق عز وجل . فإن ميزان عدله تبين فيه الذرة ، وجزاؤه مرصده للمخطيء . ولو بعد حين ، وربما ظن

المغو وهو أمهال وللذنوب عواقب سيئة ، فالله الله . الخلوات . البواطن .
البواطن . النيات النيات فان عليكم من الله عينا ناظرة ، واياكم والاعتذار
بحلمه وكرمه ، فكم استدرج . وكونوا على مراقبة الخطايا مجتهدين في
محوها ، وما شئ ينفع كالتضرع مع الحمية عن الخطايا ، فلعنه .

وهذا فصل اذا تأمله المعامل لله تعالى نفعه ، ولقد قال بعض المراقبين
لله تعالى : قدرت على لذة هي غاية وليست بكبيرة . فنازعني نفسي اليها اعتمادا
على صغرها . وعظم فضل الله تعالى وكرمه . فقلت لنفسي : إن غلبت هذه
فأنت انت ، واذا اتيت هذه فمن أنت ! وذكرتها حالة أقوام كانوا يفسحون
لأنفسهم في مسامحة كيف انطوت اذكارهم ، وتمكنت عقوبة الاعراض
عنهم ، فبههم فارغوت ورجعت عما همت به والله الموفق .

٨٤ - فصل - كثير من الناس يتسامحون في امور يظنونها قريبة .
وهي تقدح في الأصول ، كاستمارة طلاب العلم جزءاً لا يردونه ، وقصد
الدخول على من يأكل ليؤكل معه ، وتناول طعام لم يدع الا انسان اليه ، والتسامح
بعرض العدو التذاذاً بذلك ، واستصغاراً لمثل هذا الذنب ، واطلاق
البصر في المحرم هو انا بتلك الخطيئة ، وفتوى من لا يعلم انما يقال هو
جاهل ، ونحو ذلك مما يظن صغيراً وهو عظيم ، واهون ما يصنع ذلك بصاحبه
أن يحطه من مرتبة المتميزين بين الناس ، ومن مقام رفعة القدر عند الحق ،
وربما قيل له بلسان الحال : يا من اؤتمن على امر يسير نخان ، ما بلية حظك
فانوبه ، قال بعض السلف : تسامحت بلقمة فتناولتها فانا اليوم اربعين سنة الى
خلف ، فالله الله اسمعوا ممن قد جرب ، كونوا على مراقبة . وانظروا في
العواقب . واعرفوا عظمة الناهي . واحذروا من نفخة تحترق ، وشررة تستصغر

فربما أحرقت بلدا. وهذا الذي أشرت إليه يسير يدل على كثير ، وأنموذج يعرف باقي المحقرات من الذنوب ، والعلم والمراقبة يعرفانك ما أخللت بذكركه ، ويعلمانك إن تلمحت بعين البصيرة أثر شؤم فعله ، ولا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم .

٨٥ - فصل - رأيت من نفسى عجباً تسأل الله عز وجل حاجاتها ، وتنسى جنباياتها ، فقلت : يا نفس السوء أو مثلك ينطق . فان نطق فينبغى أن يكون السؤال العفو فحسب . فقالت : فمن أطلب مراداتي ؟ قلت : ما أمتنعك من طلب المراد . انما أقول حقق التوبة ، وانطقى كما نقول فى العاصى بسفره اذا اضطر الى الميتة لا يجوز له ان يأكل ، فان قيل لنا أقيموت ! قلنا لا بل يتوب ويأكل ؟ فآله الله من جرأة على طلب الاغراض مع نسيان ما تقدم من الذنوب التى توجب تنكيس الرأس ، واثن تشاغلنا باصلاح ما مضى والندم عليه جاءتك مراداتك ، كما روى : من شغله ذكرى عن مسأتي أعطيته أفضل ما أعطى السائلين ، وقد كان بشر الخافى يبسط يديه للسؤال ثم يسبلمهما ويقول : مثلى لا يسأل . ما أبقت الذنوب لى وجهها ، وهذا يختص ببشر لقوة معرفته . كان وقت السؤال كالمخاطب كفاحا فاستحى للزال ، فاما أهل الغفلة فسؤالهم على بعد ، فافهم ما ذكرته . وتشاغل بالتوبة من الزال . ثم العجب من سؤالك فانك لا تكاد تسأل مهما من الدنيا . بل فضول العيش ، ولا تسأل صلاح القلب والدين مثل ما تسأل صلاح الدنيا ، فاعقل أمرك فأنك من الانبساط والغفلة على شفا جرف ، وليكن حزنك على زلاتك شاغل لك عن مراداتك ، فقد كان الحسن البصرى شديد الخوف . فلما قيل له فى ذلك قال : وما يؤمننى أن

يكون أطلع على في بعض ذنوبي فقال اذهب لاغفرت لك .

٨٦ -- فصل -- أعجب العجب دعوى المعرفة مع البعد عن العرفان بالله ، ما عرفه الا ماخاف منه ، فاما المظمن فليس من أهل المعرفة ، وفي المتزهدين اهل تغفيل يكاد أحدهم يوطن على أنه ولي محبوب ومقبول ، وربما والت عليه الطاف ظنّها كرامات ونسى الاستدراج الذي لفت مساكنته الاطاف ، وربما احتقر غيره ووطن أن محلته محفوظة به . تغرر كيمعات ينتصب فيها ، او عبادة ينصب بها ، وربما ظن أنه قطب الارض وأنه لا ينال مقامه بعده أحد . وكأنه ما علم أنه بينا موسى مكالم بني يوشع ، وبيننا زكريا عليهم السلام مجاب الدعوة نشر بالمنشار ، وبيننا يحيى عليه السلام يوصف بأنه سيدسلط عليه كافر اجتز رأسه ، وبيننا بلعام معه الاسم الأعظم صار مثله كمثل الكاب ، وبيننا الشريعة يعمل بها نسخت وبطل حكمها ، وبيننا البدن معمورا خرب وساط البلاء عليه ، وبيننا العالم يدأب حتى ينال مرتبة يعتقدها ، نشأ طفل في زمان ترقى الى سبر عيوبه وغلطه ، وكم من متكلم يقول : مامثلي لو عاش فسمع ما حدث بعده من الفصاحة عد نفسه أخرسا . هذا وعظ ابن السباك . وابن عمار . وابن سميون . لا يصلح لبعض تلامذتنا ولا يرضاه ، فكيف يعجب . ينفق شيئا^(١) وربما اتى بعدنا من لا يعدنا ، فآله الله من مساكنة مسكن ، ومخالفة مقام . وليكن المتيقظ على انزعاج محتقر للكثير من طاعاته ، خائفا على نفسه من تقلباته ، ونفوذ الاقدار فيه . واعلم ان تلح هذه الاشياء التي أشرت اليها يضرب عنق العجب ، ويذهب كبر الكبر .

٨٧ -- فصل -- من عاش مع الله عز وجل طيب العيش في زمن

(١) كذا في الهندية . وفي الاحمدية : يتفق شيئا

السلامة ، خُفَّت عليه في زمن البلاء ، فهناك المحك . ان الملك عز وجل
 يننا يبنى نقض ، ويننا يعطى سلب ، فطيب العيش والرضى هناك يبين ،
 فاما من تواصيات لديه النعم فانه يكون طيب القلب لتواصلها ، فاذا مسته
 نفحة من البلاء فبعيد ثباته ، قال الحسن البصري : كانوا يتساوون في وقت
 النعم فاذا نزل البلاء تباينوا ، فالعاقل من اعد ذخرا ، وحصل زادا ، وازداد
 من العدد للقاء حرب البلاء . ولا بد من لقاء البلاء ، ولولم يكن الا عند
 صرعة الموت ، فانها ان نزلت والعياذ بالله فلم تجد معرفة توجب الرضى او
 الصبر . اخرجت الى الكفر ، ولقد سمعت بعض من كنت اظن فيه كثرة
 الخير وهو يقول في ايام موته : ربى هو ذا يظلمنى . فلم ازل منزعا مهتما
 بتحصيل عدة اتى بها ذلك القرن . كيف وقد روى ان الشيطان يقول
 لا عوانه في تلك الساعة : عليكم بهذا ، فان فاتكم لم تقدرواعليه ، وأى قلب
 يثبت عند امساك النفس ، والاخذ بالكظم ، ونزع النفس والعلم بمفارقة
 المحبوبات الى ما لا يدري ماهو ، وليس في ظاهره الا القبر والبلاء ، فנסأل الله
 عز وجل يقينا يقينا شر ذلك اليوم ، لعلنا نصبر للقضاء أو نرضى به ونزغب
 الى مالك الامور في ان يهب لنا من فواضل نعمه على احبابه ، حتى يكون
 لقاءه احب الينا من بقائنا ، وتفويضنا الى تقديره اشهى لنا من اختيارنا ،
 ونعوذ بالله من اعتقاد الكمال لتدبيرنا ، حتى اذا انعكس علينا امر عدنا الى
 القدر بالتسخط . وهذا هو الجهل المحض ، والخذلان الصريح اعاذنا الله منه .

٨٨- فصل - ليس في الدنيا ولا في الآخرة أطيب عيشا من العارفين

بالله عز وجل ، فان العارف به مستأنس به في خلوته ، فان عمت نعمه علم
 من أهداها ، وان مر مر حلا مذاقه في فيه ، لمعرفته بالمبتلى . وان سأل

فتعوق مقصود، صار مراده ما جرى به القدر، علما منه بالمصلحة بعد يقينه بالحكمة، وثقته بحسن التدبير. وصفة العارف ان قلبه مراقب لمعروفه، قائم بين يديه، ناظر بعين اليقين اليه، فقد سرى من بركة معرفته الى الجوارح ما هذبها:

فان نطق فلم انطق بغيركم وان سككت فانتم عقد اضماري
اذا تسلط على العارف أذى أعرض نظره عن السبب، ولم يرسوئى المسبب،
فهو في أطيب عيش معه، ان سككت تفكر في اقامة حقه، وان نطق تكلم
بما يرضيه، لا يسكن قلبه الى زوجة ولا الى ولد، ولا يتشبث بذيل محبة
احد، وانما يعاشر الخلق بيدنه وروحه عند مالك روجه. فهذا الذي لاهم
عليه في الدنيا ولا غم عنده وقت الرحيل عنها، ولا وحشة له في القبر، ولا
خوف عليه يوم المحشر. فأما من عدم المعرفة فانه معترلا يزال يضج من البلاء
لانه لا يعرف المبتلى، ويستوحش لفقد غرضه لانه لا يعرف المصلحة،
ويستأنس بجذسه لانه لا معرفة بينه وبين ربه، ويخاف من الرحيل لانه
لا زاد له ولا معرفة بالطريق. وكم من عالم وزاهد لم يرزقا من المعرفة الا
ما رزقه العامى البطال، وربما زاد عليهما. وكم من عامى رزق منها ما لم
يرزقه مع اجتهادهما، وانما هي مواهب وأقسام. ذلك فضل الله يؤتيه
من يشاء

٨٩- فصل - بالله عليك يا مرفوع القدر بالتقوى لا تتبع عزها بذل
المعاصي، وصابر عطش الهوى في هجير الشهوى وان أمض وأرمض،
فاذا بلغت النهاية من الصبر فاحتكم وقل. فهو مقام من لو أقسم على الله
لأبره، تالله لو لا صبر عمر ما انبسطت يده بضرب الارض بالدرة، ولو لا جدد

انس بن النضر في ترك هواه . وقد سمعت من آثار عزمته لئن اشهدني الله مشهد ليرين الله ما اصنع ، فاقبل يوم احد يقاتل حتى قتل فلم يعرف الايئنا . فلو لا هذا العزم ما كان انبساط - يوم والله لا تكسر سن الربيع - وجه ، بالله عليك تذوق حلاوة كف الكف عن المنهى ، فانها شجرة تثمر عز الدنيا وشرف الآخرة ، ومتى اشتد عطشك الى ما تهوى فابسط انامل الرجاء الى من عنده الرى السكامل ، وقل قد عيل صبر الطبع في سنيته المعجاف ، فمجل الى العام الذي فيه اغاث وأعصر . بالله عليك تفكر فيمن قطع اكثر العمر في التقوى والطاعة ثم عرضت له فتنة في الاخير ، كيف انطح مركبه الجرف ففرق وقت الممود ، أف والله للدنيا لا بل للجنة ان اوجب نيلها اعراض الحبيب : انما نسب العاصي باسمه واسم ابيه ، فاما ذوو الاقدار فالالاف قبل الانساب . قل لي من أنت وما عمك وألى أى مقام ارتفع قدرك ، يا من لا يصبر لحظة عما يشتهى . بالله عليك أتدرى من الرجل ؟ الرجل والله من اذا خلا بما يحب من المحرم وقدر عليه وتقلقل عطشا اليه نظر الى نظر الحق اليه فاستحى من اجالة همه فيما يكرهه ، فذهب العطش كأنك لا تترك لنا الا ما لا تشتهى ، أو مالا تصدق الشهوة فيه أو مالا تقدر عليه ، كذا والله عادتك اذا تصدقت اعطيت كسرة لا تصلح لك ، أو فى جماعة يدحوك بهيات والله لا نلت ولا يتنا حتى تكون مما ملتك انا خالصة . تبذل اطايبك . وتترك مشتهياتك ، وتصبر على مكروهاتك ، علما منك ان كنت معاملا بانك اجير وما غربت الشمس . فان كنت محبا رأيت ذلك قليلا فى جنب رضى حبيبك عنك ، وما كلامنا مع الثالث .

٩٠ - فصل - رأيت فى العقل نوع منازعة للتطلع الى جميع حكم الحق

عز وجل في حكمه، فربما لم يبين له بعضها مثل النقض بعد البناء فيقف متحيرا وربما اتهمز الشيطان تلك الفرصة، فوسوس اليه أين الحكمة من هذا؟ فقلت له احذر ان تخدع بامسكين، فانه قد ثبت بالدليل القاطع لما رأيت من اتقان الصنائع عندك حكمة الصانع، فان خفي عليك بعض الحكم فاضعف ادراكك ثم ما زالت للملوك اسرار. فمن انت حتى تطمع بضعفك على جميع حكمه. يكفيك الجمل. واياك اياك أن تتعرض لما يخفى عليك. فانك بعض موضوعاته وذرة من مصنوعاته. فكيف تتحكم على من صدرت عنه؟ ثم قد ثبتت عندك حكمته وحكمه وملكه. فاعمل آلتك على قدر قوتك في مطالعة ما يمكن من الحكم، فانه سيورثك الدهش. وغمض عما يخفى عليك فحقيق بذي البصر الضعيف ألا يقاوى نور الشمس.

٩١- فصل - أعجب الاشياء مجاهدة النفس. لانها تحتاج الى صناعة عجيبة. فان اقواما اطلقوها فيما تحب، فاوقعتهم فيما كرهوا. وإن اقواما بالغوا في خلافها حتى منعوها حقها، وظلموها. واثروا ظلمهم لها في تعبداتهم فمنهم من اساء غذاءها فآثر ذلك ضعف بدنها عن اقامة واجبها، ومنهم من افردها في خلوة أثمرت الوحشة من الناس وآلت الى ترك فرض أو فضل من عيادة مريض، أو بر والدة. وانما الخازم من تعلم منه نفسه الجد وحفظ الاصول. فاذا فسح لها في مباح لم تتجاسر أن تتعداه. فيكون معها كالملك اذا مازح بعض جنده، فانه لا ينبسط اليه الغلام. فان انبسط ذكر هيبة الملكة. فكذلك المحقق يعطيها حظها ويستوفي منها ما عليها.

٩٢- فصل - رأيت عموم الخلائق يدفعون الزمان دفعا عجيبا. إن طال الليل فبحديث لا ينفع، أو بقراءة كتاب فيه غزاة وسم. وإن طال

النهار فبانوم ، وهم في اطراف النهار على دجلة أو في الاسواق . فشبهتهم بالمتحدثين في سفينة وهي تجرى بهم ، وما عندهم خبر . ورأيت النادرين قد فهموا معنى الوجود . فهم في تعبئة الزاد والتأهب للرحيل ، إلا أنهم يتفاوتون . وسبب تفاوتهم قلة العلم وكثرته بما ينفق في بلد الإقامة فالمتيقظون منهم يتطلعون الى الاخبار بالنافق هناك ، فيستكثرون منه فيزيد ربحهم . والغافلون منهم يحملون ما اتفق ، وربما خرجوا لاعم خفير . فكم ممن قد قطعت عليه الطريق فبقى مفلسا . قاله الله في مواسم العمر . والبدار البدار قبل الفوات ، واستشهدوا العلم ، واستدلوا بالحكمة ، ونافسوا الزمان ، وناقشوا النفوس ، واستظهروا بالزاد . فكان قد حدى الحادى فلم يفهم صوته من وقع دمع الندم .

٩٣- فصل - اضر ما على المريض التخليط . وما من أحد الا وهو مريض بالهوى ، والحمية عنه رأس الدواء ، والتخليط يديم المرض . وتخليط أرباب الآخرة على ضربين : احدهما تخليط العلماء ، وهو إما لمخالطة الاضداد كالسلاطين فانهم يضعفون قوى يقيهم كلما زادت المخالطة ، ويقدمون دليلهم عند المریدين . فاني اذا رأيت طبيباً يخلط ويحميني شككت أو وقفت : والثاني تخليط الزهاد ، وقد يكون بمخالطة أرباب الدنيا . وقد يكون بحفظ الناموس في اظهار التخشع ، لاجتلاب محبة العوام . قاله الله فان ناقد الجزاء بصير ، والاخلاص في الباطن ، والصدق في القلب ، ونعم طريق السلامة ستر الحال .

٩٤ - فصل - لقيت مشايخ أحوالهم مختلفة يتفاوتون في مقاديرهم في العلم ، وكان أنفعهم لي في صحبته العامل منهم بعلمه وان كان غيره اعلم (٨-٢)

منه ، واقيت جماعة من علماء الحديث يحفظون ويعرفون ولكنهم كانوا يتسامحون بغيبة يخرجونها مخرج جرح وتعديل ، ويأخذون على قراءة الحديث أجرة ، ويسرعون الجواب لئلا ينكسر الجاه وان وقع خطأ ، ولقيت عبد الوهاب الانماطى فكان على قانون السلف لم يسمع فى مجلسه غيبة ، ولا كان يطلب اجرا على سماع الحديث ، وكنت اذا قرأت عليه أحاديث الرقايق بكى واتصل بكأوه ، فكنت وانا صغير السن حينئذ يعمل بكأوه فى قلبى ، ويبنى قواعد . وكان على سمى المشايخ الذين سمعنا أوصافهم فى النقل ، واقيت الشيخ ابا منصور الجوالقى ، فكان كثير الصمت ، شديد التحرى فيما يقول ، متقنا محققا ، وربما سئل المسئلة الظاهرة التى يبادر بجوابها بعض غلمانه فيتوقف فيها حتى يتيقن ، وكان كثير الصوم والصمت فانتفعت برؤية هذين الرجلين أكثر من انتفاعى بغيرهما ، ففهمت من هذه الحالة أن الدليل بالفعل أرشد من الدليل بالقول ، ورأيت مشايخ كانت لهم خلوات فى انبساط ومزاح ، فراحوا عن القلوب وبدد تبديدهم ما جمعوا من العلم . فقل الانتفاع لهم فى حياتهم ، ونسوا بعد مماتهم ، فلا يكاد احد أن يلتفت الى مصنفاتهم ، فالله الله فى العلم بالعمل فانه الاصل الاكبر والمسكين كل المسكين من صناع عمره فى علم لم يعمل به ، ففاته لذات الدنيا وخيرات الآخرة ، فقدم مفلسا على قوة الحجة عليه .

٩٥ - فصل - سبحان الملك العظيم الذى من عرفه خافه ، ومن آمن مكره قط ما عرفه . لقد تأملت امراً عظيماً انه عز وجل يعمل حتى كأنه يهمل فيرى ايدى العصاة مطلقة كأنه لا مانع ، فاذا زاد الانبساط ولم ترعوى العقول اخذ اخذ جبار ، وانما كان ذلك الامهال ليبلو صبر الصابر ، وليلمى فى

الامهال للظالم ، فيثبت هذا على صبره . ويجزى هذا بقبيح فعله . مع أن هنالك من الحلم في طي ذلك مالا نعلمه . فاذا اخذ اخذ عقوبة رأيت على كل غلطة بتمع . وربما جمعت فضرب العاصي بالحجر الدامغ . وربما خفي على الناس سبب عقوبته ففيل فلان من اهل الخير فواجه ماجرى له : فيقول القدر : حدود لذنوب خفية صار استيفاؤها ظاهراً ، فسبحان من ظهر حتى لاخفاء به ، واستتر حتى كأنه لايعرف ، وامهل حتى طمع في مسامحته ، وناقش حتى تحيرت العقول من مؤاخذته . لاحول ولا قوة الا بالله .

٩٦ - فصل - تأملت العلم والميل اليه والتشاغل به ، فاذا هو يقوى القلب قوة يميل به الى نوع قساوة ، ولولا قوة القلب وطول الأمل لم يقع التشاغل به ، فاني أكتب الحديث ارجو أن أرويه ، وأبتدىء بالتصنيف ارجو أن أتمه ، فاذا تأملت الى باب المعاملات قل الأمل ، ورق القلب ، وجاءت الدموع ، وطابت المناجاة ، وغشيت السكينة ، وصرت كأني في مقام المراقبة . الا ان العلم أفضل واغوى حجة ، واعلى رتبة ، وان حدث منه ما شكوت منه . والعاملة وان كثرت الفوائد التي أشرت اليها منها فانها قريبة الى أحوال الجبان الكسلان . الذي قد اقتنع بصلاح نفسه عن هداية غيره ، وانفرد بمزاته عن اجتذاب الخلق الى ربهم . فالصواب المكوف على العلم مع تلذيع النفس بأسباب المرفقات تلذيعاً لا يقدح في كمال التشاغل بالعلم . فاني لا أكره لنفسى من جهة ضعف قلبي ورقته أن أكثر زيارة القبور وان أحضر المحتضرين . لأن ذلك يؤثر في فكري ويخرجني من حيز المتشاغلين بالعلم الى مقام الفكر في الموت ، ولا انتفع بنفسى مدة . وفصل الخطاب في هذا أنه ينبغي ان يقاوم المرض بضده ، فمن كان قلبه

قاسياً شديداً القسوة وليس عنده من المراقبة ما يكفه عن الخطأ قاوم ذلك
بذكر الموت ومحاضرة المحتضرين . فأما من قلبه شديد الرقة فيكفيه ما به
بل ينبغي له أن يتشاغل بما ينسيه ذلك لينتفع بعيشه ، وليفهم ما يقف به ، وقد
كان الرسول ﷺ يمزح ويسابق عايشه ، ويتلطف بنفسه فمن سار سيرته عليه
الصلاة والسلام فهم من مضمونها ما قلته من التلطف بالنفس .

٩٧ - فصل - أظرف الأشياء افاقة المحتضر عند موته ، فانه ينتبه
انتباهاً لا يوصف ، ويقاق قلباً لا يحمد ، ويتلف على زمانه الماضي ، ويود لو
ترك والتدارك ، ويصدق توبته على مقدار يقينه بالموت ، ويكاد يقتل نفسه
قبل موتها بالأسف ، ولو وجدت ذرة من تلك الاحوال في أو ان العافية
حصل كل مقصود من العمل بالتقوى ، فالعاقل من مثل تلك الساعة وعمل
بمقتضى ذلك . فان لم يتهياً تصوير ذلك على حقيقة تحايله على قدر يقظته ، فانه
يكف كفاً الهوى ويبعث على الجدد . فاما من كانت تلك الساعة نصب
عينيه كان كالأسير لها ، كما روى عن حبيب العجمي انه كان اذا اصبح يقول
لامرأته : اذا مت اليوم ففلان يغسلني . وفلان يحملني . وقال معروف لرجل
صل بنا الظهر . فقال : إن صليت بكم الظهر لم اصل بكم العصر ، فقال : وكأنك
تؤمل أن تعيش الى العصر . نعمو بالله من طول الامل . وذكر رجل رجلاً
بين يديه بغية فجعل معروف يقول له : اذكر القطن اذا وضعوه على
عينيك .

٩٨ - فصل - ربما أخذ المتيقظيت شعر فاخذ منه اشارة فانتفع
بها ، قال الجنيد : ناولني سري رقعة فيها مكتوب سمعت حادياً في طريق مكة
تبرفها الله تعالى يقول :

ابكى وما يدريك ما يبكىنى ابكى حذارا أن تفارقينى

وتقطعى حبلى وتهجرينى

فانظر رحمك الله ووفقك الى تأثير هذه الايات عند سرى حتى
احب أن يطالع منها الجنيد على ما اطالع عليه، ولم يصلح للاطلاع على مثلها
الا الجنيد، فان أقواما فيهم كثافة طبع وخشونة فهم . قال بعضهم لما سمع
مثل هذه . الى ما يشار بهذه ؛ أن كان الى الحق فالحق عز وجل لا يشار اليه
بالفظ تأنيث ؛ وان كان الى امرأة فاين الزهد ؛ وامرئى ان هذا حداء أهل
الغفلة اذا سمعوا مثل هذا ، ولذلك ينهى عن سماع القصائد وأقوال أهل
الغناء ، لأن الغالب حمل تلك الايات على مقاصد النفس ، وغلبات الهوى
ومن اين لنا مثل الجنيد وسرى ، واذا وجدنا مثلها فهما خبيران بما يسمعان
واما اعتراض هذا الكثيف الطبع فالجواب : أن سرى لم يأخذ الاشارة من
اللفظ ، ولم يقس ذلك على مطلوبه فيصيره تأنيثا أو تذكيرا ، وانما اخذ
الاشارة من المعنى ؛ فكانه يخاطب حبيبته بمعنى الايات ، فيقول : ابكى
حذارا من اعراضك وابعادك . فهذا الحاصل له . وما التفت قط الى تذكير
ولا الى لفظ تأنيث فافهم هذا . وما زال المتيقظون يأخذون الاشارة من مثل
هذا حتى كانوا يأخذونها من هذا الذى تقوله العامة ويلقبونه بكان وكان
فرايت بخط ابن عقيل عن بعض مشايخه الكبار أنه سمع امرأة تنشد :

غسلت له طول الليل فركت له طول النهار

خرج يعاين غيرى زلق وقع فى الطين

فاخذ من ذلك اشارة معناها : يا عبدى انى حسنت خلقك ، وأصلحت

شأنك ، وقومت بنيتك ، فاقبلت على غيرى ، فانظر عواقب خلافتك لى . وقال

ابن عقيل : وسمعت امرأة تقول : من هذا المكان وكان كلمة بقيت في قلعةها مدة :

كم كنت بالله أقل لك لذا التواني غائله
وللقبيح خيره تبين بعد قليل

قال ابن عقيل : فما أوقعه من تخجيل على إهمالنا لأمور غدا تبين خبايرها بين يدي الله تعالى .

٩٩ - فصل - أمكنني تحصيل شيء من الدنيا بنوع من انواع الرخص فكنت كلما حصل شيء منه فاتني من قلبي شيء فكلما استنارت لي طريق التحصيل تجدد في قلبي ظلمة . فقلت يا نفس السوء - الائم حزاز القلوب - وقد قال استفتت نفسك فلا خير في الدنيا كلها اذا كان في القلب من تحصيلها شيء أوجب نوع كدر ، وأن الجنة لو حصت بسبب يقدر في الدين أو في المعاملة ما لذت ، والنوم على المزابل مع سلامة القلب من الكدر الذم من تكأت الملوك . وما زلت أغلب نفسي تارة وتغلبني أخرى ، ثم تدعى الحاجة الى تحصيل ما لا بد لها منه . وتقول : فما اتعدى في الكسب المباح في الظاهر . فقلت لها : أوليس الورع يمنع من هذا . قالت : بلى . قلت : اليس القسوة في القلب تحصل به . قالت : بلى . قلت : فلا خير لك في شيء هذا ثمرة ، نخلوت يوما بنفسى فقلت لها : ويحك اسمي احداثك إن جمعت شيئاً من الدنيا من وجه فيه شبهة أفانت على يقين من انفاقه . قالت : لا . قلت : فالحننة أن يحظى به الغير ولا تنالين الا الكدر العاجل ، والوزر الذي لا يؤمن ويحك أتركي هذا الذي يمنع منه الورع لأجل ! الله فعامل به بتركه ، وكأنك لا تريد أن لا تتركي إلا

ما هو محرم فقط أو مالا يصح وجهه ، أو ما سمعت أن من ترك شيئاً لله عوضه الله خيراً منه ، أمالك عبرة في أقوام جمعوا خازنه سواهم ، واملوا فما بلغوا منهم ، كم من عالم جمع كتباً كثيرة ما انتفع بها ، وكم من منتفع ما عنده عشرة أجزاء . كم من طيب العيش لا يملك دينارين ، وكم من ذى قناطر منغص ، أمالك فطنة تنلح أحوال من يترخص من وجه فيسلب منه من أوجه . ربما تزل المرض بصاحب الدار أو يبعض من فيها فانفق في سنته اضعاف ما ترخص في كسبه ، والمتقى معافى . فضجت النفس من لومى . وقالت : اذا لم اتعد واجب الشرع فما الذى تريد منى . فقلت : لها أضن بك عن الغبن وانت أعرف بباطن أمرك . قالت : فقل لى ما أصنع . قلت : عليك بالمراقبة لمن يراك ، ومثل نفسك بخمرة معظم من الخلق فانك بين يدي الملك الاعظم يرى من باطنك ما لا يراه المعظمون من ظاهرك فخذى بالاحوط . واحذرى من الترخص فى بيع اليقين ، والتقوى بما جل الهوى ، فان وقع الطبع مما تلقين فقولى له : مهلاً ، فما انقضت مدة الاشارة ، والله مرشدك الى التحقيق . ومعينك بالتوفيق .

١٠٠ - فصل - ما زلت اسمع عن جماعة من الاكابر وارباب المناصب انهم يشربون الخمر ويفسقون ويظلمون ، ويفعلون أشياء توجب الحدود فبقيت اتفكر أقول متى يثبت على مثل هؤلاء ما يوجب حداً ؟ فلو ثبت فن قيمه واستبعد هذا فى العادة لانهم فى مقام احترام لاجل مناصبهم ، فبقيت اتفكر فى تعطيل الحد الواجب عليهم ، حتى رأيتهم قد نكبوا وأخذوا مرات ، ومررت عليهم العجايب ، فقول بل ظلمهم بأخذ أموالهم ، وأخذت منهم الحدود مضاعفة بعد الحبس الطويل . والقيد الثقيل . والذل العظيم . وفيهم من قتل بعد ملاقة كل شدة ، فعلمت انه ما يهمل شئ . فالحذر الحذر

فإن العقوبة بالمرصاد .

١٠١ - فصل - أجهاد العاقل فيما يصلحه لازم له بمقتضى العقل والشرع ، فمن ذلك حفظ ماله وطلب تنميته والرغبة في زيادته ، لانه سبب بقاء الانسان - مثاله - فقد نهى عن التبذير فيه ، فقيل له « ولا توثوا السفهاء أموالكم » فاعلم انه - بسبب لبقائه « التي جعل الله لكم قياما » أى قواما لمعاشكم وقال عز وجل « ولا تبسطها كل البسط » وقال تعالى « ولا تبذر تبذيرا » وقال تعالى « لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما » ومن فضيلة المال أن الله تعالى قال « من ذا الذي يقرض الله قرضا حسنا » وقال تعالى « وأنفقوا فى سبيل الله » وقال تعالى « ينفقون أموالهم » وقال تعالى « لا يستوى منكم من أنفق من قبل الفتح » وجعل المال نعمة وزكاته تطهيرا . فقال تعالى : « خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكاهم بها » وقال صلى الله عليه وسلم : نعم المال الصالح للرجل الصالح . وقال : ما نفعنى مال كمال أبى بكر . وكان أبو بكر رضى الله عنه يخرج الى التجارة ويترك رسول الله صلى الله عليه وسلم فلا ينهيه عن ذلك . وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه . لأن أموت بين شعبتى جبل اطاب كفاه وجهى احب الى من أن اموت غاربا فى سبيل الله . وكان جماعة من الصحابة رضى الله عنهم يتجرون ، ومن سادات التابعين سميد بن المسيب . فمات وخلف مالا وكان يحتكر الزيت ، وما زال السلف على هذا ثم تعرض نواب كالمرضى محتاج فيها الى شىء من المال فلا يجد الانسان بدا من الاغتيال فى طلبته ، فيبذل عرضه أو دينه ، ثم للنفس قوة بدنية عند وجود المال ، وهو محدود عند الاطباء من الادوية ، حكمة وضعها الواضع ، وانما ينبغ اقوام طلبوا طريق الراحة فادعوا أنهم متوكلون وقالوا نحن لانسك شيئا . ولا نتزود

لسفر، ورزق الابدان يأتى، وهذا على مضادة. الشرع فان رسول الله ﷺ نهى عن اصابة المال، وموسى عليه السلام لما سافر فى طلب الخضر تزود، ونبينا ﷺ لما هاجر تزود، وابلغ من هذا قوله تعالى «وتزودوا فان خير الزاد التقوى» ثم يدعى هؤلاء المتصوفة بغض الدنيا فلا يفهمون ما الذى ينبغى أن يبغض، ويرون زيادة الطلب للمال حرصا وشرها، وفى الجملة انما اخترعوا بأرائهم طريقا فيها شيء من الرهبانية اذا صدقوا وشيء من البهجة اذا نصبوا شباك الصيد بالتزهد فسموا ما يصل اليهم من الارزاق فتوحا، قال ابن قتيبة فى غريب الحديث فى قوله ﷺ: واليد العليا. قال. هى المعطية. قال فالعجب عندى من قوم يقولون هى الآخذه، ولا أرى هؤلاء القوم الا قوما استطابوا السؤال، فهم يحتجون للدناءة، فاما الشرائع فانها برئية من حالهم. وفى الحديث: ضاق البلد بمواشى ابراهيم ولوط عليهما السلام فاقتربا. وكان شعيب عليه السلام كثير المال. ثم قد ندم طمعه فى زيادة الاجر من موسى عليه السلام فقال: «فان اتممت عشرا فمن عندك»، وكان ابن عقيل رحمه الله يقول: من قال انى لا احب الدنيا فهو كذاب، فان يعقوب عليه السلام لما طلب منه ابنته يامين قال: «هل آمنكم عليه». فقالوا: «ونزداد كيل بعير». فقال: خذوه، وقال بعض السلف: من ادعى بغض الدنيا فهو عندى كذاب الى ان يثبت صدقه، فاذا ثبت صدقه فهو مجنون، وقد نفر جماعة من المتصوفة خلقا من الخلق عن الكسب، وأوحشوا بينهم وبينه، وهو دأب الانبياء والصالحين. وانما طلبوا طريق الراحة وجلسوا على الفتوح. فاذا شبعوا رقصوا. فاذا انهضم الطعام أكلوا. فان لاحت، لهم حيلة على غنى أوجبوا عليه دعوة، إما بسبب شكر أو بسبب استغفار، واطم الطامات

ادعائهم ان هذا قرينة ، وقد انعقد اجماع العلماء ان من ادعى الرقص قرينة الى الله تعالى كفر ، فلو انهم قالوا مباح كان اقرب حالا ، وهذا لأن القرب لا يعرف الا بالشرع . وليس في الشرع امر بالرقص ولانذب اليه ، ولقد بلغني عن جماعة منهم انهم كانوا يوقدون الشمع في وجوه المردان وينظرون اليهم ، فاذا سئلوا عن ذلك سخرُوا بالسائل فقالوا : نعتبر بخلق الله ، افتراهم أقوى من النبي ﷺ حين اجلس الشاب الذي وفد عليه من وراء ظهره . وقال : وهل كانت فتنة داود الامن النظر ، هيهات لقد تملك الشيطان تلك الازمة فقادها الى ما أراد ، والعجب ممن يذم الدنيا وهو يأكل فيشبع ، ولا ينظر من اين المطعم ، وما زال صالحوا السلف يفتشون على المطعم حتى كان ابراهيم ابن ادم يسهر هو وأصحابه ويقولون مع من نعمل غداً ؟ وكان سرى السقطي يعرف بطيب الغذاء . وله في الورع مقامات . فجاء قوم يتسمون بالصوفية يدعون اتباع أولئك السادة ، ويأكلون من مال فلان . وهم يعرفون أصول تلك الاموال ، ويقولون رزقنا ، فواعجبا اذا كان الآكل لا يبالي به من اين ، ولا امتناع من شهوة ولا تقلل . ولا يخلو الرباط من المطبخ ، ولا ينقطع ليلة . وأصله من مال قد عرف من اين هو ، والحمام دائر والمغني يدق بدف فيه جلاجل ورفيقه بالشبابة ، وسعدى وليلى في الانشاد . والمردان في الشمع . ثم يذم الدنيا بعد هذا ، فقولوا لنا : من يتأهب بالناس ، ولكن من صرت عليهم زرجنتهم فانه اخس منهم .

١٠٢ - فصل - عرض لي في طريق الحج خوف من العرب . فسرنا على طريق خيبر ، فرأيت من الجبال الهائلة والطرق العجيبة ما اذهلني ، وزادت عظمة الخالق عز وجل في صدرى . فصار يعرض لي عند ذكر تلك الطرق

نوع تعظيم لا أجده عند ذكر غيرها، فصحت بالنفس وبحك اعبرى الى البحر وانظري اليه والى عجائبه بعين الفكر، تشاهدى أهواله أَعْظَم من هذه، ثم اخرجى عن الكون والتفتى اليه فانه ترينه بالاضافة الى السموات والافلاك كذرة في فلاة. ثم جولى في الافلاك وطوفى حول العرش وتلمهى مافى الجنان والنيران، ثم اخرجى عن الكل والتفتى اليه، فانك تشاهدينه فى قبضة القادر الذى لا تقف قدرته عند حد، ثم التفتى اليك فتلمهى بدايتك ونهايتك، وتفكرى فيما قبل البداية، وليس الا العدم، وفيما بعد البلى وليس الا التراب، فكيف يأنس بهذا الوجود من نظر بعين فكره المبدأ والمنتهى وكيف يغفل فعل القلوب عن ذكر هذا الاله العظيم، بالله لو صحت النفوس عن سكر هواها لذابت من خوفه، او لغابت من حبه، غير ان الحس غلب فعظمت قدرة الخالق عند رؤية جبل، وان الفطنة لو تلمحت المعانى لدلت القدرة عليه او فى من دليل الجبل، سببحان من شغل اكثر الخلق بما هم فيه عما خلقوا له سبحانه.

١٠٣ - فصل - للبلايا نهايات معلومة الوقت عند الله عز وجل.

فلا بد للمبتلى من الصبر الى ان ينقضى اوان البلاء فان تقلقل قبل الوقت لم ينفع التقلقل. كما ان المادة اذا انحدرت الى عضو فانها ان ترجع، فلا بد من الصبر الى حين البطالة. فاستمعjal زوال البلاء مع تقدير مـدته لا ينفع. فالواجب الصبر وان كان الدعاء مشروعاً ولا ينفع الا به الا أنه لا ينبغي للداعى ان يستعجل بل يتعبد بالصبر والدعاء والتسليم الى الحكيم، ويقطع المواد التى كانت سبباً للبلاء فان غالب البلاء أن يكون عقوبة. فاما المستعجل فزاحم للمدير وليس هذا مقام العبودية وانما المقام الاعلى هو الرضى والصبر

هو اللازم . والتلاحي بكثرة الدعاء نعم المعتمد ، والاعتراض حرام ، والاستعجال مزاحمة للتدبير ، فافهم هذه الأشياء فأنها تهون البلاء .

١٠٤ - فصل - ليس في الوجود شيء أصعب من الصبر اما على

المحبوب او على المكروهات ، وخصوصا اذا امتد الزمان او وقع اليأس من الفرج وتلك المدة تحتاج الى زاد يقطع به سفرها ، والزاد يتنوع من اجناس فنه تلمح مقدار البلاء وقد يمكن أن يكون اكثر . ومنه انه في حال فوقها اعظم منها مثل ان يبتلى بفقد ولد وعنده اعز منه ، ومن ذلك رجاء العوض في الدنيا ، ومنه تلمح الاجر في الآخرة ، ومنه التلذذ بتصوير المدح والثناء من الخلق فيما يمدحون عليه والأجر من الحق عز وجل ، ومن ذلك بان الجزع لا يفيد بل يفضح صاحبه الى غير ذلك من الاشياء التي يقدحها العقل والفكر فليس في طريق الصبر نفقة سواها ، فينبغي للصابر ان يشغل بها نفسه ويقطع بها ساعات ابتلائه وقد يصبح المنزل .

١٠٥ - فصل - ينبغي لمن وقع في شدة ثم دعا أن لا يختلج في قلبه

أمر من تأخير الاجابة او عدمها ، لأن الذي اليه أن يدعو والمدعو مالك حكيم ، فان لم يجب فعل ما يشاء في ملكه . وان أخر فعل بمقتضى حكمته ، فالمتعرض عليه في سره خارج عن صفة عبد مزاحم بمرتبة مستحق^(١) ثم ليعلم ان اختيار الله عز وجل له خير من اختياره لنفسه . فربما سأل سيلا سال به وفي الحديث : ان رجلا كان يسأل الله عز وجل ان يرزقه الجهاد فهتف به هاتف انك ان غزوت اسرت وان اسرت تنصرت . فاذا سلم العبد

(١) في الاحمدية : لمرتبة مستحق .

تحكمها لحكمته وحكمه وايقن ان الكل ملكه طاب قلبه قضيت حاجته او لم تقض وفي الحديث: مامن مسلم دعا الله تعالى الا وأجابه. فاما ان يجعلها واما أن يؤخرها وأما أن يدخرها له في الآخرة. فاذا رأى يوم القيمة ان ما اجيب فيه قد ذهب ومالم يجب فيه فدى ثوابه ، قال : ليتك لم تجب لى دعوة قط . فافهم هذه الأشياء وقد سلم قلبك من ان يحتاج فيه ريب أو استعجال .

١٠٦- فصل - من اراد أن يعرف رتبة العلماء على الزهاد فليتنظر فى رتبة جـبريل وميكائيل ومن خص من الملائكة بولاية تتعلق بالخلق ، وباقي الملائكة فيام التعبد فى مراتب الرهبان فى الصوامع . وقد حظى أولئك بالتقريب على مقادير علمهم بالله تعالى . فاذا مرأ أحدكم بالوحى انزعج اهل السماء حتى يخبرهم بالخبر ، فاذا فرغ عن قلوبهم قالوا ماذا قال ربكم قالوا الحق . كما اذا انزعج الزاهد من حديث يسمعه سأل العلماء عن صحته ومعناه . فسبحان من خص الخصوص بخصائص شرفوا بها على جنسهم ، ولا خصيصة اشرف من العلم . بزيادته صار آدم مسجوداً له وبنقصانه صارت الملائكة ساجدة ، فاقرب الخلق من الله العلماء وليس العلم بمجرد صورته هو النافع بل معناه وانما ينال معناه من تعلمه للعمل به ، فكما دله على فضل اجتهد فى نياله وكلما زاد نهاه عن نقص بالغ فى مساعدته ، فحينئذ يكشف العلم له سره ، ويسهل عليه طريقه ، فيصير كمجتذب بمحج الجاذب فاذا حركه عجل فى سيره والذى لا يعمل بالعلم لا يطلعه العلم على غوره ولا يكشف له عن سره ، فيكون كمجذوب لجاذب جاذبه فافهم هذا المثل وحسن قصصك والا فلا تتبع .

- ١٠٧ - فصل - اعلم ان اصلح الامور الاعتدال في كل شيء واذا رأينا ارباب الدنيا قد غلبت آمالهم ، وفسدت في الخير اعمالهم ، امرنا هم بذكر الموت والقبور والآخرة . فاما اذا كان العالم لا يغيب عن ذكره الموت واحاديث الآخرة تقرأ عليه وتجري على لسانه فتذكره الموت زيادة على ذلك لا تفيد الا انقطاعه بمرّة . بل ينبغي لهذا العالم الشديد الخوف من الله تعالى الكثير الذكر للآخرة أن يشاغل نفسه عن ذكر الموت ليمتد نفس امله قليلا فيصنف ويعمل اعمال خيرة ، ويقدر على طلب ولد . فاما اذا لهج بذكر الموت كانت مفسدته عليه اكثر من مصلحته ، الم تسمع ان النبي ﷺ سابق عائشة رضي الله عنها فسبقتها وسابقتها فسبقتها ، وكان يمزح ويشاغل نفسه . فان مطالعة الحقائق على التحقيق تفسد البدن وتزعج النفس . وقد روى عن احمد بن حنبل رحمه الله عليه : انه سأل الله تعالى ان يفتح عليه باب الخوف ففتح عليه فخاف على عقله . فسأل الله ان يرد ذلك عنه ، فتأمل هذا الاصل فانه لا بد من مغالطة النفس وفي ذلك صلاحها والله الموفق والسلام .

- ١٠٨ - فصل - من أعمل فكره الصافي دله على طاب أشرف المقامات ،

ونهاه عن الرضى بالنقص في كل حال . وقد قال ابو الطيب المتنبي :

ولم ار في عيوب الناس عيبا كنقص القادرين على التمام

فينبغي للعاقل ان ينتهي الى غاية ما يمكنه ، فلو كان يتصور للأدنى صعود السموات لرأيت من اقبح النقائص رضاه بالارض . ولو كانت النبوة تحصل بالاجتهاد رأيت المقصر في تحصيلها في حضيض ، غير انه اذا لم يمكن ذلك فينبغي أن يطلب الممكن ، والسيرة الجميلة عند الحكماء خروج النفس الى غاية كما لها الممكن لها في العلم والعمل . وانا اشرح

من ذلك ما يدل مذكوره على مغفله . اما في البدن : فليست الصورة داخلة تحت كسب الآدمي بل يدخل تحت كسبه تحسينها وتزيينها فقيبح بالعقل افعال نفسه وقد نبه الشرع على الكل ببعض . فامر بقص الاظفار، وتنف الابط، وحلق العانة، ونهى عن اكل الثوم والبصل النية لاجل الرائحة . وينبغي له أن يقيس على ذلك ويطلب غاية النظافة ونهاية الزينة، وقد كان النبي ﷺ يعرف مجيئه برح الطيب فكان الغاية في النظافة والنزاهة، ولست آمر بزيادة التقشف الذي يستعمله الموسوس أو المترفون ولكن التوسط هو محمود. ثم ينبغي له أن يرفق بيده الذي هو راحته ولا ينقص من قوتها فتتقص قوتها. ولست آمر بالشبع الذي يوجب الجشا إنما أمر بالتوسط فان قوى الآدمي كعين جارية كم فيها من منفعة لصاحبها ولغيره، ويمين صانعا ولا يلتفت الى قول الموسوسين من المتزهدين الذي جدوا في التقليل فضعفوا عن الفرائض وليس ذلك من الشرع ولا نقل عن الرسول صلى الله عليه وسلم ولا أصحابه . إنما كان الرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه اذا لم يجدوا جاعوا، وربما آثروا فصبروا ضرورة، وكذلك ينبغي أن ينظر لهذه الراحلة في علقها - قرب لقمة منعت لقمات - فلا يعطيها ما يؤذيها بل ينظر لها في الاصلاح ولا يتلفت الى متزهد يقول لا بلغها الشهوات، فان النظر ينبغي أن يكون في حل المطعم وأخذ ما يصلح بمقدار . ولم ينقل عن الرسول صلى الله عليه وسلم ولا أصحابه رضى الله عنهم ما أحدثه الموسوسون في ترك المشتبهات على الاطلاق، إنما نقل عنهم تركها لسبب إما للنظر في حالها أو للخوف من مطالبة النفس بها في كل وقت

ويجوز ذلك وينبغي له أن يجتهد في التجارة والكسب ليفضل على غيره ولا يفضل غيره عليه ، وليبلغ من ذلك غاية لا تنمعه عن العلم ، ثم ينبغي له أن يطلب الغاية في العلم . ومن أقبح النقص التقليد ، فإن قويت همته رفته الى أن يختار لنفسه مذهباً ولا يتمذهب لاحد . فإن المقلد أعمر بقوده مقلده . ثم ينبغي أن يطلب الغاية في معرفة الله تعالى ومعاملته ، وفي الجملة لا يترك فضيلة يمكن تحصيلها الا حصلها . فإن القنوع بمنزل المبارك حالة الارذال .

فكن رجلاً رجلاً في الثرى وهامة همته في الثريا

ولو أمكنك عبور كل احد من العلماء والزهاد فافعل ، فانهم كانوا رجالاً وانت رجل ، وما قعد من قعد الالدناء الهمة وخساستها . واعلم انك في ميدان سباق والاوقات تنهب . ولا تخلد الى كسل . فمافات من فات الا بالكسل . ولا نال من نال الا بالجد والعزم ، وأن الهمة لتغلي في القلوب غليان مافي القدور ، وقد قال بعض من سلف :

ليس لي مال سوى كرى فيه أمني من العدم

قنعت نفسي بما رزقت وتمطت في العلامى

١٠٩ - فصل - ليس في الدنيا أنفع للعلماء من جمع المال للاستغناء عن الناس ، فانه اذا ضم الى العلم حيز الكمال ، وأن جمهور العلماء شغلهم العلم عن الكسب ، فاحتاجوا الى ما لا بد منه ، وقل الصبر فدخلوا مداخل شائهم وإن تأولوا فيها . الا أن غيرها كان أحسن لهم ، فالزهرى مع عبد الملك ، وأبو عبيدة مع طاهر بن الحسين ، وابن ابى الدنيا مؤدب المعتضد . وابن قتيبة صدر كتابه بمدح الوزير . وما زال خلف من العلماء والزهاد يعيشون في ظل جماعة من المعروفين بالظلم . وهؤلاء وإن كانوا سلكوا

طريقاً من التأويل فانهم فقدوا من قلوبهم وكمال دينهم أكثر مما نالوا من الدنيا .
وقد رأينا جماعة من المتصوفة والعلماء يغشون الولاية لاجل نيل مافي ايديهم .
فمنهم من يداهن ويرائي ، ومنهم من يمدح بما لا يجوز ، ومنهم من يسكت
عن منكرات الى غير ذلك من المداهنات وسببها الفقر فعلمنا أن كمال العز وبعد
الرياء انما يكون في البعد عن العمال الظلمة ، ولم نر من صح له هذا الا في احد
رجلين . أما من كان له مال كسعيد بن المسيب كان يتعجر في الزيت وغيره ،
وسفيان الثوري كانت له بضائع ، وابن المبارك . واما من كان شديد الصبر فنوعا
بما رزق وان لم يكفه كبشر الخافي ، واحمد بن حنبل ، ومتى لم يجد الانسان
كصبر هذين ، ولا كمال أوائك ، فالظاهر تقلبه في المحن والآفات ، وربما
تلف دينه . فعليك يا طالب العلم بالاجتهاد في جمع المال للغنى عن الناس
فانه يجمع لك دينك . فما رأينا في الاغاب منافقا في التدين والتزهد
والتخشع ولا آفة طرأت على عالم الاحبب الدنيا ، وغالب ذلك الفقر . فان
كان من له ما يكفيه ثم يطلب بتلك المخالطة الزيادة ، فذلك معدود في أهل
الشره ، خارج عن حيز العلماء ، نعوذ بالله من تلك الاحوال .

١١٠ - فصل - أعظم دليل على فضيلة الشيء النظر الى ثمرته . ومن
تأمل ثمرة الفقه علم أنه أفضل العلوم . فان أرباب المذاهب فاقوا بالفقه على
الخلائق أبدا ، وان كان في زمن آحدهم من هو أعلم منه بالقرآن أو بالحديث
أو باللغة ، واعتبر هذا باهل زماننا فانك ترى الشاب يعرف مسائل الخلاف
الظاهرة فيستغنى ، ويعرف حكم الله تعالى في الحوادث ما لا يعرفه النحرير
من باقي العلماء . وكم رأينا مبرزا في علم القرآن أو في الحديث أو في التفسير
أو في اللغة لا يعرف مع الشيخوخة معظم أحكام الشرع . وربما جهل علم ما ينويه

في صلاته ، على أنه ينبغي للفقهاء ألا يكون أجنبيا عن باقي العلوم . فانه لا يكون فقيها بل يأخذ من كل علم بحظ ثم يتوفر على الفقه فانه عز الدنيا والآخرة .

١١١- فصل - رأيت كثيرا من الناس يتحرزون من رشاش نجاسة ولا يتعاشون من غيبة ، ويكثرون من الصدقة ولا يباليون بمعاملات الرباء ويتعبدون بالليل ويؤخرون الفريضة عن الوقت ، في أشياء يطول عددها من حفظ فروع وتضييع أصول ، فبحثت عن سبب ذلك ، فوجدته من شيئين : أحدهما العادة ، والثاني غلبة الهوى في تحصيل المطلوب . فانه قد يغاب فلا يترك سمعا ولا بصرا . ومن هذا القبيل أن أخوة يوسف قالوا حين سمعوا صوت المنادى : « انكم سارقون » . « لقد علمتم ما جئنا لنفسد في الارض وما كنا سارقين » ، فجاء في التفسير أنهم لما دخلوا مصر كروا أفواه ابلهم لئلا تتناول ماليس لهم فكأنهم قالوا قد رأيتهم ما صنعنا بابلنا فكيف نسرق ، ونسواهم تفاوت ما بين الورع واختطاف أكلة لا يملكونها ، وبين لقاء يوسف عليه السلام في الحب وبيعه بثمن بخس ، وفي الناس من يطيع في صغار الامور دون كبارها ، وفيما كافته عليه خفيفة أو معتادة ، وفيما لا ينقص شيئا من عاداته في مطعم وملبس ، نرى اقواما يأخذون بالربا ويقول أحدهم كيف يراني عدوى بعين اني بعت داري ، أو تغير ملبوسي ومركوبي ! ونرى اقواما يوسوسون في الطهارة ويستعملون الكثير ولا يتعاشون من غيبة ، واقواما يستعملون التأويلات الفاسدة في تحصيل أغراضهم مع علمهم أنها لا تجوز ، حتى أني رأيت رجلا من أهل الخير والتعبد أعطاه رجل مالا ليبنى به مسجدا ، فاخذ لنفسه وانفق عوض الصحيح قراضة ، فلما احتضر

قال لذلك الرجل اجعلنى فى حل فأتى فعلت كذا وكذا ، ونرى أقواما يتركون الذنوب لبعدهم عنها ، فقد ألغوا الترك ، وإذا قربوا منها لم يتألموا . وفى الناس من هذه الفنون عجائب يطول ذكرها ، وقد علمنا أن مخلقا من علماء اليهود كانوا يحملون ثقل التعب فى دينهم ، فلما جاء الإسلام وعرفوا صحته لم يطبقوا مقاومة أهوائهم فى نحو رياستهم ، وكذلك قيصر فانه عرف رسول الله صلى الله عليه وسلم بالدليل ثم لم يقدر على مقاومة هواه وترك ملكه . فالله الله فى تضييع الاول : ومن اهمال سرح الهوى ، فانه أن اهلكت ماشية نفشت فى زروع التقى ، ومما مثل الهوى الا كسبح فى عنقه سلسلة فان استوثق منه ضابطه كفه . وربما لاحت له شهواته الغالبة عليه فلم تقاومها السلسلة فافلت ، على أن من الناس من يكف هواه بسلسلة ، ومنهم من يكفه بخيط ، فينبغى للعاقل أن يحذر شياطين الهوى ، وأن يكون بصيرا بما يقوى عليه من أعدائه ، وبمن يقوى عليه .

١١٢ - فصل - من أعظم الغلط الثقة بالناس والاسترسال الى الاصدقاء فان أشد الأعداء وأكثرهم أذى الصديق المنقلب عدوا . لانه قد اطاع على خفى السر ، قال الشاعر :

احذر عدوك مرة واخذر صديقك ألف مرة

فلربما انقلب الصديق فكان أدرى بالضرر

واعلم أن من الأمر الموضوع فى النفوس الحسد على النعم ، أو الغبطة وحب الرفعة ، فاذا رآك من يعتقده مثالا له وقد ارتقت عليه فلا بد أن يتأثر وربما حسد ، فان أخوة يوسف عليهم السلام من هذا الجنس جرى لهم . فان قلت : كيف يبقى الانسان بلا صديق ؟ قلت لك أترأك ما تعلم أن

المجانس بحسد، وأن أكثر العوام يعتقدون في العالم أنه لا يتبسم ولا يتناول من شهوات الدنيا شيئاً، فإذا رأوا بعض انبساطه في البياح هبط من أعينهم، فإذا كانت هذه حالة العوام، وتلك حالة الخواص، فمع من تكون المعاشرة؟ لا بل والله ما تصح المعاشرة مع النفس لأنها متلونة، وليس إلا المدارات للخلق والاحتراز منهم واتخاذ المعارف من غير طمع في صديق صادق. فان ندر فليكن غير مماثل، لأن الحسد إليه أسبق. وليكن مرتفعاً عن رتبة العوام، غير طامع في نيل مقامك. وان كانت معاشرة هذا لا تشفى لأن المعاشرة ينبغي أن تكون بين العلماء للمجانس لزمهم من الاشارات في المخالطة ما يطيب به المجالسة، ولكن لا سبيل الى الوصال، ومثل هذه الحال انك ان استخدمت الاذكياء عرفوا باطنك، وان استخدمت الابل انعمست مقاصدك. فاجعل الاذكياء لحوائجك الخارجة. والبله لحوائجك في منزلك لئلا يعلموا أسرارك. واقنع من الأصدقاء، بمن وصفته لك، ثم لا تلقه الا متدرعا درع الحذر، ولا تطلعه على باطن يمكن أن يسترعه. وكن كما يقال عن الذئب:

ينام باحدى مقلتيه ويتقى بأخرى الاعادى فهو يقظان هاجع
 ١١٣ - فصل - رأيت جماعة ممن أفنى أوائل عمره وريعتان شبابه في طلب العلم يصبر على أنواع الأذى، وهجر فنون الراحة، أنفة من الجهل، ورذيلته، وطلبه للعلم، وفضيلته، فلما نال منه طرفاً رفعه عن مراتب أرباب الدنيا، ومن لا علم له الا بالمعجل ضاق به معاشه، فسافر البلاد يطلب من الاراذل، ويتواضع للسفلة وأهل الدناءة والمكاس وغيرهم، فخاطبت بعضهم وقلت: ويحك أين تلك الأنفة من الجهل التي سهرت لاجلها، وأظلمات

نهارك بسببها ، فلما ارتفعت وانتفعت عدت الى أسفل سافلين ، أما بقى
عندك ذرة من الأنفة تنبوه عن مقامات الأراذل ، ولا ممك يسير من
العلم يسير بك عن مناخ الهوى ، ولا حصلت بالعلم قوة تجذب بها زمام
النفس عن مراعى السوء . غير أنه يبين لى أن سهرك وتعبك كأنه كان
لنيل الدنيا . ثم انى أراك تزعم أنك تريد شيئا من الدنيا تستعين به على طلب
العلم . فاعلم أن التفانك الى نوع كسب تستغنى به عن الارذال أفضل
من التزيد فى علمك ، فلو عرفت ما ينقص به لم تر ما قد عزمت عليه زيادة
مما يحتوى عليه هذا العزم السفر الذى كله مخاطرة بالنفس ، وبذل الوجه
الذى طال ماصين لمن لا يصلح التفات مثلك الى مثله ، وبعيد أن تقنع بعد
شروعك فى هذا الأمر بقدر الكفاف ، وقد علمت ما فى السؤال بعد
الكفاف من الائم ، وأبعد منه أن تقدر على الورع فى المأخوذ ، ومن لك
بالسلامة والرجوع الى الوطن ، وكم روى فقر فى بواديه من هالك ، ^(١) ثم
ما يحصله يفنى ويبقى منه ما أعطى ، وعيب المتقين إياك ، واقتداء الجاهلين
بك ، ويكفيك أنك عدت على ما علمت من ذم الدنيا بشينه اذ فعلت ما يناقضه ،
خصوصا وقد مرأ أكثر العمر ، ومن أحسن فيما مضى يحسن فيما بقى .

١١٤ - فصل - رأيت الشره فى تحصيل الاشياء يفوت الشره

مقصوده ، وقد رأينا من كان شرها فى جمع المال فحصل له الكثير منه
وهو حريص على الازدياد ، ولو فهم علم أن المراد من المال انفاقه فى العمر .
فاذا أنفق العمر فى تحصيله فات المقصودان جميعا ، وكم رأينا ممن جمع المال ولم
يتمتع به فأبقاه لغيره وأفنى نفسه كما قال الشاعر :

(١) فى الهندية : قفر من نواد به من هالك

كدودة القز ماتبنيه يهدمها وغيرها بالذى تبنيه ينتفع
وكذلك رأينا خلقا كثيرا يحرصون على جمع الكتب فينفقون
أعمارهم في كتابتها، وكذاب أهل الحديث ينفقون الأعمار في النسخ والسماع
الى آخر العمر . ثم ينقسمون ، فمنهم من يتشاغل بالحديث وعلمه وتصحيحه
ولعله لا يفهم جواب حادثة ، ولعله عنده لحديث - أسلم سالمها الله - مائة
طريق . وقد حكى لى عن بعض أصحاب الحديث انه سمع جزء ابن عرفة
عن مائة شيخ ، وكان عنده سبعون نسخة ، ومنهم من يجمع الكتب ويسمعها
ولا يدري ما فيها لا من حيث صحتها ، ولا من فهم معناها . فتراه يقول
الكتاب الفلانى سماعى وعندى به نسخة ، والكتاب الفلانى والفلانى فلا
يعرف علم ما عنده من حيث فهم صحيحه من سقيمه . وقد صده اشتغاله
بذلك عن المهم من العلم فهم كما قيل الخطيئة :

زوامل للاخبار لا علم عندها بمثلها الا كعلم الاباعر
لعمرك ما يدري البعير اذا غدا بأوساقه اوراح ما فى الفرائر

ثم ترى منهم من يتصدر ويفتقر الزمان الى تصدره للرواية
فيمد يده الى مالبس من شغلة . فان أفتى خطأ ، وان تكلم فى الاصول
خاط ، ولولا انى لا أحب ذكر الناس لذ كرت من أخبار كبار علمائهم وما
خاطوا ما يعتبر به ، ولكنه لا يخفى على المحقق حالهم ، فان قال قائل : اليس
فى الحديث . منهومان لا يشبعان ، طالب علم وطالب دنيا قلت : اما العالم فلا
أقول له اشبع من العلم ، ولا اقتصر على بعضه ، بل أقول له قدم المهم فان
العاقل من قدر عمره وعمل بمقتضاه . وان كان لا سبيل الى العلم بمقدار العمر ،
غير انه يبنى على الاغلب . فان وصل فقد أعد لكل مرحلة زاداً ، وان

مات قبل الوصول فنيته تسلك .^(١) فإذا علم العاقل أن العمر قصير ، وإن العلم كثير ، فقبيل بالعاقل الطالب الكمال الفضائل أن يتشاغل مثلاً بسماع الحديث ونسخه ليحصل كل طريق ، وكل رواية ، وكل غريب . وهذا لا يفرغ من مقصوده منه في خمسين سنة خصوصاً أن تشاغل بالنسخ . ثم لا يحفظ القرآن ، أو يتشاغل بعلوم القرآن ولا يعرف الحديث ، أو بالخلاف في الفقه ولا يعرف النقل الذي عليه مدار المسئلة . فإن قال قائل : فدبر لي ما تختار لنفسك . فاقول : ذو الهمة لا يخفى من زمان الصبي كما قال سفيان ابن عيينة : قال لي أبي وقد بلغت خمس عشرة سنة أنه قد انقضت عنك شرائع الصبا . فاتبع الخير تكن من أهله . فجعلت وصية أبي قبلة أميل إليها ولا أميل عنها ، ثم قبل شروعي في الجواب أقول : ينبغي لمن له أنفة أن يأنف من التقصير الممكن دفعه عن النفس ، فلو كانت النبوة مثلاً تأتي بكسب لم يجز له أن يقتنع بالولاية ، أو تصور أن يكون مثلاً خليفة لم يحسن به أن يقتنع بامارة ، ولو صح له أن يكون ملكاً لم يرض أن يكون بشراً والمقصود أن ينتهي بالنفس إلى كمالها الممكن لها في العلم والعمل ، وقد علم قصر العمر وكثرة العلم فيبتدى بالقرآن وحفظه ، وينظر في تفسيره نظراً متوسطاً لا يخفى عليه بذلك منه شيء ، وإن صح له قراءة القراءات السبعة وأشياء من النحو وكتب اللغة وابتدأ بأصول الحديث من حيث النقل كالصحيح والمسانيد والسنن ، ومن حيث علم الحديث كعرفة الضعفاء والأسماء ، فلينظر في أصول ذلك ، وقد رتب العلماء من ذلك ما يستغنى به الطالب عن التعب ، ولينظر في التواريخ ليعرف ما لا يستغنى

(١) في الهندية : قبل الوصول فحسبه ذلك .

عنه كنسب الرسول صلى الله عليه وسلم وأقاربه وأزواجه وما جرى له ،
ثم ليقبل على الفقه فليتنظر في المذهب والخلاف ، وليكن اعتماده على
مسائل الخلاف فليتنظر في المسئلة وما تحتوى عليه فيطالبه من مظانه ،
كتفسير آية وحديث وكلمة لغة ، ويتشغل بأصول الفقه وبالفرائض .
وليعلم أن الفقه عليه مدار العلوم ، ويكفيه من النظر في الاصول ما يستدل
به على وجود الصانع ، فاذا اثبتته بالدلائل وعرف ما يجوز عليه مما لا يجوز ،
وأثبت ارسال الرسل وعلم وجوب القبول منهم ، فقد احتوى على المقصود
من علم الاصول فان اتسع الزمان للتزيد من العلم فليكن من الفقه فانه لا نفع ،
ومهما فسح له في المهل فأمكنه تصنيف في علم فانه يخلف بذلك خافه خلفا
صالحا ، مع اجتهاده في التسبب الى اتخاذ الولد

ثم يعلم أن الدنيا معبرة فيلتنفث الى فهم معاملة الله عز وجل ، فان مجموع
ما حصله من العلم بدله عليه ، فاذا تعرض لتحقيق معرفته ووقف على باب معاملته
فقل أن يقف صادق الا وي جذب الى مقام الولاية ، ومن أريد وفق وان لله عز
وجل أقواما يتولى تربيتهم ويبحث اليهم في زمن الطفولية مؤدبا ، ويسمى العقل .
ومقوما ، ويقال له الفهم . ويتولى تأديبهم و تثقيفهم ، ويهيئ لهم أسباب القرب
منه ، فان لاح قاطع قطعهم عنه . وان تعرضت بهم فتنة دفعها عنهم . فنسأل
الله عز وجل أن يجعلنا منهم ، ونعوذ به من خذلان لا ينفع معه اجتهاد .

١١٥ - فصل - إن للخلوة تأثيرات تبين في الجلوة ، كم من مؤمن
بالله عز وجل يحترمه عند الخلوات فيترك ما يشتهي حذرا من عقابه . أو رجاء
إثوابه ، أو إجلالا له ، فيكون بذلك الفعل كأنه طرح عودا هنديا على حجر
فيفوح طيبه فيستنشفه الخلائق ولا يدرون أين هو . وعلى قدر المجاهدة

في ترك ما يقوى محبته ، أو على مقدار زيادة دفع ذلك المحبوب المتروك يزيد الطيب ، وتتفاوت تفاوت العود ، فيرى عيون الخلق تعظم هذا الشخص والسنتهم تمدحه ولا يعرفون لم . ولا يقدرّون على وصفه لبعدهم عن حقيقة معرفته وقد تمتد هذه الأرايح بمد الموت على قدرها ؛ فمنهم من يذكر بالخير مدة مديدة ثم ينسى ، ومنهم من يذكر مائة سنة ثم ينحى ذكره وقبره . ومنهم أعلام يبقى ذكرهم أبداً ، وعلى عكس هذا من هاب الخلق ، ولم يحترم خلوته بالحق . فانه على قدر مبارزته بالذنوب وعلى مقادير تلك الذنوب ، يفوح منه ريح الكراهة فتمتته القلوب ، فان قل مقدار ما جرى قل ذكره إلا أن له بالخير ، وبقي مجرد تعظيمه . وأن أكثر كان قصارى الأمر سكوت الناس عنه لا يمدحونه ولا يذمونه . ورب خال بذنوب كان سبب وقوعه في هوة شقوة في عيش الدنيا والآخرة وكأنه قيل له إبقى بما آثرت فيبقى أبداً في التخبيط ، فانظروا إخواني إلى المعاصي أثرت وعثرت . قال أبو الدرداء رضي الله عنه : أن العبد ليخلو بمعصية الله تعالى فيلقى الله بغضه في قلوب المؤمنين من حيث لا يشعرون ، فتلجوا ما سطرته ، وأعرفوا ما ذكرته . ولا تهملوا خلواتكم ولا سرائركم ، فان الأعمال بالنية ، والجزاء على مقدار الإخلاص .

١١٦ - فصل - من عرف جريان الأقدار ثبت لها ، وأجهل الناس بعد هذا من قواها . لان مراد المقدّر الذل له . فاذا قاوت القدر فنتل مرادك من ذلك لم يبق لك ذل . - مثال هذا - أن يجوع الفقير فيصبر قدر الطاقة . فاذا عجز خرج إلى سؤال الخلق مستحياً من الله كيف يسألهم ، وإن كان له عذر بالحاجة التي الجأته ، غير أنه يرى أنه مغلوب الصبر فيبقى معتذراً مستحياً وذاك المراد منه ، أو ليس بخروج النبي صلى الله عليه وسلم

من مكة فلا يقدر على العود اليها حتى يدخل في خفارة المطعم بن عدي وهو كافر ، فسبحان من ناط الامور بالاسباب ، ليحصل ذل العارف بالحاجة الى التسبب .

١١٧ - فصل - سبحان المتصرف بخاقه بالاغتراب والاذلال ليلو صبرهم ، ويظهر جواهرهم في الابتلاء ، هذا آدم صلى الله عليه وسلم تسجد له الملائكة ثم بعد قليل يخرج من الجنة ، وهذا نوح عليه السلام يضرب حتى يغشى عليه ثم بعد قليل ينجو في السفينة ويهلك أعداؤه ، وهذا الخليل عليه السلام يلتقى في النار ثم بعد قليل يخرج الى السلامة ، وهذا الذبيح يضجع مستسلماً ثم يسلم ويبقى المدح ، وهذا يعقوب عليه السلام يذهب بصره بالفراق ثم يعود بالوصول ، وهذا الكليم عليه السلام يشتغل بالرعي ثم يرقى الى التكليم ، وهذا زيننا محمد صلى الله عليه وسلم يقال له بالامس اليتيم ويقاب في عجائب يلافها من الاعداء تارة ومن مكائد الفقر أخرى ، وهو أثبت من جبل حراء ثم لما تم مراده من الفتح . وبلغ الغرض من أكبر الملوك وأهل الارض نزل به ضيف النقلة . فقال : وأكره . فمن تلمح بحر الدنيا وعلم كيف تتلقى الامواج ، وكيف يصبر على مدافعة الايام لم يستهول زول بلاء ، ولم يفرح بما جل رخاء .

١١٨ - فصل - ينبغى للعاقل أن لا يقدم على العزائم حتى يزن نفسه هل يطيقها ، ويجرب نفسه في ركوب بعضها سرا من الخلق فانه لا يأمن أن يرى في حالة لا يصبر عليها ، ثم يعود فيفتضح . مثاله - رجل سمع بذكر الزهاد فرمى ثيابه الجميلة ولبس الدون وانفرد في زاوية . وغاب على قلبه ذكر الموت والآخرة . فلم يلبث متقاضى الطبع أن الح بما جرت به العادة . فمن القوم

من عاد بكرة الى أكثر مما كان عليه كأكل الناقة من مرض، ومنهم من توسط الحال فبقى كالمذبذب. وانما العاقل هو الذى يستر نفسه بين الناس بثوب وسط لا يخرجهم من أهل الخير، ولا يدخله فى زى أهل الفاقة. فان قويت عزيمته عمل فى بيته ما يطيق، وترك ثوب التجميل لستر الحال. ولم يظهر شيئاً للخلق. فانه أبعد من الرياء، وأسلم من الفضيحة وفى الناس من غلب عليه قصر الأمل وذكر الآخرة حتى دفن كتب العلم، وهذا الفعل عندى من أعظم الخطأ وأن كان منقولاً عن جماعة من الكبار ولقد ذكرت هذا لبعض مشايخنا فقال: أخطأوا كلهم وقد تأولت بعضهم بأنه كان فيها أحاديث عن قوم ضعفاء ولم يميزوها. كما روى عن سفيان فى دفن كتبه. أو كان فيها شيء من الرأى فلم يحبوا أن يؤخذ عنهم فكان من جنس تحريق عثمان رضى الله عنه المصاحف لئلا يؤخذ بشيء مما فيها من المجتمع على غيره وهذا التأويل يصح فى حق علماءهم فاما غسل أحمد بن أبي الحواري كتبه وابن أسباط فتفريط محض. فالحذر الحذر من فعل يمنع منه الشرع أو من ارتكاب ما يظن عزيمة وهو خطيئة، أو من اظهار مالا يقوى عليه المظهر فيرجع القهقري. وعليكم من العمل بما تطيقون كما قال صلى الله عليه وسلم.

١١٩ - فصل - اجهل الجهال من أثر عاجل على آجل لا يأمن سوء

مغبته فكم قد سمعنا عن ساطان وأمير وصاحب مال أطلق نفسه فى شهواتها، ولم ينظر فى حلال وحرام فنزل به من الندم وقت الموت أضعاف ما التذولقى من مرير الحشرات مالا يقاومه ولا ذرة من كل لذة. ولو كان هذا الحسب لكفى حزناً وكيف الجزاء الدائم بين يديه فالدنيا محبوبه للطبع لا ريب فى ذلك ولا انكر على طالبها ومؤثر شهواتها، ولكن ينبغى له أن ينظر فى

كسبها ويعلم وجه أخذها، ليسلم له عاقبة لذته. والا فلا خير في لذة من بعدها النار. وهل عد في العقلاء قط من قيل له اجلس في المملكة سنة ثم تقتلك، هيات بل الأمر بالعكس وهو أن العاقل من صابر مرادة الجهد سنة بل سنين ليستريح في عاقبته، وفي الجملة أف للذة أعقبت عقوبة وقد أخبرنا عبد الرحمن بن محمد القزاز قال أخبرنا أبو بكر الخطيب قال أخبرنا الحسن ابن أبي طالب قال حدثنا يوسف بن عمر القواس قال حدثنا الحسين بن اسماعيل املاء قال حدثنا عبد الله بن أبي سعد قال حدثنا محمد بن مسلمة البلخي قال حدثنا محمد بن علي الفوهستاني قال حدثنا دلف بن أبي دلف. قال: رأيت كأن آتيا أتى بعد موت أبي فقال: أجب الامير. فقمتم معه فادخلني دار وحشة وعرة سوداء الحيطان مقلعة السقوف والابواب ثم أضعدني درجا فيها ثم أدخلني غرفة فاذا في حيطانها أثر النيران، واذا في أرضها أثر الرماد واذا أبي عريان واضعا رأسه بين ركبتيه فقال لي كالمستفهم: دلف. قلت: نعم أصلح الله الامير؟ فأنشأ يقول:

أبلغن أهلنا ولا تخف عنهم مالقينا في البرزخ الخفاق
قد سئلنا عن كل ماقد فعلنا فارحموا وحشتي وما قد لاقي
أفهمت قلت: نعم؛ فأنشأ يقول:

فلو انا اذا متنا تركنا لكان الموت راحة كل حي
ولكننا اذا متنا بعثنا ونسأل بعده عن كل شيء

١٢٠- فصل - اللذات كلها بين حسي وعقلي، فنهاية اللذات الحسية

واعلاها النكاح. وغاية اللذات العقلية العلم. فن حصلت له الغايتان في الدنيا فقد نال النهاية وأنا أرشد الطالب الى أعلا المطلوبين. غير أن للطالب

المرزوق علامة وهو أن يكون مرزوقاً علو المهمة وهذه المهمة تولد مع الطفل فتراه من زمن طفولته يطلب معالي الأمور . كما يروى في الحديث أنه كان أعبد المطلب مفرش في الحجر فكان النبي صلى الله عليه وسلم يأتي وهو طفل فيجاس عليه فيقول . عبد المطلب : أن لا بني هذا شأننا . فان قال قائل فاذا كانت لي همة ولم أرزق ما اطلب فما الحيلة ؟ - فالجواب - انه اذا امتنع الرزق من نوع لم يمتنع من نوع آخر ، ثم من البعيد ان يرزقك همة ولا يعينك فانظر في حالك فامله أعطاك شيئاً ما شكرته ، او ابتلاك بشيء من الهوى ما صبرت عنه . واعلم أنه ربما زوى عنك من لذات الدنيا كثيراً لبوؤ ترك على لذات العلم فانك ضعيف ربما لا تقوى على الجمع فهو أعلم بما يصلحك ، وأما ما اردت شرحه لك فان الشاب المبتدى في طلب العلم ينبغي له أن يأخذ من كل علم طرفاً ويجعل علم الفقه الأهم ، ولا يقصر في معرفة النقل ، فيه تبين سير الكاملين واذا رزق فصاحة من حيث الوضع ثم أضيف إليها معرفة اللغة والنحو فقد شحذت شفرة لسانه على أجوده سن . ومتى أدى العلم لمعرفة الحق وخدمة الله عز وجل فتحت له أبواب لا تفتح لغيره ، وينبغي له بالتأطاف أن يحمل جزءاً من زمانه معصراً الى توفيز الاكتساب والتجارة ، مستنبها فيها غير مباشر لها مع التدبير في العيش الممتنع من الاسراف والتبذير فان رواية العلم والعمل به الى درجة المعرفة لله عز وجل ، فربما شغلته لذة ما وصل اليه عن كل شيء . وبالمها حالة سليمة من آفة ، وان وجد من طبعه منازعة الى الشوق في النكاح فليتخير السراري فان الحرائر في الاغاب غل وليعزل عن المملوكات الى أن يجرب خلقهن ودينهن ، فان رضيهن طلب الولد منهن والا فلا استبدال بهن سهل ولا يتزوج حرة الا أن يعام انها تصبر على

التزويج عليها والتسرى ، وليكن قصده الاستمتاع بها لا إجهاد النفس في الانزال . فان ذلك يهدم قوته فيضعف الاصل فهذه الجامعة من لذتي الحس والعقل ذكرتها على وجه الاشارة وفهم الذكي يملئ عليه ما لم أشرحه .

١٢١ - فصل - في تعليم حفظ العلم : أعلم أن المتعلم يفتقر الى دوام

الدراسة ومن الغايط الانهماك على الاعادة ليلا ونهارا فانه لا يابث صاحب هذه الحال الا أياما ثم يفتر أو يمرض . وقد دونا ان الطبيب دخل على أبي بكر ابن الانبارى في مرض موته فنظر الى مائه وقال : قد كنت تفعل شيئا لا يفعله احد ثم خرج فقال : ما يجيئ منه شيء . فقيل له : ما الذي كنت تفعل : قال كنت اعيد كل اسبوع عشرة آلاف ورقة . ومن الغايط حفظ الكثير أو الحفظ من فنون فان القاب جارحة من الجوارح وكما أن من الناس من يحمل المائة رطل ومنهم من يعجز عن عشرين رطلا ، فكذلك القلوب فليأخذ الانسان على قدر قوته ودونها فانه اذا استنفذها في وقت ضاعت منه اوقات كما أن الشره يأكل فضل لقيمت فيكون سببا الى منع أكلات ، والصواب أن يأخذ قدر ما يطيق ويميد في وقتين من النهار والليل ويرفه القوى في بقية الزمان والدوام أصل عظيم . فكم ممن ترك بعد الحفظ فضاء زمن طويل في استرجاع محفوظ قد نسي ، وللحفظ اوقات من العمر فافضلها الصبا وما يقاربه من اوقات الزمان ، وافضلها اعادة الاسحار وانصاف النهار ، والغدوات خير من العشيات . وأوقات الجوع خير من اوقات الشبع . ولا يحمد الحفظ بحضرة خضرة وعلى شاطئ نهر ، لأن ذلك يلهي والاماكن العالية للحفظ خير من السواقل ، والخلوة أصل وجمع الهام أصل الاصول ، وترفيه النفس من الاعادة يوما في الاسبوع ليثبت المحفوظ وتأخذ النفس قوة كالبنيان يترك أياما

حتى يستقر ثم يبني عليه ، وتقابل المحفوظ مع الدوام أصل عظيم ، وان لا يشرع في فن حتى يحكم ما قبله ومن لم يجد نشاطا للحفظ فليتركه . فان مكابرة النفس لا تصلح ، واصلاح المزاج من الاصول العظيمة فان للمأكولات أثرا في الحفظ قال الزهرى : ما أكلت خلا منذ عالجت الحفظ وقيل لابي حنيفة بم يستعان على حفظ الفقه . قال : يجمع الهم . وقال حماد بن سلمة : بقلة الهم وقال مكحول : من نظف ثوبه قل همه ، ومن طابت ريحته زاد عقله ، ومن جمع بينهم ما زادت مروءته . وأختار للمبتدى في طلب العلم أن يدافع النكاح . هـ أما مكن فان أحمد بن حنبل لم يتزوج حتى تمت له أربعون سنة وهذا لاجل جمع الهم فان غلب عليه الأمر تزوج واجتهد في المدافعة بالفعل لتتوفر القوة على اعادة العلم ، ثم لينظر ما يحفظ من العلم فان العمر عزيز والعلم غزير . وان أقواما يصرفون الزمان الى حفظ ما غيره أولى منه . وان كان كل العلوم حسنا ولكن الاولى تقديم الهم والافضل ، وأفضل ما تشوغل به حفظ القرآن ثم الفقه وما بعد هذا بمنزلة تابع ومن رزق يقظة دلته يقظته فلم يحتاج الى دليل ، ومن قصد وجه الله تعالى بالعام دله المقصود على الاحسن «واتقوا الله ويعلمكم الله» .

١٢٢ - فصل - من أراد دوام العافية والسلامة فليتق الله عز وجل ، فانه مامن عبد أطلق نفسه في شيء ينافيه التقوى وأن قل إلا وجد عقوبته عاجلة أو آجلة ، ومن الاغترار أن تسيء فترى احسانا فتظن انك قد سوحت ، وتنسى : «من يعمل سوءا يجز به» وروى ما قالت النفس انه يغفر فتساعت ولا شك أنه يغفر ولكن لمن يشاء . وأنا أشرح لك حالا فتأمل به فكرك تعرف معنى المغفرة . وذلك أن من هفا هفوة لم يقصدها ولم يعزم عليها

قبل الفعل ولا عزم على العود بعد الفعل ثم انتبه لما فعل فاستغفر الله كان فعله وان دخله عمداً في مقام خطأ ، مثل - ان يعرض له مستحسن فيغلبه الطبع فيطلق النظر ويتشاغل في حال نظره بالتذاذ الطبع عن تلمح معنى النهي ، فيكون كالفأب أو كالسكران فاذا انتبه لنفسه ندم على فعله فقام الندم بغسل تلك الأوساخ التي كانت كأنها غلطة لم تقصد . فهذا معنى قوله تعالى : « اذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فاذا هم مبصرون » . فاما المداوم على تلك النظرة المرددة لها ، المصر عليها ، فكأنه في مقام متعمد للنهي مبارزا بالخلاف فالعفو يبعد عنه بمقدار اصراره ، ومن البعد أن لا يرى الجزاء على ذلك كما قال ابن الجلاء : رأيت شيخاً وأنا قائم أتأمل حدثاً نصرانياً فقال : ما هذا ؟ اترين غيبها ولو بعد حين . فذسيت القرآن بعد أربعين سنة .

واعلم أنه من أعظم المحن الاعتزاز بالسلامة بعد الذنب ، فان العقوبة تتأخر . ومن أعظم العقوبة الا يحس الانسان بها . وان تكون في سلب الدين وطمس القلوب وسوء الاختيار للنفس ، فيكون من آثارها سلامة البدن وبلوغ الأغراض . قال بعض المعتبرين اطاعت نظري فيما لا يحل لي ثم كنت انتظر العقوبة فاجئت الى سفر طويل لانية لي فيه ، فلقيت المشاق . ثم أعقب ذلك موت أعز الخلق عندي ، وذهاب أشياء كان لها وقع عظيم عندي ، ثم تلافيت امرى بالتوبة فصلح حالي . ثم عاد الهوى فيحملني على اطلاق بصرى مرة أخرى ، فطمس قلبي وعدمت رفته ، واستلب منى ما هو اكثر من فقد الاول ، ووقع لي تعويض عن المفقود ما كان فقده اصلح فلما تأملت ما عوضت وما سلب منى صحت من ألم تلك السياط . فها انا أنادى من على الساحل : اخواني احذروا لجة هذا البحر ، ولا تغتروا بسكونه ، وعليكم

بالساحل ولازموا حصن التقوى فالتقوى مرة . واعلموا الزنى ملازمة التقوى مرارات من فقد الاغراض والمشتبهات ، غير انها في ضرب المثل كالحكمة تعقب صحة . والتخليط ربما جلب موت الفجأة وبالله لو نتم على المزابل مع الكلاب في طلب رضى المبتلى كان قليلا في نيل رضاه ، ولو باغتم نهاية الأمانى من أغراض الدنيا مع اعراضه عنكم كانت سلامتكم هلاكا وعافيتكم مرضا ، وصحتكم سقما والامر بآخره والعامل من تلمح العواقب ، وصابروا رحمكم الله تعالى هجير البلاء فما أسرع زواله . والله الموفق إذ لا حول الا به ، ولا قوة الا بفضله .

١٢٣ - فصل - قدم الى بغداد جماعة من أهل البدع الاعاجم فارتقوا منابر التذكير للعوام ، فكان معظم مجالسهم أنهم يقولون ليس لله في الارض كلام . وهل المصحف الا ورق وعفص وزاج . وان الله ليس في السماء وان الجارية التي قال لها النبي ﷺ اين الله ؟ كانت خرساء ف اشارت الى السماء اى ليس هو من الاصنام التي تعبد في الارض ، ثم يقولون اين الحروفية الذين يزعمون أن القرآن حرف وصوت ، هذا عبارة جبريل . فاذا زالوا كذلك حتى هان تعظيم القرآن في صدور أكثر العوام ، وصار احدهم يسمع فيقول هذا هو الصحيح ؟ والا فالقرآن شئ ، يجىء به جبريل في كيس . فشكى الى جماعة من اهل السنة فقلت لهم اصبروا فلا بد للشبهات أن ترفع رأسها في بعض الأوقات ، وان كانت مدموغة . وللباطل جولة وللعق صولة والدجالون كثير . ولا يخلو بلد ممن يضرب البهرج على مثل سكة السلطان . قال قائل : فاجوابنا عن قواهم . قلت : اعلم وفقك الله تعالى ان الله عز وجل ورسوله قنما من الخلق بالايمان بالجل ولم يكلفا معرفة التفاصيل أما لأن الاطلاع على التفاصيل

يخبط القائد وأما لأن قوى البشر تعجز عن مطالعة ذلك . فأول ما جاء به الرسول ﷺ إثبات الخالق ونزل عليه القرآن بالدليل على وجود الخالق بالنظر في صنعه فقال تعالى : « أمن جعل الارض قرارا وجعل خلالها أنهارا » وقال تعالى : « وفي أنفسكم أفلا تبصرون » . وما زال يستدل على وجوده بمخلوقاته ، وعلى قدرته بمصنوعاته ، ثم اثبت نبوة نبيه بمعجزاته ، وكان من اعظمها القرآن الذى جاء به فمعجز الخلائق عن مثله واكتفى بهذه الادلة جماعة من الصحابة ومضى على ذلك القرن الاول والمشرى صاف لم يتكدر . وعلم الله عز وجل ما سيكون من البدع فبالغ في اثبات الادلة وملا بها القرآن ، ولما كان القرآن هو منبع العلوم ، واكبر المعجزات للرسول ، اكدا الأمر فيه فقال تعالى : « وهذا كتاب أنزلناه مباركنا ونزل من القرآن ما هو شفاء » . فاخبر أنه كلامه بقوله تعالى : « يريدون أن يبدلوا كلام الله » وأخبر أنه مسموع بقوله تعالى : « حتى يسمع كلام الله » . وأخبر أنه محفوظ فقال تعالى : « فى لوح محفوظ » وقال تعالى : « بل هو آيات بينات فى صدور الذين أوتوا العلم » وأخبر أنه مكتوب ومتلوف فقال تعالى : « وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه يمينك » ، الى ما يطول شرحه من تعدد الآيات فى هذه المعانى التي توجب اثبات القرآن .

ثم نزه نبيه صلى الله عليه وسلم عن أن يكون انى به من قبل نفسه . فقال تعالى : « أم يقولون افتراه بل هو الحق من ربك » وتواعده لو فعل فقال تعالى : « ولو تقول علينا بعض الأقاويل » . وقال فى حق الزاعم انه كلام الخلق حين قال : « إن هذا الا قول البشر . سأصليه سقر » . ولما عذب كل امة بنوع عذاب تولاه بعض الملائكة كصيحة جبريل عليه

السلام بشمود ، وإرسال الريح على عاد ، والخسف بقارون ، وقلب جبريل دار لوط عليهما السلام ، وإرسال الطير الأبايل على من قصد تخريب الكعبة .
تولى هو بنفسه عقاب المكذبين بالقرآن فقال تعالى : « ذرني ومن يكذب بهذا الحديث » . « ذرني ومن خلفت وحيدا » . وهذا لأنه أصل هذه الشرائع والمنبت لكل شريعة تقدمت . لأن جميع الملل ليس عندهم ما يدل على صحة ما كانوا فيه الاكتئابنا لأن كتبهم غيرت وبدلت . وقد علم كل ذي عقل أن القائل : « إن هذا إلا قول البشر » إنما أشار إلى ما سمعه . ولا يختلف أولوا الألباب وأهل الفهم للخطاب . أن قوله « وأنه » كناية عن القرآن ، وقوله : « نزل به » كناية أيضا عنه وقوله : « هذا كتاب » إشارة إلى حاضر . وهذا أمر مستقر لم يختلف فيه أحد من القدماء في زمن الرسول صلى الله عليه وسلم والصحابة رضوان الله عليهم ، ثم دس الشيطان دسائس البدع فقال قوم : هذا المشار إليه مخلوق ، فثبت الإمام أحمد رحمه الله ثبوتاً لم يثبت غيره على دفع هذا القول لئلا يتطرق إلى القرآن ما يمحو بمض تعظيمه في النفوس ، ويخرجه عن الإضافة إلى الله عز وجل . ورأى أن ابتداء ما لم يقل فيه لا يجوز استعماله فقال : كيف أقول ما لم يقل ، ثم لم يختلف الناس في غير ذلك ، إلى أن نشأ على بن اسمعيل الأشعري . فقال مرة : بقول المعتزلة ، ثم عن له فادعى أن الكلام صفة قائمة بالنفس . فاجبت دعواه هذه أن ما عندنا مخلوق وزادت فخبطت العقائد فما زال أهل البدع يجوبون في تيارها إلى اليوم .

والكلام في هذه المسئلة مرتب بذكر الحجج والشبه في كتب الأصول فلا أطيل به ههنا بل أذكر لك جملة تكفي من أراد الله هداة ، وهو أن الشرع قنع منا بالإيمان جملة وبتعظيم الظواهر ، ونهى عن الخوض

فيما يشير غبار شبهته ولا يقوى على قطع طريقه اقدام الفهم ، وإذ كان قد نهى عن الخوض في القدر فكيف يجوز الخوض في صفات المقدّر ؟ وما ذاك إلا لأحد الأمرين اللذين ذكرتهما . إما خوفاً من إثارة شبهة تزلزل العقائد ، أو لأن قوى البشر تعجز عن إدراك الحقائق ، فإذا كانت ظواهر القرآن تثبت وجود القرآن فقال قائل ليس ههنا قرآن . فقد رد الظواهر التي تعب الرسول ﷺ في إثباتها وقرر وجودها في النفوس ، وبماذا يحل ويحرم ، ويدت ويقطع ، وليس عندنا من الله تعالى تقدم بشيء ، وهل المخالف دليل إلا أن يقول قال الله فيعود فيثبت مانفى . فليس الصواب لمن وفق إلا الوقوف مع ظاهر الشرع فإن اعترضه ذو شبهة . فقال : هذا صونك وهذا خطأك . فإين القرآن ؟ فليقل له : قد أجمعنا أنا وانت على وجود شيء به نحتاج جميعاً . وكما أنك تنكر على أن أثبت شيئاً لا يتحقق لى إثباته حساً ، فإنا أنكر عليك كيف تنفى وجود شيء قد ثبت شرعاً ، وأما قولهم هل فى المصحف إلا ورق وعفص وزاج ، هذا كقول القائل : هل الآدمى اللحم ودم ؟ هيهات أن معنى الآدمى هو الروح ، فمن نظر الى اللحم والدم وقف مع الحسن . فإن قال : فكذا أقول أن المكتوب غير الكتابة ، قلنا له : وهذا مما تنكره عليك لأنه لا يثبت تحقيق هذا لك ولا لخصمك ، فإن أردت بالكتابة الخبر وتخطيطه فهذا ليس هو القرآن ، وإن أردت المعنى القائم بذلك فهذا ليس هو الكتابة ، وهذه الأشياء لا يصلح الخوض فيها فإن مادونها لا يمكن تحقيقه على التفصيل كالروح مثلاً ، فإنا نعلم وجودها فى الجملة ، فإما حقيقتها فلا . فإذا جهلنا حقائقها كنه الصفات الحق أجمل ، فوجب الوقوف مع السمعيات مع نفى ما لا يليق بالحق ، لأن الخوض يزيد الغائض تخييطاً ولا

يفيده تحصيلاً بل يوجب عليه نفي ما ثبت بالسمع من غير تحقيق أمر عقلى ،
فلا وجه للسلامة الا طريق السلف والسلام . وكذلك أقول أن اثبات الاله
بظواهر الآيات والسنن ألزم للعوام من تحديثهم بالتنزيه وان كان التنزيه لازماً .
وقد كان ابن عقيل يقول : الأصلح لا اعتقاد العوام ظواهر الآى والسنن .
لأنهم يأنسون بالاثبات فتى محو ناذلك من قلوبهم زالت السياسات والحشمة
ونهافت العوام فى الشبهة أحب الى من اغراقهم فى التنزيه . لان التشبيه
يغمسهم فى الاثبات . فيطمعوا ويخافوا شيئاً قد أنسوا الى ما يخاف مثله
ويرجى . فالتنزيه يرمى بهم الى النفى ولا طمع ولا مخافة من النفى ، ومن
تدبر الشريعة رآها عامة للمكافئين فى التشبيه بالالفاظ الى لا يطفى ظاهرها
سواء كقول الاعرابى : أو يضحك ربنا ، قال : نعم . فلم يكفر من هذا القول .

١٢٤ - فصل - أعظم البليات أن يعطيك همة عالية ويعلمك من
العمل بمقتضاها ، فيكون من تأثير همتك الانفة من قبول ارفاق الخلق
استثقالاً لحمل منهم ، ثم يبتليك بالفقر فتأخذ منهم ويلطف مزاجك ،
فلا تقبل من الماء كولات ماسهل احضاره ، فتحتاج الى فضل نفقة ، ثم
يقلل رزقك ويعاق همتك بالمستحسنيات . ويقطع بالفقر السبيل اليهن .
ويربك العلوم فى مقام معشوق . ويضعف بدنك عن الاعادة ويخلى يدك
من المال الذى تحصل به الكتب . ويقوى توقك الى درجات العارفين والزهاد ،
ويحوجك الى مخالطة أرباب الدنيا وهذا البلاء المبين ، وأما الخسيس الهمة
الذى لا يستنكف من سؤال الخاق ، ولا يرى الاستبدال بزوجه ، وبكتفى
يسير من العلم . ولا يتوق الى أحوال العارفين . فذاك لا يؤمله فقد شىء ،
ويرى ما وجد هو الغاية . فهو يفرح فرح الاطفال بالزخارف ، فما أهون

الأمر عليه . انما البلاء على العارف ذى الهمة العالية الذى تدعوه همته الى جمع الاضداد للتزيد من مقام الكمال ، وتقصير خطاه عن مدارك مقصوده فياله من حال ينفذ في طريقه زاد الصابرين ولولا حالات غفلة تعترى هذا المبتلى يعيش بها لكان دوام ملاحظته للمقامات يعنى بصره ، واجتهاده في السلوك يحفى قدمه ، لكن ملاحظات الامداد له تارة يبلوغ بعض مراده وتارة بالغفلة عما قصد ، وهذا كلام عزيز لا يفهمه إلا أربابه ، ولا يعلم كنهه الا اصحابه .

١٢٥ - فصل - تراعنت على نفسى فى طلبها شيئا من أغراضها بتأويل فاسد . فقلت لها : بالله عليك تصبرى . فى المعبر شغلا يحذر الفرق من كثرة الموج عن التنزه فى عجائب البحر . اذا هممت بفعل فقد رى حصوله ثم تلمحى عواقبه وما تجتنين من ثمراته . فاقل ذلك الندم على ما فعلت ، ولا يؤمن أن يشعر غضب الحق عز وجل وإعراضه عنك ، فاف للقاطع عنه ولو كان الجنة ، ثم أعلمى أيتها النفس أنه ما يمضى شىء جزافا . وان ميزان العدل تبين فيه الذرة فتلمح الأموال والاحياء ، وانظرى الى من نشر ذكره بالخير والشر ، وزيادة ذلك ونقصانه ، فسبحان من أظهر دليل الخلوأ على أربابها ، حتى أن حبات القلوب تتعلق بأهل الخير . وتنفر من أهل الشر . من غير مطالعة لشيء من أعمال الكل . قال ابليس : أوترك مرادك لاجل الخلق ؟ قلت : لا ؛ انما هذا بعض الثمرات الحاصلة من طريق الغرض . ونحن نرى من يمشى ثلاثين فرسخا ليقال ساع ، فالمتقى قد نال شرف الذكر وان لم يقصد نيل ذلك مترجحاله فى وزن الجزاء « سيجعل لهم الرحمن ودا » . قالت النفس : لقد أمرتنى بالصبر على العذاب ، لأن ترك الاغراض عذاب

قلت: لك عن الغرض عوض. ومن كل متروك بدل. وأنت في مقام مستعبد ولا يصح للأجير أن يلبس ثياب الراحة في زمان الاستئجار، وكل زمان الملقى نهار صوم، ومن خاف العقاب ترك المشتبه، ومن رام القرب استعمل الورع، وللصبر حلاوة تبين في العواقب.

١٢٦ - فصل - من نازعته نفسه الى لذة محرمة فشغله نظره اليها عن تأمل عواقبها وعقابها. وسمع هتاف العقل يناديه ويحك لا تفعل؛ فانك تقف عن الصعود. وتأخذ في الهبوط ويقال لك ابق بما اخترت فان شغله هواه فلم يلتفت الى ما قيل له، لم يزل في نزول، وكان مثله في سوء اختياره كالمثل المضروب: أن الكلب قال للأسد: يا سيد السباع. غير اسمي فانه يبيع. فقال له: أنت خائن لا يصلح لك غير هذا الاسم. قال: فجربني. فاعطاه شقة لحم وقال: احفظ لي هذه الى غد وأنا أغير اسمك، فجاع وجعل ينظر الى اللحم ويصبر. فلما غلبته نفسه قال: وأي شيء باسمي، وما كلب الا اسم حسن. فأكل، وهكذا الخسيس الهمة، القنوع باقل المنازل، المختار عاجل الهوى على آجل الفضائل، فالله الله في حريق الهوى اذا نار وانظر كيف تطفئه، قرب زلة في بر بوار، ورب أثر لم ينقلع، والفائت لا يستدرك على الحقيقة، فابعد عن أسباب الفتنة، فان المقاربة محنة لا يكاد صاحبها يسلم والسلام.

١٢٧ - فصل - رأيت الخلق كلهم في صف محاربة، والشياطين يرمونهم بنبل الهوى، ويضربونهم باسياف اللذة. فاما المخلطون فصرعى من أول وقت اللقاء، وأما المتقون ففي جهاد جهيد من المجاهدة، فلا بدمع طول الوقوف في المحاربة من جراح فهم يجرحون ويداونون، الا ان القتل

محفوظ ، بلى ! أن الجراحة في الوجه شين باق فإيحذر ذلك .

١٢٨ - فصل - الدنيا فخ ، والجاهل بأول نظرة وقع ، فاما العاقل المتقى فهو يصابر المجاعة . ويدور حول الحب ، والسلامة بعيدة . فيكم من صابر واجتهد سنين ثم في آخر الأمر وقع ، فالحذر الحذر . فقد رأينا من كان على سنن الصواب ، ثم زل على شفير القبر .

١٢٩ - فصل - إعلموا اخواني ومن يقبل نصيحتي . أن للذنوب تأثيرات قبيحة ، مراراتها تزيد على حلاواتها أضعافا مضاعفة ، والمجازي بالمرصاد لا يسبقه شيء ولا يفوته ، وأوليس يروى في التفسير . أن كل واحد من أولاد يعقوب عليهم السلام - وكانوا اثني عشر - ولد له اثنا عشر ولدا . الا يوسف فانه ولد له أحد عشر وجوزى بتلك المهمة فنقص ولدا ، فوا أسفا لمضروب بالسياط ما يحس بالآلم ، ولمثخن بالجراح وما عنده من نفسه خبرا ولمتقاب في عقوبات ما يدري بها ، ولعمري أن أعظم العقوبة أن لا يدري بالعقوبة ، فوا عجباً للمغالط نفسه يرضى ربه بطاعة ويسرق معصية ، ويقول حسنة وسيئة ، ويك من كيسك تنفق ، ومن بضاعتك تهدم ، ووجه جاهك تشين ، رب جراحة قتلت ، ورب عثرة أهلك ، ورب فارط لا يستدرك ، ويحك انتبه لنفسك ما الذي تنتظر باو بتك ؟ وماذا تقرب بتو بتك المشيب ؟ فها هو أوهن العظم وهل بعد رحيل الأهل والأولاد والأقارب . الا اللحاق . قدر أن ما تؤمله من الدنيا قد حصل ، فكان ماذا ؟ اما هو عاجل فشغلك عاجلا . ثم آخر جرعة اللذة شرقة . إما أن تفارق محبوبك ويفارقك فيها جرعة مريرة تود عندها أن لو لم تراه .

آه لمحجوب العقل عن التأمل ، ولمصدود عن الورد ، وهو يرى للنهل .

أما في هذه القبور نذير ، أما في كروور الزمان زاجر : أين من ملك وبلغ النني
 فيما أمل . نأدهم في نأدهم . هيهات صموا عن منأديهم . فلو أن مأبهم بالموت ،
 إنما القبور رهنية . العمل حصل يأمعد وما بالاً مس . يأمعلاشي الاشلاء في الغد .
 بأى وجه تلقى ربك . أيساوى ماتنأله من الهوى لفظ عتاب : بالله ان الرحمة
 بعد المعاتبة ، ربما لم تستوف قلع البغضة من صميم القلب ، فكيف ان
 عقب العتاب عتاب . وقد أخبرنا عبد الرحمن بن محمد القزاز قال . أخبرنا
 أبو بكر الخطيب ، قال أخبرنا محمد بن الحسين المعدل . قال أخبرنا أبو الفضل
 الزهرى . قال أخبرنا أحمد بن محمد الزعفرانى قال حدثنا أبو العباس بن واصل
 المقرئ . قال سمعت محمد بن عبد الرحمن الصيرفى قال : رأى جار لنا يحيى بن
 أكرم بعد موته فى منامه فقال : ما فعل بك ربك ؟ فقال : وقفت بين يديه فقال
 لى : سوءة لك يا شيخ . فقلت يارب : إن رسولك قال أنك لتستحى من أبناء
 الثمانين أن تعذبهم وأنا ابن ثمانين أسير الله فى الارض . فقال لى : صدق
 رسولى قد عفوت عنك . وفى رواية أخرى عن محمد بن سلم الخواص . قال :
 رأيت يحيى بن أكرم فى المنام فقلت : ما فعل الله بك ؟ فقال : أوقفنى بين
 يديه وقال لى يا شيخ السوء لولا شيبتك لأحرقتك بالنار ، والمقصود من هذا
 النظر بعين الاعتبار ، هل يبنى هذا بدخول الجنة فضلا عن لذات الدنيا . فأسأل
 الله عز وجل أن ينبهنا من رقعات الغافلين . وأن يربنا الاشياء كماهى لنعرف
 عيوب الذنوب والله الموفق .

١٣٠ - فصل - ضاق بى أمر أوجب غما لازما دائما ، واخذت
 أبالغ فى الفكر فى الخلاص من هذه الهموم بكل حيلة وبكل وجه . فأرأيت
 طريقا للخلاص . فمرضت لى هذه الآية : « ومن يتق الله يجعل له مخرجا » .

فعلت أن التقوى سبب للمخرج من كل نهم . فما كان إلا أن هممت بتحقيق
التقوى فوجدت المخرج ، فلا ينبغي المخوف أن يتوكل أو يتسبب أو يتفكر
إلا في طاعة الله تعالى . وامتنال أمره ، فإن ذلك سبب لفتح كل مرتجع ، ثم
أعجبه أن يكون من حيث لم يقدره المتفكر المحتمل المدبر ، كما قال عز وجل :
« ويرزقه من حيث لا يحتسب » . ثم ينبغي العتقى أن يعلم أن الله عز وجل
كافيه فلا يعاق قلبه بالأسباب ، فقد قال عز وجل : « ومن يتوكل على الله فهو
حسبه » .

١٣١ - فصل - من العجب الخاحك في طلب أغراضك وكما زاد
تعويقها زاد الخاحك . وتنسى أنها قد تمتنع لا حد أصرين ، أما المصلحتك فربما
معجل أذى ، وأما لذنوبك فإن صاحب الذنوب بعيد من الأجابة ، فنظف
طرق الاجابة من أوساخ المعاصي ، وانظر فيما تطلبه هل هو لاصلاح دينك ،
أو لمجرد هواك . فإن كان للهوى المجرد . فاعلم ان من اللطف بك والرحمة لك ،
تعويقه . وانت في الخاحك بمثابة الطفل يطلب ما يؤذيه فيمنع رفاقه ، وان
كان اصلاح دينك فربما كانت المصلحة تأخيرها ، أو كان صلاح الدين بعدمه
وفي الجملة تدبر الحق عز وجل لك خير من تدبيرك ، وقد يمنحك ما تهوى
ابتلاء لئلا وصبرك . فاره الصبر الجميل ترى عن قرب ما يسر ، ومتى نظفت
طرق الاجابة من ادراة الذنوب ، وصبرت على ما يقضيه لك . فكل ما يجري
اصلاح لك ، عطاء كان أو منعا .

١٣٢ - فصل - يجب على من لا يدري متى ينفته الموت أن يكون
مستعدا . ولا يغتر بالشباب والصحة ، فإن أقل من يموت الاشياخ ، واكثر
من يموت الشبان . ولهذا يندر من يكبر ، وقد انشدوا :

يعمر واحد فيغر قوما وينسى من يموت من الشباب
ومن الاغترار طول الأمل ، وما من آفة أعظم منه . فانه لولا طول
الأمل ما وقع اهمال اصلا . وانما يقدم المعاصي ويؤخر التوبة لطول الأمل
وتبادر الشهوات وتنسى الانابة لطول الأمل . وان لم تستطع قصر الأمل
فاعمل عمل قصير الأمل ، ولا تمس حتى تنظر فيما مضى من يومك ، فان رأيت
زلة فمحها بتوبة ، أو خرقا فارقعه باستغفار ، واذا أصبحت فتأمل مامضى
في ليك ، واياك التسوييف فانه أكبر جنود ابليس :

وخذ لك منك على مهلة ومقبل عيشك لم يدبر
وخف هجمة لا تفيل العثا ورنطوى الورود على المصدر
ومثل لنفسك أى الرعيل يضمك فى حلبة المحشر
ثم صور لنفسك قصر العمر . وكثرة الاشغال . وقوة الندم على التفريط
عند الموت . وطول الحسرة على البدار بعد الفوت . وصور ثواب الكاملين
وانت ناقص ، والمجاهدين وانت متكاسل ، ولا تخل نفسك من موعظة
تسمعها ، وفكرة تحادثها بها ، فان النفس كالفرس المتشيطان ان اهملت لجامه
لم تأمن أن يرمى بك ، وقد والله دنسك اهوؤك ، وضيعت عمرك . فالبدار
البدار فى الصيانة ، قبل تلف الباقي بالصباية . فكم تمرقل فى فسخ الهوى
جناح حازم ، وم وقع فى بر بوار مخمور . ولا حول ولا قوة الا بالله .

١٣٣ - فصل - الحذر الحذر من المعاصي . فان عواقبها سيئة . وم
من معصية لا يزال صاحبها فى هبوط ابدا مع تعثير اقدامه ، وشدة فقره
وحسرته على ما يفوته من الدنيا ، وحسرة لمن نالها فلو قارب زمان جزائه
على قبيحه الذى ارتكبه كان اعتراضه على القدر فى فوات اغراضه بعيد

العذاب جديداً ، فوا أسفاً للمعاقب لا يحس بعقوبته : وآه من عقاب يتأخر
حتى ينسى سببه ، أوليس ابن سيرين يقول : عيرت رجلاً بالفقر فافتقرت
بعد أربعين سنة . وابن الجلاء يقول : نظرت إلى شاب مستحسن فنسيت
القرآن بعد أربعين سنة . فوا حسرة للمعاقب لا يدري أن أعظم العقوبة عدم
الاحساس بها . فإله الله في تجويد التوبة عساها تكف كف الجزاء . والحذر
الحذر من الذنوب خصوصاً ذنوب الخلوأ . فإن المبارزة لله تعالى تسقط
العبد من عينه ، وأصلح ما بينك وبينه في السر وقد أصلح لك أحوال العلانية
ولا تغترر بستره أيها العاصي فربما يجذب عن عورتك ، ولا بحلمه فربما
بغت العقاب ، وعليك بالقلق واللجاليه والتضرع . فإن نفع شيء فذلك ، وتقوت
بالحزن ، وتمزكأس الدمع ، واحفر بمول الاسى قايب قلب الهوى لعلك تنبسط
من الماء ما يفسل جرم جرمك .

١٢٤ - فصل - اخواني : اسمعوا نصيحة من قد جرب وخبر ، أنه
بقدر اجلالكم لله عز وجل يحكمكم ، وبمقدار تعظيم قدره واحترامه يعظم
اقداركم وحرمتكم ، ولقد رأيت والله من أنفق عمره في العلم إلى أن كبرت
سنه ، ثم تعدى بعض الحدود فهان عند الخلق . وكانوا لا ياتفتون اليه مع
غزارة علمه وقوة مجاهدته . ولقد رأيت من كان يراقب الله عز وجل في
صبوته مع قصوره بالاضافة الى ذلك العالم . فعظم الله قدره في القلوب حتى
علفته النفوس ، ووصفته بما يزيد على ما فيه من الخير ، ورأيت من كان
يرى الاستقامة اذا استقام فاذا زاغ مال عنه اللطف . ولولا عموم السر
وشمول رحمة الكريم لاقتضح هؤلاء المذكورون ، غير أنه في الاغاب
تأديب أو تلاف في العقاب كما قيل :

ومن كان في سخطه محسناً فكيف يكون إذا مارضى

غير ان العدل لا يجابي . وحاكم الجزاء لا يجور . وما يضيع عند الأُمير شيء .

١٣٥ - فصل - أيها المذنب إذا أحسست نفحات الجزاء فلا تكثرن

الضجيج ، ولا تقولان قد تبت وندمت فهل لازال غنى من الجزاء ما أكره

فأمل توبتك ما تحققت . وإن للمجازاة زمانا يمتد امتداد المرض الطويل .

فلا تنجع فيه الحيل حتى ينقض أوانه ، وإن بين زمان : «وعصى» الى ابان :

«فتلقى» مدة مديدة . فاصبر أيها الخاطيء حتى يتخلل ماء عينيك خلال ثوب

القلب المتنجس . فاذا اعصرته كف الاسى . ثم تكررت دفع الغسلات .

حكم بالطهارة ، بقى آدم يبكى على زلله ثلاث مائة سنة ، ومكث أيوب عليه

السلام في بلائه ثمانية عشرة سنة ، وأقام يعقوب يبكى على يوسف عليهما

السلام ثمانين سنة وللبلايا أوقات ثم تنصرم ، ورب عقوبة امتدت الى

زمان الموت . فاللازم لك أن تلازم محراب الانابة ، وتجلس جلسة المستجدى .

وتجعل طعامك الفلق ، وشر بك البكاء ، فربما قدم بشير القبول فارتد يعقوب

الحزن بصيراً . وإن مت في سجن سجنك فربما ناب حزن الدنيا عن حزن

الآخرة ، وفي ذلك ربح عظيم .

١٣٦ - فصل - الواجب على العاقل ان يحذر مغبة المعاصي فان نارها

تحت الرماد . وربما تأخرت العقوبة ثم فجأت . وربما جاءت مستعجلة .

فليبادر بإطفاء ما أوقد من نيران الذنوب ، ولأما يطفى تلك النار الا ما كان

من عين العين ، على خصم الجزاء برضى قبل أن يبت الحاكم في حكمه .

١٣٧ - فصل - واعجبنا من عارف بالله عز وجل يخافه ولو في تلف

نفسه . هل العيش الامعه ؟ هل الدنيا والآخرة إلاله ؟ أف لترخص في

فعل ما يكره لنيل ما يحب : تالله لقد فاتته اضعاف ما حصل ، أقبل على ما أقوله
ياذا الذوق هل وقع لك تعثر في عيش ، وتخييط في حال ، الا حال مخالفته :
ولا انثنى عزمي عن بابكم الا تمثرت باذيالي

اما سمعت تلك الحكاية عن بعض السلف انه قال : رأيت على سور
بيروت شابا يذكر الله تعالى فقامت له : الك حاجة ؟ فقال : اذا وقعت لي
حاجة سألته اياها بقلبي فقضاها ، يا ارباب المعاملة بالله عليكم لا تكذبوا
المشرب قفوا على باب المراقبة وقوف الحراس وادفعوا مالا يصاح أن يلج
فيفسد ، واهجروا اغراضكم لتحصيل محبوب الحبيب ، فان اغراضكم تحصل
على أنني أقول أف لمن ترك بقصد الجزاء اهذا شرط العبودية ، كلا ؟
إنما ينبغي لي اذا كنت مملوكا أن أفعل ليرضى لا لأعطي ، فان كنت محبا
رأيت قطع الآراب في رضاه وصلا . أقبل نصحي ياخذوعا بغيره ان
ضعفت عن حمل بلاؤه فاستغث به . وان آلمك كرب اختياره فانك بين يديه .
ولا تيأس من روحه وان قوى خناق البلاء ، بالله أن موت الخادم في الخدمة
حسن عند العقلاء .

إخواني لنفسي أقول : فمن له شرب معي فليرد ، أيتها النفس لقد أعطاك
مالم تأمل . وباعك مالم تطلبي . وستر عليك من قبيلتك مالم فاح ضجعت
المشام . فما هذا الضجيج من فوات كمال الاغراض . أمملوكة أنت أم حرة ؟
أما علمت انك في دار التكليف وهذا الخطاب ينبغي أن يكون للجهال ،
فاين دعواك المعرفة . أترأه لو هبت نفحة ، فاخذت البصر كيف كانت تطيب
لك الدنيا ، وأسفأ عليك لقد عشيت البصيرة التي هي اشرف . وما علمت
كم أقول عسى ولعل ؟ وأنت في الخطأ الى قدام ، قربت سفينة العمر من

ساحل القبر ، ومالك في المركب بضاعة تريح ، تلاعبت في بحر العمر ربح
الضعف ففرقت تلفيق القوى وكان قد فصلت المركب . بلغت نهاية الاجل
وعين هوائك تتلفت الى الصبا ، بالله عليك لا تشمتى بك الاعداء . هذا
أقل الافسام وأوفى منها ، ان اقول بالله عليك لا يفوتك قدم سابق مع
قدرتك على قطع المضمار الخلوة الخلوة واستحضري قرين العقل ، وجولي
في حيرة الفكر . واستدركي صباية الاجل قبل ان تميل بك الصباية عن
الصواب . واعجبا كلما صعد العمر نزلت . وكلما جد الموت هزلت . أراك
ممن ختم له بفتنة ، وقضيت عليه عند آخر عمره المحنة . كان اول عمرك
خيرا من الاخير ، كنت في زمن الشباب اصاح منك في زمن أيام المشيب
« وتلك الامثال نضربها للناس وما يعقلها الا العالمون » نسأل الله عز وجل
مالا يحصل مطلوبنا الا به وهو نوفيقه انه سميع مجيب .

١٢٨ - فصل - قدرت في بعض الايام على شهوة للنفس هي عندها
احلام من الماء الزلال في قم العادي . وقال التأويل : ما ههنا مانع ولا معوق
الانوع وروع ، وكان ظاهر الأمر امتناع الجواز . فرددت بين الأمرين ،
فمنعت النفس عن ذلك . فبقيت حيرتي لمنع ما هو الغاية في غرضها من غير
صاد عنه بحال الاحذر المنع الشرعي . فقاتلها : يا نفس والله ما من سبيل
الى ما لا يؤمن من دونه ؟ فتقلقت ، فصحت بها كم وافقتك في مراد ذهبت
لذته وبقى التأسف على فعله . فقدرى بلوغ الغرض من هذا المراد اليس
الندم يبقى في مجال اللذة اضعاف زمانها ، فقالت : كيف اصنع : فقلت :
صبرت ولا والله ما بي جلادة على الحب لكني صبرت على الرغم

وها أنا انتظر من الله عز وجل حسن الجزاء على هذا الفعل . وقد تركت باقي هذه الوجهة البيضاء . أرجوا أن أرى حسن الجزاء على الصبر فاسطره فيه أن شاء الله تعالى . فانه قد يعجل جزاء الصبر وقد يؤخره ، فان عجل سطرته ، وان أخر فاشك في حسن الجزاء لمن خاف مقام ربه ، فانه من ترك شيئاً لله عوضه الله خيراً منه ، والله انى ما تركته الا الله تعالى ويكفينى تركه ذخيرة ، حتى لو قيل لى اذكرك يوماً أثرت الله على هواك . قلت : يوم كذا وكذا . فافتخرى أيتها النفس بتوفيقك من وفقك ، فكم قد خذل سواك . واحذرى أن تخذلى فى مثلها ولا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم . وكان هذا فى سنة إحدى وستين وخمسمائة ، فلما دخلت سنة خمسة وستين . عوضت خيراً من ذلك بما لا يقارب مما لا يمنع منه ورع ولا غيره . فقلت : هذا جزاء الترك لاجل الله سبحانه فى الدنيا . ولأجر الآخرة خير والحمد لله .

١٣٩ - فصل - لا انكر على من طالب لذة الدنيا طريق المباح . لانه ليس كل احد يقوى على الترك ، انما المحنة من طلبها فلم يجدها ، او اكثر الا من طريق الحرام . فاجتهد فى تحصيلها ، ولم يبال كيف حصلت فهذه المحنة التى يحس العقل فيها حقه ، ولم ينتفع صاحبه وجوده لانه لو وزن ما أوتر وعقابه طاشت كفة اللذة التى فنيت عند أول ذرة من جزائها ، وكم قد رأينا ممن أثر شهوته فسلبت دينه فليعجب العاقل حين التضعف لاحوالهم كيف آثروا شيئاً ما اقامو معه ، وصاروا الى عقاب لا يفارقهم فالله الله فى يحس العقول حقها . وينظر السالك اين يضع القدم قرب مستعجل وقع فى يربوار . ولتكن عين التيقظ مفتوحة فانكم فى صف حرب

لا يدري فيه من أين يتلقى النبل ، فأعينوا أنفسكم ولا تعينوا عليها .

١٤٠ - فصل - الحق عز وجل أقرب الى عبده من حبل الوريد ، لكنه عامل العبد معاملة الغائب عنه البعيد منه ، فامر بقصد نيته ورفع اليدين اليه والسؤال له . فقلوب الجهال تستشعر البعد ، ولذلك تقع منهم المعاصي . اذ لو تحققت مراقبتهم للحاضر الناظر لكفوا الأكف عن الخطايا ، والمتيقظون علموا قربهم فحضرتهم المراقبة وكفتمهم عن الانبساط . ولولا نوع تغطية على عين المراقبة الحقيقية لما انبسطت كف بأكل ولا قدرت عين على نظر . ومن هذا الجنس « انه ليغان على قلبي » ومتى تحققت المراقبة حصل الانس ، وإنما يقع الانس بتحقيق الطاعة ، لان المخالفة توجب الوحشة والموافقة مبسطة المستأنسين . فيالذلة عيش المستأنسين . وبإخساسة المستوحشين . وليست الطاعة كما يظن أكثر الجهال أنها في مجرد الصلاة والصيام . إنما الطاعة الموافقة بامثال الأمر واجتناب النهي . هذا هو الاصل والقاعدة الكلية . فكيف من متعبد بعيد ، لانه مضيع الاصل وهادم للقواعد بمخالفة الامر وارتكاب النهي . وإنما المحقق من أمسك ذؤابة ميزان المحاسبة للنفس فأدى ما عليه واجتنب ما نهى عنه . فان رزق زيادة تنفل والا لم يضره والسلام .

١٤١ - فصل - الدنيا في الجملة معبر . فينبغي للانسان ان لا ينافس بلذاتها وأن يعبر الايام . فانه لو تفكر في كيفية الذبائح ووسخ من يباشرها وحمل الكامخ وغيرها من الماء كولات ما طابت له ، ولو تفكر في جولان اللقمة مختلطة بالريق ما قدر على اساعتها . فلا يخلو من حالين . اما ان يريد التمتع باللذات المباحات ، أو يريد دفع الوقت

بالضرورات . وأيهما طلب فلا ينبغي له ان يبحث فيما يناله عن باطنه ، فانه لو نظر الى عورة الزوجة نبا عنها ، وقد قالت عائشة رضى الله عنها : مارأيت من رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا رآه منى . فينبغى للعاقل ان يكون له وقت معلوم يأمر زوجته بالتصنع له فيه ثم يفيض عن التفتيش لطيب له عيشه ، وينبغي لها ان تفقد من نفسها هذا فلا تحضره الا على احسن حال ، ويمثل هذا يدوم العيش . فاما اذا حصلت البذلة بانث بها العيوب فنبت النفس وطلبت الاستبدال . ثم يقع فى الثانية مثل ما يقع فى الاولى . وكذلك ينبغي ان يتصنع لها كتصنعها له ليدوم الود بحسن الائتلاف . ومتى لم يجر الأمر على هذا فى حق من له أنفة من شئ تنبو عنه النفس وقع فى احد أمرين . اما الاعراض عنها . واما الاستبدال بها . ويحتاج فى حالة الاعراض الى صبر عن اغراضه ، وفى حالة الاستبدال الى فضل مؤنة وكلاهما يؤذى . ومتى لم يستعمل ما وصفنا لم يطب له عيش فى متعة . ولم يقدر على دفع الزمان كما ينبغي .

١٤٢ - فصل - نازعتنى نفسى الى امر مكروه فى الشرع ، وجعلت تنصب لى التأويلات وتدفع الكراهة . وكانت تأويلاتها فاسدة ، والحجة ظاهرة على الكراهة . فلجأت الى الله تعالى فى دفع ذلك عن قلبى ، وأقبلت على القراءة . وكان درسى قد بلغ الى سورة يوسف فافتحتها . وذلك الخاطر قد شغل قلبى حتى لا أدري ما اقرأ . فلما بانى الى قوله تعالى « قال معاذ الله انه ربى احسن مشواى » انتبهت لها وكأنى خطبت بها ، فأفقت من تلك السكرة ، فقات يانفس أفهمت ؟ هذا حر بيع ظلما فراعى حق من احسن اليه ، وسماه مالكا وان لم يكن عليه ملك ، فقال : انه ربى . ثم زاد فى بيان موجب كف كفه

هما يؤذيه فقال : أحسن مثواي . فكيف بك وأنت عبد على الحقيقة
 لمولى . مازال يحسن اليك من ساعة وجودك ، وأن ستره عليك الزلل
 أكثر من عدد الحصى . افانذ كرين كيف ربك وعلمك ورزقك ودافع عنك ،
 وساق الخير اليك ، وهداك أقوم طريق ، ونجالك من كل كيد ، وضم الى حسن
 الصورة الظاهرة جودة الذهن الباطن ، وسهل لك مدارك العلوم حتى نلت
 في قصير الزمان ما لم ينله غيرك في طويله ، وجلى في عرصة لسانك عرائس
 العلوم في حلل الفصاحة بعد أن ستر عن الخلق مقابحك ، فتلقوها منك
 بحسن الظن ، وساق رزقك بلا كلفة تكاف ولا كدر من ، رغدا غير
 نزر . فوالله ما أدري اى نعمة عليك اشرح لك ، حسن الصورة وصحة الآلات ،
 أم سلامة المزاج واعتدال التركيب ، أم لطف الطبع الخالى عن خساسة ،
 أم الهام الرشاد منذ الصغر ، أم الحفظ بحسن الوقاية عن الفواحش والزلل ،
 أم تجيب طريق النقل واتباع الأثر من غير جمود على تقليد لمعظم ، ولا
 انحراط في سلك مبتدع « وان تعدوا نعمة الله لا تحصوها » كم كابد نصب
 لك المكائد فوقك ، كم عدو حط منك بالذم فرقاك ، كم أعطش من
 شراب الاماني خلقا وسقاك ، كم أمات من لم يبلغ بعض مرادك وابقاك .
 فانت تصبحين وتمسين سليمة البدن ، محروسة الدين ، في تزيد من العلم
 وبلوغ الامل ، فان منعت مرادا فرزقت الصبر عنه بعد ان تبين لك وجه
 الحكمة في المنع حتى يقع اليقين بان المنع أصالح . ولو ذهبت أعد من هذه
 النعم ما نسخ ذكره امتلات الطروس ولم تنقطع السكتابة . وأنت تعلمين
 ان ما لم اذكره أكثر . وان ما أومأت الى ذكره لم يشرح . فكيف يحسن
 بك التعرض بما يكرهه « معاذ الله انه ربي احسن مثواي انه لا يفلح

١٤٣ - فصل - ما رأيت اعظم فتنة من مقاربة الفتنة . وقل
 أن يقاربها الا من يقع فيها . ومن حام حول الحمى يوشك أن يقع فيه .
 قال بعض المعتبرين : قدرت مرة على لذة ظاهرها التحريم ويحتمل الاباحة ،
 اذ الامر فيها مردد ، فجاهدت النفس فقالت : انت ما تقدر فلهذا ترك .
 فقارب المقدور عليه فاذا تمكنت فتركت كنت تاركا حقيقة ، ففعلت
 وتركت ، ثم عاودت مرة اخرى في تأويل ارتنى فيه الجواز وان كان الأمر
 يحتمل . فلما وافقتها اثر ذلك ظلمة في قلبي لخوف ان يكون الامر محرما .
 فرأيت انها تارة تقوى على بالترخص والتأويل ، وتارة اقوى عليها
 بالمجاهدة والامتناع . فاذا رخصت لم آمن ان يكون ذلك الامر
 محظورا . ثم ادى عاجلا تأثير ذلك الفعل في القلب : فلما لم آمن عليها
 بالتأويل تفكرت في قطع طمعها من ذلك الامر المؤثر فلم أرد ذلك الابان
 قلت لها : قدرى ان هذا الأمر مباح قطعا . فوالله الذي لا اله الا هو لا عدت
 اليه . فانقطع طمعها باليمين والمعاهدة ، وهذا ابلغ دواء وجدته في امتناعها
 لان تأويلها لا يبلغ الى ان تأمر بالحنث والتكفير . فاجود الاشياء قطع
 اسباب الفتن وترك الرخص فيما يجوز اذا كان حاملا ومؤديا الى ما لا يجوز .
 والله الموفق .

١٤٤ - فصل - لولا غيبة العاصي في وقت المعاصي كان كالمعاند ،
 غير ان الهوى يحول بينه وبين الفهم للحال ، فلا يرى الا قضاء شهوته ،
 والافلو لاحت له المخالفة خرج من الدين بالخلاف ، فانما يقصد هواه فيقع
 الخلاف ضمنا وتبعاً . واكثر ما يقع هذا في مقاربة الفتنة . وقل من يسلم

عند المقاربة . لانه كتمقديم نار الى حلفاء . ثم لوميز العاقل بين قضاء
وطره لحظة وانتقضاء باقي العمر بالحسرة على قضاء ذلك الوطر لما قرب
منه ولو أعطى الدنيا ، غير ان سكرة الهوى تحول بين الفكر وذلك . آه
كم من معصية مضت في ساعتها كأنها لم تكن ثم بقيت آثارها ، واقلها
مالا يبرح من المرارة في الندم . والطريق الأعظم في الحذر ان لا يتعرض
لسبب فتنة . ولا يقاربه . فمن فهم هذا وبالع في الاحتراز كان الى السلامة
أقرب .

١٤٥ -- فصل - البلايا على متادير الرجال . فكثير من الناس
تراهم ساكتين راضين بما عندهم من دين ودنيا ، واولئك قوم لم يرادوا
لمقامات الصبر الرفيعة ، او علم ضعفهم عن مقاومة البلاء فلطف بهم . انما
المحنة العظمى ان ترزق همة عالية لا تقنع منك الا بتحقيق الورع . وتجويد
الدين ، وكمال العلم . ثم تبطل بنفس تميل الى المباحات ، وتدعى أنها تجمع
بذلك همها ، وتشقى مرضها ، لتقبل مزاحة العلة على تحصيل الفضائل .
وهاتان الحالتان كضدين ، لان الدنيا والآخرة ضربتان . واللازم في
هذا المقام مراعاة الواجبات ، وان لا يفسح للنفس في مباح لا يؤمن ان
يتعدى منه اعراض عن واجب ورع . المبطل يصيح . فلأن يبكى الطفل
خير من أن يبكى الوالد . واعلم ان فتح باب المباحات ربما جر أذى كثيرا
في الدين . فأوثق السكرك قبل فتح المساء ، والبس الدرع قبل لقاء الحرب ،
وتلمح عواقب ما تجنى قبل تحريك اليد ، واستظهر في الحذر باجتنب
ما يخاف منه وان لم يتيقن

١٤٦ - فصل - ينبني لطالب العلم أن يكون جل همته مصروفا

الى الحفظ والاعادة . فلو صحح صرف الزمان الى ذلك كان الأولى ،
غير ان البدن مطية ، واعداد السير مظنة الانقطاع . ولما كانت القوى
تكل فتحتاج الى تجديد ، وكان النسخ والمطالعة والتصنيف لابد منه ، مع
أن المهم الحفظ ، وجب تقسيم الزمان على الأمرين ، فيكون الحفظ في
طرفي النهار وطرفي الليل ، ويوزع الباقي بين عمل بالنسخ والمطالعة ، وبين
راحة للبدن وأخذ لحظه . ولا ينبغي أن يقع الغبن بين الشركاء ، فانه متى
أخذ أحدهم فوق حقه أثر الغبن وبان اثره . وان النفس لتهرب الى النسخ
والمطالعة والتصنيف عن الاعادة والتكرار ، لأن ذلك اشهى وأخف
عليها . فليحذر الراكب من إهمال الناقة ، ولا يجوز له أن يحمل عليها مالا
تطبيق . ومع العدل والانصاف يتأتى كل مراد . ومن انحرف عن الجادة
طالت طريقه . ومن طوى منازل في منزل أو شك أن يفوته ماجد لاجله .
على أن الانسان الى التحريض أحوج لان ^(١) الفتور أولى من الجدد . وبعد
فاللازم في العلم طلب المهم . قرب صاحب حديث حفظ مثلاً لحديث : من
أتى الجمعة فليغتسل : عشرين طريقاً ، والحديث قد ثبت من طريق واحد ،
فشغله ذلك عن معرفة آداب الغسل . والعمر أقصر وأنفس من أن يفرط
منه في نفس . وكفى بالعقل مرشد الى الصواب من عضده التوفيق .

١٤٧ - فصل - اذا صح قصد العالم استراح من كلف التكليف

فان كثيراً من العلماء يأنفون من قول لأدري ، فيحفظون بالفتوى جاههم
عند الناس لئلا يقال جهلوا الجواب ، وان كانوا على غير يقين مما قالوا . وهذا
نهاية الخذلان . وقد روى عن مالك بن انس أن رجلاً سأله عن مسألة

(١) كذا في النسخ الثلاثة

فقال : لا أدري ، فقال سافرت البلدان اليك ، فقال ارجع الى بلدك وقل
سألت مالكا فقال لا أدري . فانظر الى دين هذا الشخص وعقله كيف
استراح من الكلفة ، وسلم عند الله عز وجل . ثم ان كان المقصود الجاه
عندهم فقلوبهم بيد غيرهم . والله لقد رأيت من يكثّر الصلاة والصوم
والصمت ، ويتخشع في نفسه ولباسه والقلوب تنبو عنه ، وقدره في النفوس
ليس بذاك . ورأيت من يلبس فاخر الثياب وليس له كبير نفل ولا تخشع
والقلوب تنهافت على محبته . فتدبرت السبب فوجدته السريرة . كما روى
عن انس بن مالك أنه لم يكن له كبير عمل من صلاة وصوم ، وانما كانت له سريرة .
فن أصلح سريرته فاح عبير فضله . وعبقت القلوب بنشر طيبه . فالحمد لله
في السرائر . فانه ما ينفع مع فسادها صلاح ظاهر .

١٤٨ - فصل - نزلت في شدة وأكثر من الدعاء أطلب الفرج
والراحة ، وتأخرت الاجابة ، فازعجت النفس وقلقت ، فصحت بها ويلك ،
تأمل امرئ . أملك أم حرة مالكة ، أم مدبرة أنت أم مدبرة ؟
أما علمت أن الدنيا دار ابتلاء واختبار ، فاذا طلبت أغراضك ولم تصبري
على ما ينافي مرادك فاين الابتلاء . وهل الابتلاء الا الاعراض وعكس
المقاصد . فافهم معنى التكليف وقدها ان عليك ماعز ، وسهل ما استصعب .
فلما تدبرت ما قاتته سكنت بعض السكون . فقلت لها : وعندي جواب
ثان وهو انك تقتضين الحق باغراضك ولا تقتضين نفسك بالواجب له .
وهذا عين الجهل . وانما كان ينبغي أن يكون الامر بالعكس ، لانك مملوكة
والمملوك العاقل يطالب نفسه باداء حق المالك ، ويعلم أنه لا يجب على
المالك تبليغه ما يهوى . فسكنت اكثر من ذلك السكون . فقلت لها :

وعندي جواب ثالث . وهو أنك قد استبطأت الاجابة وانت سدوت طرفها بالمعاصي . فلوقد فتحت الطريق أسرع ، كأنتك ما علمت أن سبب الراحة التقوى . أو ما سمعت قوله تعالى « ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه » ، « يجعل له من أمره يسرا » ، أو ما فهمت أن العكس بالعكس : آه من سكر غفلة صار أقوى من كل سكر في وجه مياه المراد يمنعها من الوصول الى من زرع الاماني . فعرفت النفس أن هذا حق فاطمأنت . فقلت : وعندي جواب رابع . وهو أنك تطلبين مالا تعلمين عاقبته وربما كان فيه ضررك . فمثل كمثلك طفل محموم يطالب الحلوى . والمدير لك أعلم بالمصالح . كيف وقد قال « وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم » ، فلما بان الصواب للنفس في هذه الاجوبة ، زادت طمأنينتها . فقات لها : وعندي جواب خامس . وهو أن هذا المطلوب ينقص من أجرك ، ويحط من مرتبتك . فمنع الحق لك ما هذا سبيله عطاء منه لك . ولو أنك طلبت ما يصالح آخرتك كان أولى لك . فاولى لك أن تفهمي ما قد شرحت فقالت : لقد شرحت في رياض ما شرحت ، فهمت اذ فهمت .

١٤٩ - فصل - حضرنا بعض أعذية أرباب الاموال ، فرأيت

العلماء أذل الناس عندهم . فالعلماء يتواضعون لهم ويدلون لموضع طمعهم فيه ، وهم لا يحفلون بهم لما يعلمونه من احتياجهم اليهم . فرأيت هذا عيبا في الفريقين . أما في أهل الدنيا فوجه العتب أنهم كانوا ينبغي لهم تعظيم العلم . ولكن لجهلهم بقدره فاتهم وآثروا عليه كسب الاموال . فلا ينبغي أن يطلب منهم تعظيم مالا يعرفون ولا يعلمون قدره . وإنما أعود باللوم على العلماء واقول : ينبغي لكم أن تصونوا أنفسكم التي شرفت

بالعلم عن الذل للاندال . وان كنتم في غنى عنهم كان الذل لهم
والطلب منهم حراما عليكم . وان كنتم في كفاف فلم تم تؤثروا التزهد
عن الذل بالعفة عن الحطام الفاني الحاصل بالذلة . الا انه يتخيل لى من هذا
الامر ، انى علمت قلة صبر النفس على الكفاف والعزوف عن الفضول ، فان
وجد ذلك منها فى وقت لم يوجد على الدوام . فالاولى للعالم أن يجتهد فى
طلب الغنى ، ويبالغ فى الكسب ، وان ضاع بذلك عليه كثير من زمان طلب
العلم . فانه يصون بعرضه عرضه . وقد كان سعيد بن المسيب يتجر فى الزيت
وخلف مالا . وخلف سفيان الثورى مالا وقال لولاء لئنم دلو ابى . وقد سبق
فى كتابى هذا فى بعض الفصول شرف المال ، ومن كان من الصحابة والعلماء
يقتنيه ، والسرف فى فعلهم ذلك . وحى طالبى العلم على ذلك ما بينته من أن
النفس لا تثبت على التعفف ، ولا تصبر على دوام التزهد . وكم قد رأينا
من شخص قويته عزيمته على طلب الآخرة فاخرج مافى يده ، ثم ضعفت
فماد يكتسب من أقبح وجه . فالاولى ادخار المال والاستغناء عن الناس .
ويخرج الطمع من القلب . ويصفوا نشر العلم من شائبة ميل . ومن تأمل
اخبار الاخيار من الاحبار وجدتم على هذه الطريقة . وانما سلك طريق
الترفه عن الكسب من لم يؤثر عنده بذل الدين والوجه . فطلب الراحة
ونسى انها فى المعنى عناء . كما فعل جماعة من جهال المتصوفة فى اخراج مافى
أيديهم وادعاء التوكل . وما علموا أن الكسب لا ينافى التوكل . وانما
طلبوا طريق الراحة وجعلوا التعرض للناس كسبا . وهذه طريقة مركبة
من شيئين . أحدهما قلة الأنفة على العرض . الثانى قلة العلم .

١٥٠ - فصل - تأملت وقوع المعاصى من العصاه فوجدتهم

لا يقصدون العصيان ، وإنما يقصدون موافقة هوائهم ، فتبع العصيان تبعاً .
 فنظرت في سبب ذلك الاقدام مع العلم بوقوع المخالفة فإذا به ملاحظتهم
 لكرم الخالق . وفضله الزاخر . ولو أنهم تأملوا عظمته وهيبته ما انبسطت
 كف بمخالفته . فانه ينبغي والله أن يحذر من أقل فعله تعميم الخلق بالموت ،
 حتى القاء الحيوان البهيم للذبح ، وتعذيب الاطفال بالمرض ، وفقر العالم ،
 وغنى الجاهل . فليعرض المقدم على الذنوب على نفسه الحذر من هذه صفته .
 فقد قال الله تعالى «ويحذركم الله نفسه» وملاحظة أسباب الخوف أدنى الى
 الأمن من ملاحظة أسباب الرجاء . فالتخائف آخذ بالحزم ، والراجي متعاق
 بجبل طمع . وقد يخلف الظن .

١٥١ - فصل - رأيت عموم أرباب الاموال يستخدمون العلماء
 يستذلونهم بشئ يسير يعطونهم من زكاة أموالهم . فان كان لأحدهم ختمة
 قال فلان ماحضر . وان مرض قال فلان ماتردد . وكل منته عليه شئ نزر
 يجب تسليمه الى مثله . وقد رضى العلماء بالذل في ذلك لموضع الضرورة فرأيت
 ان هذا جهل من العلماء بما يجب عليهم من صيانة العلم . ودواؤه من جهتين .
 احدهما القناعة باليسير . كما قيل : من رضى بالخل والبقل لم يستعبده أحد .
 والثاني صرف بعض الزمان المصروف في خدمة العلم الى كسب الدنيا . فانه
 يكون سبباً لاعزاز العلم ، وذلك أفضل من صرف جميع الزمان في طلب
 العلم ، مع احتمال هذا الذل . ومن تأمل ما تأملته وكانت له أنفة قدر قوته .
 واحتفظ بما معه ، اوسمى في مكتسب يكفه . ومن لم يأنف من مثل هذه
 الاشياء لم يحظ من العلم الا بصورته دون معناه .

١٥٢ - فصل - مدار الامر كله على العقل . فانه اذا تم العقل

لم يعمل صاحبه الا على أقوى دليل . وثمرة العقل فهم الخطاب ، وتلمح المقصود من الامر . ومن فهم المقصود وعمل على الدليل كان كالباني على أساس وثيق . واني رأيت كثيرا من الناس لا يعملون على دليل . بل كيف اتفق . وربما كان دليلهم العادات . وهذا أقبح شيء يكون . ثم رأيت خلقا كثيرا لا يتبعون الدليل بطريق اثبانه كاليهود والنصارى ، فانهم يقلدون الآباء ولا ينظرون فيما جاء من الشرائع هل صحيح أم لا . وكذلك يثبتون الاله ولا يعرفون ما يجوز عليه مما لا يجوز ، فينسبون اليه الولد ، ويمنعون جواز تغييره ما شرع . وهو لاء لم ينظروا حق النظر لافي اثبات الصانع وما يجوز عليه ، ولا في الدليل على صحة النبوات ، فتقع أعمالهم ضائعة كالباني على رمل . ومن هذا القبيل في المعنى قوم يتعبدون ويتزهدون وينصبون أبدانهم في العلم باحاديث باطلة . ولا يسألون عنها من يعلم . ومن الناس من يثبت الدليل ولا يفهم المقصود الذي دل عليه الدليل . ومن هذا الجنس قوم سمعوا ذم الدنيا فترهّدوا ، وما فهموا المقصود ، فظنوا أن الدنيا تدم لذاتها وان النفس تجب عداوتها ، فحملوا على أنفسهم فوق ما يطاق . وعذبوها بكل نوع . ومنعوها حظوظها . جاهلين بقول عليه الصلاة والسلام : ان لنفسك عليك حقا . وفيهم من ادته الحال الى ترك الفرائض . ونحول الجسم . وضعف القوى . وكل ذلك لضعف الفهم للمقصود والتلمح المراد . كما روى عن داود الطائي انه كان يترك ماء في دن تحت الارض فيشرب منه وهو شديد الحر . وقال لسفيان اذا كنت تأكل اللذيذ الطيب ، وتشرب الماء البارد المبرد ، فتي تحب الموت والقدوم على الله . وهذا جهل بالمقصود . فان شرب الماء الحار يورث امراضا في البدن ولا يحصل به الرى . وما أمرنا

بتعذيب انفسنا في الصورة، بل بخلاف ماتدعو اليه من مانهى الله عنه
وفي الحديث الصحيح : أن ابا بكر رضى الله عنه لما حلب له الراعى في
طريق الهجرة صب الماء على القدح حتى برد أسفله ، ثم سقى رسول الله
صلى الله عليه وسلم ، وفرش له في ظل صخرة . وكان يستعذب لرسول
الله صلى الله عليه وسلم الماء . وقال : ان كان عندكم ماء بات في شئ والا
كرعنا . ولو فهم داود رحمه الله ان اصلاح عاف الناقة متعين لقطع النزل
لم يفعل هذا . ألا ترى الى سفیان الثوري فانه كان شديد المعرفة والخوف
وكان يأكل اللذيذ ويقول : ان الدابة اذا لم يحسن اليها لم تعمل . ولعل
بعض من لم يسمع كلامى هذا يقول : هذا ميل على الزهاد . فاقول :
كن مع العلماء وانظر الى طريق الحسن . وسفيان . ومالك . وابي حنيفة .
واحمد . والشافعى . وهؤلاء اصول الاسلام . ولا تقلد دينك من قل
علمه وان قوى زهده . واحمل امره على انه كان يطيق هذا ولا تقتد بهم
فيما لا تطيقه ، فليس امرنا اليها . والنفوس وديعة عندنا . فان انكرت
ماشرحته فانت ملحق بالقوم الذين انكرت عليهم . هذا رمز الى المقصود
والشرح يطول

١٥٣ - فصل - الواجب على العاقل أن يتبع الدليل ثم لا ينظر
فيما لا يجنى من مكروه . مثاله أنه قد ثبت بالدليل القاطع حكمة الخلق
عز وجل ومملكه وتدييره . فاذا رأى الانسان عالما محروما . وجاهلا
مرزوقا ، أوجب عليه الدليل المثبت حكمة الخالق التسليم اليه ، ونسبة
العجز عن معرفة الحكمة الى نفسه . فان اقواما لم يفعلوا ذلك جهلا منهم ،
أفتراهم بماذا حكموا بفساد هذا التدبير ؟ أليس بمقتضى عقولهم ؟

أوما عقولهم من جملة مواهبه : فكيف يحكم على حكمته وتديره ببعض مخلوقاته التي هي بالاضافة اليه انقص من كل شيء ؛ ولقد بلغني عن اللعين ابن الراوندي انه كان جالسا على الجسر وفي يده رغيف يأكله ، فجازت خيل واموال فقال : لمن هذه ، فقيل لفلان الخادم . فجازت خيل واموال فقال : لمن هذه فقيل لفلان الخادم . فلما مر الخادم رأى شخصا محتقرا ، فرمى الرغيف الى ناحيته وقال : وهذا لفلان ما هذا القسمة . ولو فكر المدير لبانت له وجوه اقلها جهله بمن يدعى معرفته وقلة تعظيمه . وذلك يوجب عليه أشد مما كان فيه من تضيق العيش . ولكنه ميراث ابليس ، حيث اعتقد سوء التدبير في تفضيل آدم عايه السلام . فالعجب من تلميذ يتمعلم على أستاذه ، ومن مملوك يتيم على سيده . ومما ينبغي ان يتبع فيه الدليل ولا يلتفت الى ما جنت الحبال ، ان العلم اشرف مكتسب . وقد رأى جماعة من الجهلة قلة حظوظ العلماء من الدنيا فازدوا على العلم وقلوا لافائدة فيه . وذلك لجهلهم بمقدار العلم ، فان تابع الدليل لا يبالى ما جنى . وانما يبين الاختيار بفقد الغرض . ولو لم يكن من الدليل على صدق نبينا صلى الله عليه وسلم الا اعراضه عن الدنيا وتضييق العيش عليه ، ثم لم يخاف شيئا وحرّم اهله الميراث . فدل على صدق طلبه لمطابوب آخر . وربما رأى الجاهل قوما من العلماء يفعلون خطيئة فيزدري على العلم ويدعيه ناقصا وهذا غلط كبير . فليثق الله العاقل وليمعمل بمقتضى العقل فيما يأمر به من طاعة الله تعالى والعمل بالعلم . وليعلم ان الابتلاء في الصبر على فوات المطلوبات ، وليلزم اتباع الدليل وان جنى مكروها والله الموفق .

١٥٤ - فصل - قرأت سورة يوسف عليه السلام . فتعجبت من مدحه عليه السلام على صبره وشرح قصته للناس ورفع قدره بترك ما ترك ، فتأملت خبيثة الأمر فاذا هي مخالفة للهوى المكروه . فقلت : واعجباً لو وافق هواه من كان يكون ، ولما قد خالفه لقد صار أمراً عظيماً يضرب الامثال بصبره ، ويفتخر على الخلق باجتهاده . وكل ذلك قد كان بصبر ساعة فياله عزاً وفخراً . يقاوم كل لحظة من ذكره امثال ساعة الصبر عن المحبوب . وبالعكس منه حالة آدم في موافقته هواه ، لقد عادت تقيصة في حقه ابداً لولا التدارك فتأب عليه فتامحوا رحمكم الله عاقبة الصبر ونهاية الهوى . فالعقل من ميز بين الأمرين . الخلوين والمرين . فان من عدل ميزانه ولم تمل به كفة الهوى رأى كل الارباح في الصبر ، وكل الخسران في موافقة النفس . وكفى به هذا موعظة في مخالفة الهوى لاهل النهى والله الموفق

١٥٥ - فصل - رأيت الاشتغال بالفقه وسماع الحديث لا يكاد يكفي في صلاح القلب ، الا ان يمزج بالرقائق والنظر في سير السلف الصالحين . فاما مجرد العلم بالحلال والحرام فليس له كبير عمل في رقة القلب وانما ترق القلوب بذكر رقائق الاحاديث ، واخبار السلف الصالحين . لانهم تناولوا مقصود النقل ، وخرجوا عن صور الافعال المأمور بها الى ذوق معانيها والمراد بها . وما خبرتك بهذا الا بعد معالجة وذوق . لاني وجدت جمهور المحدثين وطلاب الحديث همه احدث في الحديث العالي وتكثير الاجزاء . وجمهور الفقهاء في علوم الجدل وما يغالب به الخصم . وكيف يرق القلب مع هذه الأشياء . وقد كان جماعة من السلف يقصدون العبد الصالح للنظر

الى ستمته وهديه . لا لاقتباس علمه . وذلك ان ثمرة علمه هديه وستمته . فافهم
هذا وامزج طاب الفقه والحديث بمطالعة سير السلف والزهاد في الدنيا
ليكون سببا لركة قلبك . وقد جمعت لكل واحد من مشاهير الاخيار
كتابا فيه اخباره وآدابه . فجمعت كتابا في أخبار الحسن ، وكتابا في أخبار
سفيان الثوري ، وابراهيم بن أدهم ، وبشر الحافي ، واحمد بن حنبل ،
ومعروف ، وغيرهم من العلماء والزهاد . والله الموفق للمقصود . ولا يصلح
العمل مع قلة العلم . فهما في ضرب المثل كسائق وقائد والنفس بينهما حرون
ومع جد السائق والقائد ينقطع المنزل . ونعوذ بالله من الفتور .

١٥٦ - فصل - ترخصت في شيء يجوز في بعض المذاهب

فوجدت في قلبي قسوة عظيمة . ونحاييل لي نوع طرد عن الباب ، وبعد
وظلمة تكاثفت . فقالت نفسي : ما هذا . أليس ما خرجت عن اجماع
الفقهاء . فقلت لها : يانفس السوء جوابك من وجهين . احدهما أنك
تأولت مالا تمتقدين فلو استفتيتي لم تفت بما فعلت . قالت : لو لم اعتقد
جواز ذلك ما فعلته . قلت : الا ان اعتقادك ما ترضينه لغيرك في الفتوى .
والثاني انه ينبغي لك الفرح بما وجدت من الظلمة عقيب ذلك ، لانه لو لا
نور في قلبك ما أثر مثل هذا عندك . قالت فلقد استوحشت بهذه الظلمة
المتجددة في القلب . قلت : فاعزمي على الترك وقدرى ما تركت جائزا بالاجماع ،
وعدى هجره ورعا ، وقد سلمت .

١٥٧ - فصل - ما أفادتني تجارب الزمان انه لا ينبغي لاحد ان يظاهر

بالعداوة أحدا مهما استطاع ، فانه ربما يحتاج اليه . وان الانسان قد لا يظن
الحاجة اليه يوما ما كما قد يحتاج الى عويد منبوذ لا يلتفت اليه . وكمن

محقق احتيج اليه . وان لم تقع الحاجة الى ذلك الشخص في جلب نفع
وقعت الحاجة في دفع ضرر . ولقد احتجت في عمرى الى ملاطفة أقوام
ماخطر لى قط وقوع الحاجة الى التلطف بهم . واعلم ان المظاهرة بالعداوة
قد تجلب اذى من حيث لا يعلم . لان المظاهر بالعداوة كشاهر السيف
ينتظر مضربا . وقد يلوح مضرب خفى ، وان اجتهد المتدرع في ستر نفسه
فيغتنمه ذلك العدو . فينبغى لمن عاش في الدنيا أن يجتهد في ان لا يظهر
بالعداوة أحدا . يثبت من وقوع احتياج الخلق بعضهم الى بعض واقدار
بعضهم على ضرر بعض . وهذا فصل مفيد تبين فأيدته للانسان مع
تغلب الزمان .

١٥٨ - فصل - رأيت النفس تنظر الى لذات أرباب الدنيا العاجلة
وتنسى كيف حصلت وما يتضمنها من الآفات . ويبان هذا انك ان رأيت
صاحب اماره وسلطنة فتأملت نعمته وجدتها مشوبة بالظلم . فان لم يقصد
هو حصل من عماله . ثم هو خائف ، نزعج في كل اموره حذرا من عدوان
يسمه قلق ممن هو فوقه أن يعزله . ومن نظيره أن يكيدده . ثم أكثر زمانه
يمضى في خدمة من يخافه من السلاطين ، وفي حساب اموالهم ، وتنفيذ أوامرهم
التي لا تخلوا من أشياء منكورة . وان عزل أربى ذلك على جميع ما قال من
لذة . ثم تلك اللذة تكون معمورة بالحذر فيها ومنها وعليها . وان رأيت
صاحب تجارة رأيت قد تقطع في البلاد ، فلم ينل ما قال الا بعد علو السن
وذهاب زمان اللذة . كما حكى ان رجلا من أولاد الرؤساء كان حال شببته
فقيرا ، فلما كبر استغنى وملك اموالا واشترى عبيدا من الترك وغيرهم
وجوار من الروم فقال هذه الايات في شرح حاله :

ما كنت أرجو اذ كنت ابن عشرينا ملكته بعد أن جاوزت سبعينا
 قطوف بي من الاتراك أغزلة مثل الفصوص على كثران يبرينا
 وخرد من بنات الروم رائحة يحكين بالحسن حور الجنة العينا
 يغمزني بأساريع منعمة تكاد تعقد من أطرافها لينا
 يردن أحياء ميت لا حراك به وكيف يحين ميتا صار مدفونا
 قالوا أنينك طول الليل يسهرنا فما الذي تشتكى قلت الثمانينا

وهذه الحالة هي الغالبة ، فان الانسان لا يكاد يجتمع له كل ما يحبه الا عند
 قرب رحيله ، فان بدر ما يحب في بداية شبابه فالصبوة مائة من فهم التداير
 في الالتذاذ ، والانسان في حالة الصبوة لا يدري أين هو الا أن يبلغ ، فاذا
 بلغ كانت همهته في المنكوح كيف اتفق ، وان تزوج جاء الاولاد فمنعوه
 المدة وانكسر في نفسه وافتقر الى الكسب عليهم ، فبينما هو قد دعك
 في تلك المدينة القريبة الثلاثين وخطه الشيب فانفرق من نفسه لعله
 ان النساء ينفرقن منه كما قال ابن المعتز بالله :

لقد اتعبت نفسي في مشيبي فكيف تعجني الخرد الكباب

فاذا فيهم المتمتع بالمستحسنات ، وخرج عن طلب صورة النكاح ، لم يجد ما
 لا يبلغ به المراد ، فان كسب ضاع زمن تمتعه ، واذا تم المطلوب فالشيب
 أقبح قذى واعظم مبعض . ثم ان صاحب المال هو خائف على ماله ، محاسب
 لمعامله ، مذموم ان اسرف وان قتر ، ولده يرصد موته ، وجارته قد لا
 ترضى بشخصه ، وهو مشغول بحفظ حواشيه ، فقد مضى زمانه في عن ،
 واللذات فيها خلس معتادة لالذة فيها ، ثم في القيامة يحشر الامير والتاجر ، الا
 من عصم الله فاياك اياك أن تنظر الى صورة نعيمهم فانه تستطيع لبعده

عنك ، ولو قد نلته برد عندك ، ثم في ضمنه من محن الدنيا والآخرة مالا يوصف فعليك بالقناعة مهما أمكن ، ففيها سلامة الدنيا والدين . وقد قيل لبعض الزهاد وعنده خبز يابس : كيف تشتهي هذا . فقال : أتركه حتى أشتيه .

١٥٩ - فصل - وقع بيني وبين أرباب الولايات نوع معادة لاجل المذهب . فاني كنت في مجلس التذكير انظر ان القرآن كلام الله وأنه قديم ، وأقدم أبا بكر ، واتفق في أرباب الولايات من يميل الى مذهب الاشعري ، وفيهم من يميل الى مذهب الروافض ، وتماثوا على في الباطن ، فقلت يوما في مناجاتي للحق سبحانه وتعالى : سيدي نواصي الكل بيدك ، وما فيهم من يقدر لي على ضر ، الا أن تجريه على يده ، وانت قلت سبحانه « وما هم بضارين به من أحد الا باذن الله » وطيب قلب المبتلى بقولك : « قل لن يصيبنا الا ما كتب الله لنا » فان اجريت على أيدي بعضهم ما يوجب خذلاني كان خوفي على ما نصرته اكثر من خوفي على نفسي ، ثلثا يقال لو كان على حق ما خذل وان نظرت الى تقصيري وذنوبي فاني مستحق للخذلان ، غير اني اعيش بما نصرته من السنة ، فادخلي في خفارته ، وقد استودعني اياك خلق من صالحى عبادك ، فان لم تحفظني بي فاحفظني بهم . سيدي انصرني على من عاداني ، فانهم لا يعرفونك كما ينبغي ، وهم معرضون عنك على كل حال ، وأنا على تقصيري اليك انسب .

١٦٠ - فصل - روى عن الخلاج الصوفي انه كان يقعد في الشمس في الحر الشديد وعرقه يسيل ، فجاز بعض العقلاء فقال : يا أحمق هذا تقاوى على الله تعالى . وما أحسن ما قال هذا ، فانه ما وضع التكليف الا على

خلاف الاغراض ، وقد يخرج صاحبه الى أن يمجز عن الصبر . فالجاهل
اللاحق من تقاوى ويسأل البلاء كما قال ذلك الابه : فكيف ماشئت
فاختبرنى .

١٦١ - فصل - والسعيد من ذل وسأل العافية ، فانه لا يوهب

العافية على الاطلاق فلا بد من بلاء ، فلا يزال العاقل يسأل العافية لتغلب على
جمهور أحواله فيقرب الصبر على يسير البلاء . وفي الجملة ينبغي للانسان أن
يعلم أنه لا سبيل الى محبوباته ، ففى كل جرعة غصص ، وفى كل لقمة شجا :
وكم من يعشق الدنيا قديما ولكن لا سبيل الى الوصال

وعلى الحقيقة ما الصبر الا على الافدار ، وقل ان تجرى الافدار الا على
خلاف مراد النفس : فالعاقل من دارى نفسه فى الصبر بوعده الأجر ،
وتسهيل الامر ، ليذهب زمان البلاء سالما من شكوى ، ثم يستغيث بالله
تعالى سائلا العافية ، فاما المتجالد فما عرف الله قط . نعوذ بالله من الجهل به ،
ونسأله عرفانه ، انه كريم مجيب .

١٦٢ - فصل - الجادة السليمة والطريق القويمة ، الاقتداء

بصاحب الشرع . والبدار الى الاستئنان به ، فهو الكامل الذى لا نقص
فيه فان خلقا كثيرا انحرفوا الى جادة الزهد ، وحملوا أنفسهم فوق الجهد ،
فافاقوا فى أواخر العمر ، والبدن قد نهك ، وفانت أمور مهمة من العلم
وغيره . وان أقواما انحرفوا الى صورة العلم فبالغوا فى طلبه ، فافاقوا فى
أواخر قدم ، وقد فاتهم العمل به . فطريق المصطفى صلى الله عليه وسلم العلم
والعمل ، والتلطف بالبدن ، كما أوصى عبد الله بن عمر وعمر بن العاص وقال له :
ان انفسك عليك حقا ، ولزوجك عليك حقا ، فهذه هى الطريق الوسطى

الفصل . فاما اليبس المجرد ، فكم فوت من علم ، لو حصل نيل به أكثر مما نيل بالعمل ، فان مثل العالم كرجل يعرف الطريق ، والعابد جاهل بها ، فيمشي العابد من الفجر الى العصر ، ويقوم العالم قبيل العصر فيلتقيان وقد سبق العالم فضل شوطه . فان قال قائل : بين لي هذا ، قلت : صورة التعبد خدمة الله تعالى ، وذل له ، وربما لم يطلع العابد على معنى تلك الصورة ، لانه ربما ظن انه أهل لوجود الكرامة على يده ، وانه مستحق تقبيل يده ، أو إنه خير من كثير من الناس ، وذلك كله لقلة العلم . وأعني بالعلم فهم أصول العلم ، لا كثرة الرواية ومطالعة مسائل الخلاف ، فاذا طالع العالم الاصولي ، سبق هذا العابد بحسن خاق ، ومداراة الناس ، وتواضعه في نفسه ، وارشاده الخلق الى الله تعالى ، فيمسر على هذا العابد ، وهو في ليل جهله بالحال راقد . ربما تزوج العابد ثم حمل نفسه على التجفف فحبس زوجته عن مطلوبها ولم يطلقها ، وصار كالتي حبست المرأة فلاهي أطعمتها ولاهي أرسلتها تأكل من خشاش الارض . ومن تأمل حالة الرسول صلى الله عليه وسلم ، رأى كاملا من الخلق يعطى كل ذي حق حقه ، فتارة يمزح ، وتارة يضحك ، ويداعب الاطفال ، ويسمع الشعر ، ويتكلم بالمعاريض ، ويحسن معايشة النساء ، ويأكل ما قدر عليه وفتح له ، وان كان لذيذا كالصل ، ويستعذب له الماء ، ويفرش له في الظل ، ولم ينكر ذلك . ولم يسمع عنه بمثل ما حدث بعده من جهال المتصوفة والمتزهدين ، من منع النفس شهواتها على الاطلاق . فقد كان يأكل البطيخ بالرطب ، ويقبل ، ويمص اللسان ، ويطلب المستحسنيات . فاما أكل خبز الشعير ووزن الماء كوز ، وتجفيف البدن ، وهجر كل مشتهى ، فانه تعذيب للنفس ، وهدم للبدن ، لا يقتضيه عقل ، ولا يمدحه شرع . وانما

اقتنع أقوام بالقليل ، لأسباب مثل ان حدثت شبهة فتقللوا ، او اختلط
طعام بطعام فتورعوا . ثم كان النبي صلى الله عليه وسلم يوفى العبادة
حقها بقيام الليل والاجتهاد في الذكر . فعليك بطريقته التي هي أكل
الطرق بشرعته التي لاشوب فيها . ودع حديث فلان وفلان من
الزهاد ، واحمل أمرهم على أحسن محمل ، وأقم لهم الاعذار مهما قدرت ،
فان لم تجد عذرا فهم محجوجون بفعله ، اذ هو قدوة الخلق ، وسيد
العقلاء . وهل فسد الناس الا بالانحراف عن الشريعة ؛ ولقد حدثت
آفات من المتصوفة والمتزهدين ، خرقوا بها شبكة الشريعة وعبروا ،
فمنهم من يدعي المحبة والشوق ، ولا يعرف المحبوب ، فتراه يصيح ويستغيث
ويعزق ثيابه ويخرج عن حد الشرع بدعواه ومضمونها . ومنهم من حمل
على نفسه بالجوع والصوم الدائم ، وقد صح عن النبي صلى الله عليه وسلم
أنه قال لعبد الله بن عمر : صم يوما وافطر يوما ، فقال أريد أفضل من ذلك
فقال لا أفضل . وفيهم من خرج الى السياحة فأفات نفسه الجماعة ،
وفيهم من دفن كتب العلم وقعد ينمل ويصوم ، ولم يعلم ان دفنها خطأ
قبيح ، لان النفس تغفل وتحتاج الى التذكير في كل وقت ، ونعم المذكر
كتب العلم . وانما دخل ابليس على كل قوم منهم من حيث قدر ، وكان مقصوده
بدفن الكتب اطفاء المصباح ، ليسير العابد في الظلمة . وما أحسن ما قال بعض
العلماء لرجل سأله فقال : أريد ان أمضي الى جبل الآكام ، فقال هذه
- هو كلة - وهذه كلمة عامية معناها حب البطالة . وعلى الحقيقة الزهاد في
مقام الخفافيش ، قد دفنوا انفسهم بالعزلة عن نفع الناس ، وهي حالة حسنة
اذا لم تمنع من خير من جماعة ، واتباع جنازة ، وعيادة مريض ، الا انها حالة

الجببناء ، فاما الشجعان فهم يتعلمون ويعلمون . وهى مقامات الانبياء عليهم السلام ترى كم بين العابد اذا نزلت به حادثة وبين الفقيه ؛ بالله لو مال الخلق الى التعبد لضاعت الشريعة . على أنه لو فهم معنى التعبد لم يقتصر به على الصلاة والصوم قرب ماش فى حاجة مسلم فضل تعبده ذلك على صوم سنة والعمل بالبدن سعى الآلات الظاهرة . والعلم سعى الآلات الباطنة من العقل والفكر والفهم ، فلذلك كان أشرف . فان قلت : كيف تدم الممتزجين للشر الى التعبد ؛ قلت : ما أذمهم ، بل حدثت منهم حوادث اقتضاها الجهل من الدعاوى والآفات التى سببها قلة العلم ، وجملوا على أنفسهم التى ليست لهم وعن غير اذن الأمر مالم يجوز حتى أن أحدهم يرى أن فعل ما يؤذى النفس على الاطلاق فضيلة ، حتى قال بعض الحمقى : دخلت الحمام فوجدت غفلة ، فأليت أن لا أخرج حتى أصبح كذا وكذا تسبيحة ، فطال الأمر فمرضت . وهذا رجل خاطر بنفسه فى فعل ما ليس له . ومن المتصوفة والزهاد من قنع بصورة اللباس ، وركب من الجهل فى الباطن ما لا يسمعه كتاب . طهر الله الارض منهم وأعان العلماء عليهم ، فان أكثر الحمقى معهم ، فلو أنكر عالم على أحدهم مال العوام على العالم بقوة الجهل . ولقد رأيت كثيرا من المتعبدين وهو فى مقام العجائز يسبح تسبيحات لا يجوز النطق بها ، ويفعل فى صلاته مالم ترد به السنة . ولقد دخلت يوما على بعض من كان يتعبد ، وقد أقام إماما وهو خلفه فى جماعة يصلى بهم صلاة الضحى ويحجر ، فقلت لهم : إن النبى صلى الله عليه وسلم قال : صلاة النهار عجماء ، فغضب ذلك الزاهد وقال : كم ينكر هذا علينا . وقد دخل فلان وأنكر وفلان وأنكر ، نحن نرفع أصواتنا حتى لا ننام ، فقلت : واعجبوا من قال لكم لا نناموا ، أليس فى الصحيحين

من حديث ابن عمر أن النبي صلى الله عليه وسلم قال له : قم ونم ، وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ينام ، وأمله مامضت عليه ليلة إلا رنام فيها . ولقد شاهدت رجلا كان يقال له حسين القزويني بجامع المنصور وهو يمشي في الجامع مشيا كثيرا دائما ، فسألت ما السبب في هذا المشي ؟ فقيل لي حتى لا ينام . وهذه كلها جماعات أوجبها قلة العلم ، لأنه إذا لم تأخذ النفس حظها من النوم اختلط العقل ، وفات المراد من التعبد لبعد الفهم . ولقد حدثني بعض الصالحين المجاورين بجامع المنصور أن رجلا اسمه كثير دخل عليهم الجامع فقال : اني عاهدت الله على أمر ونقضته ، وقد جعلت عقوبتي لنفسى أن لا آكل شيئا أربعين يوما . قال : فكث منها عشرة أيام قريب الحال يصلى في جماعة ، ثم في العشر الثاني بان ضعفه وكان يدارى الامر ، ثم صار في العشر الثالث يصلى قاعدا ، ثم استطرح في العشر الرابع ، فلما تمت الأربعون جيء بنقوع فشربه فسمعنا صوته في حلقه مثل ما يقع الماء على المقلا ، ثم مات بعد أيام . فقلت : يا الله العجب ، انظروا ما فعل الجاهل باهله ، ظاهر هذا انه في النار ، الا أن يعفى عنه . ولو فهم العلم وسأل العلماء لعرفوه انه يجب عليه أن يأكل ، وان ما فعله بنفسه حرام . ولكن من أعظم الجهل استبداد الانسان بعلمه . وكل هذه الحوادث نشأت قليلا قليلا حتى تمكنت . فاما الشرب الاول فلم يكن فيه من هذا شيء ، وما كانت الصحابة تفعل شيئا من هذه الاشياء . وقد كانوا يؤثرون وياكلون دون الشبع . ويصبرون اذا لم يجدوا . فمن أراد الاقتداء فعليه برسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه ، ففي ذلك الشفاء والمطلوب . ولا ينبغي أن يخلد العاقل الى تقليد معظم شاع اسمه ، فيقول قال : ابو يزيد ، وقال الثوري ، فان المقام

أهمى ، وكم قد رأينا أعمى يأنف من حمل عصا . فمن فهم هذا المشار اليه طلب
الافضل والاعلى والله الموفق

١٦٣ - فصل - تأملت الدخول الذي دخل في ديننا في العلم والعمل
فرأيت من طريقتين قد تقدمتا هذا الدين وأنس بهما . فلما أصل الدخول
في العلم والاعتقاد فن الفاسفة . وهو أن خلقا من العلماء في ديننا لم يقنعوا
بما قنع به رسول الله صلى الله عليه وسلم من الانعكاف على الكتاب والسنة ،
فأوغلوا في النظر في مذاهب أهل الفلسفة وخاضوا في الكلام الذي حملهم
على مذاهب ردية أفسدوا بها العقائد . وأما أصل الدخول في باب العمل
فن الرهبانية ، فان خلقا من المتهدين أخذوا من الرهبان طريق
التقشف ولم ينظروا في سير نبينا صلى الله عليه وسلم وأصحابه ، وسمعوا ذم
للدنيا وما فهموا المقصود ، فاجتمع لهم الأعراس عن علم شرعنا مع سوء
الفهم للمقصود ، فحدثت منهم بدع قبيحة . فأول ما ابتدأ به ابليس أنه
أصرم بالأعراس عن العلم ، فدفنوا كتبهم وغسلوها ، وأزهم زاوية التعبد
فيما زعم ، وأظهر لهم من الخزعبلات ما أوجب إقبال العوام عليهم فجعل
المهم هوام ، ولوعطوا أنهم منذ دفنوا كتبهم وفارقوا العلم انطى مصباحهم
ما فعلوا ، لكن ابليس دقيق المنقب وفي دفين تحت الارض . وبالعلم يعلم فساد
الطريقتين ويهتدى الى الاصول . نسأل الله عز وجل أن لا يحرمنا إياه فانه
للنور في الظلم . والانيس في الوحدة . والوزير عند الحادثة

١٦٤ - فصل - أعوذ بالله من صحبة البطالين . لقد رأيت خلقا
كثيرا يجرون معي فيما قد اعتاده الناس من كثرة الزيارة ، ويسمون ذلك
التردد خدمة ، ويطلبون الجلوس ويجرون فيه أحاديث الناس وما لا يعني ،

ويتخلله غيبة . وهذا شيء يفعل في زماننا كثير من الناس ، وربما طلبه المزور وتشوق اليه واستوحش من الوحدة ، وخصوصا في أيام التهاني والاعیاد ، فتراهم يمشى بعضهم الى بعض ، ولا يقتصرون على الهدوء والسلام بل يمزجون ذلك بما ذكرته من تضييع الزمان . فلما رأيت أن الزمان أشرف شيء ، والواجب انتهاؤه بفعل الخير كرهت ذلك وبقيت معهم بين امرين . ان انكرت عليهم وقمت وجشة لموضع قطع المألوف . وان قبلته منهم ضاع الزمان ، فصرت ادافع باللقا جهدي ، فاذا غلبت قصرت في الكلام لا تعجل الفراق . ثم اعددت اعمالا تمنع من المحادثة لأوقات لقائهم لئلا يمضي الزمان فارغا . فجعلت من المستعد للقائهم قطع الكاغد وبري الاقلام ، وحزم الدفاتر ، فان هذه الاشياء لا بد منها ، ولا تحتاج الى فكر وحضور قلب ، فارصدها لأوقات زيارتهم ، لئلا يضيع شيء من وقتي . نسأل الله عز وجل أن يعرفنا شرف أوقات العمر ، وان يوفقنا لاغتنامه . ولقد شاهدت خلقا كثيرا لا يعرفون معنى الحياة . فمنهم من أغناه الله عن الكسب بكثرة ماله . فهو يقعد في السوق اكثر النهار ينظر الى الناس ، ولم تمر به من آفة ومنكر . ومنهم من يخلو بلعب الشطرنج ومنهم من يقطع الزمان بكثرة الحوادث من السلاطين والغلاء والرخص الى غير ذلك . فعلمت ان الله تعالى لم يطلع على شرف العمر ومعرفة قدر أوقات العافية الا من وفقه والهيمه اغتنام ذلك « وما يلقاها الا ذو حظ عظيم »

١٦٥ - فصل - رأيت من الرأي القويم ان نفع التصانيف اكثر من نفع التعليم بالمشافهة ، لأنني أشافه في عمري عددا من المتعلمين واشافه بتصنيفي خلقا لا تحصى ما خافوا بعد ودليل هذا ان انتفاع الناس بتصانيف

المتقدمين أكثر من انتفاعهم بما يستفيدونه من مشائخهم . فينبغي للعالم أن يتوفر على التصانيف ان وفق للتصنيف المفيد ، فانه ليس كل من صنف صنف ، وليس المقصود جمع شيء كيف كان . وانما هي اسرار يطلم الله عز وجل عليها من شاء من عباده ويوفقه لكشفها ، فيجمع ما فرق أو يرب ما شئت ، أو يشرح ما اهل ، هذا هو التصنيف المفيد وينبغي اغتنام التصنيف في وسط العمر ، لان اوائل العمر زمن الطلب ، وآخره كلال الحواس . وربما خان الفهم والعقل من قدر عمره ، وانما يكون التقدير على العادات الغالبة ، لانه يعلم الغيب فيكون زمان الطلب والحفظ والتشاغل الى الاربعين ، ثم يبتدىء بعد الاربعين بالتصنيف والتعليم . هذا اذا كان قد بلغ ما يريد من الجمع والحفظ وأعين على تحصيل المطالب فاما اذا قلت الآلات عنده من الكتب ، او كان في أول عمره ضعيف الطلب فلم ينل ما يريد في هذا الأوان ، اخر التصانيف الى تمام خمسين سنة . ثم ابتداء بعد الخمسين في التصنيف والتعليم الى رأس الستين ، ثم يزيد فيما بعد الستين في التعليم ويسمع الحديث والعلم ويعمل التصانيف الى أن يقع مهم الى رأس السبعين ، فاذا جاوز السبعين جعل الغالب عليه ذكر الآخرة والتهى للرحيل . فيوفر نفسه على نفسه الامن تعليم بحسبه ، او تصنيف يفتقر اليه ، فذلك اشرف العدد للآخرة . ولتكن همته في تنظيم نفسه وتهذيب خلاله ، والمبالغة في استدراك زلاته ، فان اختطف في خلال ما ذكرنا فنية المؤمن خير من عمله ، وان بلغ الى هذه المنازل فقد بينا ما يصلح لكل منزل . وقد قال سفيان الثوري : من بلغ سن رسول الله صلى الله عليه وسلم فليتخذ لنفسه كفنا . وقد بلغ جماعة من العلماء سبعا وسبعين

سنة ، منهم احمد بن حنبل ، فان بلغها فليعلم أنه على شفير القبر ، وان كل يوم يأتي بعدها مستطرف فان نمت له الثمانون فليجعل همته كلها مصروفة إلى تنظيف خلاله ، وتهيئة زاده ، وليجعل الاستغفار حليفه ، والذكر أليفه ، وليدقق في محاسبة النفس في بذل العلم ، أو مخالطة الخلق ، فان قرب الاستعراض للجيش يوجب عليهم الحذر من العارض . وليبالغ في إبقاء أثره قبل رحيله ، مثل بث علمه ، وإنفاق كتبه ، وشيء من ماله . وبعد من تولاه الله عز وجل علمه ، ومن أراد ألهمه . نسأل الله عز وجل أن ينعم علينا بان يتولانا ولا يتولى عنا إنه قريب مجيب .

١٦٦ - فصل - رأيت عادات الناس قد غلبت على عملهم بالشرع ،

فهم يستوحشون من فعل الشيء لعدم جريان العادة لا لنهي الشرع ؛ فيكم من رجل يوصف بالخير يبيع ويشترى ، فاذا حصلت له القراضه باعها بالصحيح من غير تقليد الامام ، أو عمل برخصة عادة من القوم ، واستثقلا للاستفتاء ورى خلقا يحافظون على صلاة الرغائب ويتوانون عن الفرائض ، وكثيراً من المتصوفين لا يستوحشون من ظلم الناس ، ثم يتصدقون على الفقراء ، وربما توانوا عن إخراج الزكاة ، وتكاسلوا باستعمال التأويلات فيها ، ثم إذا حضر أحدهم مجلس وعظ بكى كأنه يصانع بتلك الحال . ومنهم من يخرج بعض الزكاة مصانعة عمالم بخرجه . ومنهم من يعلم أن أصل ماله حرام ، ويصعب عليه فراقه للعادة . وفيهم من يخلف بالطلاق ويحنث ويرى الفراق صعباً ، فربما تأول وربما تكاسل عن التأويل اتكالا على عفو الله تعالى ، ووعدا من النفس بالتوبة . ومنهم من يرى أن استعمال الشرع ربما كان سبباً في تضيق معاشه . وقد ألف التفسح فلا يسهل عليه

فراق ماقد الف والعادات في الجملة هي المهلكة واقد حضر عندي رجل شيخ ابن ثمانين سنة ، فاشتريت منه دكانا وعقدت معه العقد ، فلما افرقنا غدر بعد أيام ، فطابت منه الحضور عند الحاكم فاني ، فأحضرتة فحلف باليمين الغموس أنه ما بعته ، فقلت ما ندور عليه السنة ، وأخذ يبرطل لمن يحول بيني وبينه من الظلمة ، فرأيت من العوام من قد غلبت عليه العادات فلا يلتفت معها الى قول فقيه ، يقول هذا ما قبض الثمن فكيف يصح البيع ؛ وآخر يقول كيف يجوز لك ان تأخذ دكانه بغير رضاه ؛ وآخر يقول يجب عليك أن تقيله البيع ، فلما لم أقله أخذه وأقاربه يأخذون عرضي ، ورأى أنه يحامي عن مملكته ، ثم سعى بي الى السلطان سماية يحرص فيها من الكذب ما أدهشني ، ويبرطل ما لا خلق من الظلمة ، فبالغوا وسمعوا ، الا أن الله تعالى نجاني من شرهم . ثم أتت علي البينة عند الحاكم ، فقال بعض أرباب الدنيا للحاكم لا تحكم له ، فوقف عن الحكم بعد ثبوت البينة عنده ، فرأيت من هذا الحاكم ومن حاكم آخر أعلى منه من ترك انفاذ الحق حفظا لرياستهم ما هو عندي ما فعله ذلك الشيخ حفظا لماله لجهله وعلم هؤلاء ، فينحل لي من الأمر أن العادات غلبت على الناس ، وان الشرع أعرض عنه ، وان وقمت موافقة للشرع فكما اتفق اولاً أجل العادة ، فان الانسان لو ضرب بالسياط ما أفطر في رمضان عادة قد استمرت ، ويأخذ اعراض الناس وأموالهم عادة ، فكيف قد رأيت هذا الشيخ يصلي ويحافظ على الصلاة ، ثم لما خاف فوت غرضه ترك الشرع جانبا ، ولم قد رأيت أولئك الحكام يتعبدون ويطلبون العلم . غير أنهم لما خافوا على رياستهم ان تزول تركوا جانب الدين . ثم ان الله تعالى نصرني عليه وتقدم الى الحاكم بانفاذ ما ثبت عنده ، ودرات السنة فمات

الشيخ على قل . فنسأله عز وجل التوفيق للاقتياد لشرعه ومخالفة أهوائنا .

١٦٧ - فصل - ما أعرف للعالم قط لذة ولا عزا ولا شرفا ولا راحة ولا سلامة أفضل من العزلة ، فانه ينال بها سلامة بدنه ودينه وجاهه عند الله عز وجل وعند الخلق ، لأن الخلق يهون عليهم من يخالطهم ، ولا يعظم عندهم قول المخالط لهم ، ولهذا عظم قدر الخلفاء لاحتجابهم . وإذا رأى العوام أحد العلماء مترخصا في أمر مباح هان عندهم . فالواجب عليه صيانة علمه وإقامة قدر العلم عندهم فقد قال بعض الساف : كنا نمزح ونضحك ، فإذا صرنا يفتدى بنا فما أراه يسمنا ذلك ، وقال سفيان الثوري : تعلموا هذا العلم وأكظموه عليه ، ولا تخطووه بهزل فتعجه القلوب ، فإعانة الناس لا ينبغي أن تنكر . وقد قال عليه السلام إمامنا : لولا حدثان قومك في الكفر لنقضت الكعبة وجعات لها باين . وقال احمد بن حنبل في الركتين قبل المغرب : رأيت الناس يكرهونها فتركتها . ولا تسمع من جاهل يرى مثل هذه الأشياء رياء . إنما هذه صيانة للعلم . وبيان هذا أنه لو خرج العالم الى الناس مكشوف الرأس أوفى يده كسرة يأكلها قل عندهم وإن كان مباحا ، فيصير بمثابة تخليط الطيب الأمر بالحمية ، فلا ينبغي للعالم أن ينبسط عند العوام حفظا لهم ، ومتى أراد مباحا فليستتر به عنهم . وهذا القدر الذي لاحظته ابو عبيدة حين رأى عمر بن الخطاب رضي الله عنهما قد قدم الشام راكبا على حمار ورجلاه من جانب ، فقال : يا أمير المؤمنين يثلقك عطاء الناس ، فما أحسن ما لاحظ بالآن عمر رضي الله عنه أراد تأديب ابى عبيدة بحفظ الأصل فقال : ان الله أعزكم بالاسلام فمهما طلبتم العز في غيره أذلكم . والمعنى ينبغي أن يكون طلبكم العز بالدين لا بصور الافعال ، وإن كانت

الصور تلاحظ ، فان الانسان يخلو في بيته عريانا ، فاذا خرج الى الناس لبس ثوبين وعمامة ورداء . ومثل هذا لا يكون تصنعاً ولا ينسب الى كبر . وقد كان مالك بن أنس يغتسل ويتطيب ويقعد للحديث . ولا تلتفت يا هذا الى ماترى من بذل العلماء على أبواب السلاطين ، فان العزلة أصون للعالم والعلم ، وما يخسرهُ العلماء في ذلك أضاع ما يربحونه . وقد كان سيد الفقهاء سعيد ابن المسيب لا يغشى الولاية ، وعن قول هذا سكتوا عنه . وهذا فعل الخازم . فان أردت اللذة والراحة فعليك أيها العالم بقصر بيتك ، وكن معتزلاً عن أهلك يطب لك عيشاك ، واجعل للقاء الأهل وقتاً ، فاذا عرفوه تصنعوا للقائك . فكانت المعاشرة بذلك اجود . وليكن لك بيت في بيتك تخلو فيه وتحدث سطور كتبك ، وتجرى في حبايات فكرك ، واحترس من لقاء الخلق وخصوصاً العوام ، واجتهد في كسب يعفك عن الطمع . فهذه نهاية لذة العالم في الدنيا . وقد قيل لابن المبارك لا تجالسنا ؛ فقال : انا ذهاب فاجالس الصحابة والتابعين ؛ وأشار بذلك الى أنه ينظر في كتبه . ومتى رزق العالم الغنى عن الناس والخلوة ، فان كان له فهم يجلب التصانيف فقد تكاملت لذته وان رزق فقها يرتقى الى معاملة الحق ومناجاته فقد تعجل دخول الجنة قبل الممات . نسأل الله عز وجل همة عالية تسمو الى الكمال ، وتوفيقاً لصالح الاعمال ، فالسالكون طريق الحق افراد .

١٦٨ -- فصل -- تأملت احوال الناس في حالة علوشأنهم فرأيت اكثر الخلق تبين خسارهم حينئذ فمنهم من بالغ في المعاصي من الشباب . ومنهم من فرط في اكتساب العلم . ومنهم من أكثر من الاستمتاع باللذات حينئذ فكلمهم نادى في حالة الكبر حين فوات الاستدراك لذنوب سلفت ، أو قوى ضعفت

أَوْفَضِيْلَةٌ فَانْتَ . فَيَمْضِي زَمَانُ الْكَبَرِ فِي حَسْرَاتٍ ، فَإِنْ كَانَتْ لِلشَّيْخِ أَفَاقَةٌ مِنْ ذُنُوبٍ قَدْ سَلَفَتْ قَالَ وَالسَّفَا عَلَى مَا جَنَيْتَ ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ أَفَاقَةٌ صَارَ مَتَأَسِّفًا عَلَى فَوَاتِ مَا كَانَ يَلْتَمِذُ بِهِ . فَأَمَّا مَنْ أَنْفَقَ عَصْرَ الشَّبَابِ فِي الْعِلْمِ فَإِنَّهُ فِي زَمَنِ الشَّيْخِ وَخُوَّةِ مُحَمَّدٍ جَنَى مَا غَرَسَ ، وَيَلْتَمِذُ بِتَصْنِيفِ مَا جَمَعَ ، وَلَا يَبْرِي مَا يَفْقَدُ مِنْ لَذَاتِ الْبَدَنِ شَيْئًا بِالْإِضَافَةِ إِلَى مَا يَنْالُهُ مِنْ لَذَاتِ الْعِلْمِ ، هَذَا مَعَ وَجُودِ لَذَاتِهِ فِي الطَّلَبِ الَّذِي كَانَ تَأْمَلُ بِهِ إِدْرَاكَ الْمَطْلُوبِ . وَرَبَّمَا كَانَتْ تِلْكَ الْأَعْمَالُ أَطْيَبَ مِمَّا نِيلَ مِنْهَا كَمَا قَالَ الشَّاعِرُ :

أَهْتَزُّ عِنْدَ تَمَنِّي وَصِلَهَا طَرِبًا وَرَبُّ أُمْنِيَّةٍ أَحْلَى مِنَ الظَّفَرِ
وَلَقَدْ تَأْمَلْتُ نَفْسِي بِالْإِضَافَةِ إِلَى عَشِيرَتِي الَّذِينَ أَنْفَقُوا أَعْمَارَهُمْ فِي
اِكْتِسَابِ الدُّنْيَا ، وَأَنْفَقْتُ زَمَنَ الْعُصْبَةِ وَالشَّبَابِ فِي طَلَبِ الْعِلْمِ ، فَرَأَيْتُنِي
لَمْ يَفْتَنِي مَا نَالُوهُ إِلَّا مَا لَوْ حَصَلَ لِي نَدِمْتُ عَلَيْهِ ، ثُمَّ تَأْمَلْتُ حَالِي فَإِذَا عَيْشِي
فِي الدُّنْيَا أَجُودُ مِنْ عَيْشِهِمْ . وَجَاهِي يَبِزُ النَّاسَ أَعْلَى مِنْ جَاهِهِمْ . وَمَانِلَتُهُ مِنْ
مَعْرِفَةِ الْعِلْمِ لَا يَقَاوِمُ . فَقَالَ لِي ابْلِيسُ : وَنَسِيتَ تَعْبِكَ وَصَهْرَكَ . فَقُلْتُ
لَهُ . أَيُّهَا الْجَاهِلُ ، تَقْطِيعُ الْأَيْدِي لَا وَقَعُ لَهُ عِنْدَ رُؤْيَا يَوْسُفَ ، وَمَا طَالَتْ
طَرِيقُ أَدَتْ إِلَى صَدِيقٍ :

جَزَى اللَّهُ الْمَسِيرَ إِلَيْهِ خَيْرًا وَإِنْ تَرَكْتُ الْمَطَايَا كَالْمَزَادِ
وَلَقَدْ كُنْتُ فِي حِمْلَاوَةِ طَلَبِي الْعِلْمِ الَّتِي مِنْ الشَّدَائِدِ مَا هُوَ عِنْدِي
أَحْلَى مِنَ الْعَسَلِ لِأَجْلِ مَا أَطْلُبُ وَارْجُو . كُنْتُ فِي زَمَانِ الْعُسْبَا أَخَذَ مَعِيَ
أَرْغِفَةً يَابِسَةً فَأَخْرَجْتُ فِي طَلَبِ الْحَدِيثِ ، وَاقْعَدْتُ عَلَى نَهْرِ عَيْنِي فَلَا أَقْدِرُ عَلَى
أَكْلِهَا إِلَّا عِنْدَ الْمَاءِ ، فَكَلَّمَا كَلَّمْتُ لَقْمَةً شَرِبْتُ عَلَيْهَا . وَعَيْنِي هَمَّتْ لَا تَبْرِي
الْأَلْذَةَ تَحْصِيلَ الْعِلْمِ . فَاتَّمَرْتُ ذَلِكَ عِنْدِي أَنِّي عَرَفْتُ بِكَثْرَةِ سَمَاعِي لِلْحَدِيثِ

سير الرسول ﷺ واحواله وآدابه ، واحوال اصحابه وتابعيه ، فصرت
 في معرفة طريقه كابن أجود ، وأثر ذلك عندي من المعاملة ما لا يدرك
 بالعلم ، حتى اني اذكر في زمان الصبوة ووقت الغلظة والمزبة قدرتي
 على أشياء كانت النفس تنوق اليها توقان العطشان الى الماء الزلال ولم يمنني
 عنها الا ما اثر عندي من العلم من خوف الله عز وجل . ولولا خطايا
 لا يخلو منها البشر ، لقد كنت اخاف على نفسي من العجب ، غير أنه عز
 وجل صانني وعلمني واطمأنني من اسرار العلم على معرفته ، واشار الخلوة
 به ، حتى أنه لو حضر معي معروف وبشر رأيتهما زحمة ثم عاد فغمسني
 في التقصير والتفريط حتى رأيت اقل الناس خيرا مني . وتارة يوقظني
 لقيام الليل ولذة مناجاته ، وتارة يحرمني ذلك مع سلامة بدني . ولولا
 بشارة العلم بان هذا نوع تهذيب وتأديب خرجت اما الى العجب عند
 العمل ، واما الى اليأس عند البطالة . لكن رجائي في فضله قد عادل
 خوفي منه . وقد يغاب الرجاء بقوة اسبابه ، لاني رأيت قد رباني
 منذ كنت طفلا ، فان ابني مات وانا لا اعقل به ، والام لم تلتفت الي .
 فركز في طبعي حب العلم ، وما زال يوقعني على المهم فالمهم ، ويحماني الى
 من يحماني على الاصبوب ، حتى قوم أمرى . وكما قد قصصني عدو قصده
 غنى . واذا رأيته قد نصرني وبصرني ودافع غنى ووهب لي قوى رجائي في
 المستقبل بما قد رأيت في الماضي . ولقد تاب على يدي في مجالس الذكر
 اكثر من مائتي الف ، واسلم على يدي اكثر من مائتي نفس ، وكما سالت
 عين متجبر بوعظي لم تكن تسيل . ويحق لمن تلمح هذا الانعام ان
 يرجو التمام . وربما لاحت اسباب الخوف بنظري الى تقصيري وزلي .

ولقد جاست يوما فرأيت حولي أكثر من عشرة آلاف مافيهم الامن
قد رق قلبه . اودمعت عينه . فقلت لنفسى : كيف بك ان نجوا وهلكت :
فصحت بلسان وجدى : الهى وسيدى ان قضيت على بالعباد غدا فلا
تعلمهم بعدانى صيانة لكرمك لا لأجلي ، اثلا يقولوا عذب من دل عليه .
الهى قد قيل لنبيك صلى الله عليه وسلم : اقتل ابن ابى المنافق فقال :
لا يتحدث الناس ان محمدا يقتل اصحابه . الهى فاحفظ حسن عقائدهم في
بكرمك ان تعلمهم بعباد الدليل عليك . حاشاك والله يا رب من
تكدير الصافي .

لا تبر عودا انت ريشته حاشا لى الجود ان ينقصا

لا تعطش الزرع الذى نبته بصوب انعامك قد روضا

١٦٩ - فصل - من الامور التى تخفى على العاقل ان يرى انه متى

لم يكن عنده امرأة او جارية يهواها هوى شديدا انه لا يلتذ فى الدنيا ، فاذا
صور محبوبا مملوكا تخايل لذة عظيمة ، واذا كان عنده من لا يميل اليه اعتقد
نفسه محروما ، وهذا امر شديد الخفاء ، فينبغى ان يوضح . وهوان المملوك
مملوك . ومتى قدر الانسان على ما يشتهيه مله ومال الى غيره ، تارة لبيان
عيوبه التى تكشفها المخالطة . فانه قد قال الحكماء : العشق العمى عن
عيوب المحبوب . وتارة ليكون القدرة عليه ، والنفس لا تزال تتطلع الى ما لا تقدر
عليه . ثم لو قدرنا دوام المحبة مع القدرة فانها قد تكون ناقصة
بمقدار القدرة ، وانما يقويها بنجى المحبوب . فيكون تجنبه كالامتناع ،
او امتناعه من الموافقة ، فاذا صفا فلا بد من اكدار ، منها الحذر عليه ،
ومنها قلة ميله الى هذا العاشق ، وربما تكلف القرب منه . بعلم الانسان

بقلة ميل محبوبه اليه ينقص بل يبعث ، فان خاف منه خيانة احتاج الى حراسته فقويت النقص ، واصلاح المقدمات التوسط ، وهو اختيار ما تميل النفس اليه ولا يرتقى الى مقام العشق ، فان العاشق في عذاب . وانما يتخايل الفارغ من العشق التذاذ العاشق وليس كذلك . فانه كما قيل :

وما في الارض اشقى من محب وان وجد الهوى عذب المذاق
تراه باكيا في كل وقت مخافة فرقة او لاشتياق
فيمسك ان تأوا شوقا اليهم ويبكي ان دنوا خوف الفراق
فتسخن عينه عند التداني وتسخن عينه عند الفراق

» ١٧ - فصل - ما ابتلى الانسان قط بأعظم من علو همته . فان من عات همته يختار المعالي ، وقد لا يساعد الزمان ، وقد تضعف الآلة ، فيبقى في عذاب . وانى أعطيت من علو الهمة طرفا فتابه في عذاب ، ولا اقول ليته لم يكن فانه انما يحلو العيش بقدر عدم العقل ، والعامل لا يختار زيادة اللذة بنقصان العقل . ولقد رأيت اقواما يصنفون علو همهم ، فتأملتها فاذا بها في فن واحد . ولا يبالون بالنقص فيما هو أهم ، قال الرضى :

ولكل جسم في النحول بلية وبلاء جسمي من تفاوت همتي
فنظرت فاذا غاية أمله الأمانة . وكان ابو مسلم الخرساني في حال شببته لا يكاد ينام ، فقيل له في ذلك فقال : ذهن صاف ، وهم بعيد ، ونفس تنوق الى معالي الامور ، مع عيش كعيش الهمج الرماح . قيل : فما الذي يرد غليظك . قال : الظفر بالملك . قيل فاطلبه ، قال : لا يطلب الا بالاهوال ، قيل فاركب الاهوال ، قال : العقل مانع ، قيل فما تصنع ؟ قال : سأجعل من عقلي جهلا ، واحاول به خطرا لا ينال الا بالجهل ، وادبر بالعقل ما لا يحفظ

الآية : فإن الخمول أخو العدم . فنظرت الى حال هذا المسكين فاذا به قد ضيع أهم المهمات وهو جانب الآخرة ، وانتصب في طلب الولايات . فكيف تمك وقيل حتى نال بعض مراده من لذات الدنيا ، ثم لم يتنعم في ذلك من ثمان سنين ، ثم اغتيل ونسى تدبير العقل فقتل ومضى الى الآخرة على أقبح حال . وكان المتنبي يقول :

وفي الناس من برضى بميسور عيشه ومركوبه رجلاه والثوب جلده
ولكن قلبا بين جنبي ماله مدى ينتهي بي في مراد احده
تري جسمه يكسى شنوفا تربه فيختار أن يكسى دروعا تهده
فتأملت هذا الآخر فاذا نهيمته فيما يتعلق بالدنيا فحسب . ونظرت
الى علو همتي فرأيتها عجبا . وذلك اننى أروم من العلم ما أتيقن أنى لأصل
اليه ، لأننى احب نيل كل العلوم على اختلاف فنونها ، وأريد استقصاء كل
فرد . هذا أمر يعجز العمر عن بمضيه ، فان عرض لى همة فى فن قد بلغ
منتهاه رأيت ناقصا فى غيره . فلا أعد همته تامة . مثل المحدث فاته الفقه .
والفقيه فاته علم الحديث . فلا أرى الرضى بنقصان من العلوم الا حادثا
عن نقص الهمة . ثم انى أروم نهاية العمل بالعلم ، فانوق الى ورع بشر ،
وزهادة معروف ، وهذا مع مطالعة التصانيف وافادة الخلق ومعاشرتهم
بعيد . ثم انى أروم الغنى عن الخلق ، واستشرف الافضال عليهم . والاشتغال
بالعلم مانع من الكسب . وقبول المنى مما تأباه الهمة العالية . ثم انى أتوق
الى طلب الاولاد ، كما أتوق الى تحقيق التصانيف ، لبقاء الخلفان نائبين
عنى بعد التلف . وفى طلب ذلك مافيه من شغل القلب المحب للتفرد . ثم
انى أروم الاستمتاع بالمستحسنات : وفى ذلك امتناع من جهة قلة المال ثم

لو حصل فرق جمع الهمة . وكذلك أطلب لبدني ما يصلحه من المطاعم والمشارب ، فانه متعود للترفه واللفظ ، وفي قلة المال مانع ، وكل ذلك جمع بين أضداد . فاين انا وما وصفته من حال من كانت غاية همته الدنيا . وانا لأحب أن يخذش حصول شيء من الدنيا وجهه ديني بسبب . ولا أن يؤثر في علمي ولا في عملي . فواقفني من طلب قيام الليل . وتحقيق الورع مع اعادة العلم . وشغل القلب بالتصانيف . وتحصيل ما يلائم البدن من المطاعم . ووا اسفى على ما يفوتني من المناجاة في الخلوة مع ملاقات الناس وتعليمهم . وبأ كدر الورع مع طلب ما لا بد منه للعائلة . غير أني قد استسلمت لتعذبي ، ولعل تهذيبي في تعذبي ، لان عليان الهمة تطلب المعالي المقربة الى الحق عز وجل . وربما كانت الخيرة في الطلب دليلا الى المقصود . وهانا أحفظ أنفاسي من ان يضيع منها نفس في غير فائدة ، وان بلغ همي مرده ، والافنية المؤمن أبغ من عمله .

١٧١١ - فصل - لما سطرت هذا الفصل المتقدم ، رأيت اذكار

النفس بما لا بد لها في الطريق منه ، وهو انه لا بد لها من التلطف ، فان قاطع مرحلتين في مرحلة خليف بان يقف . فينبغي ان يقطع الطريق بأطف ممكن . واذا تعبت الرواحل نهض الحادى يغنيها ، واخذ الراحة للجديد . وغوص السابح في طاب الدر صعود ، ودوام السير يجسر الابل : والمفازة صعبة . ومن اراد ان يرى التلطف بالنفس فلينظر في سير الرسول ﷺ فانه كان يتلطف بنفسه ، ويمارح ويخالط النساء ، ويقبل ويمص اللسان ، ويختار المستحسنات . ويُسْتَعَذَّب له الماء ويختار الماء البارد ، والأ وفق من المطاعم كلحم الظهر والذراع والحلوى، وهذا كله رفق بالناقة في طريق السير .

فأما من جرد عليها السوط فانه يوشك ان لا يقطع الطريق . وقد قال عليه السلام :
 ان هذا الدين متين فأوغلوا فيه برفق ، فان المنبت لأرضاً قطع . ولا ظهراً
 ابقى : واعلم انه ينبغي للماقل ان يغالط نفسه فيما يكشف العقل عن عوارده ،
 فان فكر المتيقظ يسبق قبل مباشرة المرأة الى انها اعتناق يجسد يحتوى
 على قذارة . وقبل بلع اللقمة انها متقلبة في الريق لو أخرجها الانسان ^(١) . في
 قرب الموت وما يجري عليه بعده ، لبغض عاجل لذته ، فلا بد من مغالطة تجري
 لينتفع الانسان بعيشه كما قال لييد :

فأكذب النفس اذا حدثها ان صدق النفس يزدى بالأمل
 وقال البستي :

أفد طبعك المكد ودبالم راحة تجم وعلاه بشيء من المرح
 ولكن اذا اعطيته ذاك فليكن بمقدار ما يعطى الطعام من الملح
 وقال ابو علي بن السبيل :

واذا هممت ففاج نفسك بالني وعداً فخيرات الجنان عدات
 واجمل رجاءك دون يأسكجنة حتى تزول بهمك الاوقات
 واستر عن الجلساء بثك انما جلساؤك الحساد والشّمات
 ودع التوقع للحوادث انه للحى من قبل اللّامات مات
 فاهمّ ليس له ثبات مثل ما في أهله ماله سرور ثبات
 لولا مغالطة النفوس عقولها لم يصف للمتيقظين حياة
 وقال أيضاً :

بَحْفَظَ الْجَسْمَ تَبَقَى النَفْسُ فِيهِ بَقَاءَ النَّارِ تَحْفَظُ بِالْوَعَاءِ

(١) بياض بالأصل في ثلاث نسخ

فبالياس الممض فلا تمتها ولا تمدد لها طول الرجاء
وعدها في شدائد رضاء وذكرها الشدائد في الرضاء
يعد صلاحها هذا وهذا وبالتركيب منفعة الدواء
وقد كان عموم السلف يخضبون الشيب لأن لا يرى الانسان منهم
ما يكره ، وان كان الخضاب لا يعدم النفس علمها بذلك ، ولكنه نوع
مخادعة للنفس . وما زالت ترى الظاهر . وانما الفكر والعقل مع الغائب .
ولا بد من مغالطة تجرى ليم العيش . ولو عمل العامل بمقتضى قصر الأمل
ما كتب العلم ولا صنف . فافهم هذا الفصل مع الذى تقدمه ، فان الاول
في مقام العزيمة ، وهذا في مكان الرخصة ، ولا بد للتعبد من راحة
واعانة . والله عز وجل على قدر صدق الطلب . وقوة اللجا ، وخلع الحول
والقوة ، وهو الموفق .

١٧٢ - فصل - في تعليم التدبير . قوام الآدمى بشيئين الحرارة
والرطوبة . ومن شأن الحرارة أن تحلل الرطوبة وتفنيها . فالآدمى محتاج
الى تحصيل خلف المتحلل ، فأبدان النشو تغتذى بأكثر مما يتحلل منها .
والأبدان المتناهية تغتذى بمقدار ما يتحلل منها ، والأبدان التى قد أخذت في
الهرم يتحلل منها أكثر مما تغتذى به ، فينبغى للنشو البالغ أن يتحفظ في
النكاح ، لأنه يربى قاعدة قوة يحد أثرها في الكبر . وأما المتوسط والواقف
السن فينبغى أن يحذر فضول الجماع ، فان حصل له مثل ما يخرج منه
فأسرف ، فاللازم أخذ من الحاصل ، ويوشك أن يسرع النفاد . وأما الشيخ
فترك النكاح كاللازم له ، خصوصاً اذا زاد علو السن ، لانه ينفق من الجوهر
الذى لا يحصل مثله أبداً . ثم ينبغى أن ينظر العاقل في ماله فيكتسب أكثر مما

ينفق ليكون الفاضل مدخرا لوقت العجز . وليحذر السرف ، فان العدل هو الأصلح . ثم ينظر في الزوجة ، والمطلوب منها شيئان : وجود الولد ، وتدير المنزل ، فاذا كانت مبذرة فميب لا يحتمل ، فان انضمت صفة العقر فلا وجه للامساك ، الا أن تكون مستحسنة الصورة ، فان ضم اليها عقل وعفاف حسن الامساك . وان كانت مما يحتاج أن تحفظ فتركها لازم . فأما الخدم فليجهد في تحصيل خادم لا تستعبده الشهوة ، فان عبد الشهوة له مولى غير سيده . ولينظر المالك في طبع المملوك . فمنهم من لا يأتي الا على الاكرام فيكرمه فانه يربح محبته . ومنهم من لا يأتي الا على الاهانة فليداره وليعرض عن الذنوب ، فان لم يمكن عاتب بلطف ، وليحذر العقوبة ما أمكن وليجعل للماليك زمن راحة . والعجب ممن يعنى بدابته وينسى مداراة جاريته . وأجود المماليك الصغار . وكذلك الزوجات ، لأنهم متعودون خلق المشتري . وليحفظ نفسه بالهيبة من الانحراف مع الزوجة ، ولا يطلعها على ماله ، فانها سفيهة تطلب كثرة الانفاق . وأما تدير الاولاد فخفهم من مخالطة تفسد . ومتى كان الصبي ذا أنفة - حيا - رجي خيره . وليحمل على صحة الاشراف والعلماء ، وليحذر من مصاحبته للجهال والسفهاء ، فان الطبع لص . وليحذر الصبي من الكذب غاية التحذير ، ومن المخالطة للصبيان . وليوصه بزيادة البر للوالدين ، وليحفظ من مخالطة النساء . فاذا بلغ فليزوج بصبية لم تعرف غيره فينتفعان . هذه الاشارة الى تدير أمور الدنيا . فأما تدير العلم فينبغي ان يحمل الصبي من حين يبلغ خمس سنين على التشاغل بالقرآن والفقه وسماع الحديث وليحصل له المحفوظات اكثر من المسموعات ، لان زمان الحفظ الى خمس عشرة سنة ، فاذا بلغ تشتت همته ، فايضرب تارة ، ويرثى أخرى ، ليبلغ

وقد حصل محفوظات سنّية . وأول ما ينبغي ان يكلف حفظ القرآن متقنا ، فانه يثبت ويختلط باللحم والدم ، ثم مقدمة من النحو يعرف بها اللحن ، ثم الفقه مذهباً وخلافاً . وما أمكن بعد هذا من العلوم حفظه حسن . وليحذر من عادات أصحاب الحديث ، فانهم يفنون الزمان في سماع الاجزاء التي تتكرر فيها الأحاديث ، فيذهب العمر وما حصلوا فهم شيء ، فاذا بلغوا سنّاً طلبوا جواز فتوى ، أو قراءة جزء من القرآن ، فعادوا القهقري ، يحفظون بعد كبر السن فلا يحصل مقصودهم . فالحفظ في الصبا للمهم من العلم أصل عظيم ، وقد رأينا كثيراً ممن تشاغل بالمسموعات وكتابة الاجزاء ورأى الحفظ صعباً فقال الى الأسهل فمضى عمره في ذلك ، فلما احتاج الى نفسه قعد يتحفظ على كبر فلم يحصل مقصوده . فاليقظة لفهم ما ذكرت وانظر في الاخلاص ، فما ينفع شيء دونه .

١٧٣- فصل - اشتد الغلاء ببغداد في أول سنة خمس وسبعين . وكلما جاء الشعير زاد . فتواقع الناس على اشتراء الطعام . فاعتبط من يستعد كل سنة يزرع ما يقوته ، وفرح من بادر في أول النيسان الى اشتراء الطعام فانه يضاعف ثمنه ، وأخرج الفقراء ما في بيوتهم فرموه في سوق الهوان ، وبان ذل نفوس كانت عزيزة ، فقلت يانفس خذي من هذه الحال إشارة ، لينبطن من له عمل صالح وقت الحاجة اليه ، وليفرح من له جواب عند اقبال المسئلة . وكل الويل على المفرط الذي لا ينظر في عاقبته فتنبه ، فقد نهبت ناس الدنيا على أمر الآخرة ، وبأدرى موسم الزرع مادامت الروح في البدن ، فالزمان كله نشرين قبل أن يدخل نيسان الحصاد ، ومالك زرع ، وحاجة المفتقرين الى أموالهم تمنعهم من الايثار .

١٧٤ - فصل - تأملت حالة أزعجتني . وهو أن الرجل قد يفعل مع امرأته كل جميل وهي لا تحبه ، وكذا يفعل مع صديقه والصديق يبغضه ، وقد يتقرب الى السلطان بكل ما يقدر عليه والسلطان لا يؤثره ؛ فيبقى متحيرا يقول : ما حياتي ، فخفت ان تكون هذه حالي مع الخالق سبحانه ، أتقرب اليه وهو لا يريدني ، وربما يكون قد كتبني شقيفا في الازل . ومن هذا خاف الحسن فقال : أخاف ان يكون اطلع على بعض ذنوبي فقال : لا غفرت لك فليس الا القلق والخوف لعل سفينة الرجا تسلم يوم دخولها الشاطئ من جرف .

١٧٥ - فصل - جرى بيني وبين أصحاب الحديث كلام في قول الامام احمد : صح الحديث عن رسول الله ﷺ سبع مائة الف حديث ، فقلت له انما يعنى به الطرق ، فقال : لا الا للتون ، فقلت هذا بعيد التصور . ثم رأيت لابي عبد الله الحاكم كلاما ينصر ما قال ذلك الشخص ، وهو انه قال في كتاب المدخل الى كتاب الاكليل كيف يجوز ان يقال : ان حديث رسول الله ﷺ لا يبلغ عشرة آلاف حديث ، وقد روى عنه من أصحابه أربعة آلاف رجل وامرأة صحبوه نيفا وعشرين سنة بمكة ثم بالمدينة . حفظوا أقواله وافعاله ، ونومه ويقظته وحركانه وغير ذلك سوى ما حفظوا من أحكام الشريعة . واحتج بقول احمد : صح الحديث عن رسول الله ﷺ سبع مائة الف حديث وكسر ، وان اسحق ابن راهويه كان يتلى سبعين الف حديث حفظا ، وان ابا العباس بن عقدة قال : أحفظ لاهل البيت ثلاث مائة الف حديث قال ابن عقدة وظهر لان كريب بالكوفة ثلاثمائة الف حديث قلت : ولا يحسن ان يشار بهذا الى المتون . وقد عجت كيف خفي هذا على الحاكم وهو يعلم ان أجمع المسانيد الظاهرة مسند احمد بن حنبل ، وقد طاف الدنيا مرتين حتى حصله وهو اربعون الف حديث ،

منها عشرة آلاف مكررة، قال حنبل بن اسحق : جَمَعْنَا أَحْمَدَ بْنَ حَنْبَلٍ أَنَا وَصَالِحٌ وَعَبْدُ اللَّهِ وَقُرَأَ عَلَيْنَا الْمُسْنَدُ ، وَقَالَ لَنَا : هَذَا كِتَابُ جَمْعَتِهِ مِنْ أَكْثَرِ مَنْ سَبْعَ مِائَةِ أَلْفٍ وَخَمْسِينَ أَلْفًا . فَمَا اخْتَلَفَ الْمُسْلِمُونَ فِيهِ مِنْ حَدِيثِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَارْجِعُوا إِلَيْهِ ، فَإِنْ وَجَدْتُمُوهُ وَالْأُفْلَيسَ بِحُجَّةٍ . أَفْتَرَى يَخْفَى عَلَى مُتَيْقِظٍ أَنَّهُ أَرَادَ بِكَوْنِهِ جَمْعُهُ مِنْ سَبْعِ مِائَةِ أَلْفٍ أَنَّهُ أَرَادَ الطَّرِيقَ . لِأَنَّ السَّبْعَ مِائَةَ أَلْفٍ إِنْ كَانَتْ مِنْ كَلَامِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَكَيْفَ أَهْمَلَهَا ، فَإِنْ قِيلَ فَقَدْ أُخْرِجَ فِي مُسْنَدِهِ أَشْيَاءُ ضَعِيفَةٌ . ثُمَّ اعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ يَكُونَ سَبْعَ مِائَةِ أَلْفٍ مَا تَحْقُقُ مِنْهَا سِوَى ثَلَاثِينَ أَلْفًا وَكَيْفَ ضَاعَتْ هَذِهِ الْجُمْلَةُ . وَلَمْ أَهْمَلْتُ وَقَدْ وَصَلْتُ كُلَّهَا إِلَى زَمَنِ أَحْمَدَ فَاتَّقَى مِنْهَا وَرَمَى الْبَاقِي ، وَأَصْحَابُ الْحَدِيثِ قَدْ كَتَبُوا كُلَّ شَيْءٍ مِنَ الْمَوْضُوعِ وَالْكَذِبِ ، وَكَذَلِكَ قَالَ أَبُو دَاوُدَ : جَمَعْتُ كِتَابَ السَّنَنِ مِنْ سِتْمِائَةِ أَلْفٍ حَدِيثٍ وَلَا يَحْسُنُ أَنْ يَقَالَ أَنَّ الصَّحَابَةَ الَّذِينَ رَوَوْهَا مَاتُوا وَلَمْ يَحْدُثُوا بِهَا التَّابِعِينَ فَإِنَّ الْأَمْرَ قَدْ وَصَلَ إِلَى أَحْمَدَ فَاحْصَى سَبْعَ مِائَةِ أَلْفٍ حَدِيثٍ ، وَمَا كَانَ الْأَمْرَ لِيَذْهَبَ هَكَذَا عَاجِلًا ، وَمَعْلُومٌ أَنَّهُ لَوْ جُمِعَ الصَّحِيحُ وَالْمَحَالُّ لِلْمَوْضُوعِ وَكُلُّ مَنْقُولٍ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَا بَلَغَ خَمْسِينَ أَلْفًا ، فَإِنَّ الْبَاقِي ، وَلَا يَجُوزُ أَنْ يَقَالَ تِلْكَ الْأَحَادِيثُ كَلَامُ التَّابِعِينَ ، فَإِنَّ الْفُقَهَاءَ نَقَلُوا مَذَاهِبَ الْقَوْمِ وَدُونَهَا وَآخَذُوا بِهَا ، وَلَا وَجْهَ لَتَرْكِهَا ، فَفَهَمُ كُلِّ ذِي لُبٍّ أَنْ الْإِشَارَةَ إِلَى الطَّرِيقِ ، وَأَنْ مَاتُوا هَهُنَا كَمَا فَاسَدَ ، وَلَوْ عَرَضَ هَذَا الْإِعْتِرَاضُ عَلَيْهِ ، وَقِيلَ لَهُ : فَإِنَّ الْبَاقِي لَمْ يَكُنْ لَهُ جَوَابٌ ، لَكِنَّ الْفَهْمَ عَزِيزٌ . وَاللَّهُ الْمُنْعِمُ بِالتَّوْفِيقِ . وَمِثْلُ هَذَا نَغْفِيلُ قَوْمٍ قَالُوا : إِنْ الْبُخَارِيُّ لَمْ يُخْرِجْ كُلَّ مَا صَحَّ عَنْهُ ، وَإِنْ مَا أُخْرِجَ كَالْأَمْوِجِ ، وَالْأَفْكَانُ يَطُولُ . وَقَدْ ذَهَبَ إِلَى نَحْوِ هَذَا أَبُو بَكْرٍ الْأَسْمَعِيُّ . وَحَكَى عَنِ الْبُخَارِيِّ أَنَّهُ قَالَ : مَا تَرَكْتُ مِنَ الصَّحِيحِ أَكْثَرَ ،

وانما يعنى الطرق . يدل على ماقلته ان الدارقطنى وهو سيد الحفاظ جمع مايلزم البخارى ومسلم إخراجهم ما لم يذكره أحاديث يسيرة ، ولو كان كما قالوا لا أخرج مجلدات ، ثم قوله : مايلزم البخارى دليل صريح على ماقلته ، لانه من أخرج الانموذج لا يلزمه شيء . وكذلك أخرج ابو عبد الله الحاكم كتابا جمع فيه مايلزم البخارى إخراجهم فذكر حديث الطائر فلم يلتفت الحفاظ الى ما قال ، فما أقل فهم هؤلاء الذين شغلهم الحديث من التدقيق الذى لا يلزم فى صحة الحديث . وانما وقع لقلة الفقه والفهم . إن البخارى ومسلم تركا أحاديث أقوام ثقات لانهم خولفوا فى الحديث ، فنقص الاكثرون من الحديث وزادوهم ولو كان ثم فقه لعلموا ان الزيادة من الثقة مقبولة ، وتركوا أحاديث أقوام لانهم انفردوا بالرواية عن شخص . ومعلوم ان انفرد الثقة لا عيب فيه . وتركوا من . ذلك الغرائب . وكل ذلك سوء فهم . ولهذا لم يلزم الفقهاء هذا ، وقالوا : الزيادة من الثقة مقبولة ولا يقبل القدر حتى يبين سببه . وكل من لم يخالط الفقهاء وجهه مع المحدثين تأذى وساء فهمه . فالحمد لله الذى أنعم علينا بالحاليتين .

١٧٦ - فصل - اعلم ان الله عز وجل وضع فى النفوس اشياء لا تحتاج الى دليل . فالنفوس تعلمها ضرورة . واكثر الخلق لا يحسنون التعبير عنها ، فانه وضع فى النفس ان المصنوع لا بد له من صانع ، وان المبنى لا بد له من بان ، وان الاثنين اكثر من الواحد ، وان الجسم الواحد لا يكون فى مكانين فى حالة واحدة ، ومثل هذه الاشياء لا تحتاج الى دليل ، وألهم العرب النطق بالصواب من غير لحن ، فهم يفرقون بين المرفوع والمنصوب بأمارات فى جملتهم ، وان عجزوا عن النطق بالعلمة ، قال عثمان بن جنى : سألت يوما

ابا عبد الله محمد بن العساف العقيلي فقلت له : كيف تقول ضربت اخوك ؟ فقال : اقول ضربت اخاك ، فأدرته على الرفع فأبى . وقال لا أقول اخوك ابداً . قال : فكيف تقول ضربني اخوك : فرفع ، فقلت : أليس زعمت انك لا تقول اخوك ابداً ، فقال ايش هذا ، اختلفت جهتها في الكلام . وهذا أدل شيء على تأملهم مواقع الكلام . واعطاهم اياه في كل موضع حقه ، وانه ليس استرسالاً ولا ترخيماً . قال عثمان : واللغة هي أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم . والنحو انتحاء سمعت كلام العرب في تصرفه من اعراب وغيره كالتثنية والجمع والتحقير والتكسير وغير ذلك ليلحق من ليس من اهل اللغة اهلها .

١٧٧ - فصل - مفيد . تدبرت احوال الاخيار والاشرار فرأيت سبب صلاح الاخيار النظر ، وسبب فساد الاشرار إهمال النظر . وذاك أن العاقل ينظر فيعلم انه لا بد له من صانع ، وان طاعته لازمة ، ويتأمل معجزات رسول الله صلى الله عليه وسلم فيسلم قياده الى الشرع ، ثم ينظر فيما يقربه اليه . ويتركه لديه ، فاذا شق عليه إعادة العلم تأمل ثمرته فسهل ذلك ، واذا صعب عليه قيام الليل فكذلك ، واذا رأى مشتهى تأمل عاقبته فعلم ان اللذة تفنى والعار والاثم يبقى ، فيسهل عليه الترك . واذا اشتهى الانتقام ممن يؤذيه ذكر ثواب الصبر وندم الغضب ان أفعاله في حال الغضب . ثم لا يزال يتأمل سرعة ممر العمر فيغتتمه بتحصيل أفضل الفضائل فينال مناه . وأما الغافل فانه لا يرى الا الشيء الحاضر . فمنهم من لم يتأمل في معنى المصنوع واثبات الصانع ، فجحدوا وتركوا النظر وجحدوا الرسل وما جاؤا به ، ونظروا الى العاجل ، ولم يتفكروا في مبداه ومنتهاه ، فليس عندهم

من عرفان المطعم الا الاكل . ولو تأملوا كيف أنشئ ، ولماذا جعل حافظ الابدان لعرفوا حقائق الأمور . وكذلك كل شهوة تعرض لهم لا ينظرون في عاقبتها بل في عاجل لذتها . وكم قد جنت عليهم من وقوع حد وقطع يد وفضيحة . فتمجيل اللذة يفوت الفضائل ، ويحصل الرذائل ، وسببه عدم النظر في العواقب . وهذا شغل العقل وذلك المذموم شغل الهوى . نسأل الله عز وجل يقظة ترينا العواقب ، وتكشف لنا الفضائل والمعائب ، انه قادر على ذلك .

١٧٨ - فصل - خلقت لى همة عالية تطلب الغايات ، بلغت السن وما بلغت ماأملت ، فأخذت اسأل تطويل العمر ، وتقوية البدن ، وبلوغ الآمال ، فأنكرت على العادات وقالت : ما جرت عادة بما تطلب ، فقلت انما اطلب من قادر يخرق العادات ، وقد قيل لرجل : لنا حويجة فقال : اطلبوا لها رجىلا . وقيل لا آخر جئناك فى حاجة لا ترزؤك ، فقال هلا طلبتم لها سفاسف الناس . فاذا كان اهل الأنفة من ارباب الدنيا يقولون هذا فلم لانطمع فى فضل كريم قادر . وقد سألته هذا السؤال فى ربيع الآخر من سنة خمس وسبعين فان مدنى إلى أجل وبلغت ماأملته نقلت هذا الفصل الى مابعد وبيضته ، واخبرت ببلوغ آمالى ، وان لم يتفق ذلك فسيدى أعلم بالمصالح ، فانه لا يمنع بخلا ، ولا حول الا به .

١٧٩ - فصل - ماأقل من يعمل لله تعالى خالصا لان أكثر الناس يحبون ظهور عباداتهم . وسفيان الثورى كان يقول : لاأعتقد بما ظهر من عملى وكانوا يسترون أنفسهم ، واليوم ثياب القوم تشهرهم . وقد كان ايوب السخيتانى يطول قيصره حتى يقع على قدميه ، ويقول كانت الشهرة فى

التطويل ، واليوم الشهرة في التقصير . فاعلم ان ترك النظر الى الخلق ومحو الجاه من قلوبهم بالتعمل واخلاص القصد وسترا الحال هو الذي رفع من رفع . فقد كان أحمد بن حنبل يمشى حافيا في وقت ونعليه في يديه ويخرج للقاط . و بشريمشى حافيا على الدوام وحده . ومعروف يلتقط النوى . واليوم صارت الرياسات اكثر من كل حاجة . وماتمكن الرياسات حتى يتمكن من القلب الغفلة ، ورؤية الخلق ، ونسيان الحق ، فجئنا نطلب الرياسة على اهل الدنيا . ولقد رأيت من الناس عجبا حتى من يترى بالعلم ، إن رأى أنى أمشى وحدي أنكر على . وإن رأى أنى ازور فقيرا عظم ذلك . وإن رأى أنى أنبسط بتبسم نقصت من عينه ، فقلت : فواعجبا هذه كانت طريق الرسول صلى الله عليه وسلم والصحابة رضی الله عنهم . فصارت احوال الخلق نوااميس لاقامة الجاه لاجرم والله سقطتم من عين الحق ، فاسقطكم من عين الخلق . فكم ممن يتعب في تربية ناموس ولا يلتفت اليه ولا يحظى بمراوده ، ويفوته المراد الا كبر . فالتفتوا اخواني الى اصلاح النيات ، وترك التزين للخلق . ولتكن عمدتكم الاستقامة مع الحق ، فبذلك صعد السلف وسعدوا . واياكم وما الناس عليه اليوم ، فانه بالاضافة الى يقظة السلف نوم .

١٨٠ - فصل - والله ما ينفع تأديب الوالد اذا لم يسبق اختيار الخالق لذلك الولد ، فانه سبحانه اذا أراد شخصا رباه من طفولته وهداه الى الصواب ، ودله على الرشاد ، وحبب اليه ما يصلح ، وصحبه من يصلح ، وبغض اليه ضد ذلك ، وقبح عنده سفاسف الامور ، وعصمه من القبائح ، واخذ بيده كلما عثر . واذا أبغض شخصا تركه دائم التعشير متخبطا في كل حال ، ولم يخلق له هممة لطلب المعالي ، وشغله بالردايل عن الفضائل . وإن قال لم

خصصت بهذا، قال الخطاب الذي لا يحاب « بما كسبت ايديكم ».

١٨١ - فصل - من أكبر الدليل على وجود الخالق سبحانه ان هذه النفس الناطقة المميزة المحركة للبدن على مقتضى ارادتها، ودبرت مصالحها، وترقت الى معرفة الأفلاك، واكتسبت ما أمكن تحصيله من العلوم، وشاهدت الصانع في المصنوع، فلم يحجبها ستروان تكاثف، لا يعرف مع هذا ماهيتها ولا كيفيتها ولا جوهرها ولا عملها بأشغالها، ولا يفهم من اين جاءت، ولا يدري اين تذهب، ولا كيف تعلقت بهذا الجسد. وهذا كله يوجب عليها ان لها مدبرا وخالقا. وكفى بذلك دليلا عليه. اذ لو كانت وجدت بها لما خفيت احوالها. فسبحانه سبحانه.

١٨٢ - فصل - سبحانه من من على الخلق بالعلماء الفقهاء الذين فهموا مقصود الامر ومراد الشارع. فهم حفظة الشريعة فأحسن الله جزاءهم. وان الشيطان ليتجافاهم خوفا منهم، فانهم يقدرون على أذاه، وهو لا يقدر على اذاهم. ولقد تلاعب بأهل الجهل والقليل الفهم. وكان من اعجب تلاعبه ان حسن لأقوام ترك العلم ثم لم يقنعوا بهذا حتى قدحوا في المتشاكين به. وهذا لو فهموه قدح في الشريعة. فان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: بلغوا عني. وقد قال له ربه عز وجل «بلغ» فاذا لم يتشاغل بالعلم فكيف يبلغ الشريعة الى الخلق. ولقد تقل مثل هذا عن كبار الزهاد، كبشر الحاق، فانه قال لعباس بن عبد العظيم: لا تجالس أصحاب الحديث. وقال لاسحق بن الضيف: انك صاحب حديث فاحب ان لا تعود الي، ثم اعتذر فقال: انما الحديث فتنة الا لمن اراد الله به. واذا لم يعمل به فتركه أفضل. وهذا عجب منه: من اين له ان طلابه لا يريدون الله به، وانهم

لا يعملون به ، أوليس العمل به على ضربين : عمل بما يجب ، وذلك لا يسمع احدا تركه ، والثاني نافلة ولا يلزم ، والتشاغل بالحديث أفضل من التنفل بالصوم والصلاة . وما اظنه اراد الاطريقة في دوام الجوع والهجد ، وذلك شيء لا يلام تاركه . فان كان يريد ان لا يوغل في علوم الحديث فهذا خطأ لأن جميع اقسامه محمودة . أفترى لو ترك الناس طلب الحديث كان بشريفتى ! فالحمد لله في الالتفات الى قول من ليس بفقيه ، ولا بهوانك تعظيم اسمه فالحمد لله يعفو عنه .

١٨٣ - فصل - العاقل من يحفظ جانب الله عز وجل وان غضب الخلق . وكل من يحفظ جانب المخلوقين ويضيع حق الخالق يقاب الله قلب الذي قصد ان يرضيه فيسخطه عليه . قال المأمون لبعض اصحابه : لا تعص الله بطاعتي فيسلطني عليك . ولما بالغ طاهر بن الحسين فيما فعل بالأمين وقتك به وصلب رأسه وان كان ذلك عن ارادة المأمون ، ولكن بقي أثر ذلك في قلبه ، فكان لا يقدر ان يراه . ولقد دخل عليه يوما فبكى المأمون ، فقال له طاهر : لم تبك لا أبكى الله عينك ، فلقد دانت لك البلاد ، فقال ابكى لأمر ذكره ذل ، وسره حزن ، ولئن يخلوا احد من شجن . فلما خرج طاهر نفذ الى حسين الخادم ما بقي ألف درهم وسأله ان يسأل المأمون لم بكى فلما تغدى المأمون قال : يا حسين اسقني . قال : لا والله لا أسقيك حتى تقول لي لم بكيت حين دخل عليك طاهر . قال : يا حسين وكيف عنيت بهننا حتى سألت عنه . قال لعني بذلك . قال : يا حسين أمر إن خرج من رأسك قتلتك . قال ياسيدي ومتى اخرجت لك سرا . قال : اني ذكرت أخى محمد اوما ناله من الذلة فخنقنني العبرة فاسترحت الى افاضتها . ولئن يفوت طاهرا مني

ما يكره . فاخبر حسين طاهرا بذلك ، فركب طاهر الى احمد بن ابي خالد فقال له : ان المعروف عندى ليس بضايغ فغيبني عن عينه . قال : سأفعل فدخل على المأمون فقال : مابت البارحة . قال : ولم قال : لأنك وليت غسان ابن عباد خراسان . وهو ومن معه أكلة رأس ، فاخاف ان يخرج خارج من الترك فيصطلمه . قال : فن ترى قال : طاهر بن الحسين . فعقد له فمضى ، فبقي مدة ثم قطع الدعاء للمأمون على المنبر يوم الجمعة . فقال له صاحب البريد : مادعوت لا مير المؤمنين قال سهو فلا تكتب . ففعل ذلك في الجمعة الثانية والثالثة . فقال له : لا بد ان اكتب لئلا يكتب التجار ويسبقوني قال : اكتب فكتب ، فدعا المأمون احمد بن ابي خالد وقال : انه لم يذهب على احتيالك في امر طاهر ، وانا اعطى الله عهدا ان لم تشخص حتى توافيني به كما خرجته من قبضتي لتدمن عقباك ، فشخص وجعل يتلوم في الطريق ويعتل بالمرض ، فوصل الى الرى وقد بلغت وفاة طاهر . قلت : ولما خرج الراشد من بغداد وارادوا تولية المقتدى شهد جماعة من الشهود بأن الراشد لا يصلح للخلافة فترعوه وولى المقتدى ، فبلغني انه ذكر للمقتدى بعض الشهود فذمه ، وقال : كان فيمن أعان على ابي جعفر . وعلى ضد هذا كل من براعى جانب الحق والصواب يرضى عنه من سخط عليه . ولقد حدثني الوزير ابن هبيرة ان المستنجد بالله كتب اليه كتابا وهو يومئذ ولى عهد ، واراد ان يستره من أبيه قال فقلت : للواصل به والله ما يمكنني اقرؤه ولا أجيب عنه . فلما ولى الخلافة دخلت عليه فقلت : اكبر دليل على صدقي واخلاصي اني ما حايتك في ابيك . فقال : صدقت انت الوزير . وحدثني بعض الاصدقاء ان قوما الحفوا الى المخزن بعض دين لهم ليستخلص ، فقال : المسترشد لصاحب

المخزن : خلصه لهم وخذ ماضموا لنا . فأحضر ابن الرطبي وعرض الأمر عليه ، فقال : هذا أمر بظلم وما أحكم فيه . فقال : ان السلطان قد تقدم ، قال ما أفعل . فأحضر قاضيا آخر فبت الحكم ، فأخبر الخليفة بالحال . فقال : أما ابن الرطبي فيشكر على ما قال . وأما الآخر فيعزل . وذلك لانه بان له ان الحق ما قاله ابن الرطبي . وكذلك ما طلبه السلطان من ابن باقرب ملك الملوك ، فاستفتى الفقهاء فاجازوا ذلك وامتنع من اجازته للماوردي ، فعظم قدره عند السلطان . ومثل هذا اذا تتبع كثير . فينبغي ان يحسن القصد لطاعة الخالق وان يسخط المخلوق ، فانه يعود صاغرا ولا يسخط الخالق ، فانه يسخط المخلوق فيفوت الحظان جميعا .

١٨٤ - فصل - مفيد ينبغى للعاقل أن ينظر الى الاصول فيمن

يخالطه ويماسره ويشاركه ويصادقه ويزوج أو يتزوج اليه . ثم ينظر بعد ذلك في الصور ، فان صلاحها دليل على صلاح الباطن . أما الاصول فان الشيء يرجع الى أصله . وبعيد ممن لا أصل له ان يكون فيه معنى مستحسن . وان المرأة الحسنة اذا كانت من بيت ردى فقل أن تكون صينة . وكذلك أيضاً المخالط والصديق والمباضع والمعاشر . فإياك أن تخالط الا من له أصل يخاف عليه الدنس ، فالغالب السلامة . وان وقع ذلك كان نادراً . وقد قال عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه لرجل : أشتر على فيمن أستعمل . فقال : أما أرباب الدين فلا يريدونك . وأما أرباب الدنيا فلا تردهم . ولكن عليك بالأشراف ، فانهم يصونون شرفهم عما لا يصلح . وقد روى أبو بكر الصولي قال حدثني الحسين بن يحيى عن اسحق قال : دعاني المعتصم يوما فأدخلني معه الحمام ، ثم خرج نخلابى وقال : يا أبا اسحق في نفسي شيء

أريد أن أسألك عنه ، ان أخى المأمون اصطنع قوما فأتجبوا ، واصطفيت أنا مثلهم فلم ينجبوا ، قلت ومن هم قال : اصطنع طاهرا وابنه واسحق وآل سهل فقد رأيت كيف هم . واصطنعت أنا الافشين فقد رأيت الى ما آل أمره . وأساس فلم أجده شيئا ، وكذلك ايتاخ ووصيف . قلت : يا أمير المؤمنين ، ههنا جواب على أمان من الغضب . قال لك ذاك قلت : نظر أخوك الى الاصول فاستعملها فأنجبت فروعها ، واستعملت فروعا لأصول لها فلم تنجب ، فقال : يا أبا اسحق مقاساة ما صر بي طول هذه المدة أهون على من هذا الجواب . أما الصود ، فانه متى صحت البنية ولم يكن فيها عيب فالغالب صحة الباطن وحسن الخلق ، ومتى كان فيها عيب فالعيب في الباطن ايضا ، فاحذر من به عاهة كالأقرع والأعمى وغير ذلك ، فان بواطنهم في الغالب ردية ، ثم مع معرفة أصول المخالطة وكمال صورته لا بد من التجربة قبل المخالطة ، واستعمال الحذر لازم ، وان كان كما ينبغي .

— ١٨٥ فصل — ينبغي أن يكون شغل العاقل في العواقب

والتحرز مما يمكن ان يكون . ومن الغلط النظر في الحالة الحاضرة كالموافق لمعاشه واصحة بدنه ، وربما يجري له مصحوبه فينبغي ان يعمل على انقطاع ذلك ، فيكون مستعدا لتغير الاحوال . وكذلك النظر في لذة تغنى وتبقى تبعثها وعارها ، وإيثار الكسل والدعة لما يجيء من بقاء الجهل . وكذلك تحصيل المرادات التي لا تحصل الا بالتلطف في الاحتياال ، خصوصا اذا أريد من ذكى فانه يفطن بأقل تلويح ، فمن أراد غلبة الذكى دقق النظر وتلطف في الاحتياال ، وقد ذكر في كتب الحيل ما يشهد الخواطر ، وأتينا بجملة منه في كتاب الاذكياء ، مثل ما روى ان رجلا من الأشراف كان لا يقوم

لأحد ولا ينجس أحدا ، فجاز عليه بعض الوزراء فلم يرد ولم يقم ، فقال ذاك الوزير لرجل : أخبر فلانا اني قد كلمت أمير المؤمنين في حقه : وقد أمر له بمائة ألف ، فليحضر ليقبضها ، فأخبره ذلك الرجل فقال الشريف : ان كان أمر لي بشيء فلينفذه لي ، وانما مقصوده ان يضع مني بالتردد عليه . فتى وقع الانسان مع ذكي فينبغي ان يتحرز منه ويسرق أغراضه بصنوف الاحتيال وينظر فيما يجوز وقوعه فليحترز منه كما ينظر صاحب الرقعة النملات . وكثير من الاذكياء لم يقدرُوا على اغراضهم من ذكي فأعطوه وبالغوا في اكرامه ليصيده . فان كان قليل الفطنة وقع في الشرک ، وان كان أقوى منهم ذكاء علم ان تحت هذه الجنية خبية فزاده ذلك احترازا . وأقوى ما ينبغي ان يكون الاحتراز من موتور ، فانك اذا آذيت شخصا فقد غرست في قلبه عداوة ، فلا تأمن تفريع تلك الشجرة ، ولا تلتفت الى ما يظهر من ود وان حلف فان قاربته فكن منه على حذر .

١٨٦ - فصل - في حفظ السر . رأيت أكثر الناس لا يتمالكون من إفشاء سرهم ، فاذا ظهر عاتبوا من أخبروا به . فوا عجباً كيف ضاقوا بحبسه ذرعاً ثم لاموا من أفشاه ، وفي الحديث : استعينوا على قضاء اموركم بالكتمان : ولعمري ان النفس يصعب عليها كتم الشيء ، وترى بأفشائه راحة ، خصوصا اذا كان مرضا أو هما أو عشقا ، وهذه الاشياء في إفشائها قرينة . انما اللازم كتمان احتيال المحتال فيما يريد ان يحصل به غرضا ، فان سوء التدبير إفشاء ذلك قبل تمامه ، فانه اذا ظهر بطل ما يرا د أن يفعل ، ولا عذر لمن أفشى هذا النوع . وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم اذا أراد سفر او ري بغيره . فان قال قائل : انما أحدث ، قيل له وكل حديث جاوز الاثني عشر شائع . وربما

لم يكتم صديقك . وكم قد سمعنا من يحدث من الملوك بالقبض على صاحب
فتم الحديث الى الصاحب وهرب ففات السلطان مراده . وانما الرجل
الحازم الذى لا يتعداد سره ولا يفشيه الى احد . ومن العجز إفشاء السر
الى الولد والزوجة ، والمال من جملة السر . فاطلاهم عليه ان كان كثيرا فربما
تمنوا هلاك الموروث . وان كان قليلا تبرموا بوجوده . وربما طلبوا من
الكثير على مقدار كثرته فأتلفته النفقات . وستر المصائب من جملة كتمان
السر ، لان اظهارها يسر الشامت ويؤلم المحب . وكذلك ينبغي ان يكتم
مقدار السن ، لانه ان كان كبيرا استهرموه وان كان صغيرا احتقروه . ومما
قد انهال فيه كثير من المفرطين انهم يذكرون بين أصدقائهم اميرا أو
سلطانا فيقولون فيه فيبلغ ذلك اليه فيكون سبب الهلاك . وربما رأى
الرجل من صديقه اخلاصا وافيا فاشاع سره . وقد قيل :

احذر عدوك مرة واحذر صديقك الف مرة

فلربما انقلب الصديق فكان أدرى بالمضرة

ورب مفش سره الى زوجة أو صديق فيصير بذلك رهينا عنده ولا
يتجاسر أن يطلق الزوجة ، ولا ان يهجر الصديق ، مخافة ان يظهر سره
القبيح . فالحازم من عامل الناس بالظاهر ، فلا يضيق سره في صدره . فان
فارقته امرأة أو صديق أو خادم لم يقدر احد منهم ان يقول فيه ما يكره .
ومن أعظم الأسرار الخلوأ ، فليتنظر الحازم فيها من الانبساط بمراى من
مخلوق . ومن خلق له عقل ثاقب دله على الصواب قبل الوصايا .

١٨٧ - فصل - ما رأيت أصعب على النفس من الحفظ للمعلم
والتكرار ، وخصوصا تكرار ما ليس لها في نفس تكراره وحفظه حظ ،

مثل مسائل الفقه . بخلاف الشعر والسجع ، فإن لها لذة في اعادته وإن كان
ثمصب ، لأنها تلتذ به مرة ومرتين ، فإذا زاد التكرار صعب عليها ، ولكن
دون صعبوبة الفقه وغيره من المستحسنات عند الطبع ، فتراها تتخلد الى
الحديث والشعر والتصانيف والنسخ ، لأنه يمر بها كل لحظة ما لم تره ، فهو في
المعنى كلماء الجارى ، لأنه جزء بعد جزء ، وكذا من ينسخ ما يجب ان يسمعه
أو يصنف ، فإنه يلتذ بالحدة ويستريح من تعب الاعداء ، إلا انه ينبغي
للعاقل ان يكون جل زمانه للاعداء ، خصوصا الصبي والشاب ، فإنه يستقر
المحفوظ عندهما استقرارا لا يزول ، ويجعل أوقات التعب من الاعداء للنسخ ،
ويحذر من تقلتها الى النسخ عن الاعداء فيقهرها ، فإنه يحمد ذلك حمد السري
وقت الصباح ، وسيندم من لم يحفظ ندم الكسبي وقت الحاجة الى النظر
والفتوى ، وفي الحفظ- نكتة ينبغي ان تلاحظ ، وهو ان الفقيه يحفظ- الدرس
ويعيده ، ثم يتركه فينساه فيحتاج الى زمان آخر لحفظه ، فينبغي ان يحكم الحفظ
ويكثر التكرار ليثبت قاعدة الحفظ- .

١٨٨- فصل- ما عرف نفعا كالعزلة عن الخلق خصوصا للعالم والزهيد
فإنك لا تكاد ترى الا شامتا بنكبة أو حسودا على نعمة ، ومن يأخذ عليك
غلطاتك . فيا للعزلة ما الذها . سلمت من كدر غيبة ، وآفات تصنع ، واحوال
المداجاة ، واضييع الوقت . ثم خلا فيها القلب بالفكر ، لأنه مستلذ عنه
بالمخالطة ، فدبر أمر دنياه وآخرته . فمثله كمثل الحمية يخلو فيها المعابلا خلاط
فيذبيها . وما رأيت مثل ما يصنع المخالط ، لأنه يرى حالته الحاضرة من لقاء
الناس وكلامهم فيشتغل بها عما بين يديه . فمثله كمثل رجل يريد سفرا قد أذف ،
فجالس أقواما فشغلوه بالحديث حتى ضرب البوق وماتروا ، فلو لم يكن في

العزلة إلا التفكير في زاد الرحيل والسلامة من شر المخالطة كفى . ثم لا عزلة على الحقيقة إلا للعالم والزاهد ، فانهما يعلمان مقصود العزلة ، وان كانا لا في عزلة . وأما العالم فعلمه مؤنسه ، وكتبه محدثه ، والنظر في سير السلف مقومه ، والتفكير في حوادث الزمان السابق فرجته . فان ترقى بعلمه الى مقام المعرفة الكاملة للخالق سبحانه وتشبهت بأذيال محبته تضاعفت لذاته ، واشتغل بها عن الأكوان وما فيها . فخلا بحبيبه وعمل معه بمنتهى علمه . وكذلك الزاهد تعبده أنيسه ، ومعبوده جليسه ، فان كشف لبصره عن المعمول معه غاب عن الخلق ، وغابوا عنه : انما اعتزلا ما يؤذى . فهما في الوحدة بين جماعة . فهذان رجلان قد سلما من شر الخلق ، وسلم الخلق من شرورهما ، بل هما قدوة للمتعبدين وعلم للسالكين . ينتفع بكلامهما السامع . ونجى موعظتهما المدامع . وتنتشر هيبتهما في الجامع . فمن أراد أن يتشبه بأحدهما فليصبر الخلو وان كرهها ليثمر له الصبر العسل . وأعوذ بالله من عالم يخالط للعالم ، خصوصا لأرباب المال والسلطين يجتلب ويحتلب ويختلب فما يحصل له شئ من الدنيا الا وقد ذهب من دينه أمثاله . ثم أين الأنفة من الذل للفساق . فالذى لا يبالي بذلك هو الذى لا يذوق طعم العلم ولا يدري ما المراد به ، وكأنه به وقد وقع في بادية جرز وقفر أمل مهلك في تلك البرارى . وكذلك المنزه اذا خالط وخلط ، فانه يخرج الى الربا والتصنع والتفاق . فيفوته الحظان لا الدنيا ونعيمها يحصل له ولا الآخرة . فنسأل الله عز وجل خلوة خلوة . وعزلة عن الشر لذة يستصلحنا فيها للمناجاة . ويلهم كلا منا طلب نجاته . انه قريب مجيب .

١٨٩ - فصل - ما أبله من لا يعلم متى يأتيه الموت ، وهو لا يستعد للقاءه .

وأشد الناس بلاءً وتغفيلًا من قد عبر الستين وقارب السبعين ، فان ما بينهما

هو معترك المنايا . ومن نازل المعترك استعد وهو غافل عن الاستعداد :

قال الشباب لعلنا في شيبنا ندع الذنوب فما يقول الأشيب

والله ان الضحك من الشيخ ماله معنى . وان المزاح منه بارد المعنى . وان تعرضه بالدنيا وقد دفعته عنها يضعف القوى ويضعف الرأي . وهل بقي لابن ستين منزل . فان طمع في السبعين فانما يرتقى اليها بعناء شديد ان قام دفع الأرض . وان مشى لهث . وان قعد تنفس . ويرى شهوات الدنيا ولا يقدر على تناولها . فان أكل كد المعدة ، وصعب الهضم ، وان وطئ أذى المرأة ، ووقع دنفا لا يقدر على رد مذهب من القوة الى مدة طويلة . فهو يعيش عيش الأسير . فان طمع في الثمانين فهو يزحف اليها زحف الصغير :

وعشر الثمانين من خاضها فان الملمات فيها فنون

فالعقل من فهم مقادير الزمان . فانه فيما قيل قبل البلوغ صبي ليس على عمره عيار ، الا ان يرزق فطنة ففي بعض الصبيان فطنة تحثهم من الصغر على اكتساب المكارم والعلوم . فاذا بلغ فليعلم انه زمان المحاهدة للهوى وتعلم العلم . فاذا رزق الأولاد فهو زمان الكسب للمعاملة . فاذا بلغ الاربعين انتهى تمامه . وقضى مناسك الاجل . ولم يبق الا الانحدار الى الوطن :

كان الفتى يرقى من العمر معلما الى أن يجوز الاربعين وينحط

فينبغي له عند تمام الاربعين أن يجعل جل همته التزود للآخرة . ويكون كل تلمحه لما بين يديه . ويأخذ في الاستعداد للرحيل . وان كان الخطاب بهذا لابن عشرين ، الا أن رجاء التدارك في حق الصغير لا في حق الكبير . فاذا بلغ الستين فقد أعذر الله اليه في الأجل وجاز من الزمن . فليقبل بكلية الى جمع زاده ، ونهي آلات السفر ، وليعتقد كل يوم يحيي فيه لغنيمة ماهي

في الحساب . خصوصاً اذا قوى عليه الضعف وزاد ، فانه لا محرك^(١) ، كم ووكما علت سنه فينبغي أن يزيد اجتهاده . فاذا دخل في عشر الثمانين فليس الا الوداع . وما بقى بمكة . العمر تجارة الانفس . آسف على تفريط أو تعبد على ضعف . نسأل الله عز وجل بقطة تامة تصرف عنارقاد الغفلات . وعملاً صالحاً نأمن معه من الندم يوم الانتقال . والله الموفق .

١٩٠ - فصل - ما نهى السلف عن الخوض في الكلام الا لأمر عظيم ، وهو أن الانسان يريد أن ينظر مالا يقوى عليه بصره فربما تحير فخرج الى الحجب ، لأننا اذا نظرنا في ذات الخالق حار العقل وبهت الحس ، لانه لا يعرف شيئاً لا بداية له ، لا يعلم الا الجسم والجوهر والعرض ، فاثبات ما يخرج عن ذلك لا يفهمه ، وان نظرنا في أفعاله رأيناه يحكم البنائهم ينقضه ولا نطلع على تلك الحكمة ، فالاولى للعقل ان يكف كف التطلمع الى ما لا يطيق النظر اليه ، ومتى قام العقل فنظر في دليل وجود الخالق بمصنوعاته ، وأجاز بعثة نبي واستدل بمعجزاته ، كفاه ذلك ان يتعرض لما قد أغنى عنه ، واذا قال القرآن كلام الله تعالى بدليل قوله «حتى يسمع كلام الله» كفاه . واما من تمذلق فقال : التلاوة هي المتلوا أو غير المتلوا ، والقراءة هي المقروء أو غير المقروء ، فيضيع الزمان في غير تحصيل ، والمقصود العمل بما فهم . وقد حكى ان ملكاً كتب الى عماله في البلدان اني قادم عليكم فاعملوا كذا وكذا ، ففعلوا الا واحدا منهم ، فانه قد يتفكر في الكتاب فيقول : أتري كتبه بعداد أو بحبر أتري كتبه قائماً أو قاعداً ، فما زال يتفكر حتى قدم الملك ولم يعمل مما أمره به شيئاً ، فأحسن جوائز السكل وقتل هذا .

١٩١ - فصل - لقد غفل طلاب الدنيا عن اللذة فيها واللذة فيها شرف العلم وزهرة العفة وأنفة الحمية ، وعز القناعة ، وحلاوة الافضال على الخلق ، فأما الالتذاذ بالمطعم والمنكح فشغل جاهل باللذة ، لان ذاك لا يراد لنفسه بل لاقامة الموض في البدن والولد ؛ وأى لذة في النكاح وهى قبل المباشرة لا تحصل ، وفي حال المباشرة قلق لا يثبت عند اتقضاءها ، كأن لم يكن ، ثم يثمر الضعف في البدن . وأى لذة في جمع المال فضلا عن الحاجة . فانه مستعبد للخازن ، يبيت حذرا عليه ، ويدعوه قليله الى كثيره . وأى لذة في المطعم وعند الجوع يستوى خشنه وحسنه . فان ازداد الاكل خاطر بنفسه . قال على بن أبى طالب رضى الله عنه : بنيت الفتنة على ثلاث ، النساء وهن فح ابليس المنصوب . والشراب وهو سيفه المرفف . والدينار والدرهم ، وهما سهماه المسمومان . فمن مال الى النساء لم يصف له عيش . ومن أحب الشراب لم يتمتع بعقله . ومن أحب الدينار والدرهم كان عبدا لهما ما عاش .

١٩٢ - فصل - أصل كل محنة في العقائد قياس أمر الخالق على أحوال الخلق . فان الفلاسفة لما رأوا ايجاد شيء لا من شيء كالمستحيل في العادات قالوا بقديم العالم . ولما عظم عندهم في العادة الاحاطة بكل شيء قالوا : انه يعلم الجمل لا التفاصيل . ولما رأوا تلف الابدان بالبلاء أنكروا اعادتها . وقالوا الاعادة رجوع الأرواح الى معادنها . وكل من قاس صفة الخالق على صفات المخلوقين خرج الى الكفر . فان المجسمة دخلوا في ذلك لانهم حملوا أوصافه على ما يعقلون . وكذلك نديره عز وجل . فان من حملة على ما يعقل في العادات رأى ذبح الحيوان لا يستحسن ، والامراض تستقبح ، وقسمة

الغنى للأبله ، والفقر للجلد العاقل أمرا ينافي الحكمة . وهذا في الاوضاع بين الخلق . فأما الخالق سبحانه فان العقل لا ينتهى إلى حكمته . بلي . قد ثبت عنده وجوده وملاكمه وحكمته . فتعرضه بالتفاصيل على ما تجرى به عادات الخلق جهل . ألا ترى الى أول المعترضين وهو ابليس كيف ناظر فقال : أنا خير منه ، وقول خليفته وهو أبو العلاء المعرى :

رأى منك ما لا يشتهى فتزندقا

ونسأل الله عز وجل توفيقا للتسليم ، وتسليما للحكيم « ربنا لا تزغ قلوبنا بعد اذ هديتنا » أترى تقدر على تعليل أفعاله فضلا عن مطالعة ذاته ، وكيف نفيس أمره على أحوالنا ، فاذا رأينا نبينا صلى الله عليه وسلم يسأل في أمه وعمه فلا يقبل منه ويتقلب جائعا والدنيا ملك يده . ويقتل أصحابه والنصر يمدخالقه ، أوليس هذا مما يحير ! فالذاوالاعتراض على مالك قد ثبتت حكمته واستقر ملكه

١٩٣ - فصل - تأملت عجبا ، وهو ان كل شئ نفيس خطير يطول طريقه ويكثر التعب في تحصيله . فان العلم لما كان أشرف الاشياء لم يحصل الا بالتعب والسهر والتكرار وهجر اللذات والراحة . حتى قال بعض الفقهاء : بقيت سنين أشتهى الهريسة لا أقدر ، لأن وقت بيعها وقت سماع الدرس . ونحو هذا تحصيل المال ، فانه يحتاج الى المخاطرات والاسفار والتعب الكثير . وكذلك نيل الشرف بالكرم والجود ، فانه يفتقر الى جهاد النفس في بذل المحبوب ، وربما آل الى الفقر . وكذلك الشجاعة ، فانها لا تحصل الا بالمخاطرة بالنفس . قال الشاعر :

لولا المشقة ساد الناس كلهم الجود يُفقر والاقدام قتال
ومن هذا الفن تحصيل الثواب في الآخرة . فانه يزيد على قوة

الاجتهاد والتمديد ، أو على قدر وقع المبدول من المال في النفس ، أو على قدر الصبر على فقد المحبوب ومنع النفس من الجزع . وكذلك الزهد يحتاج الى صبر عن الهوى . والعفاف لا يكون الا بكف كف الشره . ولو لا ما عانى يوسف عليه السلام ما قيل له أيها الصديق . والله أقوام مارضوا من الفضائل الا بتحصيل جميعها . فهم يبالغون في كل علم ويجهدون في كل عمل . ويثابرون على كل فضيلة . فاذا ضعفت أبدانهم عن بعض ذلك قامت النيات نائمة وهم لها سابقون . وأكمل أحوالهم إعراضهم عن أعمالهم . فهم يحتقرونها مع التمام ويمتدرون من التقصير . ومنهم من يزيد على هذا فيتشاغل بالشكر على التوفيق لذلك ، وهم من لا يرى ما عمل أصلا لانه يرى نفسه وعمله لسيده . وبالعكس من المذكور عن أرباب الاجتهاد حال أهل الكسل والشره والشهوات ، فأن التذوا بعاجل الراحة لقد أوجبت ما يزيد على كل تعب من الأسف والحسرة . ومن تلمح صبر يوسف عليه السلام وعجلة ما عز بان له الفرق ، وفهم الرجح من الخسران . ولقد تأملت نيل الدر من البحر فرأيت بعد معاناة الشدائد . ومن تفكر فيما ذكرته مثلاً بانتهامه له أمثال ، فالموفق من تلمح قصر الموسم الممول فيه ، وامتداد زمان الجزاء الذي لا آخر له انتهب حتى اللحظة . وزاحم كل فضيلة ، فانها اذا فاتت فلا وجه لاستدراكها : أو ليس في الحديث يقال للرجل : « اقرأ وارق فنزلك عند آخر آية تقرأها » . فلو ان الفكر عمل في هذا حق العمل حفظ القرآن عاجلا .

١٩٤ - فصل - -- ليس المؤمن بالذى يؤدي فرائض العبادات

صورة ، ويتجنب المحظورات فحسب . انما المؤمن الكامل الايمان ولا يختلج في قلبه اعتراض ، ولا يساكن فيما يجرى وسوسة . وكلما اشتد البلاء

عليه زاد ايمانه . وقوى تسليمه . وقد يدعو فلا يرى للاجابة أثرا ، وسره لا يتغير لانه يعلم انه مملوك وله مالك يتصرف بمقتضى ارادته ، فان احتاج في قلبه اعتراض خرج من مقام العبودية الى مقام المناظرة ، كما جرى لابليس . والايان القوى يبين أثره عند قوة البلاء . فأما اذا رأينا مثل يحيى بن زكريا تسلط عليه فاجر فيأمر بذبحه فيذبح . وربما احتاج في الطبع ان يقول فهل رد عنه من جعله نبيا . وكذلك كل نسلط من الكفار على الانبياء والمؤمنين وما وقع رد عنهم ، فان هجس بالفكر ان القدرة تعجز عن الرد عنهم كان كفرا . وان علم ان القدرة متمكنة من الرد وما ردت ، ويجمع المؤمنون ويشبع الكفار ويمافي العصاة ، ويمرض المنتقين لم يبق الا التسليم للمالك وان أمض وأر مض . وقد ذهب يوسف بن يعقوب عليهما السلام فبكى ثمانين سنة ثم لم ييأس ، فقال : « عسى الله ان يأبى بهم جميعا » وقد دعا موسى عليه السلام على فرعون ، فأجيب بعد اربعين سنة وكان يذبح الانبياء ولا ترده القدرة القديمة العظيمة . وصلب السحرة ، وقطع أيديهم . وكمن بلية نزلت بمعظم القدر ، فما زاده ذلك الا تسليما ورضى فهناك يبين معنى قوله « ورضوا عنه » وههنا يظهر قدر قوة الايمان لافي ركعات ، قال الحسن البصري : استوى الناس في العافية فاذا نزل البلاء تباينوا .

١٩٥ - فصل - اضر ما على العوام المتكلمون . فانهم يخبطون عقائدهم بما يسمعون منه . من أقبح الاشياء ان يحضر العامي الذي لا يعرف أركان الصلاة ولا الربا في البيع مجلس الوعظ فلا ينهائهم عن التواني في الصلاة ، ولا يعلمه الخلاص من الربا ، بل يقول له القرآن قائم بالذات ، والذي عندنا مخلوق . فيهنون القرآن عند ذلك العامي ، فيحلف به على

الكذب . ويح المتكلم لو كان له فهم اعلم أن الله سبحانه وتعالى نصب أعلاما تأنس بها النفوس ونطمئن اليها كالكمبة وسماها بيته ، والعرش وذكر استواءه عليه ، وذكر من صفاته اليد والسمع والبصر والعين ، وينزل الى السماء الدنيا ، ويضحك . وكل هذا لتأنس النفوس بالعادات . وقد جل عما تضمنته هذه الصفات من الجوارح . وكذلك عظم أمر القرآن ، ونهى المحدث أن يمس المصحف . قال الامر يقوم من المتكلمين الى أن أجازوا الاستعناء به . فهو لاء على معاندة الشريعة ، لانهم يهينون ما عظم الشرع . وهل الايغال في الكلام مما يقرب الى معرفة الحقائق التي لا يمكن خلافها ؛ هيئات لو كان كذلك ما وقع بين المتكلمين خلاف ، أو ليس الشرب الاول ماتكموا في شيء من هذا ؛ وان كانوا تعرضوا ببعض الاصول . ثم جاء فقهاء الامصار فنهوا عن الخوض في الكلام ، اعلمهم ما يجلب وما يجتنب ومن لم يقنع بعقيدة مثل الصحابة ولا بطريق مثل طريق أحمد والشافعي في ترك الخوض فلا كان من كان . ثم بالله تأملوا اليس قد وجب علينا هجر الربا بقوله تعالى : « لا تأكلوا الربا » وهجر الزنا بقوله : « ولا تقربوا الزنا » فأى فائدة لنا في ذكر قراءة ومقروء وتلاوة ومتلو وقديم ومحدث . فان قيل : فلا بد من اعتقاد ، قلنا : طريق السلف أوضح محجة ، لانا نقوله تقليدا ، بل بالدليل ولـكنا لم نستفده عن جوهر وعرض وجزء لا يتجزى ، بل بأدلة النقل مع مساعدة العقل من غير بحث عما لا يحتاج اليه وليس هذا مكان الشرح .

١٩٦ - فصل - مازلت على عادة الخلق في الحزن على من يموت من الاهل والأولاد ، ولا أنخايل الا بلى الأبدان في القبور فاحزن لذلك .

فمرت بي أحاديث قد كانت تمر بي ولا أتفكر فيها ، منها قول النبي صلى الله عليه وسلم : إنما نفس المؤمن طائر تعلق في شجر الجنة حتى يرده الله عز وجل الى جسده يوم يبعثه : فرأيت ان الرحيل الى الراحة ، وان هذا البدن ليس بشيء ، لانه مركب تفكك وفسد ، وسينبى جديدا يوم البعث ، فلا ينبغي أن يتفكر في بلاءه . ولتسكن النفس الى أن الارواح انتقلت الى راحة فلا يبقى كبير حزن ، وان اللقا للاحباب عن قرب . وانما يبقى الاسف لتعلق الخلق بالصور ، فلا يرى الانسان الاجساد مستحسنات قد نقض فيحزن لنقضه . والجسد ليس هو الأدمى ، انما هو مركبه : فالارواح لا ينالها البلى . والأبدان ليست بشيء . واعتبر هذا بما اذا قلعت ضررك فرميت في حفرة ، فهل عندك خبر مما يلقي في مدة حياتك ، فحكم الأبدان حكم ذلك الضرس ، لا تدرى النفس ما يلقي . ولا ينبغي ان تغتم بتمزيق جسد المحبوب وبلاءه ، واذا كر تنعم الأرواح ، وقرب التجديد ، وعجل اللقاء والفكر في تحقيق هذا يهون الحزن ويسهل الامر .

١٩٧ - فصل - ينبغي للعاقل أن لا يتكلم في الخلوة عن أحد بشيء حتى يمثل ذلك الشيء ظاهرا معلنا به ثم ينظر فيما يحسن . فرب رجل وثق بصديق فتكلم عن سلطان بأمر فيبلغه فأهلكه ، أو عن صديق فيبلغه فوقع الواقعة . وكذلك ينبغي كتم المذاهب ، فانه ما يربح مظهرها إلا بالمعاداة . ولما صرح الشريف أبو جعفر في زمان المقتدى بمخالفة الأشاعرة أخذ وحبس حتى مات ، وكان المقصود قطع الفتن واصلاح الرعية ، فانه أم الى السلطان من التعصب لمذهب .

١٩٨ - فصل - رأيت كثيرا من المتغفلين يظهر عليهم السخط

بالأقدار ، وفيهم من قل إيمانه ، فأخذ يعترض ، وفيهم من خرج الى الكفر ، ورأى ان ما يجري كالعبث ، وقال ما فائدة الأعدام بعد الابداد ، والابتلاء بمن هو غنى عن أذانا . فقلت لبعض من كان يرمز الى هذا ان حضر عقلك وقلبك حدثك ، وان كنت تنكلم بمجرد واقعك من غير نظروا إنصاف فالحدث معك ضائع . ويحك : أحضر عقلك : واسمع ما أقول : أليس قد ثبت ان الحق سبحانه مالك ، وللمالك ان يتصرف كيف يشاء : أليس قد ثبت أنه حكيم والحكيم لا يعيب : وأنا أعلم ان في نفسك من هذه الكلمة شيئاً فانه قد سمعنا عن جالينوس انه قال : ما أدري ؟ أحكيم هو أم لا . والسبب في قوله هذا ، انه رأى نقضاً بعد إحكام : فقاس الحال على أحوال الخلق وهو أن من بنى ثم نقض لا معنى فليس بحكيم . وجوابه لو كان حاضراً أن يقال : بماذا بان لك ان النقض ليس بحكمة : أليس بعقلك الذى وهبه الصانع لك ؟ وكيف يهب لك الذهن الكامل ويفوته هو الكمال : وهذه المحنة التى جرت لا بليس . فانه أخذ يعيب الحكمة بعقله ، فلو تفكر علم ان واهب العقل أعلا من العقل ، وان حكمته أوفى من كل حكيم ، لانه بحكمته التامة أنشأ العقول . فهذا اذا تأمله المذصف زال عنه الشك . وقد أشار سبحانه الى نحو هذا فى قوله تعالى « اله البنات ولكم البنون » أى جعل لنفسه الناقصات وأعطاكم الكاملين : فلم يبق الا أن تضيف المعجز عن فهم ما يجرى الى نفسنا . ونقول هذا فعل عالم حكيم . ولكن ما يبين لنا معناه ، وليس هذا بعجب ، فان موسى عليه السلام خفى عليه وجه الحكمة فى نقض السفينة الصحيحة . وقتل الغلام الجميل : فلما يزل الخضر وجه الحكمة اذعن . فليكن مع الخالق كموسى مع الخضر . أو لستأزى

المائدة المستحسنة بما عليها من فنون الطعام النفيف الظريف يُقطع ويمضغ .
ولسنا نملك تلك الافعال ولا ننكر الافساد له ، لعلنا بالمصلحة الباطنة
فيه ، فما المانع أن يكون فعل الحق سبحانه له باطن لا نعلمه . ومن أجل
الجهال العبد المملوك اذا طلب ان يطلع على سر مولاه ، فان فرضه التسليم
لا الاعتراض . ولو لم يكن في الابتلاء بما ينكره الطباع الا ان يقصد
إذعان العقل وتسليمه لكفى . واقد تأملت حالة عجيبة ، يجوز أن يكون
المقصود بالموت هي ، وذلك ان الخالق سبحانه غيب في غيب لا يدركه
الاحساس . فلو انه لم ينقض هذه البنية لتخايل الانسان انه صنع لابصانع .
فاذا وقع الموت عرفت النفس نفسها التي كانت لا تعرفها لكونها في الجسد
وتدرك عجائب الامور بعد رحيلها . فاذا ردت الى البدن عرفت ضرورة
انها مخلوقة لمن أعادها . وتذكرت حالها في الدنيا . فان الأذكار تعاد كما
تعاد الأبدان . فيقول قائلهم « انا كنا قبل في أهلنا مشفقين » ومتى رأت
ما قد وعدت به من أمور الآخرة . أيقنت يقينا لاشك معه . ولا يحصل
هذا بإعادة ميت سواها . وانما يحصل برؤية هذا الامر فيها فيبني بنية تقبل
البقاء وتسكن جنة لا ينقضى دوامها ، فيصلح بذلك اليقين ان تجاوز الحق ،
لأنها آمنت بما وعد ، وصبرت بما ابتلى ، وسلمت لأقداره ، فلم تعترض ،
ورأت في غيرها العبر ، ثم في نفسها . فهذه هي التي يقال لها : « ارجى الى
ربك راضية مرضية فادخل في عبادى وادخل جنتى » فأما الشاك والكافر
فيحق لهما الدخول الى النار واللبث فيها ، لانهما رأيا الأدلة ولم يستفيدا
ونازعا الحكيم واعتراضا عليه ، فعاد شؤم كفرهما يطمس قلوبهما ، فبقيت
على ما كانت عليه ، فلما لم تنتفع بالدليل في الدنيا لم تنتفع بالموت والاعادة .

ودليل بقاء الخبث في القلوب قوله تعالى «ولو رُدُّوا لعادوا لِمَا نُهوا عنه»
 فنسأل الله عز وجل عقلاً مسامحاً يقف على حده ، ولا يعترض على خالقه
 وموجده . ثم الويل للمعترض ، أيرُدُّ اعتراضه إلا قدار : فما يستفيد إلا الخزي .
 نعمو ذل الله ممن خذل .

١٩٩ - فصل - لا ينبغي للمؤمن ان يتزعج من مرض أو نزول
 موت ، وان كان الطبع لا يملك . الا انه ينبغي له التصبر مهما أمكن ، إما
 اطلب الأجر بما يعازر ، أو لبيان أثر الرضى بالقضاء ، وما هي الا لحظات
 ثم تنقضى . ولا تفكر المعاني من المرض في الساعات التي كان يقلق فيها
 أين هي في زمان العافية ؛ ذهب البلاء وحصل الثواب ، كما تذهب حلاوة
 اللذات المحرمة ويبقى الوزر . ويمضي زمان التسيخ بالآقدار ، ويبقى العتاب .
 وهل الموت الا آلام تزيد فتعجز النفس عن حملها فتذهب فليتصور
 المريض وجود الراحة بعد رحيل النفس ، وقد هان ما يلقي ، كما يتصور
 العافية بعد شرب الشربة المرة . ولا ينبغي ان يقع جزع بذكر البلى ، فان
 ذلك شأن المركب . أما الراكب ففي الجنة أو في النار . وانما ينبغي أن يقع
 الاهتمام الكلى بما يزيد في درجات الفضائل قبل نزول المعوق عنها . فالسعيد
 من وفق لاغتنام العافية ، ثم يختار تحصيل الافضل فالافضل في زمن
 الاغتنام . وليعلم ان زيادة المنازل في الجنة على قدر التزيد من الفضائل ههنا .
 والعمر قصير ، والفضائل كثيرة فليبالغ في البدار . فيا طول راحة التعب ،
 وبافرحه المغموم ، وباسرور المحزون . ومتى تخايل دوام اللذة في الجنة من
 غير منقّص ولا قاطع ، هان عليه كل بلاء وشدة .

٢٠٠ - فصل - حضرنا يوماً جنازة شاب مات أحسن ما كانت

الدنيا له ، فرأيت من ذم الناس للدنيا ، وعيب من سكن اليها ، والتقييح للغافلين عن الاستعداد لهذا المصراع أمرا كبيرا من الحاضرين . فقلت : نعم ما قلتم . ولكن اسمعوا مني ما لم تسمعه . أعجب الاشياء ان العاقل اذا علم قرب هذا المصراع منه أوجب عليه عقله البدار بالعمل والقلق من الخوف . وقد اشتد ذلك بأقوام فهموا في البرارى ، وطووا الايام بالجماعة ، وداموا على سهر الليل ، ولازموا المقابر ، فهلكوا سريعا . ولعمري ان ما خافوه يستحق أكثر من هذا الفعل . ولكن نرى العقل الذي أوجب هذا القلق قد أمر بما يوجب السكون ، فقال : انما خاق هذا البدن ليحمل النفس كما تحمل الناقة الراكب ، ولا بد من التلطف بالناقة ليحصل المقصود من السير ، ولا يحسن في العقل دوام السهر وطول القلق ، لانه يؤثر في البدن فيفوت أكثر المقصود . كيف وقد خاق بدن الآدمي خلقا لطيفا ، فاذا هجر الدسم نشف الدماغ ، فاذا دام على السهر قوى اليبس ، فاذا لازم الحزن مرض القلب . فلا بد من التلطف بالبدن بتناول ما يصلحه وبالقلب بما يدفع الحزن المؤذى له . والا فتى دام المؤذى عجل التلف . ثم باتى الشرع بما قد قاله العقل . فيقول : ان لنفسك عليك حقا . وان لزوجك عليك حقا . فصم وأفطر . وقم ونم . ويقول : كفى بالمرء اثما ان يضيع من يقوت : ويحث على النكاح . وداوم القلق واليبس يترك الزوجة كالارملة ، والولد كاليتيم . ولا وجه للتشاغل بالعلم مع هذا القلق . ومن أراد مصداق ما قلته فليتأمل حالة الرسول ﷺ ، فانه كان يعدل ما عنده من الخوف فيمازح ، ويسابق عائشة ، ويكثر من الزوج . وكان يتلطف بيده ، فيختار الماء البائت ، ويحب الحلوى واللحم . ولولا مساكنة نوع غفلة لما

صنف العلماء ، ولا حفظ العلم ، ولا كُتِب الحديث . لازم من يقول :
ربما مت اليوم كيف يكتب وكيف يسمع ويصنف . فلا يهولكم ماترون
من غفلة الناس عن الموت حق ذكره ، فانها نعمة من الله سبحانه بها تقوم
الدنيا ، ويصلح الدين . وانما تدم قوة الغفلة الموجبة للتفريط والاهمال
للمحاسبة للنفس ، وتضييع الزمان في غير التزود ، وربما قويت فحملت على
المعاصي . فأما اذا كانت بقدر كانت كالمالح في الطعام لا بد منه ، فان كثر
صار الطعام زعافا . فالغفلة تمدح اذا كانت بقدر كما ينال . ومتى زادت وقع الذم .
فافهم ما قلته . ولا تقل فلان شديد اليقظة ما ينام الليل ، وفلان غافل ينام
أكثر الليل ، فان غفلة توجب مصلحة البدن والقلب لاتدم والسلام .

٢٠١ - فصل - ما يكاد يجب الاجتماع بالناس الافارغ ، لأن

المشغول القلب بالحق يفر من الخلق . ومتى تمكن فراغ القلب من معرفة
الحق امتلا بالخلق ، فصار يعمل لهم ومن أجاهم ويهلك بالرياء ولا يعلم . واني
لا تأمل على بعض من يتزيا بالفقر والتصوف وهو يلبس ثيابا لاتساوى
دينارا ، وعنده المال الكثير ، وقد أصرح نفسه في المطاعم الشهية ، وهو عامل
بمقتضى الكبر والتصدر ، فيتقرب الى أبواب الدنيا ، ويستذري أبواب العلم ،
ويزور أولئك دونهم . وانما يرُد ما يعطى لبشيع له اسم زاهد ، فتراه يربى
الناموس وهو في احتياله كثعلب ، وفي نهوضه على أغراضه في الباطن كلب
شرى . فاقول : سبحانه الله ، ما يزهو الا الشياطين ، أتري : ما سمع هذا قول النبي
صلى الله عليه وسلم : ان الله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده : وأعوذ بالله
من رؤية النفس ، ورؤية الخلق ، فان من رأى نفسه تكبر ، والمتكبر أحق
لأنه ما من شيء يتكبر به الا ولغيره أكثر منه ، ومن رأى الخلق عبيد

وهو لا يعلم . فأما العامل لله سبحانه وتعالى فهو بعيد من الخلق ، فان تقربوا إليه ستر حاله بما يوجب بعدم عنه . وقد رأينا من يرأى ولا يدري فيمتنع من المشى في السوق ، ومن زيارة الاخوان ، ومن أن يشتري شيئاً بنفسه ، وتوهمه نفسه اني أكره مخالطة السوق . وانما هذا يرى جاهاً بين العلماء ، اذ لو خالطهم لامتحى جاهه . وبطل تقبيل يده . وقد كان بشر الحافي يجلس في مجلس عند العطار . وابتاع من هذا كله أن نبينا صلى الله عليه وسلم كان يشتري ويحمله . وخرج علي بن أبي طالب رضى الله عنه وهو أمير المؤمنين فاشترى ثوباً . وقد كان طلحة بن مطرف قارئ أهل الكوفة ، فلما كثر الناس عليه مشى الى الأعمش فقراً عليه ، فقال الناس الى الأعمش وتركوا طلحة . هذا والله الكبريت الأحمر ، والاكير ، لا ما يظن الكسيرا في الكيمياء . والمعاملة مع الله تعالى هكذا تكون . فأما ضد هذه الحال فحالة عابد للخلق ملبس . وقد عم هذا جمهور الخلق حاشا السلف .

أفدى ظباء فلاة ما عرفن بها مضغ الكلام ولا صبغ الحواجيب

٢٠٢ - فصل - كل المعاصي قبيحة ، وبعضها أقبح من بعض ، فان الزنا من أقبح الذنوب ، فانه يفسد الفرش ويغير الأنساب ، وهو بالجارة أقبح . فقد روى في الصحيحين من حديث ابن مسعود قال : قلت يا رسول الله أى ذنب أعظم ؟ قال : أن تجعل لله ندا وهو خلقك . قلت : نعم أى ، قال : أن تقتل ولدك من أجل أن يطعم معك . قلت ثم أى ، قال : أن تزنى حليلة جارك : وقد روى البخارى في تاريخه من حديث المقداد بن الأسود عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : لأن يزنى الرجل بعشرة نسوة أيسر من أن يزنى بامرأة جاره . ولأن يسرق من عشرة أبيات

أيسر عليه من أن يسرق من بيت جاره : وإنما كان هذا ، لأنه يضم الى معصية الله عز وجل انتهاك حق الجار . ومن أقبح الذنوب أن يزني الشيخ : ففي الحديث : ان الله يبغض الشيخ الزاني : لأن شهوة الطبع قد مانت ، وليس فيها قوة تغلب ، فهو يحركها ويبالغ ، فكانت معصيته عنادا . ومن المعاصي التي تشبه المعاندة لبس الرجل الحرير والذهب ، خصوصا خاتم الذهب الذي يتحلى به الشيخ وانه من أبرد الأفعال وأقبح الخطايا . ومن هذا الفن الرياء والتخاشع واظهار التزهد للخلق ، فانه كالعبادة لهم مع اهمال جانب الحق عز وجل . وكذلك المعاملة بالربا الصريح ، خصوصا من الغنى الكثير المال . ومن أقبح الأشياء أن يطول المرض بالشيخ الكبير ولا يتوب من ذنب ، ولا يعتذر من زلة ، ولا يقضى دينه ، ولا يوصى باخراج حق عليه . ومن قبائح الذنوب أن يتوب السارق والظالم ولا يرد المظالم . والمفرط في الزكاة أوفى الصلاة ولا يقضى . ومن أقبحها أن يحنث في عین طلاقه ثم يقيم مع المرأة . وقس على ما ذكرته ، فالمعاصي كثيرة ، وأقبحها لا يخفى . وهذه المستقبحات فضلا عن القبائح تشبه العناد للأمر ، فيستحق صاحبها اللعن ودوام العقوبة . وانى لأرى شرب الخمر من ذلك الجنس ، لأنها ليست مشتهاة لذاتها ولا لريحها ولا اطعمها فيما يذكر ، انما لذتها فيما يقال بعد نجرع مرارتها ، فالأقدام على ما لا يدعو اليه الطبع الى أن يصل التناول الى اللذة معاندة . نسأل الله عز وجل ايمانا يحجز بيننا وبين مخالفته . وتوفيقا لما يرضيه . فانما نحن به وله .

٢٠٣- فصل - اعتبرت على أكثر العلماء والزهاد أنهم يبطنون الكبر فهذا ينظر في موضعه وارتفاع غيره عليه ، وهذا لا يعود مريضا فقيرا يرى

نفسه خيراً منه ، حتى اتى رأيت جماعة يوماً اليهم ، منهم من يقول لا أدفن الا في دكة أحمد بن حنبل ، ويعلم أن في ذلك كسر عظام الموتى ، ثم يرى نفسه أهلاً لذلك التصدر . ومنهم من يقول : ادفنوني الى جانب مسجدي ظناً منه أنه يصير بعد موته مزاراً كمعروف الكرخي . وهذه خلة مهلكة ولا يعلمون قال النبي صلى الله عليه وسلم : من ظن أنه خير من غيره فقد تكبر : وقل من رأى الا وهو يرى نفسه . والعجب كل العجب ممن يرى نفسه ، أرفق بماذا رآها : ان كان بالعلم فقد سبقه العلماء ، وان كان بالعباد فقد سبقه العباد ، أو بالمال فإن المال لا يوجب بنفسه فضيلة دينية .

فان قال : قد عرفت ما لم يعرف غيرى من العلم فى زمنى ، فما على من تقدم ، قيل له : ما أنا مراك يا حافظ القرآن أن ترى نفسك فى الحفظ كمن يحفظ النصف ، ولا يا فقيه ، ان ترى نفسك فى العلم كالعامى ، انما تحذر عليك ان ترى نفسك خيراً من ذلك الشخص المؤمن وان قل علمه ، فان الخيرية بالمعاني لا بصور العلم والعبادة . ومن تلمح خصال نفسه وذنوبها علم انه على يقين من الذنوب والتقصير ، وهو من حال غيره على شك . فالذى يحذر منه الاعجاب بالنفس ، ورؤية التقدم فى أحوال الآخرة . والمؤمن لا يزال يحتقر نفسه . وقد قيل لعمر بن عبد العزيز رضى الله عنه : ان مت ندفنك فى حجرة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : لأن ألقى الله بكل ذنب غير الشرك أحب الى من أن أرى نفسى أهلاً لذلك . وقدر وينا : ان رجلاً من الرهبان رأى فى المنام قائلاً يقول له : فلان الاسكافى خير منك ، فنزل من صومعته فجاء اليه فسأله عن عمله فلم يذكر كبير عمله ، فقيل له فى المنام : عد اليه وقل له : مّم صفرة وجهك ، فعاد فسأله فقال : ما رأيت

مسلمًا الا وظننته خيرًا مني فقبل له : فبذاك ارتفع .

٢٠٤ - فصل - متى رأيت صاحبك قد غضب وأخذ يتكلم بما لا يصلح ، فلا ينبغي أن تعقد على ما يقوله خنصرًا ، ولا أن تؤاخذ به ، فإن حاله حال السكران ، لا يدري ما يجري ، بل اصبر لفورته ، ولا تعول عليها ، فإن الشيطان قد غلبه ، والطبع قد هاج ، والعقل قد استتر ومتى أخذت في نفسك عليه ، أو أجبتة بمقتضى فعله كنت كعاقل واجه مجنونًا ، أو كمففق عاتب مغمى عليه ، فالذنب لك . بل انظر بعين الرحمة ، وتلمح تصريح القدر له ، وتفرج في لعب الطبع به . واعلم انه اذا انتبه ندم على ما جرى ، وعرف لك فضل الصبر . وأقل الاقسام ان تسلمه فيما يفعل في غضبه الى ما يستريح به . وهذه الحالة ينبغي ان يتلمحها الولد عند غضب الوالد ، والزوجة عند غضب الزوج ، فتتركة يشتفي بما يقول ، ولا تعول على ذلك ، فسيعود نادماً معتذراً . ومتى قوبل على حالته ومقاتلته صارت العداوة متمكنة ، وجازى في الافاقة على ما فعل في حقه وقت السكر . واكثر الناس على غير هذه الطريق ، متى رأوا غضبان قابلوه بما يقول ويعمل على مقتضى الحكمة . هذا . بل الحكمة ما ذكرته . وما يعقباها الا العالمون .

٢٠٥ - فصل - ليس في الدنيا أبله ممن يسيء الى شخص ويعلم انه قد بلغ الى قلبه بالأذى ثم يصطلحان في الظاهر ، فيعلم ان ذلك الأثر مُحجى بالصالح . وخصوصا المملوك ، فان لذتهم الكبرى أن لا يرتفع عليهم أحد ، ولا ينكسر لهم غرض . فاذا جرى شيء من ذلك لم ينجبر . واعتبر هذا بأبي مسلم الخراساني ، فانه غض من قدر المنصور قبل ولايته فحصل ذلك في نفسه فقتله . ومن نظر في التواريخ رأى جماعة قد جرى لهم مثل هذا .

ولا ينبغي لمن أساء الى ذي سلطان أن يقع في يده، فانه اذا رام التخلص لم يقدر .
 فيبقى ندمه على ترك احترازه . وحسرتة على مسا كنة الضمان للسلامة أشد
 عليه من كل ما يلقي به من الهوان والأذى . ومن هذا الجنس الاصدقاء
 المتماثلون . فانك متى آذيت شخصا وبلغ الى قلبه أذاك فلا تثق بمودته ، فان
 أذاك نصب عينه ، فان لم يحتل عليك لم يصف لك . ولا تخالط الا من أنعمت
 عليه بحسب ، فهو لم ير منك الا خيرا فيكون في نفسه . وكذلك الولد
 والزوجة والمعاملون . ويلحق بهذا ان أقول : لا ينبغي أن تعادى أحدا ولا
 تتكلم في حقه ، وربما صارت له دولة فاشتفى ، وربما احتيج اليه فلم يقدر
 عليه . فالعاقل يصور في نفسه كل ممكن ويستمر ما في قلبه من البغض والود ،
 ويدارى مع الغيظ والحقد . هذه مشاور العقل ان قبلت .

٢٠٣ - فصل - كل من لا يتلمح العواقب ويستعد لما يجوز
 وقوعه فليس بكامل العقل . واعتبر هذا في جميع الاحوال ، مثل أن يغتر
 بشبابه ويدوم على المعاصي ويسوف بالتوبة ، وربما أخذ بغتة ولم يبلغ بعض
 مأمل . وكذلك اذا سوف بالعمل أو بحفظ العلم ، فان الزمان ينقضى
 بالتسويق ويفوت المقصود ، وربما عزم على فعل خير أو وقف شيء من
 من ماله فسوف قبغت . فالعاقل من أخذ بالحزم في تصوير ما يجوز وقوعه
 وعمل بمقتضى ذلك ، فان امتد الاجل لم يضره ، وان وقع المخوف كان محترزا .
 ومما يتعلق بالدنيا ان يميل مع السلطان ويسبى الى بعض حواشيه ثقة
 بقربه منه ، وربما تغير ذلك السلطان فارتفع عدوه فانتقم منه . وقد يعادى
 بعض الاصدقاء ولا يبالى به لانه دونه في الحالة الحاضرة ، وربما صعدت
 مرتبة ذلك فاستوفى ما أسلفه اليه من القبيح وزاد . فالعاقل من نظر فيما

يجوز وقوعه ولم يعاد أحدا ، فان كان بينهما ما يوجب المعادة كنتم ذلك ، فان صح له ان يثب على عدوه فينتقم منه انتقاماً يبيحه الشرع جاز ، على ان العفو أصلح في باب العيش . ولهذا ينبغي ان يُخدم البطل ، فانه ربما عمل فعمل ذلك لمن خدم . وقس على أنموذج ما ذكرته من جميع الاحوال .

٢٠٧ - فصل - بقدر صعود الانسان في الدنيا تزل مرتبته في الآخرة . وقد صرح بهذا ابن عمر رضى الله عنهما فقال : والله لا ينال أحد من الدنيا شيئاً الا نقص من درجاته عند الله ، وان كان عنده كريماً . فالسعيد من اقتنع بالبلغة ، فان الزمان أشرف من أن يضيع في طلب الدنيا . اللهم الا أن يكون متورعاً في كسبه معيناً لنفسه عن الطمع قاصدا اعانة أهل الخير والصدقة على المحتاجين ، فكسب هذا أصلح من بطالته . فأما الصعود الذى سببه مخالطة السلاطين فبمبدأ أن يسلم معه الدين ، فان وقع سلامته ظاهراً فالعاقبة خطيرة . قال أبو محمد التميمي : ما غبطت أحدا الا الشريف أبا جعفر يوم مات القائم بأمر الله فانه غسله وخرج ينفض أكمامه فقمعد في مسجده لا يبالي بأحد ونحن مزعجون لا ندرى ما يجري علينا ، وذلك ان التميمي كان متعلقاً على السلطان يمضى له في الرسائل نخاف مغبة القرب . وقد رأينا جماعة من العلماء خالطوا السلطان فكانت مغبتهم سيئة . ولعمري انهم طالبوا الراحة فأخطوا طريقها ، لان غموم القلب لا يوازىها لذة مال ، ولا لذة مطعم ، هذا في الدنيا قبل الآخرة . ومن أشرف وأطيب عيشاً من منفرد في زاوية لا يخالط السلاطين ولا يبالي أطاب مطعمه أم لم يطب ، فانه لا يخلو من كسرة وقب ماء ، وهو سليم من أن

يقال له كلمة تؤذيه أو يعيبه الشرع حين دخوله عليهم أو الخلق . ومن تأمل حال أحمد بن حنبل في انقطاعه وحال ابن أبي داود ويحيى بن أكثم عرف الفرق في طيب العيش في الدنيا والسلامة في الآخرة . وما أحسن ما قال ابن أدهم : لو علم الملوك وابتناء الملوك ما نحن فيه من لذيذ العيش لجادلونا عليه بالسيوف . ولقد صدق ابن أدهم ، فان السلطان ان أكل شيئاً خاف ان يكون قد طرح له فيه سم ، وان نام خاف ان يُغتال ، وهو وراء المغاليق لا يمكنه ان يخرج لفرجة ، فان خرج كان منزعاً من أقرب الخلق اليه ، واللذة التي ينالها تبرد عنده ، ولا يبقى له لذة مطعم ولا منكح ، وكلما استظرف الطعام أكثر منها ففسدت معدته ، وكلما استجد الجوارى أكثر منها فذهبت قوته ، ولا يكاد يبعد ما بين الوطى فلا يجد في الوطى كبير لذة ، لان لذة الوطى بقدر بعد ما بين الزمانين ، وكذلك لذة الاكل . فان من أكل على شبع ووطى من غير صدق شهوة وقلق لم يجد اللذة التامة التي يجدها الفقير اذا جاع والعزب اذا وجد امرأة . ثم ان الفقير يرمى نفسه على الطريق في الليل فينام . ولذة الأمن قد حرمها الامراء . فلذتهم ناقصة ، وحسابهم زائد . والله ما أعرف من عاش رفيع القدر بالغاً من اللذات ما لم يبلغ غيره الا العلماء المخلصين كالحسن وسفيان وأحمد ، والعباد المحققين كمعروف ، فان لذة العلم تزيد على كل لذة . وأما ضرهم اذا جاعوا أو ابتلوا بأذى فان ذلك يزيد في رفعتهم ، وكذلك لذة الخلوة والتعب . فهذا معروف ، كان منفرداً بربه طيب العيش معه لذيد الخلوة به ، ثم قدم مات منذ نحو أربعين سنة فما يخلو ان يهدى اليه كل يوم ماتقدير مجموعته أجزاء من القرآن . وأقله من يقف على قبره فيقرأ قل هو الله أحد ويهديها له .

والسلاطين تقف بين يدي قبره ذليلة هذا بعد الموت ، ويوم الحشر تنشر الكرامات التي لا توصف ، وكذلك قبور العلماء المحققين . ولما بليت أقوام بمخالطة الامراء أثر ذلك التكدير في أحوالهم كلها : فقال : سفيان بن عيينة منذ أخذت من مال فلان الامير مَنعت ما كان وُهب لي من فهم القرآن وهذا أبو يوسف القاضي لا يزور قبره اثنان . فالصبر عن مخالطة الامراء وان أوجب ضيق العيش من وجه يحصل طيب العيش من جهات ، ومع التخليط لا يحصل مقصود . فن عزم جزم . كان أبو الحسن القزويني لا يخرج من بيته الا وقت الصلاة ، فربما جاء السلطان فيقعده لا تظاره ليسلم عليه ، ومدد النفس في هذا ربما أضجر السامع . ومن ذاق عرف .

٢٠٨ - فصل - من عرف الشرع كما ينبغي وعلم حالة الرسول صلى الله عليه وسلم وأحوال الصحابة وأكابر العلماء علم ان اكثر الناس على غير الجادة ، وانما يعيشون مع العادة ، يتزاورون فيغتاب بعضهم بعضاً ، ويطلب كل واحد منهم عورة اخيه ، ويحسده ان كانت نعمة ، ويشمت به ان كانت مصيبة ، ويتكبر عليه ان نصحه له ، ويخادعه لتحصيل شيء من الدنيا ، ويأخذ عليه العثرات ان أمكن . هذا كله يجري بين المنتمين الى الزهد لا الرعاع . فالاولى بمن عرف الله سبحانه وعرف الشرع وسير السلف الصالحين الانقطاع عن الكل ، فان اضطر الى اقاء منتسب الى العلم والخير تلقاه وقد لبس درع الحذر ، ولم يطل معه الكلام ، ثم عجل الهرب منه الى مخالطة الكتب التي تحوى تفسيراً لنطاق الكمال

٢٠٩ - فصل - الكمال عزيز . والكامل قليل الوجود . فأول أسباب الكمال يناسب أعضاء البدن ، وحسن صورة الباطن ، فصورة

البدن تسمى خلقاً ، وصورة الباطن تسمى خلقاً . ودليل كمال صورة البدن حسن الصمت ، واستعمال الادب . ودليل صورة الباطن حسن الطباع ، والاخلاق . فالطباع العفة ، والنزاهة ، والأنفة من الجمل ، ومباعدة الشره . والاخلاق الكرم ، والايثار ، وستر العيوب ، وابتداء المعروف ، والحلم عن الجاهل . فمن رزق هذه الاشياء رفته الى الكمال ، وظهر عنه أشرف الخلال ، وان نقصت خلة أوجبت النقص .

٢١٠ - فصل - ليس في الدنيا أبله ممن يريد معاملة الحق سبحانه على بلوغ الاغراض ، فأين تكون البنوى اذن : لا والله ، لا بد من انعكاس المرادات ، ومن توقف أجوبة السؤالات ، ومن تشفى الاعداء في أوقات . فأما من يريد أن تدوم له السلامة والنصر على من يعاديه ، والعافية من غير بلاء ، فما عرف التكليف ، ولا فهم التسليم . أليس الرسول صلى الله عليه وسلم يُنصر يوم بدر ، ثم يجرى عليه ما جرى يوم أحد . أليس يُصد عن البيت ثم قهر بعد ذلك . فلا بد من جيد وردى ، والجيد يوجب الشكر ، والردى يحرك الى السؤال والدعاء ، فان امتنع الجواب ، أريد نفوذ البلاء ، والتسليم للقضاء . وههنا يبين الايمان ، ويظهر في التسليم جواهر الرجال . فان تحقق التسليم باطناً وظاهراً فذلك شأن الكامل . وان وجد في الباطن انحصار من القضاء لا من المقضى فان الطبع لا بد أن ينفر من المؤذى دل على ضعف المعرفة . فان خرج الامر الى الاعتراض باللسان ، فتلك حال الجهال ، نعوذ بالله منها .

٢١١ - فصل - من الابتلاء العظيم اقامة الرجل في غير مقامه . مثل أن يحوج الرجل الصالح الى مداراة الظالم والتردد اليه ، والى مخالطة

من لا يصلح ، والى أعمال لا تليق به ، أو الى أمور تقطع عليه مراده الذى يؤثره ، مثل أن يقال للعالم : تردد الى الامير والا خفنا عليك سطوته ، فيتردد فيرى ما لا يصلح ولا يمكنه أن ينكر ، أو يحتاج الى شىء من الدنيا وقد منع حقه فيحتاج أن يعرض بذكر ذلك ، أو يصرح لينال بعض حقه ، وبحاجة الى مـدارة من تصعب مداراته ، بل يتشتت همه لتلك الضرورات . وكذلك يفتقر الى الدخول فى أمور لا تليق به ، مثل أن يحتاج الى الكسب فيتردد الى السوق أو يخدم من يعطيه أجرته . وهذا لا يحتمله قلب المراقب لله سبحانه لأجل ما يخالطه من الاكدار أو يكون له عائلة وهو فقير فيتفكر فى اغنائهم ، فيدخل فى مداخل كلها عنده عظيمه . وقد يتلى بفقد من يحب ، أو يساء فى بدنه ، وبمعكس أغراضه وتسليط معاديه عليه ، فيرى الفاسق يقهره . والظالم يذله . وكل هذه الاشياء تكدر عليه العيش ، وتكاد تزلزل القلب ، وليس فى الابتلاء بقوة الاشياء الا التسليم والابجا الى المقدّر فى الفرج . فيرى الرجل المؤمن الحازم يثبت لهذه العظائم ولا يتغير قلبه ، ولا ينطق بالشكوى لسانه . أو ليس الرسول ﷺ يحتاج ان يقول : من يواربنى من ينصرنى ، وبفتقر الى ان يدخل مكة فى جوار كافر ، ويشق السلى على ظهره وتُقتل أصحابه ، ويدارى المؤلفة ، ويشدد جوعه وهو ساكن لا يتغير . وما ذاك الا أنه علم ان الدنيا دار ابتلاء ، لينظر كيف يعملون . ومما يهون هذه الاشياء علم العبد بالأجر ، وان ذلك مراد الحق : فالجرح اذا أرضاكم ألم :

٢١٢ - فصل - لا ينكر ان الطباع تحب المال ، لانه سبب بقاء

الابدان ، لكنه يزيد حبه فى بعض القلوب حتى يصير محبوبا لذاته لا للتوصل

به الى المقاصد ، فترى البخيل يحمل على نفسه العجائب ، ويمنعها اللذات ،
وتصير لذاته في جمع المال . وهذه جملة في خاق كثير . وليس العجب ان
تكون في الجهال . وينبغي ان يؤثر فيها عند العلماء المجاهدة للطبع ومخالفته ،
خصوصاً في الافعال اللازمة في المال . فأما ان يكون العالم جامعاً للمال من
وجوه قبيحة من شبهات قوية وبحرص شديد وبذل في الطلب ، ثم يأخذ
من الزكوات ولا يحمل له مع الغنى ، ثم يدخره ولا ينفع به ، فهذه بهيمية
نخرج عن صفات الآدمية ، بل البهيمية أعذر ، لأنها بالرياضة تتغير طباعها ،
وهو لا ماغيرتهم بالرياضة ، ولا أفادهم العلم . ولقد كان أبو الحسن البسطامي مقبلاً
في رباط البسطامي الذي على نهر عيسى ، وكان لا يلبس الا الصوف شتاء
وصيفاً ، وكان يُحترم ويُقصد ، فخاف ما لا يزيد على أربعة آلاف دينار . ورأينا
بعض أشياخنا وقد باع الثمانين وليس له أهل ولا ولد ، وقد مرض فألقى نفسه
عند بعض أصدقائه يتكلف له ذلك الرجل ما يشتهي وما يشفيه ، فمات فخلف
أموالاً عظيمة . ورأينا صدقة بن الحسير الناسخ ، وكان على الدوام يذم الزمان
وأهله ، ويبائع في الطلب من الناس ويتخفف وهو في المسجد وحده ليس
له من يقوم بأمره ، فمات فخلف فيما قيل ثلاث مائة دينار . وكان يصحبنا
أبو طالب بن المؤيد الصوفي . وكان يجمع المال ، فسرق منه نحو مائة دينار ،
فقتلها عليها وكان ذلك سبب هلاكه . ومن أحوال الناس أنك ترى
أقواماً جلسوا على صفة القوم يطلبون الفتوح ، فيأتيهم منها الكثير الذي
يصيرون به من الأغنياء ، وهم لا يمتنعون من أخذ زكاة ولا من طلب .
وكذلك القُصَّاص ، يخرجون الى البلاد ويطلبون ، فيحصل لهم المال الكثير ،
فلا يتركون الطلب عادة . فيا سبحان الله . أي شيء أفاد العلم : بل الجهل كان لهؤلاء

اعذر . ومن أقبح أحوالهم لزومهم الأسباب التي تجلب لهم الدنيا من التخاشع والتنسك في الظاهر، وملازمة حث العزلة عن المخالطة، وكل هؤلاء بمنزل عن الشرع . ولقد تأملت على بعضهم من القدح في نظيره الى أن يبلغ به الى التعرض به للهلاك . فالويل لهم، ما أقل ما يتمتعون بظواهر الدنيا، وان كان مقلب القلوب قد صرف القلوب عن محبتهم، لأن الحق عز وجل لا يميل بالقلوب الا الى المخلصين . فقد فاتتهم الدنيا على الحقيقة، وهي أمسك القلوب والآخرة بالانفاق، وما حصوا الا صورة الخطام . نسأل الله عز وجل عقلا يدبر دنيانا، ويحصل لنا آخرتنا، والرزاق قادر .

٢١٣ - فصل - ينبغي لمن عرف شرف الوجود ان يحصل أفضل الموجود هذا العمر موسم . والتجارات تختلف . والامامة تقول : عليكم بما خف حمله وكثر ثمنه . فينبغي للمستيقظ أن لا يطلب الا الانفس وأنفس الاشياء في الدنيا معرفة الحق عز وجل . فن العارفين السالكين من وافي في طريقه بغيته في السفر، ومنهم من همته متعلقة بطلب ربحه، ومنهم من ينظر الى ما يرضى الحبيب فيجلبه الى بلد المعاملة، ويرضى بالقبول ثمنًا، ويرى أن كل البضائع لا تفي بحق الخفارة، ومنهم من يرى لزوم الشكر في اختياره السلوك دون غيره فيقر بالعجز . وقد ارتفع قوم عن هذه الأحوال، فرأوا مجرد التوفيق يشغلهم عن النظر الى العمل . اولئك الأقلون عدداً وأن الأعظمون قدرا أقل نسلا من عنقاء مغرب .

١٢٤ - فصل - من علم قرب الرحيل عن مكة استكثر من الطواف، خصوصا ان كان لا يؤمل العود لكبر سنه وضعف قوته . فكذلك ينبغي لمن قارب ساحل الأجل بملو سنه أن يبادر اللحظات، وينتظر

الهاجم بما يصلح له فقد كان في قوس الاجل منزع زمان الشباب ، واسترخى الوتر المشيب عن سية القوس . فأنحدر الى القاب وضعفت القوى أن يوتر ، وما بقى الا الاستسلام لمحارب التلف ، فالبدار البدار الى التنظيف ليكون القدوم على طهارة ، وأى عيش في الدنيا بطيب لمن أيامه السليمة تغريه الى الهلاك . وصعود عمره نزول عن الحياة . وطول بقائه تقص مدى المدة ، فليتكفر فيما يبر يديه ، وهو أهم مما ذكرناه . أليس في الصحيح : ما منكم أحد الا ويعرض عليه مقعده بالغداة والعشي من الجنة والنار غدوة وعشيا ، ^(١) فيقال : هذا مقعدك حتى يبعثك الله : فوالله لمهدد ، كم يقتل قبل القتل . ويا طيب عيش الموعود بأزيد المني . وليعلم من شارف السبعين ، ان النفس أنين . أعان الله من قد قطع عقبة العمر على رمل زرو والموت .

١٢٥ - فصل - من أراد أن يعلم حقيقة الرضى عن الله عز وجل في أفعاله ، وأن يدري من أين نشأ الرضى ، فليتكفر في أحوال رسول الله صلى الله عليه وسلم . فانه لما تكاملت معرفته بالخالق سبحانه رأى أن الخالق مالك ، وللمالك التصرف في مملوكه ، وراه حكما لا يصنع شيئا عبثا ، فسلم تسليم مملوك لحكيم ، فكانت المعجائب تجري عليه ولا يوجد منه تغير ، ولا من الطبع تأفف ، ولا يقول بلسان الحال لو كان كذا ؛ بل يثبت للأقدار ثبوت الجبل لمواصف الرياح . هذا سيد الرسل صلى الله عليه وسلم يمشى الى الخلق وحده والكفر قد ملأ الآفاق ، فجعل يفر من مكان الى مكان ، واستتر في دار الخيزران ، وهم يضربونه اذا خرج ويدمون عقبه وشق السلى على ظهره وهو ساكت ساكن . ويخرج كل موسم فيقول من

(١) هكذا بتكرار الغداة والعشي مرتين في الأصول التي بأيدينا فليراجع

يؤوبى من ينصرنى : ثم خرج من مكة فلم يقدر على العود الا فى جوار
كافر ، ولم يوجد من الطبع تأنف ، ولا من الباطن اعتراض . اذ لو كان
غيره لقال : يارب أنت مالك الخلق . وقادر على النصر . فلم أذل ، كما قال عمر
رضى الله عنه يوم صالح الحديدية : أسنا على الحق ، فلم نعطي الدنيا فى ديننا ؛
ولما قال هذا ، قال له الرسول صلى الله عليه وسلم : انى عبد الله ولن يضيعنى .
فجمعت الكلمتان الأصابتين اللذين ذكرناهما . فقوله : انى عبد الله . اقرار
بالمك وكأنه قال : أنا مملوك يفعل بى ما يشاء . وقوله : ان يضيعنى بيان
حكيمته ، وانه لا يفعل شيئاً عبثاً . ثم يتلى بالجوع فيشد الحجر ، والله خزائن
السموات والأرض . وتقتل أصحابه ، ويشج وجهه ، وتكسر رباعيته ،
ويعمل بعمه وهو ساكت . ثم يرزق ابناً ويسلب منه ، فيتعمل بالحسن
والحسين فيخبر بما سيجرى عليهما . ويسكن بالطبع الى عائشة رضى الله
عنها فينقص عيشه بقذفها . ويبالغ فى اظهار المعجزات فيقام فى وجهه
مسيلة والعنسى وابن صياد . ويقيم ناموس الامانة والصدق ، فيقال :
كذاب ساحر . ثم يعلقه المرض كما يوعك رجلان وهو ساكن ساكت .
فان أخبر بحاله فليعلم الصبر . ثم يشدد عليه الموت ، فيسلب روحه الشريفة
وهو مضجع فى كساء ملبد وازار غليظ ، وليس عندهم زيت يوقد به المصباح
ليلتئذ . هذا الشئ ما قدر على الصبر عليه كما ينبغي نبي قبله . ولو ابتليت به
الملائكة ما صبرت هذا آدم عليه السلام يباح له الجنة سوى شجرة فلا
يقع ذباب حرصه الا على العقر . ونبينا صلى الله عليه وسلم يقول فى المباح
مالى والدنيا . وهذا نوح عليه السلام يضج مما لاقى فيصيح من كمد وجده
« لا تذر على الارض من الكافرين ديارا » . ونبينا صلى الله عليه وسلم يقول : اللهم

أهد قومي فانهم لا يعلمون : هذا الكلام موسى صلى الله عليه وسلم ، يستغيث عند عبادة قومه المعجل على القدر « ان هي الافتنتك » ويوجه اليه ملك الموت فيقلع عينه . وعيسى صلى الله عليه وسلم يقول : ان صرفت الموت عن أحد فأصرفه عني . ونبينا صلى الله عليه وسلم يخير بين البقاء والموت فيختار الرحيل الى الرفيق الاعلى . هذا سليمان صلى الله عليه وسلم يقول : هب لي ملكا . ونبينا صلى الله عليه وسلم يقول : اللهم اجعل رزق آل محمد قوتا . هذا والله فعل رجل عرف الوجود والموجد ، فمات أغراضه ، وسكنت اعتراضاته فصار هو اه فيما يجري .

٢١٦ - فصل - اكثر شهوات الحس النساء . وقد يرى الانسان امرأة في ثيابها فيتخايل له أنها أحسن من زوجته ، أو يتصور بفكره المستحسنات وفكره لا ينظر الا الى الحسن من المرأة ، فيسمى في الزوج والتسرى ، فاذا حصل له مراده لم يزل ينظر في عيوب الحاصل التي ما كان يتفكر فيها فيعمل ويطلب شيئا آخر ، ولا يدري أن حصول أغراضه في الظاهر ربما اشتمل على محن ، منها أن تكون الثانية لادين لها أولا عقل أو لا محبة لها أو لا تدبير فيفوت أكثر مما حصل . وهذا المعنى هو الذي أوقع الزناة في الفواحش . لأنهم يجالسون المرأة حال استتار عيوبها عنهم وظهور محاسنها ، فتأذ لهم تلك الساعة ، ثم ينتقلون الى أخرى . فليعلم العاقل أن لا سبيل الى حصول مراد تام كما يريد « واستم بأخذه الا أن تغمضوا فيه » وما عيب نساء الدنيا بأحسن من قوله عز وجل « ولهم فيها أزواج مطهرة » وذو الأنفة يأنف من الوسخ صورة ، وعيب الخلق معنى . فليقنع بما باطنه الدين ، وظاهره الستر والقناعة . فانه يعيش مرفه السر . طيب القلب

ومتى ما استكثر ، فانما يستكثر من شغل قلبه ورقة دينه .

١٢٧ - فصل - سبحانه من شغل كل شخص بفن لتنام العيون في الدنيا فأما في العلوم فحبب الى هذا القرآن وإلى هذا الحديث وإلى هذا النحو اذ لو لا ذلك ما حفظت العلوم وألهم هذا المتعیش أن يكون خبازاً ، وهذا أن يكون هراً ، وهذا أن ينقل الشوك من الصحراء ، وهذا أن ينقى البشار ليلتئم الخلق . ولو ألهم أكثر الناس أن يكونوا خبازين مثلاً ، بات الخبز وهلك ، أو هراسين جفت الهرايس . بل يلهم هذا بقدر لينتظم أمر الدنيا وأمر الآخرة . ويندر من الخلق من يلهمه الكمال وطلب الفضل ، والجمع بين العلوم والأعمال ، ومعاملات القلوب ، وتتفاوت أدباً هذه الحال . فسبحان من يخلق ما يشاء ويختار . نسأله العفو ان لم يقع الرضى ، والسلامة لم نصلح للمعاملة .

١٢٨ - فصل - علم الحديث هو الشريعة ، لانه مبين للقرآن وموضح للحلال والحرام ، وكشف عن سير الرسول صلى الله عليه وسلم وسير أصحابه . وقد مزجوه بالكذب ، وأدخلوا في المنقولات كل قبيح ، فاذا وفق الزاهد والواعظ لم يذكر الا ما شهدا بصحته ، وان حرما التوفيق ، عمل الزاهد بكل حديث يسمعه لحسن ظنه بالرواة ، وقال الواعظ كل شيء يراه لجهله بالتصحيح ، ففسدت أحوال الزاهد ، وانحرف عن جادة الهدى ، وهو لا يعلم . وكيف لا وعموم الاحاديث الدالة على الزهد لا تثبت ، مثل حديث ابن عمر رضى الله عنهما : أيما امرئ مسلم اشتبهى شهوة فرد شهوته وآثر على نفسه غفر له : وهذا حديث موضوع ، يمنع الانسان ما أبيح له مما يتقوى به على الطاعة . ومثل قوله : من وضع ثياباً حسناً . وكذلك مارووا « أن رسول الله صلى

الله عليه وسلم قدم له أدمان فقال : أدمان في قدح ، لا حاجة لي فيه ، أكره أن يسألني الله عن فضول الدنيا . وفي الصحيح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم : أكل البطيخ بالرطب : ومثل هذا اذا تتبع كثير ، فقد بنوا على فسادده ، ففسدت أحوال الواعظ والموعوظ ، لأنه يبنى كلامه على أشياء فاسدة ومحالات . ولقد كانت جماعة من المزهدين يعملون على أحاديث ومنقولات لا تصح ، فيضيع زمانهم في غير المشروع . ثم ينكرون على العلماء استعمالهم للمباحات ، ويرون أن التجفف هو الدين . وكذلك الوعاظ يحدثون الناس بما لا يصح عن الرسول صلى الله عليه وسلم ولا أصحابه . فقد صار المحال عندهم شريعة . فسيحان من حفظ هذه الشريعة بأخبار أخيار ينفون عنها تحريف الغالين ، واتحال المبطلين .

١٢٩ - فصل - كان قد سألتني بعض أصحاب الحديث . هل في مسند احمد ما ليس بصحيح : فقلت : نعم . فعظم ذلك على جماعة ينسبون الى المذهب فحمت أمرهم على أنهم عوام ، وأهملت فكر ذلك . واذا بهم قد كتبوا افتاوى . فكتب فيها جماعة من أهل خراسان ، منهم أبو العلماء الهمداني يعظمون هذا القول ، ويردونه ويقبحون قول من قاله . فبقيت دهشة متعجبا ، وقلت في نفسي : واعجبا صار المنتسبون الى العلم عامة أيضا ، وما ذاك الا أنهم سمعوا الحديث ولم يبحثوا عن صحيحه وسقيمه ، وظنوا أن من قال . ماقلته قد تعرض للطعن فيما أخرجه احمد ، وليس كذلك . فان الامام احمد روى المشهور والجيد والردى ، ثم هو قد رد كثيرا مما روى ولم يقبل به ولم يجعله مذهباً له . أليس هو القائل في حديث الوضوء بالنبيذ مجهول : ومن نظر في كتاب العلل الذي صنفه أبو بكر الخلال رأى احاديث كثيرة

كلها في المسند ، وقد طعن فيها أحمد . ونقلت من خط القاضي أبي يعلى محمد ابن الحسين الفراء في مسئلة النبذ قال : انما روى احمد في مسنده ما اشتهر ، ولم يقصد الصحيح ولا السقيم . ويدل على ذلك ان عبد الله قال . قلت لأبي : ما تقول في حديث ربعي بن حراس عن حذيفة ! قال : الذي يرويه عبد العزيز بن أبي رواد ؟ قلت نعم . قال : الاحاديث بخلافه . قلت : فقد ذكرته في المسند . قال : قصدت في المسند المشهور ، فلو أردت أن أقصد ما صح عندي لم أرد من هذا المسند الا شيء بعد الشيء اليسير ، ولكنك يا بني تعرف طريقي في الحديث ، لست أخالف ما ضعف من الحديث اذا لم يكن في الباب شيء يدفعه . قال القاضي : وقد أخبر عن نفسه كيف طريقه في المسند . فمن جملة أصلا للصحة فقد خالفه وترك مقصده . قلت : قد غمى في هذا الزمان أن العلماء لتقصيرهم في العلم صاروا كالعامه ، واذا مر بهم حديث موضوع قالوا قد روى . والبكاء ينبغي أن يكون على خسارة الهمة . ولا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم

٢٢٠ - فصل - باغى عن بعض فساق القدماء انه كان يقول :

ما أرى العيش غير أن تتبع النفس هواها فمخطئاً أو مصيباً
فتدبرت حال هذا واذا به ميت النفس ، ليس له أنفة على عرضه ولا خوف عار . ومثل هذا ليس في مسلاخ الآدميين ، فان الانسان قد يقدم على القتل لتلايقال جبان . ويحمل الاثقال ليقال ما قصر . ويخاف العار فيصبر على كل آفة من الفقر ، وهو يستر ذلك حتى لا يرى بهين نقصة حتى ان الجاهل اذا قيل له يا جاهل غضب . والاصوص المتهيثون للحرام اذا قال أحدهم للآخر لا تتكلم . فان أختك تفعل وتصنع . أخذته الحمية فقتل الاخت . ومن له نفس

لا تقف في مقام تهمة لئلا يظن به . فأما من لا يبالي أن يرى سكران ، ولا يهتم أن شهر بين الناس ، ولا يؤلمه ذكر الناس له بالسوء ، فذاك في عداد البهائم . وهذا الذي يريد أن يتبع النفس هواها لا يلتذ به إلا أن لا يخاف عنتاً ولا لوماً ، ولا يكون له عرض يحذر عليه ، فهو بهيمة في مسلاخ انسان ، والا فأى عيش لمن شرب الخمر وأخذ عتيب ذلك وضرب وشاع في الناس ما قد فعل به ، أما في ذلك باللذة ، لا ؛ بل يربو عليها أضعافاً . وأى عيش لمن ساكن الكسل اذا رأى أقرانه قد برزوا في العلم وهو جاهل ، أو استغنوا بالتجارة وهو فقير ، فهل يبقى للالتذاذ بالكسل والراحة معنى . ولو تفكر الزاني في الاحدوثة عنه ، أو تصور أخذ الحدم منه ، لكف الكف ، غير انه يرى لذة حاضرة كأنها لمع برق . وباشوئ ما أعقبت من طول الالسى ، هذا كله في العاجل . فاما الآجل فمنغصة العذاب دأمة ، « والذين آمنوا مشفقون منها » نسأل الله أنفة من الرذائل ، وهمة في طلب الفضائل انه قريب مجيب .

٢٢١- فصل - قد تبغت العقوبات ، وقد يؤخرها الحلم ، والعاقل من اذا فعل خطيئة بادرها بالتوبة ، فكم مغرور بامهال العصاة لم يمهل . وأسرع المعاصي عقوبة ما خلا عن لذة تنسى النهي ، فتكون تلك الخطيئة كاللمعاندة والمبارزة ، فان كانت توجب اعتراضاً على الخالق أو منازعة له في عظمته ، فتلك التي لا تتلافى . خصوصاً ان وقعت من عارف بالله ، فانه يندر اهماله ، قال عبد المجيد بن عبد العزيز : كان عندنا بخراسان رجل كتب مصحفاً في ثلاثة أيام فلقبه رجل فقال : في كم كتبت هذا . فأوماً بالسبابة والوسطى والابهام وقال : في ثلاث « وماسنا من لغوب » فجفت أصابعه

الثلاث، فلم ينتفع بها فيما بعد . وخطر ابعاض الفصحاء انه يتقدر أن يقول مثل القرآن، فصعد الى غرفة فانفرد فيها، وقال : أمهلوني ثلاثاً، فصعدوا اليه بعد الثلاث ويده قد دبست على القلم وهو ميت، قال عبد الحميد : ورأيت رجلاً كان يأتي امرأته حائضاً، فحاض، فلما كثر الأمر به تاب فانقطع عنه . ويلحق هذا أن يعبر الانسان شخصاً بفعل، وأعظمه أن يعيره بما ليس اليه، فيقول يا أعمى، وباقيح الخلقه . وقد قال ابن سيرين : عبرت رجلاً بالفقر فحبست على دين، وقد تنأخر العقوبة وتأتي في آخر العمر . فيا طول التعثير مع كبر السن لذنوب كانت في الشباب . فالحذر الحذر من عواقب الخطايا والبدار البدار الى محوها بالانابة، فلها تأثيرات قيحة ان أسرعت والا اجتمعت وجاءت .

١٣٢ - فصل - اعلم ان الآدمي قد خلق لأمر عظيم . وهو مطالب بمعرفة خالقه بالدليل، ولا يكفيه التقليد . وذلك يفتقر الى جمع الهم في طلبه . وهو مطالب باقامة المفروضات . واجتناب المحارم . فان سمت همته الى طلب العلم احتاج الى زيادة جمع الهم . فأسعد الناس من له قوت دار بقدر الكفاية، لا من منن الناس وصدقائهم، وقد قنع به، فانه حينئذ يجتمع همه لمطلوباته من الدين والدنيا والعلم . وأما اذا لم يكن له قوت يكفي فالهم الذي يريد اجتماعه في تلك الامور يتشتت ويصير طالِباً للتحويل في القوت . فيذهب العمر في تحصيل قوت البدن الذي يريد من بقاءه غير بقاءه، ويفوت المقصود ببقائه . وربما احتاج الى الاندلال . قال الشاعر:

حسبي من الدهر ما كفاني يصون عرضي عن الهوان

مخافة ان يقول قوم فضل فلان على فلان

فيمبغى للعاقل اذا رزق قوتا أو كان له مواد أن يحفظها ليتجمع همه ، ولا ينبغي أن يبذر في ذلك فانه يحتاج فيتشتت همه . والنفس اذا أحرزت قوتها اطمأنت . فان لم يكن له مال اكتسب بقدر كفايته وقلال الغلو ليجمع همه . وليقنع بالقليل ، فانه متى سمت همته الى فضول المال وقع المحذور من التشتت ، لأن التشتت في الأول للعدم ، وهذا التشتت يكون للحرص على الفضول ، فيذهب العمر على البارد :

ومن ينفق الايام في حفظ ماله مخافة فقر فالذى فعل الفقر .

فافهم هذا باصا حب الهمة في طلب الفضائل ، فانك مالم تعزل قوت الصبيان شتتوا قلبك ، وطبعك طفل . ففرغ همك من استعمائته ، واعرف قدر شرف المال الذى أوجب جمع همك ، وصان عرضك عن الخلق . وإياك أن يحملك الكرم على فرط الاخراج فتصير كالفقير المتعرض لك بالتعرض لغيرك . وفي الحديث أن رجلا أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فرأى عليه آثار الفقر ، فمرّض به فاعطى شيئا . فجاء فقير آخر فآثره الأول ببعض ما أعطى ، فرماه النبي صلى الله عليه وسلم فيه ؛ ونهاه عن مثل ذلك . والقناعة بما يكفى ، وترك التشوف الى الفضول أصل الاصول . ولما آيس الامام أحمد بن حنبل نفسه من قبول الهدايا والصلوات اجتمع همه . وحسن ذكره . ولما أطمعها ابن المدينى وغيره سقط ذكرهم . ثم فيمن يطمع ؛ انما هو سلطان جائر ، أو مزك منان ؛ أو صديق مذل بما يعطى . والعزل الذم من كل لذة ، والخروج عن ربة المن ولو بسف التراب .

١٢٣ - فصل - قد ركب في الطباع حب التفضيل على الجنس .

فأحد الا وهو يجب أن يكون أعلا درجة من غيره ، فاذا وقعت نكبة

أوجبت تزوله عن مرتبة سواه ، فينبغي له ان يتجلد بستر تلك النكبة ،
 لئلا يرى بعين نقص . وليتجمل المتعفف حتى لا يرى بعين الرحمة . وليتحامل
 المريض لئلا يشمت به ذوالعافية . وقد قال صلى الله عليه وسلم : لا أصحابه
 حين قدومه مكة وقد أخذتهم الحمى فخاف ان يشمت بهم الاعداء حين
 ضعفهم عن السعى ، فقال : رحم الله من أظهر من نفسه الجلد فرملوا والرمل
 شدة السعى . وزال ذلك السبب وبقي الحكم ، ليتذكر السبب فيفهم معناه .
 واستأذنوا على معاوية وهو في الموت ، فقال لأهله اجلسوني ، فقمعدتمكنا
 يظهر العافية ، فلما خرج العواد أنشد :

وتجلدني للشامتين أدبهم أنى لرب الدهر لا أتضعضع
 واذا المنية انشبت أظفارها ألفت كل تيممة لا تنفع

وما زال العقلاء يظهرون التجلد عند المصائب والفقر والبلاء ، لئلا
 يحملوا مع النوائب شماتة الاعداء ، وانها لأشد من كل نائبة . وكان
 فقيرهم يظهر الغنى ، ومريضهم يظهر العافية ، بلى . ثم نكتة ينبغى التفتن
 لها ، ربما أظهر الانسان كثرة المال وسبوغ النعم . فأصابه عدوه بالعين
 فلا يني ماتبعج به بما يلاقى من انعكاس النعمة . والعين لا تصيب الا ما يستحسن
 للشئ ، ولا يكفى الاستحسان في اصابة العين حتى يكون من حاسد ،
 ولا يكفى ذلك حتى يكون من شرير الطبع . فاذا اجتمعت هذه الصفات
 خيف من اصابة العين . فليكن الانسان مظهرا للتجمل مقدار مايا من
 اصابة العين ويعلم أنه في خير . ولا يجذر الافراط في اظهار النعم ، فان العين
 هناك محذورة . وقد قال يعقوب لبنية عليهم السلام « لا تدخلوا من باب
 واحد وادخلوا من ابواب متفرقة » وانما خاف عليهم العين فيلغهم هذا

الفصل فانه ينفع من له تدبر .

٢٢٤ - فصل - انما خلقنا لنحيا مع الخالق في معرفته ومحدثته ورويته في البقاء الدائم . وانما ابتدئ كوننا في الدنيا لانها في مثال مكتب نتعلم فيه الخط والادب ليصلح الصبي عند بلوغه للرتب ، فن الصبيان بعيد الذهن يطول مكثه في المكتب ويخرج وما فهم شيئا . وهذا مثال من لا يعلم وجوده ، ولانال المراد من كونه . ومن الصبيان من يجمع مع بعد ذهنه وقلة فهمه وعدم تعلمه اذى الصبيان ، فهو يؤذيهم ، ويسرق مطاعهم ، ويستغيثون من يده ، فلا هو صالح ولا فهم ولا كف الشر . وهذا مثل اهل الشر والمؤذنين . ومن الصبيان من علق بشيء من الخط لكنه ضعيف الاستخراج ، ردى الكتابة ، فخرج ولم يعلق الا بقدر ما يعلق به حساب معاملته : وهذا مثل من فهم بعض الشيء وفاته الفضائل التامة . ومنهم من جودا الخط ولم يتعلم الحساب ، واتقن الآداب حفظا ، غير انه قاصر في أدب النفس ، فهذا يصلح ان يكون كاتباً للسلطان على مخاطرة لسوء ما في باطنه من الشره وقلة التأدب . ومنهم من سمت همته الى المعالي الكاملة ، فهو مقدم الصبيان في المكتب ونائب عن معلمهم ، ثم يرتفع عنهم بعزة نفسه ، وأدب باطنه ، وكمال صناعة الآداب الظاهرة . ولا يزال حاث من باطنه يحثه على تعجيل التعلم ، وتحصيل كل فضيلة لعله ان المكتب لا يراى لنفسه بل لأخذ الادب منه ، والرحلة الى حالة الرجولية وانتصرف ، فهو يبادر الزمان في نيل كل فضيلة . فهذا مثل المؤمن الكامل يسبق الأقران يوم التجارير ، ويعرض لوح عمله جيد الخط ، فيقول بلسان حاله « هاؤم اقرؤا كتابيه » وكذلك الدنيا واهلها . من الناس هالك بعيد عن الحق وهم الكفار . ومنهم خاطيء مع قليل من الايمان فهو معاقب

والمصير الى خير . ومنهم سليم لكنه قاصر . ومنهم تام لكنه بالاضافة الى من دونه، وهو نافص بالاضافة الى من فوقه فالبيدار البهदार بأر باب الفهوم فان الدنيا معبر الى دار اقامة . وسفر الى القرب من السلطان ومجاورته . فتهيئوا للمجالسة . واستعدوا للمخاطبة . وبالغوا في استعمال الأدب لتصلحوا للقرب من الحضرة . ولا يشغلنكم عن تضمير الخيل تكاسل . وليحملكم على الجد في ذلك تذكركم يوم السباق ، فان قرب المؤمنين من الخالق على قدر حذرهم في الدنيا . ومنازلهم على قدرهم . فاما منزل النفاط كنزل الحاجب ، ولا منزل الحاجب كمكان الوزير ، جنتان من ذهب آيتهما وما فيهما . وجنتان من فضة آيتهما وما فيهما . والفردوس الاعلى لا خربن . والثنين في أرض الجنة ينظرون أهل الدرجات كما يرون الكوكب الدرى ، فلي تذكر الساعى حلاوة التسليم الى الامين . وليتذكر في لذادة المسدح يوم السباق . وليحذر المسابق من تقصير لا يمكن استدراكه . وليخف من عيب يبقى قبح ذكره . هؤلاء الجهنميون عتقاء الرحمن ، وليصبر الهوى عن المشتهى ، فالايام قلائل . يدخل فقراء المؤمنين قبل الاغنياء الى الجنة بخمس مائة عام . فالجد الجد ، بأقدام المبادرة ، فقد لاح العلم خصوص المن بات له بانه الوادى ، إما بالعلم الدال على الطريق ، وإما بالشيب الذى هو عالم الرحيل وهو يأمله أهل الجد . وكان الجنيد يقرأ وقت خروج روحه ، فيقال له في هذا الوقت : فيقول أبادر طى صحيفتى ، وبعد هذا . فالمراد موفق . والمطلوب معان . واذا أرادك لا أمر هياك له .

١٣٥ - فصل - تأملت حالة عجيبة . وهو ان أهل الجنة الساكنين في أرضها في نقص عظيم بالاضافة الى من فوقهم ، وهم يعلمون فضل

أولئك . فلو تفكروا فيما فانهم من ذلك وقعت الحسرات ، غير ان ذلك لا يكون ، لان ذلك لا يقع لهم لطيب منازلهم ، ولا يقع في الجنة غم ، ويرضى كل بما أعطى من وجهين ، أحدهما انه لا يظن ان يكون نعيم فوق ما هو فيه ، وان علت منزلة غيره . والثاني انه يحب اليه كما يحب اليه ولده المستوحش الخلقة ، فيؤثره على الاجنبى المستحسن ، الا أن تحت هذا معنى لطيف . وهو ان القوم خلقت لهم هم قاصرة في الدنيا عن طلب الفضائل ، ويتفاوت قصورها . فمنهم من يحفظ بعض القرآن ولا يتوق الى التمام . ومنهم من يسمع يسيراً من الحديث . ومنهم من يعرف قليلاً من الفقه . ومنهم من قد رضى من كل شئ ويسيره . ومنهم مقتصر على الفرائض : ومنهم فنوع بصلاة ركعتين في الليل ولو علت بهم الهمم لجدت في تحصيل كل الفضائل ، ونبت عن النقص فاستخدمت البدن كما قال الشاعر :

ولكل جسم في النحول بلية وبلاء جسمي من تفاوت همتي
وبدل على تفاوت الهمم ان في الناس من يسهر في سماع سمر ولا يسهل
عليه السهر في سماع القرآن . والانسان يحشر ومعه تلك الهممة ، فيعطى على مقدار ما حصت في الدنيا ، فكما لم تتق الى الكمال وقنعت بالدون قنعت في الآخرة بمثل ذلك . ثم ان القوم يتفكرون بعقولهم ، فيعلمون ان الجزاء على قدر العمل ، ولا يطمع من صلى ركعتين في ثواب من صلى ألفاً . فان قال قائل فكيف يتصور لها ان تروم ما ناله من هو أفضل منها ! قلت : ان لم يتصور نيله يتصور الحزن على فوته ، وهل رأيت عامياً يحزن على فوات الفقه حزناً يقلقه ! هيئات . لو كان ذلك الحزن عنده لحركه الى التشاغل . فليس عندم هممة توجب الاسف مع انهم قد رضوا بما هم فيه .

فافهم ماقالته وبادر ، فهذا ميدان السباق .

٢٢٦- فصل - تفكرت في ابقاء اليهود والنصارى يدينواواخذ الجزية منهم ، فرأيت في ذلك حكماً عجيبة . منها ما قد ذكر من ان الاسلام كان ضعيفاً فتقوى بما يؤخذ من جزيتهم ، ومنها ظهور عزه بذلهم الى غير ذلك مما قد قيل . ووقع لي فيه معنى عجيب . وهو ان وجودهم وتعبدهم وحفظهم شرع بنبيهم صلى الله عليه وسلم دليل على انه قد كان انبياء وشرائع ، وان نبينا صلى الله عليه وسلم ليس يبدع من الرسل ، فقد اجتمعت الجن وهم على إثبات صانع ، واقرار برسل ، فبان أننا ما ابتدعنا ما لم يكن . وهم يصبرون على باطلهم ، ويؤدون الجزية ، فكيف لانصبر على حق ، والدولة لنا . وفي بقائهم احترام لما كان صحيحاً من الدين وليرجع متبصر وليستعمل مفكر .

٢٢٧- فصل - قد ثبت بالدليل شرف العلم وفضله ، الا ان طلاب العلم افترقوا ، فكل تدعوه نفسه الى شيء ، فمنهم من اذهب عمره في القراءات ، وذلك تفريط في العمر ، لأنه انما ينبغي أن يعتمد على المشهور منها لا على الشاذ ، وما أقبح بالتقارى ان يسأل عن مسألة في الفقه ولا يدرى ، وليس ما شغله عن ذلك الا كثرة الطرق في روايات القراءات ، ومنهم من يتشاغل بالنحو وعلله فحسب ، ومنهم من يتشاغل باللغة فحسب ، ومنهم من يكتب الحديث ويكثر ولا ينظر في فهم ما كتب . وقد رأينا في مشايخنا المحدثين من كان يسأل عن مسألة في الصلاة فلا يدرى ما يقول ، وكذلك القراء ، وكذلك أهل اللغة والنحو . وحدثني عبد الرحمن بن عيسى الفقيه قال حدثني ابن المنصوري قال حضرنا مع أبي محمد بن الحشاش ، وكان امام

الناس في النحو واللغة ، فتذاكروا الفقه ، فقال : سلوني عما شئتم ، فقال له رجل : ان قيل لنا رفع اليدين في الصلاة ما هو فاذنقول . فقال : هود كن ! فدهشت الجماعة من قلة فقهه . وانما ينبغي أن يأخذ من كل علم طرفاً ثم يهتم بالفقه ، ثم ينظر في مقصود العلوم ، وهو المعاملة لله سبحانه والمعرفة به والحب له وما أبله من يقطع عمره في معرفة علم النجوم ، وانما ينبغي أن يعرف من ذلك التسيير والمنازل لعلم الاوقات . فأما النظر فيما يدعى انه القضاء والحكم فجهل محض ، لانه لا سبيل الى علم ذلك حقيقة ، وقد جرب فبان جهل مدعيه ، وقد تقع الاصابة في وقت . وعلى تقدير الاصابة لا فائدة فيه إلا تعجيل النعم . فان قال قائل : يمكن دفع ذلك فقد سلم انه لا حقيقة له . وأبله من هؤلاء من يتشاغل بعلم الكيمياء فانه هزبان فارغ . واذا كان الا يتصور قلب الذهب نحاساً لم يتصور قلب النحاس ذهباً . فانما فاعل هذا مستحل للتدليس على الناس في النقود ، هذا اذا صرح له مراده . وينبغي لطالب العلم أن يصحح قصده ، إذ فقد الاخلاص يمنع قبول الاعمال . وليجتهد في مجالسة العلماء ، والنظر في الاقوال المختلفة ، ومحصي الكتب ، فلا يخلو كتاب من فائدة ، وليجعل همته للحفظ ، ولا ينظر ولا يكتب الا وقت التعمق من الحفظ . وليحذر صحبة السلطان ، ولينظر في منهاج الرسول صلى الله عليه وسلم والصحابة والتابعين ، وليجتهد في رياضة نفسه والعمل بعلمه ، ومن تولاه الحق وفقه .

٢٢٨ - فصل - طال تعجبي من أقوام لهم أنفة وعندهم كبر زائد في

الحد ، خصوصاً العرب الذين من كلمة ينفرون ويحاربون ويروضون بالقل حتى أن قوما منهم أدركوا الاسلام فقالوا : كيف أركع ونسجد فتعلونا

أستأهنا ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا خير في دين ليس فيه ركوع ولا سجود : ومع هذه الأنفة يذلون لمن هم خير منهم هذا يعبد حجرا ، وهذا يعبد خشبة ، وقد كان قوم يعبدون الخيل والبقر ، وإن هؤلاء لأخس من ابليس ، فإن ابليس أنف لا دعائه الكمال أن يسجد لناقص فقال « أنا خير منه » وفرعون أنف أن يعبد شيئا أصلاً . فالعجب من ذل هؤلاء المفتخرين المتعاضمين المتكبرين لحجر أو خشبة ، وإنما ينبغي أن يذل الناقص للكاملين . وقد أشير الى هذا في ذم الأصنام في قوله تعالى « ألهم أرجل يمشون بها ، أم لهم أيدي يطشون بها ، أم لهم أعين يبصرون بها » والمعنى أنتم لكم هذه الآلات المدركة وهم ليس لهم ، فكيف يعبد الكامل الناقص ، غير أن هوى القوم في متابعة الأسلاف . واستحلوا ما اخترعوه بأرائهم غطى على العقول ، فلم تتأمل حقائق الأمور . ثم غطى الحسد على أقوام فتركوا الحق وقد عرفوه . فأمية بن الصلت يقر برسول الله صلى الله عليه وسلم ويقصد ليؤمن به ، ثم يعود فيقول : لا أؤمن برسول ليس من ثقيف . وأبوجهل يقول : والله ما كذب محمد قط ، ولكن إذا كانت السدانة والحجابة في بني هاشم ثم النبوة فما بقي لنا . وأبوطالب يرى للمعجزات ويقول : انى لأعلم أنك على الحق . ولولا أن تعيرني نساء قريش لأقررت بها عينك . فنعوذ بالله من ظلمة حسد . وغيابة كبر ، وحمافة هوى يغطى على نور العقل ، ونسأله إلهام الرشد ، والعمل بمقتضى الحق .

١٣٩ - فصل - قد سمعنا بجماعة من الصالحين عاملوا الله عز وجل

على طريق السلامة والمحبة واللطف فعاملهم كذلك ، لأنهم لا يحتمل طبعهم غير ذلك . ففي الأوائل برخ العابد خرج يستسقى فقال : ما هذا الذي لا نعرفه

منك . اسقنا الساعة فسقوا . وفي الصحابة أنس بن النضير يقول : والله لا تكسر سن الربيع ، فجرى الأمر كما قال . فقال النبي صلى الله عليه وسلم : ان من عباد الله من لو أقسم على الله لأبره . وهوؤلاء قوم غلب عليهم ملاحظة اللطف والرفق فلطف بهم ، وأجروا على ما اعتقدوا . وهناك أعلام من هؤلاء يسألون فلا يجابون ، وهم بالمنع راضون ، ليس لأحدهم انبساط ، بل قد قديم الخوف ، ونكس رؤوسهم الحذر ، ولم يروا ألسنتهم أهلا للانبساط ، فغاية آمالهم العفو ، فان انبسط أحدهم بسؤال فلم ير الاجابة عاد على نفسه بالتوبيخ ، فقال : مثلك لا يجاب . وربما قال لعل المصلحة في منعي . وهوؤلاء الرجال حقاً . والأبله الذي يرى له من الحق أن يجاب ، فان لم يُجَبْ تدمر في باطنه كأنه يطلب أجرة عمله ، وكأنه قد نفع الخالق بعبادته . وانما العبد حقاً من يرضى ما يفعله الخالق ، فان سأل فاجيب رأى ذلك فضلاً ، وان منع رأى تصرف مالك في مملوك ، فلم يحجل في قلبه اعتراض بحال .

٢٣٠ - فصل - رأيت جماعة من العلماء يتقسمون ويظنون ان العلم يدفع عنهم ، وما يدرون ان العلم خصمهم وانه يغفر للجاهل سبعون ذنباً قبل أن يغفر للعالم ذنب . وذاك لأن الجاهل لم يتعرض بالحق ، والعالم لم يتأدب معه . ورأيت بعض القوم يقول : انا قد ألقيت منجلى بين الحصادين ونمت . ثم كان يفسح في أشياء لا تجوز ، فتفكرت فاذا العلم الذي هو معرفة الحقائق ، والنظر في سير القدماء ، والتأدب بأداب القوم ، ومعرفة الحق وما يجب له ، ليس عند القوم ، انما عندهم صور الفاظ يعرفون بها ما يحل وما يحرم ، وليس كذلك العلم النافع . انما فهم الاصول ومعرفة العبود وعظامته وما يستحقه ، والنظر في سير الرسول صلى الله عليه وسلم وصحابته ، والتأدب بأدابهم ، وفهم

(م - ١٧)

مانقل عنهم، هو العلم النافع الذي يدع أعظم العلماء أحقرَ عند نفسه من أجهل الجاهل . ورأيت بعض من تعبد مدة ثم فتر ، فبلغني أنه قال : قد عبده تعبدته عبادة ما عبده بها أحد ، والآآن قد ضعفت . فقلت : ما أخوفني أن تكون كلمته هذه سبباً لرد الكل ، لأنه قد رأى أنه عمل مع الحق شيئاً ، وإنما وقف يسأل النجاة بطلب الدرجات ، ففي حق نفسه فعل . وما مثله الا كمثل من وقف يكدي ، فلا ينبغي أن ين على المعطى . وإنما سبب هذا الانسباط الجهل بالحقائق . وأين هو من كبار علماء المعاملة الذين كان فيهم مثل حلة ابن أشيم اذا رآه السبع هرب منه ، وهو يقول اذا انقضى الليل عند صلاته : يارب أجرني من النار . ومثلي يسأل الجنة : وأبلغ من ذا قول عمر : وددت أن أنجو كفافاً لا لي ولا لغيري . وقول سفيان عند موته لحماة بن سلمة : أترجو لمثلي ان ينجو من النار . وقول أحمد : لا . بعد . فأنا أحمد الله عز وجل اذ تخلصت من جهل المتسمين بالعلم من هؤلاء الذين ذمهم . وبالزهد من هؤلاء الذين عبتهم . فاني قد اطعمت من عظمة الخالق وسير المحققين على ما يخرس لسان الانسباط ، ويمحو النظر الى كل فعل وكيف أنظر الى فعل المستحسن : وهو الذي وهبه لي وأطلعني على ما خفي عن غيري ، فهل حصل ذلك بي أو بلطفه . وكيف أشكر توفيق الشكر : ثم أي عالم اذا سبر أمور العلماء من القدماء لا يحتقر نفسه ، هذا في صورة العلم ، فدع معناه وأي عابد يسمع بالعباد ولا يجري في صورة التعبد . فدع المعنى . نسأل الله عز وجل معرفة تعرفنا أقدارنا . حتى لا يبقى للعجب بمحتقر ما عندنا أثر في قلوبنا . ونرغب اليه في معرفة اعزاه تخرس الألسن ان تنطق بالادلال ونرجو من فضله توفيقاً نلاحظ به آفات الاعمال التي بها نزهو حتى نثمر

للملاحظة اميو بها الخجل من وجودها . إنه قريب مجيب .

٢٣١ - فصل - سبب تنغيص العيش فوات الحظوظ العاجلة :

وليس في الدنيا طيب عيش على الدوام الا للعارف الذي شغله رضى حبيبه والتزود للرحيل اليه . فانه ان وجد راحة في الدنيا استعان بها على طلب الآخرة . وان وجد شدة اغتتم الصبر عليها لثواب الآخرة . فهو راض بكل ما يجرى عليه . يرى ذلك من قضاء الخالق ، ويعلم أنه مراده ، كما قال قائلهم :

إن كان رضاكم في سهرى فسلام الله على وسنى

فأما من طاب حظه فانه يقلق لفوت مراده ، ويتنقص لبعده ما يشتهى فلو افتقر تغير قلبه ، ولو ذل تغير ، وهذا لأنه قائم مع غرضه وهواه وما أحسن قول الحضري : ايش على منى وايش لى فى : وهذا كلام عارف . لانه ان كان ينظر الى حقيقة الملكة فعبد يتصرف فيه مولاه . فاعتراضه لا وجه له . واراادته أن يقع غير ما يجب فضول فى البين . وان نظر أن النفس كالملك له فقد خرجت عن يده من يوم « ان الله اشترى » أفصح من لمن باع شاة أن يغضب على المشتري اذا ذبحها او يتغير قابه . والله لو قال المالك سبحانه : انما خلقتكم ليستدل على وجودى ، ثم أنا أفنيكم ولا اعادة ، لكان يجب على النفوس العارفة به أن تقول سمعاً لما قالت وطاعة ، وأى شيء لنا فيما حتى نتكلم . فكيف وقد وعد بالأجر الجزيل ، والخلود فى النعيم ، الذى لا ينفد . لكن طريق الوصول تحتاج الى صبر على المشقة وما يبقى لتعب رمل زروء اذا لاح الحرم . فالصبر الصبر يا أقدام المبتدئين لاح المتزل . والسرور السرور يا متوسطين ضربت الخيم . والفرح الكامل يا عارفين ، قد تلقيتكم بالبشائر . زالت والله أثقال المعاملات عنكم ، فكانت

معرفتكم بالمبتلى حلاوة تعقبت شربة المجاهدة، فلم يبق في الفم المر أثر .
تخيلوا قرب المناجاة ولذة الحضور . ودوار كؤس الرضى عنكم فقد
أخذت شمس الدنيا في الأفول :

ما يننا له الا تصرّ م هذه السبع البواقى

حتى يطول حديثنا بصنوف ما كنا نلاقى

من التغفل ان تعاقب شخصاً او تسيء اليه إساءة عظيمة وتعلم ان
مثل ذلك يحدد الحقد ، فتراه ذليلاً لك طائماً تائباً مقلماً عما فعل ، فتعود
فتستطيعه وتتنسى ما فعلت وتظن انه قد انمى من قلبه . فربما عمل لك المحن
ونصب لك المكيد ، كما جرى لقصير مع الزباء ، واخباره معروفة . فياك
ان نساكن من آذيته ، بل ان كان ولا بد فن خارج فها تو من الاحقاد . ومتى
رأيت عدوك فيه غفلة لا يثنيه مثل هذا فأحسن اليه ، فانه يندى عداوتك
ولا يظن انك قد اضمرت له جزاء على قببح فعله فحينئذ تقدر على بلوغ كل
غرض منه . ومن الخور اظهار العداوة للعدو . ومن أحسن التدبير التلطف
بالاعداء الى ان يمكن . ولو لم يمكن كان اللطف سبباً في كف أكرهم عن
الأذى ، وفيهم من يستجيب لحسن فعلك فيتغير قلبه لك . وقد كان جماعة
من السلف اذا بلغهم ان رجلاً قد شتمهم اهدوا اليه واعطوه ، فهم بالعاجل
يكفون شره ، ويحتالون في قلب قلبه ، ويقع بذلك لهم مهلة لتدبير
الحيل عليه ان ارادوا وكفى بالذهن الناظر الى العواقب والتأمل لكل
ممكناً مؤدباً .

٢٣٢ - فصل - تفكرت في قول شيبان الراعى لسفيان : ياسفيان

عُدْ منع الله اياك عطاء منه لك ، فانه لم يمنعك بخلاً ، انما منعك لطفاً . فرأيت

كلام من قد عرف الحقائق . فان الانسان قد يريد المستحسنات الفائقات فلا يقدر ، وعجزه الملح له ، لأنه لو قدر عليهن تشتت قلبه إما بحفظهن او بالكسب عليهن ، فان قوى عشقه لهن ضاع عمره وانقلب هم الآخرة الى الاهتمام بهن . فان لم يردنه فذاك الهلاك الاكبر . وان طلبن نفقة لم يطقها كان سبب ذهاب مروته وهلاك عرضة ، وان اردن الوطء وهو عاجز فربما أهلكه او فخرن ، وان مات معشوقه هلك هو أسفاً . فالذى يطلب الفائق يطلب سكيناً لذبحه وما يعلم . وكذلك انفاذ قدر القوت فانه نعمة وفي الصحيحين ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : اللهم اجعل رزق آل محمد قوتا ومتى كثر ، تشتت الهمم . فالعاقل من علم ان الدنيا لم تخلق للتعظيم ، فقمع بدفع الوقت في كل حال .

٢٣٣ - فصل - رأيت جماعة من الخلق يتعملون بالأقذار ، فيقول قائمهم : ان وقفت فعات ، وهذا تعلل بارد ، ودفع للامر بالراح ، وهو يشير الى رد اقوال الانبياء والشرائع جميعها . فانه لو قال كافر للرسول ان وفقني اسلمت لم يجبه الا بضرب العنق . وهذا من جنس قول الناس لعلى رضى الله عنه : ندعوك الى كتاب الله فقال : كلمة حق اريد بها باطل . وكذلك قول المتعملين عن الصدقة « أنطعم من لو يشاء الله أطعمه » واعمرى ان التوفيق أصل الفعل . ولكن التوفيق أمر خفى . والخطاب بالفعل أمر جلي . فلا ينبغي ان يتشاغل عن الجلى بذكر الخفى . ومما يقطع هذا الاحتجاج ان يقال لهذا القائل : ان الله سبحانه لم يكلفك شيئا . وعندك أدوات ذلك الفعل ولك قدرة عليه ، فان كانت القدرة عليه معدومة والأدوات غير محصلة فلا أمر ولا تكليف ، وان كنت تسمى بتلك الأدوات في تحصيل غرضك وهو أنك ،

فاسع بها في اقامة مفروضك. مثل ذلك انك تسافر في طلب الربح، وتُسأل
الحج فلا تفعل، ويثقل عليك الانتباه بالليل. فلو أردت الخروج الى العيد
انتبهت سحرا، وتقف في بعض أغراضك مع صديق تحادثه ساعات فاذا
وقفت في الصلاة استعجبت، وثقل عليك. فاياك اياك ان تتعاقب بامر لا حجة
لك فيه. ثم من نصيبك ينقص، ومن حظك يضع، فانما تحرك لك، وانما
تعرض لنفعك. فبادر فانك مبادر بك. ومما يزيل كسلك ان تأمنته أن تتخايل
ثواب المجتهدين وقد فاتك. ويكفي ذلك في توبيخ المقصر ان كانت له نفس.
فأما الميت الهمة: فما لجرح بميت ايلام. كيف بك اذا قمت من قبرك وقد
قربت نجائب النجاة لأقوام وتعثرت، وأسرعت أقدام الصالحين على الصراط
وتخبطت، هيهات. ذهبت حلاوة البطالة، وبقيت مرارة الأسف، ونضب
ماء كأس الكسل، وبقي رسوب الندامة. وما قدر البقاء في الدنيا بالاضافة
الى دوام الآخرة: ثم ما قدر عمرك في الدنيا ونصفه نوم، وباقيه غفلة. فيا خطبا
حور الجنة وهو لا يملك فلسا من عزيمة، افتتح عين الفكر في ضوء العبر
لعلك تبصر مواقع خطابك، فان رأيت تثبطا من الباطن فاستغث بعون
اللطيف، وتنبيه في الاسحار: لعلك تتلمح ركب الارياح، وتعلق على قطار
المستغفرين ولو خطوات، وانزل في رباعة المجتهدين ولو منزلا.

٢٣٤ - فصل - نظرت في قول أبي الدرداء رضي الله عنه: ما أعرف

شيئا مما كنا عليه اليوم الا القبله، فقلت: واعجبا كيف لو رأنا اليوم وما
عالينا من الشريعة إلا الرسم. والشريعة هي الطريق. وانما تعرف شريعة رسول
الله صلى الله عليه وسلم إما بأفعاله أو أقواله. وسبب الانحراف عن طريقه
صلى الله عليه وسلم إما الجهل بها فيجربى الانسان مع الطبع والعادات، وربما

اتخذ ما يضاد الشريعة طريقاً ، وقد كانت الصحابة شاهدته وسمعت منه
فقل أن ينحرف أحد منهم عن جادته : إلا أن أبا الدرداء رضى الله عنه رأى
بعض الانحراف لميل الطباع فضج فانه قد يعرف الانسان الصواب ، غير
أن طبعه يميل عنه ، وما زالت الاحاديث المنقولة عن الرسول صلى الله عليه
وسلم وأصحابه رضى الله عنهم يقل الاسعاد بها والنظر فيها الى أن أعرض
عنها بالكلية في زماننا هذا وجهلت الا النادر ، واتخذت طرائق تضاد الشريعة .
وصارت عادات ، وكانت أسهل عند الخلق من اتباع الشريعة . وإذا كان عامة
من ينسب الى العلم قد أعرض عن علوم الشريعة فكيف العوام . ولما أعرض
كثير من العلماء عن المنقولات ابتدعوا في الاصول والفروع . فالاصوليون
تشاغلو بالكلام وأخذوه من الفلاسفة وعلماء المنطق . ودخلت أيدي
الفروعيين في ذلك فتشاغلوا بالجدل ، وتركوا الحديث الذي عليه يدور الحكم .
ثم رأى القصاص ان التفاق بالتفاق ، فأقبل قوم منهم على التلبيس بالزهد ،
ومقصودهم الدنيا . ورأى جهودهم ان القلوب تميل الى الاغاني ، فأحضروا
المطربين من القراء وأنشدوا أشعار الغزل ، وتركوا الاشتغال بالحديث ، ولم
يلتفتوا الى نهى العوام عن الربا والزنا ، وأمرهم بأداء الواجبات ، وصار متكلمهم
يقطع المجلس بذكر ليلي والمجنون والطور وموسى وأبي يزيد والحلاج والهديان
الذي لا محصول له ، وانفرد أقوام بالزهد والانقطاع ، فامتنعوا عن عيادة
المرضى ، والمشى بين الناس ، وأظهروا التخاشع ، ووضعوا كتباً للرياضات ،
والتقليل من الطعام . وصارت الشريعة عندهم كلام أبي يزيد والشبلي
والمتصوفة ، ومعلوم ان من سبر الشريعة لم ير فيها من ذلك شيئاً . وأما الامراء
فجروا مع العادات ، وسموا ما يفعله من القتل والقطع سياسات لم يعملوا

فيها بمقتضى الشريعة ، وتبع الأخير في ذلك المتقدم . فأين الشريعة المحمدية
ومن أين تعرف مع الاعراض عن المنقولات ؛ نسأل الله عز وجل التوفيق
للقيام بالشريعة ، والاعانة على رد البدع انه قادر .

٢٣٥ - فصل - كنت أسمع على بن الحسين الواعظ يقول على المنبر
والله لقد بكيت البارحة من يدنفسى ، فبقيت أنا أتفكر وأقول : أى شيء
قد فعلت نفس هذا حتى يبكى . هذا رجل متنعم له الجوارى التركيات . وقد
بلغنى أنه تزوج فى السر بجملته من النساء ، ولا يطعم الا الغاية من الدجاج
والحلوى . وله الدخل الكثير والمال الوافر والجاه العريض والافضال على
الناس . وقد حصل طرفا من العلم ، واستعبد كثيراً من العلماء بمعرفته ،
وراحته دائمة . فما الذى يبكيه : فتفكرت فعلمت ان النفس لا تقف على
حد بل تروم من اللذات ما لا تنتهى اه ، وكلما حصل لها غرض برد عندها
وطلبت سواه . فيفنى العمر ويضعف البدن ويقع النقص ، ويرق الجاه ،
ولا يحصل المراد . وليس فى الدنيا أبله ممن يطلب النهاية فى لذات الدنيا
وايس فى الدنيا على الحقيقة لذة . انما هى راحة من مؤلم . فالسعيد من اذا
حصلت له امرأة أو جارية فال اليها ومالت اليه ، وعلم سترها ودينها ، أن
يعقد الخنصر على صحبتها . وأكثر أسباب دوام محبتها أن لا يطلق بصره .
فتنى أطلق بصره أو أطمع نفسه فى غيرها فان الطمع فى الجديد ينقص الخلق
وينقص الخالطة ، ويستر عيوب الخارج ، فتميل النفس الى المشاهد الغريب ،
ويتكدر العيش مع الحاضر القريب كما قال الشاعر :

والمرء مادام ذا عين يقلبها فى أعين الناس موقوف على الخطر
بسر مقلته ماضر مهجته لا مرحباً بسرور عاد بالضرر

ثم تصوير الثانية كالاولى ، وتطلب النفس ثالثة وليس لهذا آخر ، بل الغرض عن المشتبهات ، وبأس النفوس من طلب المستحسنات ، يطيب العيش مع المعاشر . ومن لم يقبل هذا النصع تعر في طرق الهوى وهلك على البارد ، وربما سعى لنفسه في الهلاك العاجل ، وفي العار الحاضر ، فان كثيرا من المستحسنات لسن بصيئات ولا يفى التمتع بهن بالعار الحاصل ، ومنهن المبذرات في المال ، ومنهن المبغضة للزوج وهو يحبها كما بد منهم . وابله البله الشيخ الذي يطلب صبية .. وامرئ ان كمال المتعة انما يكون بالصبا كما قال القائل : فعلت بنفسى النساء الصغار . ومتى لم تكن الصبية بالغة لم يكمل الاستمتاع ، فاذا بلغت ارادت كثرة الجماع والشيخ لا يقدر . فان حمل على نفسه لم يبلغ مرادها ، وهلك سريعا . ولا ينبغي أن يغتر بشهوته الجماع فان شهوته كالفجر الكاذب . وقد رأينا شيخنا اشترى جارية فبات معها فانقلب عنها ميتا . وكان في المارستان شاب قد بقى شهرين بالقيام فدخلت عليه زوجته فوطئها فانقلب عنها ميتا : فبان أن النفس باقية بما عندها من الدم . والمنى فاذا فرغا ولم تجد ماء تعتمد عليه ذهبت ، وان قنع الشيخ بالاستمتاع من غير وطئ فهي لا تقنع فتصير كالمدولة فربما غلبها الهوى ففجرت أو احتالت على قتله ، خصوصا الجوارى اللواتي اغلبهن قد جئن من بلاد الشرك ففیهن فسوة القاب . وقبيح بمن عبر الستين ان يتعرض بكثرة النساء ، فان اتفق معه صاحبة دين قبل ذلك فايرع لها معاشرتها ، وليتعم نقصه عندها تارة بالأنفاق : وتارة بحسن الخلق ، وايزد في تعريفها أحوال الصالحات والزاهدات ؟ وليكثر من ذكر القيامة وذم الدنيا . وليعرض بذكر محبة

العرب فانهم كانوا يعشقون ولا يرون وطء المعشوق كما قال قائلهم :

انما الحب قبلة وغمز كف وعضد

انما العشق كذا ان نكح الحب فسد

فان قدراً أن يشغلها بحمل أو ولد عرفها به ، فاستبقى قوته في مدة اشتغالها بذلك فان رطب فليصبر عن الانزال حفظاً لقوته وقضاء لحقها . وقد قيل لبشر : لم لم تنزوج فقال : على ماذا أغرمسامة ، وقد قال الله عز وجل « ولهن مثل الذي عليهن بالمعروف » والمسكين من دخل في أمر لم يتلمح عواقبه قبل لدخول ورأى حبة الفخ فبادر طالبا لها ناسيا تعرقل الجناح والذبح . ومجموع ما قد بسطته حفظ البصر عن الاطلاق ، ويأس النفس عن التحصيل ، قنوعا بالحاصل خصوصا من قد علت سنه ، وعلم ان الصبية عدو له متمنية هلاكه ، وهويربها غيره . وفي بعض ما ذكرته ما يردع العاقل عن التعرض لهذه الآفات . نسأل الله عز وجل توفيقا من فضله وعملا بمقتضى العقل والشرع : انه قريب مجيب .

٢٣٦ - فصل - أعجب الاشياء اغترار الانسان بالسلامة ،

وتأمله الاصلاح فيما بعد وليس لهذا الامل منتهى ، ولا للاغترار ، فكما أصبح وامسى معافى زاد الاغترار وطال الامل . وأى موعظة أبلغ من أن ترى ديار الاقران واحوال الاخوان وقبور المحبوبين ، فتعلم انك بعد أيام مثلهم . ثم لا يقع انتباه حتى ينتبه الغير بك . هذا والله شأن الحمقى . حوشى من له عقل ان يسلك هذا المسلك . بل والله ان العاقل ليبادر السلامة فيدخر من زمنها للزمن ، ويتزود عند القدرة على الزاد لوقت العسرة . خصوصا لمن قد علم ان مراتب الآخرة انما تملو بمقدار علو العمل لها . وان التدارك بعد الفوت لا يمكن . وقدّر ان العاصي عفى عنه . أينال

مراتب العمال. ومن أجال على خاطره ذكر الجنة التي لاموت فيها ولا مرض ولا نوم ولا غم، بل لذاتها متصلة من غير انقطاع، وزيادتها على قدر زيادة الجد ههنا انتهب هذا الزمان فلم ينم الا ضرورة، ولم يغفل عن عمارة لحظة. ومن رأى أن ذنباً قد مضت لذته وبقيت آفاته دائمة كفاه ذلك زجراً عن مثله، خصوصاً الذنوب التي تتصل آثارها مثل أن يزني بذات زوج فتحمل منه فتلحق بالزوج فيمنع الميراث أهله ويأخذه من ليس من أهله، وتتغير الانساب والغرش، ويتصل ذلك أبداً، وكله شؤم لحظة فنسأل الله عز وجل توفيقاً يلهم الرشاد، ويمنع الفساد، انه قريب مجيب.

٢٣٧ - فصل - تأملت سبب تخطيط العقابيد، فاذا به الميل الى الحس وقياس الغائبات على الحاضر. فان أقواماً غلب عليهم الحس، فلما لم يشاهدوا الصانع جحدوا وجوده، ونسوا انه قد ظهر بأفعاله، وأن هذه الافعال لا بد لها من فاعل، فان العاقل اذا مر على صحراء خالية ثم عاد وفيها غرس وبناء علم انه لا بد من غارس، اذ الغرس لا يكون بنفسه ولا البناء. ثم جاء قوم فأثبتوا وجود الصانع، ثم قاسوه على احوالهم فشبهوا، حتى ان قائلهم يقول: في قوله: ينزل الى السماء. ينتقل. ويستدل بان العرب لا تعرف النزول الا الانتقال. وضل خلق كثير في صفاته كما ضل خلق في ذاته. فظن اقوام انه يتأثر حين سمعوا انه يغضب ويرضى، ونسوا أن صفته تعالى قديمة لا يحدث منها شيء. وضل خلق في أفعاله فاخذوا يعملون فلم يفعلوا بشيء. فخرج منهم قوم الى أن نسبوا فعله الى ضد تعالى عن ذلك ومن رزق التوفيق فليحضر قلبه لما أقول: أعلم أن ذاته سبحانه لا تشبه الذوات، وصفاته ليست كالصفات، وأفعاله لا تقاس بأفعال الخلق. أما

ذاته سبحانه فانا لا نعرف ذاتا الا ان تكون جسما وذاك يستدعى سابقة تأليف، وهو منزّه عن ذلك ، لانه المؤلف ، أو أن يكون جوهرًا فالجوهر متحيز، وله أمثال ، وقد جيل عن ذلك . أو عرضا ، فالعرض لا يقوم بنفسه بل بغيره ، وقد تعالى عن ذلك . فاذا أثبتنا ذاتا قديمة خارجة عما يعرف ، فليعلم أن الصفات تابعة لتلك الذات ، فلا يجوز لنا أن نقيس شيئا منها على ما نفعله ونفهمه : بل نؤمن به ونسلمه ، وكذلك أفعاله ، فان أحدنا لو فعل فعلا لا يحتلب به نفعا ولا يدفع به عنه ضررا عابثا . وهو سبحانه أوجد الخلق لا لنفع يعود اليه ، ولا لرفع ضرر اذ المنافع لا تصل اليه والمضار لا تتطرق عليه . فان قال قائل : انما خلق الخلق لينفعهم . قلنا : يبطله . انه خلق منهم للكفر وعذبه . ونراه يؤلم الحيوان والاطفال ، ويخلق المضار ، وهو قادر أن لا يفعل ذلك ، فان قال قائل : انه يثيب على ذلك . قلنا : وهو قادر ان يثيب بلا هذه الاشياء ، فن السلطان لو أراد أن يغني فقيرا فجرحه ثم أغناه ليم على ذلك ، لأنه قادر أن يغنيه بلا جراح . ثم من يرى ما جرى لرسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى أصحابه من الجوع والقتل مع قدرة الناصر ، ثم يسأل في أمه فلا يجاب ، ولو كان المسؤول بعضنا قلنا لم تمنع مالا يضرك . غير أن الحق سبحانه لا تقاس أفعاله على أفعالنا ولا تعمل . والذي يوجب علينا التسليم ان حكمته فوق العقل ، فهي تقضى على العقول ، والعقول لا تقضى عليها ومن قاس فعله على أفعالنا غلط الغلط الفاحش . وانما هذه ككت المعترلة من هذا الفن . فانهم قالوا كيف يأمر بشيء ويقضى بامتناعه ، ولو ان انسانا دعانا الى داره ثم أقام من يصعد الداخل لعيب . واتقد صدقوا فيما يتعلق

بالشاهد . فاما من أفعاله لا تملل ولا يقاس بشاهد ، فانا لانصل الى معرفة
 حكمته . فان قال قائل : فكيف يمكنني ان أقود عقلي الى ما ينافيه . قلنا
 لا منافاة ، لان العقل قد قطع بالدليل الجلي انه حكيم ، وانه مالك ، والحكيم
 لا يفعل شيئا الا لحكمة ، غير أن تلك الحكمة لا يبلغها العقل . ألا ترى
 ان الخضر خرق سفينة وقتل شخصا ، فانكر عليه موسى عليهما السلام
 بحكم العلم ، ولم يطلع على حكمة فعله ، فلما اظهر له الحكمة اذعن والله
 المثل الأعلى . فياك اياك ان تقيس شيئا من أفعاله على أفعال الخلق أو شيئا
 من صفاته أو ذاته سبحانه وتعالى . فانك ان حفظت هذا سلمت من
 التشبيه الذي وقع فيه من رأى الاستواء اعتمادا ، والنزول ثقلة ، ونجوت من
 الاعتراض الذي اخرج قوما الى الكفر حتى طعنوا في الحكمة . وأول
 القوم ابليس ، فانه رأى تقديم الطين على النار ليس بحكمة ، ففسى أنه انما
 علم ذلك بزعمه بالفهم الذي وهب له ، والعقل الذي منحه ففسى أن الواهب
 اعلم «أو لم يروا ان الله الذي خلقهم هو اشد منهم قوة» واقدرايت لابن الرومي
 اعتراضا على من يقول بتخليد الكفار في النار ينبغي أن يقبل كل ما يقوله العقل ،
 ولا يرد بعضه اذ ليس رد بعضه بأولى من رد الكل ، وتخليد الكفار لا غرض
 فيه للمعذب ولا للمعذب فلا يجوز أن يكون . فقلت المعجب من هذا الذي يدعى
 وجود العقل ولا عقل عنده . وأول ما أقول له : أصبح عندك الخبر عن الخالق
 سبحانه انه أخبر بخاود أهل النار أم لم يصح ، فان كان صح عنه فالكلام
 اذن في اثبات النبوة وصحة القرآن ، فما وجه ذكر الفرع مع جحد الأصل . وان
 قال قد ثبت عندي فواجب عليه ان يتحمل لاقامة العذر ، لا ان يقف في وجه
 المعارضة . وانما ينكر هذا من يأخذ الأمر من الشاهد ، وقد بينا ان ذات

الحق لا كالذوات . وان صفته لا كالصفات ، وأن أفعاله لا تعمل . واولئح
شيئا من التعليل خلود الكفار لبيان ، اذ من الجائز ان يكون دوام تعذيبهم
لاظهار صدق الوعيد . فانه قال : من كفر بي خلدته في العذاب ولا جنابة
كالكفر ولا عقوبة كدوام الاحراق ، فهو يدوم ليظهر صدق الوعد .
ومن الجائز أن يكون ذلك لتتمة تنعيم المؤمنين فانهم أعداء الكفار ،
وقد قال سبحانه « ويشف صدور قوم مؤمنين » وكم من قلق في صدور وحنق
على أبي جهل فيما فعل ، وكم غم في قلب غمار وأمه سمية وغيرهم من أفعال
الكفار بهم فدوام عذابهم شفاء لقلوب أهل الايمان . ومن الجائز أن يدوم
العذاب لدوام الاعتراض وذكر المعبذ بما لا يحسن ، فكما زاد عذابهم زاد
كفرهم واعتراضهم فهم يعذبون لذلك . ودليل دوام كفرهم « يحلفون له
كما يحلفون لكم » فاذن كفرهم مازال ، ومعرفة بهم ما حصلت ، والشر
كامن في البواطن ، وعلى ذلك يقع التعذيب « ولوردوا لعادوا لما نهوا عنه »
٢٣٨ - فصل - ينبغي المؤمن بالله سبحانه إذا نظر في الفصل
الذي قد تقدم هذا أن لا يعترض على الله سبحانه في شيء لا في باطنه ولا
في ظاهره ، ولا يطلب تعليلات أفعاله . فان المتكلمين أعرضوا عن السنن
وتكلموا بآرائهم فاصفى لهم شرب ، بدليل اختلافهم . وكذلك إضمار
القياس لما عملوا جاءت أحاديث تمكر عليهم . والصواب التعليل لما يمكن ،
والتسليم لما يخفى . وكذلك سؤال الحق سبحانه ، فاذا دعاه المؤمن ولم ير
اجابة سلم وفوض وتأول للمنع ، فيقول : ربما يكون المنع أصليح ، وربما يكون
لأجل ذنوبي ، وربما يكون التأخير أولى ، وربما لم يكن هذا مصلحة .
واذا لم يجد تأويلا لم يحتج في باطنه نوع اعتراض ، بل يرى أنه قد تعبد

بالدعاء ، فان أنعم عليه فبفضل ، وان لم يجب فالك يفعل ما يشاء . على أن أكثر السؤال إنما يقع في طلب أغراض الدنيا التي اذا ردت كان أصلح فليكن هم العاقل في إقامة حق الحق والرضى بتقديره وان أساء . فمتى أقبلت عليه أقبل على اصلاح شأنك واذا عرفت أنه كريم فلذلك ولا تسأل . ومتى أقبلت على طاعته فمحال أن يوجد صانع وينصح في العمل ثم لا يعطى الاجرة .

٢٣٦ - فصل - والله انى لا تخايل دخول الجنة ودوام الإقامة فيها من غير مرض ولا بصاق ولا نوم ولا آفة تطراً ، بل صحة دائمة وأغراض متصلة لا يعتورها منغص ، في نعيم متجدد في كل لحظة الى زيادة لا تتناهى . فأطيش ويكاد الطبع يضيق عن تصديق ذلك لولا أن الشرع قد ضمنه . ومعلوم أن تلك المنازل انما تكون على قدر الاجتهاد ههنا . فواعجبا من مضيع لحظة يقع فيها ، فتسبيحة يغرس لها في الجنة نخلة أكلام ادايم وظلها . فيا أيها الخائف من فوت ذلك شجع قلبك بالرجاء . ويا أيها المنزعج لذكر الموت تلمح ما بعد مرارة الشربة من العافية . فانه من ساعة خروج الروح لا بل قبل خروجها تنكشف المنازل لأصحابها . فيهبون سير المجذوب للذة المنتقل اليه . ثم الارواح في حواصل طير تعلق في أشجار الجنة . فكل الآفات والمخافات في نهار الاجل : وقد اصفرت شمس العمر . فالبدار البدار قبل الغروب ولا معين يرافق على تلك الطريق الا الفكر اذا جلس مع العقل فتذاكرا العواقب ، فاذا فرغ المجلس فالنظر في سير المجدين فانه يعود مستجلبا للفكر منها للفضائل والتوفيق من وراء ذلك . ومتى أرادك شيء هياك له : فأما مخالطة الذين ليس عندهم خبر الا العاجلة فهو من أكبر أسباب مرض الفهم وعلل العقل . والعزلة عن الشرحية ، والجمية

٢٤٠ - فصل - رأيت سبب الهموم والغموم الاعراض عن الله عز وجل والاقبال على الدنيا . وكلما فات منها شيء وقع الغم لفواته . فأما من رزق معرفة بالله تعالى لئلا أنه يستغنى بالرضا بالقضاء فهما قدر له رضى . وان دعا فلم ير أثر الاجابة لم يختلج في قلبه اعتراض ، لأنه مملوك مدبر فكون همته في خدمة الخالق . ومن هذه صفته لا يؤثر جمع مال ، ولا مخالطة الخلق ولا الالتذاذ بالشهوات . لأنه إما أن يكون مقصرا في المعرفة فهو مقبل على التعبيد المحض يزهد في الفاني لينال الباقي . وإما أن يكون له ذوق في المعرفة فانه مشغول عن الكل بصاحب الكل . فتراه متأدبا في الخلوة به ، مستأنسا بمناجاته ، مستوحشا من مخالطة خلقه ، راضيا بما يقدر له . فميشه معه كمش محب قد خلا بحبيبه لا يريد سواه ، ولا بهتم بغيره . فأما من لم يرزق هذه الاشياء ، فانه لا يزال في تنغيص متكدر العيش ، لأن الذي يطلبه من الدنيا لا يقدر عليه ، فيبقى أبدا في الحسرات مع ما يفوته من الآخرة بطيب المعاملة . نسأل الله عز وجل أن يستصلحنا له فانه لا حول ولا قوة الا به .

٢٤١ - فصل - تفكرت في نفسي فرأيتني مفلسا من كل شيء ان اعتمدت على الزوجة لم يكن كما أريد . ان حسنت صورتها لم اكمل أخلاقها . وان تمت أخلاقها كانت صريدة لغرضها لا لي . واعلمها تنتظر رحيلي . وان اعتمدت على الولد فكذلك ، والخادم والمريد كذلك ، فان لم يكن لهما مني فائدة لم يريداني . وأما صديق فليس ، واخ في الله كغناء مغرب ، ومعارف يفتقدون أهل الخير ويعتقدون فيهم قد عدموا وبقيت وحدي ، وعدت الى نفسي ، وهي لا تصفو الى أيضا ولا تقيم على حالة سليمة ، فلم يبق الا الخالق

سبحانه . فرأيت انى ان اعتمدت على انعامه فما آمن ذلك البلاء ، وان رجوت عفوه فما امن عقوبته ، فوا أسفا لا طمأنينة ولا قرار . واقلقى من قلقي ، واحرقى من حرقى ، بالله ما العيش الا فى الجنة ، حيث يقع اليقين بالرضى والمعاشرة لمن لا يخون ولا يؤذى . فأما الدنيا فما هى الا دار ذاك .

٢٤٢ - فصل - ينبغى لمن صحب سلطانا أو عتسما أن يكون ظاهره

معه وباطنه سواء ، فانه قد يدس اليه من يخبره ، وربما افتضح فى الابتلاء . وقد كان جماعة من الملوك يقصدون تقريب المنادم ، ولا يجعلون له حجرة فى دورهم ، فاذا أرادوا أن يختصوه اختبروه باطنا وذاك لا يدري ، فيظهر منه مالا يصلح فيطرد . ولقد امتحن أبو ريز رجلا من خاصته ، فدس اليه جارية معها الطاف ، وأمرها أن لا تقعد عنده فحماها . ثم أنفذها مرة أخرى وأمرها أن تقعد بعد التسليم هنيئة ففعلت ، فلاحظها الرجل . ثم بعثها ثالثة وأمرها أن تطيل القعود عنده وتحديثه ، فأطالت الحديث معه ، فأبدى لها شيئا من الليل اليها ، فقالت : أخاف أن يطلع علينا ، ولكن دعنى أدبر فى هذا . فذهبت فاخبرت الملك بذلك ، فوجه غيرها من خواص جواريه بمثل ذلك ، فلما جاءته قال : ما فعلت فلانة قالت مريضة فاربد لونه . ثم فعلت الجارية الثانية مثل ما فعلت الاولى ، فقالت له : ان الملك يمضى الى بستانه فيقيم هناك ، فان أرادك على أن تمضى معه فأظهر أنك عليل ، فان خيرك بين الانصراف الى دور نسائك أو المقام ههنا فاختر المقام ههنا ، واخبره أنك لا تقدر على الحركة ، فان أجابك الى ذلك جئت اليك كل ليلة مادام الملك غائبا ، فسكن الى قولها . ثم مضت وأخبرت الملك بذلك . فلما كان بعد ثلاث ، استدعاه الملك فقال : انى مريض . فعاد الرسول فاخبره

فتبسم . وقال : هذا أول الشر . فوجه اليه محفة حمل فيها اليه فلما بصر به أبرويز قال : والمحفة الشر الثاني ، فرأى العصابة على رأسه ، قال : والعصابة الشر الثالث ، فقال له الملك : أيما أحب اليك الانصراف الى نسائك ليمرّضنك أو المقام ههنا الى وقت رجوعي قال : المقام ههنا أرفق لي لقلة الحركة ، فتبسم وقال : حركتك ههنا ان تركت اكثر من حركتك الى منزلك . ثم أمر له بعصا الزناة التي كان يوسم بها من زنا . فليقن الرجل بالأمر ، وأمر أن يكتب ما كان من أمره حرفا حرفا فيقرأ على الناس حرفا حرفا اذا حضروا ، وأن ينفي الى أقصى المملكة ، وتجعل العصا على رأس رمح يكون معه حيث كان ليحذر منه من لا يعرفه . فلما نفى أخذ من بعض الموكلين مديّة فجببها ذكره وقال : من أطاع عضوا صغيرا فسد عليه جميع أعضائه ، ومات من ساعته . قلت : وقد كان جماعة من الامراء يتنكرون ويسألون العوام عن سيرتهم ، فيتكلم العامي بما لا يصلح فيضبطونه عليه وربما بعثوا دسيسا . ورب كلمات قالها مسترسل فبلغها فضولي . ورأى عمر بن عبد العزيز رجلا من العمال كثير الصلاة ، فدرس عليه من قال له : ان أخذت لك الولاية الفلانية فما تعطيني قال : أعطيتك كذا وكذا ، قال عمر : غررتنا بصلاتك . وقد بلغت أن رجلا كلم امرأة فأجابته فاستدعته الى دارها ، فلما دخل أقامت عن قتله . فقد ينحل من هذه الحكاية أنه لا ينبغي أن يسكن الى قول امرأة أو بعل يجوز أنه يكون جاسوسا ومختبرا . وكذلك لا يظهر ما ينبغي اخفاؤه من مال او مذهب أو سب رجل فربما كان له في الحاضرين قريب . ولا يوثق بمودة لأصل لها ، فربما كانت تحتها آفة تقصده . وليحذر من كل أمر يحتمل . ورب كلمة نقلها صديق الى صديق فتحدث بها من لا يقصد أذى للقائل فبلغت فتأذى . ورب مظهر

للمحبة مبالغ حتى يستمكن من مراده . فالخذر الخذر من الطمانينة الى أحد
خصوصاً من عدو آذيته أو قتلت له قريباً ، فربما أظهر الجميل شبكة لاصطيادك
كحديث الزباء .

٢٤٣ - فصل - رأيت النفس بعد علو السن يقوى أملها ويزداد
حرصها كما قال النبي صلى الله عليه وسلم : يشيب ابن آدم وتشب منه خصلتان
الحرص والأمل : ورأيت أكثر أسباب ذلك فراغ اليد من الدنيا وكثرة
العائلة وقوة الحاجة ، فيحتاج الانسان الى التعرض بما يشين العرض ليحصل
العرض . فقلت الهى أبعد رؤية جبال عرفة أضل : أبعد مشاركة الحرم
تأخذنى أعراب البادية . والأسفا أيطمع فجر النحر وما وصلت الى عرفات
وياضياع سفر العمر وما حصل المقصود :

قد كنت أرجوك لنيل المنى واليوم لا أطلب الا الرضى
ثم قلت : يا نفس مالك ملجأ الا اللجأ واستغاثة الغريق فان رُحمت والا
فكم من حسرة تحت التراب .

٢٤٤ - فصل - شكى لى بعض الاشياخ فقال : قد علت سننى
وضعفت قوتى ونفسى تطلب منى شراء الجوار الصغار ، ومعلوم أنهم يردن
النكاح وليس فى ولا تقنع منى النفس بربة البيت اذ قد كبرت فقلت له :
عندى جوابان . أحدهما الجواب العامى ، وهو أن أقول : ينبغى أن تشتغل
بذكر الموت وما قد توجهت اليه ، وتحذر من اشتراء جارية لا تقدر على
إيفاء حقها فانها تبغضك ، فان أجهدت استعجلت التلف . وان استبقيت
قوتك غضبت هى ، على انها لا تريد شيخاً كيف كان . وقد أنشدنا على بن
عبيد الله قال أنشدنا محمد التميمى :

أفقد يافؤا دى من غرامى واستمع مقالة محزون عليك شفيق
 علقت فتاة قلبها متعلق بغيرك فاستوثقت غير وثيق
 وأصبحت موثوقا وراحت طليقة فكم بين موثوق وبين طليق

فاعلم انها تعد عليك الأيام ، وتطلب منك فضل المال تستعد لغيرك ،
 وربما قصدت حتفك ، فاحذر والسلامة في الترك ، والاقتناع بما يدفع
 الزمان . والجواب الثانى فانى أقول : لا يخلو أن تكون قادرا على الوطء
 فى وقت أو لا تكون ، فان كنت لا تقدر فالأولى مصابرة الترك للكل .
 وان كان يمكن الحازم أن يدارى المرأة بالنفقة وطيب الخلق الا انه يخاطر .
 وان كنت تقدر فى أوقات على ذلك ، ورأيت من نفسك توفاشديداً ، فعليك
 بالمراهمات فانهم ما عرفن النكاح ، وما طلبن بالوطء ، وأغمرهن بالانفاق
 وحسن الخلق مع الاحتياط عليهن ، والمنع من مخالطة النسوة . واذا اتفق
 وطء فتصبر عن الانزال ريثما تقضى المرأة حاجتها . واعتمد وعظها وتذكيرها
 بالآخرة . واذا كر لها حكايات العشاق من غير نكاح ، وقبح صورة الفعل ،
 وأنفت قلبها الى ذكر الصالحين ، ولا تخل نفسك من الطيب والتزين والكياسة
 والمداراة والانفاق الواسع . فهذا ربما حرك الناقة المسير مع خطر السلامة .

٢٤٥ - فصل - أبله الناس من عمل على الحال الحاضرة ولم يتصور
 تغيرها ولا وقوع ما يجوز وقوعه . مثاله ان يغتر بدولة فيعمل بمقتضى
 ملكه فاذا تغيرت هلك ، وربما عادى خلقا اغترارا بأنه متسلط أو أنه
 صاحب سلطان ، فاذا تغيرت حاله أكل كفيه ندماً عند فوات التمدارك .
 وكذلك من له مال يبذره سكوناً الى وجود المال ، وينسى حاله عند العدم .
 وكذا من يتناول الشهوات ، ويكثر من المآكل والمشارب والنكاح ثقة

بعافيته وينسى ما يعقب ذلك من الأمراض والآفات . ومن أظرف الأحوال ان يحب جارية فيعتقها ويهب لها، أو امرأة فيسكن اليها ويهب لها فتممكن . ولا تمضي الأيام حتى يسلوها أو يطلب غيرها ، ولا يجد طريقا للخلاص . فان تخلص منها أخذت ما غنمت منه فلقى من الغيظ أضعاف ما يلتذ به ، فلا ينبغي أن يوثق بامرأة ولا بمحبة انسان ، فانه قد يحب امرأة ويظن انه لا يسلوها أبداً فيدترسل اليها والسلوي يحدث . وربما أحب غيرها فينسى الأولى فيصعب عليه الخلاص من الأولى . فالعاقل لا يدخل في شيء حتى يهيئ الخروج منه ، فان الاشياء لا تثبت ، والمحبة لا تدوم ، والتغير مقرون بكل حال ، وكذلك يعطى ماله ولده ثم يبقى كلاً عليه فيتمنى الولد هلاكه ، وربما عل به في النفقة ، وكذلك قد يثق بالصديق فيبث أسرار له اليه ، وربما أظهر ذلك فكان منها ما يوجب هلاكه . وكذلك يغتر الانسان بالسلامة وينسى طروق الموت فيأتيه بغتة فيبته . وقد فات الاستدراك ولم يبق الا الندم . فالعاقل من كانت عينه مراقبة للعواقب ، محترزة مما يجوز وقوعه ، عاملة بالاحتياط في كل حال حافظه للمال والسر ، غير واثقة بزوج ولا ولد ولا صديق ، متأهبة للرحيل متهيئة للنقلة . هذه صفة أهل الحزم ، والتفريط ^(١) المداسع البذر

٢٤٦ - فصل - من أعجب الأمور طلب الاطلاع على تحقيق العرفان لذات الله عز وجل وصفاته وأفعاله وهيبات . ليس الا المعرفة بالجملة ولقد أوغل المتكلمون فما وقعوا بشيء فرجع عقلاؤهم الى التسليم وكذلك أصحاب الرأي ، مالوا الى القياس فاذا أشياء كثيرة بعكس مرادهم ، فلم

يجدوا ملجأ الا التسليم : فسموا ما خالفهم استحساناً . فالفقيه من علل بما يمكن ، فاذا عجز استطرح للتسليم ، هذا شأن العبيد . فأما من يقول لم فعل كذا وما معنى كذا ، فانه يطلب الاطلاع على سر الملك ، وما يجد الى ذلك سبيلاً لوجهين : أحدهما ان الله تعالى ستر كثيراً من حكمه عن الخلق . والثاني انه ليس في قوى البشر ادراك حكم الله تعالى كلها ، فلا يبقى مع المعارض سوى الاعتراض المخرج الى الكفر « فليمدد بسبب الى السماء ثم ليقع فلينظر هل يذهبن كيده ما يغيظ » والمعنى من رضى بأفعالي وإلا فليخفق نفسه فما أفعل الا ما أريد .

٢٤٧ - فصل - من رزقه الله تعالى العلم ، والنظر في سير الساف ، رأى ان هذا العالم ظلمة ، وجمهور العالم على غير الجادة ، والمخالطة لهم تضر ولا تنفع ، فالعجب لمن يترخص في المخالطة وهو يعلم ان الطبع بصير يسرق من المخالطة . وانما ينبغي أن تقع المخالطة للأرفع والاعلى في العلم والعمل ليستفاد منه . فأما مخالطة الدون فانها تؤذى ، الا ان يكون عامياً يقبل من معلمه ، فينبغي ان يخالط بالاحتراز . وفي هذا الزمان ان وقعت المخالطة للعوام فهم ظلمة مستحكمة . فاذا ابتلى العالم بمخالطتهم فليشمر ثياب الحذر ، ولتكن مجالسته ايام للتذكرة والتأديب فحسب . وان وقعت المخالطة للعلماء فاكثرم على غير الجادة . مقصودهم صورة العلم لا العمل به . فلا تكاد ترى من تذاكره أمر الآخرة ، انما شغلهم الغيبة وقصد الغلبة واجتلاب الدنيا ، ثم فيهم من الحسد للنظرء ما لا يوصف . وان وقعت المخالطة للأمرء ، فذاك تعرض لفساد الدين ، لانه ان تولى لهم ولاية دنيوية فالظلم من ضروراتها ، لغلبة العادة عليهم والاعراض عن الشرع . وان كانت ولاية

دينية كالتقضاء ، فانهم يا مرونة باشياء لا يكاد يتمكن المراجعة فيها ، ولو راجع لم يقبلوا ، وأكثر القوم يخاف على منصبه ، فليفعل ما أمر به وان لم يجبر ، وربما رأيت في هذا الزمان أقواماً يبذلون المال ليكونوا قضاة ، أو شهوداً ، ومقصودهم الرفعة . ثم أكثر الشهود يشهد على من لا يعرفه ، ويقول انه معرف ويدري انه كذاب وانما عرّف لاجل حبة يعطاها ولم قد وقعت شهادة على غير المشهود عليه ، وعلى مكره . وان وقعت المخالطة للمتزهدين فأكثرهم على غير الجادة ، وعلى خلاف العلم ، قد جعلوا لأنفسهم نواميس . فلا يتنسمون ولا يخرجون الى سوق ، ويظهرون التخشع الزائد وكله نفاق . وفيهم من يلبس الصوف تحت ثيابه ، وربما لوح بكمه يرى . وقد حكى عن طاهر بن الحسين انه قال لبعض المتزهدين : مذ كم قدمت العراق . قال : دخلتها منذ عشرين سنة ، وأنا منذ ثلاثين سنة صائم . قال سألتك عن مسألة فاجبت عن اثنتين . ويوت الصوفية أربطة فهي خوارج على المساجد وهي دكاكين كريهة يقعد فيها الكسالى من الكسب مع القدرة عليه ، ويتعرضون بالتمرد للصدقات ، ولأحوال الظلمة ، وقد أراحوا أنفسهم من إعادة العلم . وأكثرهم لا يصلي نافلة ، ولا يقوم الليل ، بل يهتم بالمأكل والمشروب والرقص . وقد اتخذوا سنناً تخالف الشريعة فهم يلبسون المرقع لا من فقر ، وهذا قبيح . لانه ليس عندهم من أمارات الزهد سوى اللبس الدون ، فثيابهم تصيح نحن زهاد ، وبقي أفعالهم المستورة تفضحهم اذا اطلع عليها . فالمطبخ دائر . والحمام والحلوى كثيرة . والطيب والدعة ؛ والكبر حاصل بذلك الكبير . وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم للمالك بن فضلة وقد رآه أشعث الهيئة : أمالك مال ؛ قال بلى من كل المال

آتاني الله عز وجل : قال : فان الله عز وجل اذا أنعم على عبد نعمة أحب أن ترى عليه . ومن أخلاقهم تنفير الناس عن العلم ، ويزعمون أن لا حاجة الى الوسائط ، وانما هو قاب ورب . ولهم من الاقوال والافعال المنكرات ما قد ذكرته في تلييس ابليس ؟ آه لو كان للزمان عمر لا احتاج كل يوم الى مائة درة . لا بل كان يستعمل السيف في هؤلاء الخوارج . وهم داخل البلد لا قدرة للعلماء عليهم . اذ قولهم فيهم لا يقبل . فمن رزقه الله سبحانه النظر في سير السلف ، ووفقه للاقتداء بهم . أن يعتزل عن أكثر الخلق . ولا يخالطهم فانه من خالطهم أودى . ومن دارا لم يسلم من المداهنة فالتصح اليوم مردود .

٢٤٨ - فصل - من البله أن يبادر عدوا أو حسودا بالخاصة . وانما ينبغي ان عرفت حاله أن تظهر له ما يوجب السلامة بينكما . وان اعتذر قبلت . وان أخذ في الخصومة صفحت . وأدريته أن الامر قريب ، ثم تبطن في الحذر منه . فلا تثق به في حال . وتجاافاه باطنا مع اظهار المخالطة في الظاهر . فاذا اردت أن تؤذيه فأول ما تؤذيه به اصلاحك واجتهادك فيما يعرفك . ومن أعظم العقوبة له العفو عن ذلله . وان بالغ في السب فبالغ في الصفح تنب عنك العوام في شتمه . ويحمدك العلماء على حلمك . وما تؤذيه به من ذلك وغيره في الباطن اضعاف ، وما تؤذيه به من كلمة اذا قلتها له سمعت أضعافها . ثم بالخصومة تعلمه أنك عدوه فيأخذ الحذر وييسط اللسان ، وبالصفح يحمل مما في باطنك ، فيمكنك حينئذ أن تشتفى منه بما يؤذى دينك فيكون هو الذي قد اشتفى منك . وما ظفر قط من ظفر به الاثم بل الصفح الجميل . وانما يقع هذا ممن يرى أن نسيطة عليه إما عقوبة لذنوب

أو لرفع درجة أو للابتلاء فهو لا يرى الخضم وإنما يرى القدرة .

٢٤٩- فصل - إذا وقعت في محنة يصعب الخلاص منها فليس لك إلا الدعاء واللجأ بعد أن تقدم التوبة من الذنوب، فإن الزلل يوجب العقوبة، فإذا زال الزلل بالتوبة من الذنوب ارتفع السبب، فإذا ثبت ودعوت ولم تر للإجابة أثراً فتفقد أمرك، فربما كانت التوبة ماصحة، فصحيحها ثم ادع ولا تمل من الدعاء، فربما كانت المصلحة في تأخير الإجابة، وربما لم تكن المصلحة في الإجابة، فانت تثاب ونجأ إلى منافعك . ومن منافعك أن لا تعطى ما طلبت بل تعوض غيره . فإذا جاء إبليس فقال كم تدعوه ولا ترى إجابة، فقل أنا أتعبد بالدعاء . وأنا موقن أن الجواب حاصل . غير أنه ربما كان تأخيره لبعض المصالح على مناسب، ولو لم يحصل حصل التعب والذل . فإياك أن تسأل شيئاً إلا وتقرنه بسؤال الخير، فرب مطلوب من الدنيا كان حصوله سبباً للهلاك . وإذا كنت قد أمرت بالمشاورة في أمور الدنيا فليستك ليبين لك في بعض الآراء ما يعجز رأيك وتري أن ما وقع لك لا يصلح فكيف لا تسأل الخير ربك وهو أعلم بالمصالح والاستخارة من حسن المشاورة .

٢٥٠- فصل - نظرت إلى الناس فرأيتهم ينقسمون بين عالم وجاهل، فاما الجهال فانقسموا، فمنهم سلطان قد ربي في الجهل ولبس الحرير وشرب الخمر وظلم الناس، وله مال على مثل حاله، فهو لاء بمنزل عن الخير بالجملة . ومنهم تجار همتهم إلا كسب وجمع الاموال، واكثرهم لا يؤدى الزكاة ولا يتحاشى من الربا . فهو لاء في صور الناس . ومنهم أرباب معاش يطففون المكيال ويخسرون الميزان ويبخسون الناس ويتعاملون بالربا

وهم في الاسواق طول النهار لاهمة لهم الا ما هم فيه . فاذا جاء الليل وقموا
نياما كالسكارى . فهمة أحدهم ما ياكل ويلتذ به ، وليس عندهم من الصلاة
خبر ، فان صلى أحدهم نقرها أو جمع بينهما ، فهو لاء في عداد البهائم . ومن
الناس ذوو ارذالة في جميع أحوالهم فهذا كناس وهذا زبال وهذا نخال وهذا
يكسح الحش فهو لاء أرذل القوم . ومنهم من يطلب اللذات ولا يساعده
المعاش فيخرج الى قطع الطريق ، وهو لاء أحمق الجماعة ، إذ لا عيش لهم
فان التذوا لحظة باكل أو شرب فحركت الريح قصبة هربوا خوفا من
السلطان . وما أقل بقاءهم ، ثم القتل والصلب مع اثم الآخرة . ومنهم أرباب
قرى قد عمهم الجهل ، واكثرهم لا يتحاشى من نجاسة ، فهم في زمرة البقر .
ورأيت النساء ينقسمن أيضا ، فمنهن المستحسنة التي تبغى ومنهن اخائنة
لزوجها في ماله . ومنهن من لا تصلى ولا تعرف شيئا من الدين . فهو لاء حشو
النار . فاذا سمعن موعظة فانها كما مرت على حجر . واذا قرى عندهن
القرآن فكأنهن يسمعن السمر . وأما العلماء فالمبتدئون منهم ينقسمون الى ذى
نية خبيثة يقصد بالعلم المباهاة لا العمل ، ويتبيل الى الفسق ظنا أن العلم
يدفع عنه ، وانما هو حجة عليه . وأما المتوسطون والمشهورون ، فاكثرهم
يفشى السلاطين ويسكت عن انكار المنكر ، وقليل من العلماء من تسلم له
نيته ويحسن قصده . فمن أراد الله به خيرا رزقه حسن القصد في طلب العلم ،
فهو يحصله لينتفع به وينفع ، ولا يسالى بعمل مما يبدله عليه العلم ، فتراه يتجافى
أرباب الدنيا ، ويحذر مخالطة العوام ، ويقنع بالقليل خوفا من المخاطرة
في الدنيا في تحصيل الكثير ، ويؤثر العزلة فليس مذكرا للآخرة مثلها ،
وليس على العالم أضر من الدخول على السلاطين فانه يحسن للعالم الدنيا

ويهون عليه المنكر، وربما أراد أن ينكر فلا يصح له، فإن عدم القناعة وغلبته نفسه في طلب فضول الدنيا سلم عليه لأنه يتعرض باربابها، وإن الإنسان لميشي في السوق ساعة فينسى بما يرى ما يعلم، فكيف إذا انضم إلى ذلك التردد إلى الأغنياء والطمع في أموالهم، فأما الوحدة فأنها سبب رجوع القلب وجمع الهم والنظر في العواقب والتهيب لارحيل وتحصيل الزاد. فإذا انضمت إليها القناعة جلبت المستحسنة. ولا تحسن اليوم المجالسة إلا لكتاب يحدثك عن أسرار السلف. فاما مجالسة العلماء فمخاطرة، إذ لا يجتمعون على ذكر الآخرة في الأغلب. ومجالسة العوام فتنة للدين، إلا أن يحترز مجالسهم ويمنعهم من القول فيقول هو ويكلفهم السماع. ثم يستوفز للبعد عنهم ولا يمكن الانقطاع الكلى إلا بقطع الطمع. ولا ينقطع الطمع إلا بالقناعة باليسير أو يتميز بتجارة، أو أن يكون له عقار يستغله، فانه متى احتاج تشتت الهم، ومتى انقطع العالم عن الخلق وقطع طمعه فيهم وتوفر على ذكر الآخرة فذاك الذي ينفع وينتفع به. والله الموفق.

٢٥١ - فصل - من تأمل بعين الفكر دوام البقاء في الجنة في صفاء بلا كدر، ولذات بلا انقطاع، وبلوغ كل مطلوب للنفس، والزيادة بلا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر من غير تغيير ولا زوال. ولا يقال ألف ألف سنة ولا مائة ألف ألف. ولو أن الإنسان عد الألف الوف سنين لا ينقضي عدده ولا كان له نهاية. وبقاء الآخرة لا نقاد له. إلا أنه لا يحصل ذلك إلا بنقد هذا العمر. وما مقدار عمر غايته مائة سنة منها خمسة عشر صبوة وجهل. وثلاثون بعد السبعين إن حصلت ضعف وعجز. والتوسط نصفه نوم وبعضه زمان أكل وشرب وكسب والمنتحل منه للعبادات

يسير . أفلا يشتري ذلك الدائم بهذا القليل ؟ ان الاعراض عن الشروع في هذا البيع والشراء لغبن فاحش في العقل ، وخلل داخل في الايمان بالوعد . فان من يدري كيف يعقد البيع بالعلم ، هو الذى يدل على الطريق ويعرف ما يصلح لها ويحذر من فظاعتها . ولقد دخل ابليس على طائفة من المتزهدين بأفات أعظمها أنه صرفهم عن العلم . فكأنه شرع في اطفاء المصباح ليسرق في الظلمة حتى أنه أخذ قوما من كبار العلماء فسلك بهم من ذلك ما ينهى عنه العلم . فرأيت أبا حامد الطوسي يحكى عن نفسه في بعض مصنفاته قال : شاورت متبوعا مقديما من الصوفية في المواظبة على تلاوة القرآن فمنعني منه ، وقال : السبيل ان تقطع علايقك من الدنيا بالكلية بحيث لا يلتفت قلبك الى أهل وولد ومال وعلم ، بل تصير الى حالة يستوى عندك وجود ذلك وعدمه . ثم تخلو بنفسك في زاوية ، فتقتصر من العبادة على الفرائض والرواتب ، وتجلس فارغ القلب . ولا تزال تقول : الله الله الى ان تنتهي الى حالة لو ترك نحرليك اللسان رأيت كأن الكلمة جارية على لسانك . ثم تنظر ما يفتح عليك مما فتح مثله على الانبياء والأولياء . قلت وهذا أمر لا أعجب انا فيه من الموصى به وانما أعجب من الذى قبله مع معرفته وفهمه ، وهل يقطع الطريق بالاعراض عن تلاوة القرآن : وهل فتح للأنبياء ما فتح بمجاهدتهم ورياضتهم . وهل يوثق بما يظهر . ثم ما الذى يفتح . أثم اطلاع على علم الغيب أم وحى . فهذا كله من تلاعب ابليس بالقوم . وربما كان ما يتخايل من أثر الما ليخوليا ومن ابليس فعليك بالعلم . وانظر في سير السلف هل فعل أحد منهم من هذا شيئا أو أمر به . وانما تشاغلوا بالقرآن والعلم فدلهم على اصلاح البواطن وتصفيتهما . نسأل الله عز وجل علما نفعاء ،

للمدومانما انه قادر .

٢٥٢- فصل - من أراد اصطفاء محبوب فالمحبوب نوعان امرأة
يقصد منها حسن الصورة ، وصديق يقصد منه حسن المعنى ، فاذا أعجبك
صورة امرأة فتأمل خلالها الباطنة مديدة قبل أن يتعلق القاب بها تعلقاً محكماً ،
فإن رأيتهما كما تحب وأصل ذلك كله الدين كما قال : عليك بذات الدين . فمل
اليها واستولدها وكن في ميلك معتدل الميل ، فانه من الغلط ان تظهر لمحبوبك
المحبة ، فانه يشتط عليك ، وتلقى منه الأذى والتجنى والهجران والاذلال
وطلب الاتفاق الكثير وإن كانت تحبك لأن هذا لما يجتلبه حب الادلال المقهور
وتم نكتة عجيبة . وهو انك ربما عملت بمقتضى الحال الحاضرة ، وهى تحكم
بكمال الحب ، ثم ان ذلك لا يثبت اليك فتقع وتبقى مقهوراً ويصعب عليك
الخلاص . وربما تمكنت بمعرفة سرك أو بأخذ كثير من مالك . ومن أحسن
ما بلغنى فى هذا أن جارية لبعض الخلفاء كانت تحبه حباً شديداً ولا تظهر له
ذلك ، فسئلت عن هذا فقالت : لو أظهرت ما عندى فجفانى هلكت .
قال للشاعر :

لا تظهرن مودة لحبيب فترى بعينك منه كل عجب
أظهرت يوماً للحبيب مودتى فأخذت من هجرانه بنصيبى
وكذا ينبغى ان تكتم بعض حبك للولد ، لانه يتسلط عليك ، ويضيع
مالك ، ويبالغ فى الادلال ، ويمتنع عن التعلم والتأدب ، وكذلك اذا
اصطفيت صديقاً وخبرته فلا تخبره بكل ما عنده ، بل تعاوده بالاحسان
كما تتعاود الشجرة ، فانها اذا كانت جيدة الاصل حسنت ثمرتها بالتعاود .
ثم كن منه على حذر فقد تتغير الاحوال وقد قيل :

احذر عدوك مرة واحذر صديقك ألف مرة

فلربما انقلب الصديق فـ كان أدرى بالمضرة

٢٥٣ - فصل - وأما إذا ابغضت شخصاً فلا تظهرن ذلك ، فانك

تنبهه على أخذ الحذر منك ، وتدعوه الى المبارزة ، فيبالغ في حربك والاحتياـ
ل عليك ، بل ينبغي ان تظهر له الجميل ان قدرت ، وتبره ما استطعت فانكسرت
معاداته جبلة بالحياء من بغضك . فان لم تطق فهجر جميل ، لا بين فيه
ما يؤذى . ومتى سمعت عنه كلمة قذعة فاجعل جوابها كلمة جميلة ، فهي
أقوى في كف لسانه ، وكذلك جميع ما يخاف اظهاره ، فلا تتكلمن به ، فربما
وقعت كلمة أسقطت بها عز السلطان فنقلت اليه فكانت سبب هلاكك .
أو عن صديق فكانت سبب عداوته ، أو صرت رهينا لمن سمعها خائفا
ان يظهرها . فالحزم كتمان الحب والبغض . وكذا ينبغي ان تكتم سرك . فان
كنت كبيرا استهزموك ، وان كنت صغيرا استحقروك . وكذلك مقدار
مالك ، فانه ان كان كثيرا نسبوك في نفقتك الى البخل . وان كان قليلا
طلبوا الراحة منك . وكذلك المذهب ، فانك ان أظهرته لم تأمن أن يسمعه
مخالف فيقطع بكفرك . وقد أنشدنا محمد بن عبد الباقي البزار :

احفظ لسانك لا تبج بثلاثة سنا وما لا ما استطعت ومذهب

فعلى الثلاثة نبتلى بثلاثة بموه ومخرف ومكذب

٢٥٤ - فصل - طال تعجبي من مؤمن بالله عز وجل مؤمن بجزائه

يؤثر خدمة السلطان مع ما يرى من الجور الظاهر فواعجبا ما الذي يعجبه .

ان كان الذي يعجبه دنيويا فليس ثم الا ان يصاح بين يديه بسم الله ، وأن
يتصدر في المجالس ويلوى عنقه كبرا على النظراء ، يأخذ الأسحات وهو

يعلم من أين حصل . وربما انبسط في البرطيل . ثم يقابل هذا ان يصادر
ويعزل . فيستخرج تلك المرارة من كل حلاوة كانت في الولاية . وربما
كان قريب الحال فافتقر بالمصادرة جدا . ثم تنطلق الألسن المادحة بالذم .
ثم لو سلم من هذا فانه لا يسلم من الرقيب له والحذر منه . فهو كراكب
البحر ان سلم بدنه من الفرق لم يسلم قلبه من الخوف . وان كان ديناً
فانه يعلم انهم لا يمكنونه في الغالب من العمل بمقتضى الدين . فانهم
يأصرونه بترك ما يجب وفعل ما لا يجوز فيذهب دينه على البارد ولعقاب
الآخرة أشق .

٢٥٥ - فصل - العجب من الذى أنف من الذل كيف لا يصبر
على جلف الخبز ولا يتعرض لمنن الاندال ، أتراه ما يعلم انه ما بقى صاحب
مروءة ؛ وانه ان سأل سائل بخيلاً لا يعطى ، فان أعطى نزرأ فانه يستعبد
المعطى في العمر بذلك ، ثم ذاك القدر النذر يذهب عاجلاً ، وتبقى المنن
والخجل ورؤية النفس بعين الاحتقار ، اذ صارت سائلة ، ورؤية المعطى بعين
التعظيم ابداً . ثم يوجب ذلك السكوت عن معائب المعطى والبدار الى قضاء
حقوقه وخدمته فيما بقى . وأعجب من هذا من يقدر أن يستعبد الاحرار
بقليل العطا الفانى ولا يفعل ، فان الحر لا يشتري إلا بالاحسان قال الشاعر :
تفضل على من شئت واعن بأمره فأنت ولو كان الامير أميره
وكن ذا غنى عن من تشاء من الورى ولو كان سلطانا فأنت نظيره
ومن كنت محتاجاً اليه وواقفاً على طمع منه فأنت أسيره
٢٥٦ - فصل - يتضمن وصية الشباب . ينبغى للصبي اذا بلغ
ان يحذر كثرة الجماع ليبقى جوهره فيفيده ذلك في الكبر ، لأنه من

الجائز كبره والاستعداد للجائز حزم ، فكيف للغالب . كما ينبغي أن يستعد للشتاء قبل هجومه ، ومتى أنفق الحاصل وقت القدرة تأذى بالفقر اليه وقت الفاقة . وليعلم ذو الدين والفهم ان المتعة انما تكون بالقرب من الحبيب ، والقرب يحصل بالتقريب والضم . وذلك يقوى المحبة . والمحبة يلذ وجودها والوطء ينقص المحبة ويعدم تلك اللذة . وقد كان العرب يعشقون ولا يرون وطء المعشوق . قال قائلهم : ان نكح الحب فسد : فأما الالتذاذ بنفس الوطء فشأن البهائم . ولقد تأملت المراد من الوطء فوجدت فيه معنى عجيباً يخفى على كثير من الناس ، وهو ان النفس اذا عشقت شخصاً أحبت القرب منه ، فهي تؤثر الضم والمعانقة لانها غاية في القرب ، ثم تريد قرباً يزيد على هذا فيقبل الخلد . ثم تطلب القرب من الروح فيقبل الفهم ، لانه منفذ الى الروح ، ثم تطلب الزيادة فيمص لسان المحبوب ، وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتوشح عائشة ويقبلها ويمص لسانها . فاذا طلبت النفس زيادة في القرب الى النفس استعملت الوطء . فهذا سره المعنوى ، ويحصل منه الالتذاذ الحسى .

٢٥٧ - فصل - ليس على العوام أضر من سماعهم علم الكلام وانما ينبغي ان يحذر العوام من سماعه والخوض فيه ، كما يحذر الصبي من شاطئ النهر خوف الغرق . وربما ظن العامي ان له قوة يدرك بها هذا وهو فاسد ، فانه قد زل في هذا خلق من العلماء فكيف العوام . وما رأيت أحق من جمهور قصاص زماننا ، فانه يحضر عندهم العوام الغشم فلا ينهونهم عن خمر وزنا وغيبة ، ولا يعلمونهم أركان الصلاة ووظائف التعبد ، بل يملئون الزمان بذكر الاستواء وتأويل الصفات ، وان الكلام قائم بالذات

فيتأذى بذلك من كان قلبه سليما. وانما على العامى ان يؤمن بالاصول الخمسة بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، ويقنع بما قال السلف : القرآن كلام الله غير مخلوق . والاستواء حق والكيف مجهول . وليعلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يكف الا عراب سوى مجرد الايمان ، ولم تتكلم الصحابة في الجواهر والاعراض . فن مات على طريقهم مات مؤمنا سليما من بدعة . ومن تعرض لساحل البحر وهو لا يحسن السباحة فالظاهر غرقه .

٢٥٨ - فصل - أشد الناس جهلا منهوم بالذات . والذات على ضربين مباحة ومحظورة ، فالمباحة لا يكاد يحصل منها شيء الا بضيايع ما هو مهم من الدين . فاذا حصلت منها حبة قارنها قنطار من الهم . ثم لا تكاد تصفو في نفسها بل مكدراتها ألوف ، فاذا صور عددها الألوف صار التصوير مغاصا للهوى مجرثا للنفس فاذا أنفت أنفت من الأسف على الدوام مبالا يحويه صفة فهي تفر العمر وتهدم العمر وتديم الالسى . ومع هذا فالمنهوم كما عد من لذة طلب أختها . وقد عرف جناية الاولى وخيانتها . وهذا مرض العقل ، وداء الطبع . فلا يزال هذا كذلك الى أن يختطف بالموت فيلقى على بساط ندم لا يستدرك . فالمعجب ممن همته هكذا مع قصر العمر ، ثم لا يهتم بآخرته التي لذتها سليمة من شامت ، منزهة عن معائب دائمة الى الامد باقية ببقاء الابد . وانما يحصل تقريب هذه بابعاد تلك ، وعمران هذه بتخريب تلك . فواعجا لما قل خفيف حسن التدبير ، فانه النظر في هذه الاحوال ، وغفل عن تمييز بين هذين الامرين ، وان كانت اللذة ممصية انضم الى ما ذكرناه عار الدنيا . والفضيحة بين الخلق ، وعقوبة (م - ١٩)

الحدود ، وعقاب الآخرة وغضب الحق سبحانه . بالله . ان المباحات تشغل
عن تحصيل الفضائل ، فذم ذلك ، لبيان الحزم ، فكيف بالمحرمات التي هي
غاية الرذائل ، نسال الله عز وجل يقظة تحررنا الى منافعنا . وتزعجنا عن
خوادعنا انه قريب .

٢٥٩ - فصل - تأملت على الخلق واذا هم في حالة عجيبة يكاد يقطع
معهما بفساد العقل . وذلك ان الانسان يسمع المواعظ وتذكر له الآخرة
فيعلم صدق القائل ، فيبكي وينزعج على تفريطه ، ويمزم على الاستدراك ،
ثم يتراخى عمله بمقتضى ما عزم عليه . فاذا قيل له : أتشك فيما وعدت به ،
قال لا والله . فيقال : له فاعمل فينوى ذلك ثم يتوقف عن العمل . وربما مال
الى لذة محرمة ، وهو يعلم النهى عنها . ومن هذا الجنس تأخر الثلاثة الذين
خلفوا ولم يكن لهم عذر وهم يعلمون قبح التأخر . وكذلك كل عاص
ومفرط : فتأملت السبب مع أن الاعتقاد صحيح والفعل بطيء ، فاذا له
ثلاثة أسباب . أحدها رؤية الهوى العاجل ، فان رؤيته تشغل عن الفكر
فيما يحنيه . والثاني التسويف بالتوبة . فلو حضر العقل لحذر من آفات
التأخير ، فربما هجم الموت ولم تحصل التوبة . والعجب ممن يجوز سلب
روحه قبل مضي ساعة ولا يعمل على الحزم ، غير ان الهوى يطيل الأمد . وقد
قال صاحب الشريعة الى الله عليه وسلم : صلاة مودع . وهذا نهاية الدواء
لهذا الداء ، فانه من ظن انه لا يبقى الى صلاة أخرى جدد واجتهد . والثالث
رجاء الرحمة . فيرى العاصي يقول : ربى رحيم : وينسى انه شديد العقاب .
ولو علم أن رحمته ليست رقة اذ لو كانت كذلك لما ذبح عصفورا ولا آلم
طفلا ، وعقابه غير مأمون ، فانه شرع قطع اليد الشريفة بسرقة خمسة

قراريط . فندأل الله عز وجل أن يهب لنا حزماء بيت المصالح جزماً .

٢٦٠ - فصل - نظرت في قول رسول الله صلى الله عليه وسلم لما لبس الخاتم ثم رمى به وقال : شغلني نظره اليكم ونظره اليه . وقوله : هذا رجل يتبختر في حلته مرجلاً مجتة خسف به الارض ، فهو يتجلجل فيها الى يوم القيمة . فرأيت انه لا ينبغي لأحد أن يلبس ثوباً معجباً ولا شيئاً من زينة ، لأن ذلك يوجب النظر الى النفس بعين الاعجاب ، والنفس ينبغي أن تكون ذليلة للخالق . وقد كان قدماء الأخبار في بني اسرائيل يمشون على العصي اثلاً يقع منهم بطرفي المشي . ولبست أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها درعاً لها فأعجبت به ، فقال لها رسول الله ﷺ : ان الله لا ينظر اليك في حالتك هذه ولما لبس رسول الله صلى الله عليه وسلم خميصة لها أعلام قال : ألهتني هذه عن صلاتي . وهذا كله يوجب الاعراض عن الزينة وما يحرك الى الفخر والزهو والعجب . ولهذا حرم الحرير . واقول على أسباب هذا : ان المرقعات التي يتنوق فيها المتصوفة بالسوارك والتاميع ، ربما أوجبت زهو الملابس ، اما لحسنها في ذاتها ، أو لعلمها انها تنبئ عنه بالتصوف والزهد . وكذلك الخاتم في اليد ، وطول الاكمام ، والنعال الصرارة ، ولا أقول : ان هذه الاشياء تحرم ، بل ربما جلبت ما يحرم من الزهو ، فينبغي للعاقل أن يتنبه بما قلت في دفع كل ما يحذر من شره . وقد ركب ابن عمر نجيباً فأعجبه مشيه فنزل ، وقال يانافع أدخله في البدن .

٢٦١ - فصل - من أراد اجتماع همه واصلاح قلبه ، فليحذر من مخالطة الناس في هذا الزمان ، فانه قد كان يقع الاجتماع على ما ينفع ذكره ، فصار الاجتماع على ما يضر . وقد جربت على نفسي مراراً ان أحصرها

في بيت العزلة ، فتجتمع هي ويضاف الى ذلك النظر في سير السلف فأرى العزلة حمية والنظر في سير القوم دواء واستعمال الدواء مع الحمية عن التخليط نافع . فاذا فسحت لنفسى في مجالسة الناس ولقائهم فشتت القلب المجتمع ، ووقع الذهول عما كنت أراعيه ، وأنتقش في القلب ما قد رأته العين ، وفي الضمير ما تسمعه الأذن ، وفي النفس ما تطمع في تحصيله من الدنيا . واذا جمهور المخالطين أرباب غفلة ، والطبع بمجالستهم يسرق من طباعهم . فاذا عدت أطلب القلب لم أجده ، وأروم ذاك الحضور فأفقده ، فيبقى في غار ذلك اللقاء للناس أياما حتى ما يسلوا الهوى . وما فائدة تعريض البنا للنقض ، فان دوام العزلة كالبناء والنظر في سير السلف يرفعه فاذا وقعت المخالطة انتقض ما بنى في مدة في لحظة . وصعب التلاقي وضعف القلب ، ومن له فهم يعرف أمراض القلب وإعراضه عن صاحبه وخروج طائره من قفصه . ولا يؤمن على هذا المريض أن يكون مرضه هذا سبب التلف . ولا على هذا الطائر المحصور أن لا يقع في الشبكة . وسبب مرض القلب انه كان محميا عن التخليط مغذيا بالعلم وسير السلف فخلط فلم يحتمل مزاجه فوقع المرض . فالجد الجد فانما هي أيام وما نرى من يلقي ولا من يؤخذ منه ، ولا من تنفع مجالسته ، الا أن يكون نادرا ما أعرفه :

ما في الصحاب أخو وجد نظارحه حديث نجد ولا خل نجاره
فأزيم خلوتك ، وراع ما بقيت . واذا قلقت النفس مشتاقة الى لقاء الخلق ، فاعلم انها بعد كدرة فرضها ليصير لقاءهم عندها مكروها ، ولو كان عندها شغل بالخالق لما أحبت الزحمة ، كما ان الذي يخلو بجيبه لا يؤثر حضور غيره ، ولو انها عشقت طريق اليمن لم تلتفت الى الشام .

٢٦٢ - فصل - تفكرت في سبب هداية من يهتدى وانتباه من يتيقظ من رقاد غفلته ، فوجدت السبب الاكبر اختيار الحق عز وجل لذلك الشخص . كما قيل . اذا ارادك لأمر هياك له . فتارة تقع اليقظة بمجرد فكر يوجبه نظر العقل ، فيتلمخ الانسان وجود نفسه فيعلم ان لها صانعا وقد طالبه بحقه وشكر نعمته وخوفه عقاب مخالفته ، ولا يكون ذلك بسبب ظاهر . ومن هذا ماجرى لأهل الكهف ، « إذ قاموا فقالوا ربنا رب السموات والارض ، وفي التفسير : ان كل واحد منهم ألقى في قلبه يقظة فقال لا بد لهذا الخلق من خالق ، فاشتد كرب بواطنهم من وقود نار الحذر ، فخرجوا الى الصحراء ، فاجتمعوا عن غير موعد ، فكل واحد يسأل الآخر : ما الذى أخرجك فتصادقوا . ومن الناس من يجعل الخالق سبحانه وتعالى لذلك السبب الذى هو الفكر والنظر سببا ظاهرا ، اما من موعظة يسمعها أو يراها ، فيحرك هذا السبب الظاهر فكرة القلب الباطنة . ثم ينقسم المتيقظون فمنهم من يقلبه هواه ويقتضيه طبعه ما يشتهى مما قد اعتاده ، فيعود القهقري ولا ينفعه ما حصل له من الانتباه . فانتباه مثل هذا زيادة في الحجة عليه . ومنهم من هو واقف في مقام المجاهدة بين صفين العقل الآمر بالتقوى والهوى المتقاضى بالشهوات . فمنهم من يغلب بعد المجاهدات الطويلة فيعود الى الشر ويختم له به ، ومنهم من يغلب نارة ويغلب أخرى فجراحاته لا فى مقتل . ومنهم من يقهر عدوه فيسجنه فى حبس ، فلا يبقى للعدو من الحيلة الا الوسوس ، ومن الصفوة أقوام مذتقظوا ما قاموا ، ومذ سلكوا ما وقفوا ، فهم صمود وترق ، كلما عبروا مقاما الى مقام رأوا نقص ما كانوا فيه فاستغفروا . ومنهم من يرقى عن الاحتياج الى

مجاهدة إما لحسة ما يدعو اليه الطبع عنده ولا وقع له ، واما لشرف مطلوبه فلا يلتفت الى عائق عنه . واعلم أن الطريق الموصلة الى الحق سبحانه ليست مما يقطع بالأقدام ، وانما يقطع بالقلوب . والشهوات العاجلة قطاع الطريق والسبيل كالليل المدلهم ، غير ان عين الموفق بصر فرس لانه يرى في الظلمة كما يرى في الضوء والصدق في الطلب اينار اين وجد يدل على الجادة ، وانما يتعثر من لم يُخلص . وانما يتمتع الاخلاص ممن لا يراد . فلا حول ولا قوة الا بالله .

٢٦٣ - فصل - عجبت لمن يعجب بصورته ويختال في مشيته وينسى مبدأ أمره . انما أوله لقمة ضمت اليها جرعة ماء فان شئت كبيرة خبز معها ثمرات وقطعة من لحم ومذقة من لبن وجرعة من ماء ونحو ذلك طبخته الكبد فأخرجت منه قطرات منى ، فاستقر في الانثيين فحركتها الشهوة ، فصبت في بطن الأم مدة حتى تكاملت صورتها فخرجت طفلا تتقلب في خرق البول . وأما آخره فانه يلقي في التراب فيأكله الدود ويصير رافنا تسفيه السواقي . وكما يخرج تراب بدنه من مكان الى مكان آخر . ويقلب في أحوال الى أن يعود فيجمع . هذا خبر البدن . انما الروح عليها العمل ، فان تجوهرت بالأدب وتقومت بالعالم ، وعرفت الصانع ، وقامت بحقه فما يضرها نقض المركب . وان هي بقيت على صفتها من الجهالة شابها الطين بل صارت الى اخس حالة منه .

٢٦٤ - فصل - هيات أن يجتمع الهم مع التلبس بأموال الدنيا خصوصا بالشباب الفقير الذي قد ألف الفقر ، فانه اذا تزوج وليس له شيء من الدنيا اهتم بالكسب أو بالطلب من الناس فقتشت همته وجاءه الاولاد فزاد

الا مر عليه ، ولا يزال يرخص لنفسه فيما يحصل الى أن يتلبس بالحرام ومن
 ينكر فهمته ما يأكل وما يأكله أهله ، وما ترضى به الزوجة من النفقة والكسوة ،
 وليس له ذلك . فإى قلب يحضر له ، وأى هم يجتمع ، هيهات . والله
 لا يجتمع الهم والعين تنظر الى الناس ، والسمع يسمع حديثهم ، واللسان
 يخاطبهم ، والقلب متوزع في تحصيل ما لا بد منه . فان قال قائل : فكيف
 أصنع : قلت : ان وجدت ما يكفيك من الدنيا ، أو معيشة تكفيك فاقنع
 بها ، وانفرد في خلوة عن الخلق مهما قدرت ، وان تزوجت بفقيرة تقنع
 باليسير ، وتصبر أنت على صورتها وفقرها ، ولا تترك نفسك تطمح الى
 من تحتاج الى فضل نفقته . فان رزقت امرأة صالحة جمعت همك . وان لم
 تقدر فعالجة الصبر أصلح لك من المخاطرة . وإياك والمستحسنات فان
 صاحبهن اذا سلم كما بد صنم . واذا حصل بيدك شيء ، فانفق بعضه ، فبحفظ
 الباقي تحفظ شتات قلبك . واحذر كل الحذر من هذا الزمان وأهله فإبقى مواس
 ولا مؤثر ، ولا من يهيم لسد خلّة ، ولا من لو سئل أعطى الا أن يعطى
 نذرا بتضجر . ومنه يستعبد بها المعطى بقية العمر ، ويستثقله كل من رآه
 ويستدعى خدمته له ويتردد اليه . وانما كان في الزمان مثل أبي عمرو بن نجيّد
 سمع أبا عثمان المغربي يقول يوما على المنبر على ألف دينار ، وقد ضاق
 صدرى . فضى أبو عمرو اليه في الليل بألف دينار ، وقال اقض دينك ، فلما عاد
 وصعد المنبر قال نشكر الله لأبي عمرو فانه أراح قلبي وقضى ديني . فقام
 أبو عمرو فقال : أيها الشيخ ذلك المال كان لوالدي وقد شق عليها ما فعلت
 فان رأيت ان تتقدم برده فافعل . فلما كان في الليل عاد اليه ، وقال له : لماذا
 شهرتني بين الناس فأنا ما فعلت ذلك لاجل الخلق . نخذه ولا تذكرني :

ماتوا وغيب في التراب شخوصهم والنشر مسك والعظام رميم
فالبعد البعد عن من همته الدنيا ، فان زادهم اليوم الى ان يحصل اقرب
منه الى ان يؤثر . ولا تكاد ترى الا عدوا في الباطن صديقا في الظاهر شامتا
بباطنه حسودا على نعمته . فاشتر العزلة بما بيعت فان من له قلب اذا مشى
في الاسواق وعاد منزله تغير قلبه ، فكيف ان عرقله بالليل الى أسباب
الدنيا ، واجتهد في جمع الهم بالبعد عن الخلق ليخلو القلب بالتفكر في المآب
وتلمح عين البصيرة خيم الرحيل .

٢٦٥ - فصل - كان المريد في بداية الزمان اذا أظلم قلبه أو مرض
له قصد زيارة بعض الصالحين فأنجلي ما أظلم . ومتى حصلت ذرة من
الصدق لمريد فردته في بيت عزلة ، ووجد نسيما من روح العافية ، ونورا في
باطن قلبه ، وكاد همه يجتمع وشتاته ينتظم ، فخرج فلقى من يومى اليه بعلم أو
زهد رثى عند البطالين وهو يجرى معهم مسلك الهذيان الذي لا ينفع ،
ورأى صورته صورة منمى ، وأهون ما عليه تضييع الاوقات في الحديث
الفارغ . فما يرجع المريد عن ذلك الوطن الا وقد اكتسب ظلمة في القلب
وشتاتا في العزم ، وغفلة عن ذكر الآخرة ، فيعود مريض القلب . يتعب
في معالجته أياما كثيرة حتى يعود الى ما كان فيه ، وربما لم يعد لان المريد
فيه ضعف فاذا رأى شيئا قد جرب وعرف ثم يؤثر البطالة ، لم يأمن أن
يتبعه الطبع . فالاولى للمريد اليوم أن لا يزور إلا المقابر ولا يفاوض الا
الكتب ، التي قد حوت محاسن القوم ، وليستعن بالله تعالى على التوفيق
لمراضيه ، فانه ان اراده هياها لما يرضيه .

٢٦٦ - فصل - تأملت الذين يختارهم الحق عز وجل لولايتهم

والقرب منه . فقد سمعنا أوصافهم ومن نظنه منهم ممن رأيناه فوجدته سبحانه لا يختار الا شخصا كامل الصورة ، لا عيب في صورته ، ولا نقص في خلقته . فتراه حسن الوجه معتدل القامة سليمة من آفة في بدنه . ثم يكون كاملا في باطنه ، سخيا جوادا عاقلا غير خب ولا خادع ولا حقود ولا حسود ولا فيه عيب من عيوب الباطن . فذاك الذي يرى به من صفه فتراه في الطفولة معتزلا عن الصبيان ، كأنه في الصبا شيخ ينبوع الرذائل ويفزع من النقائص ، ثم لا تزال شجرة همته تنمى حتى يرى ثمرها مهتدلا على أغصان الشباب ، فهو حريص على العلم ، منكش على العمل ، محافظ للزمان ، مراع للاوقات ، ساع في طلب الفضائل ، خائف من النقائص ، ولو رأيت التوفيق والالهام الرباني كيف يأخذ بيده ان عثر ، ويمنعه من الخطأ ان هم ، ويستخدمه في الفضائل ، ويستر عمله عنه حتى لا يراه منه . ثم ينقسم هؤلاء . فمنهم من تفقه على قدم الزهد والتعبد . ومنهم من تفقه على العلم واتباع السنة . ويندر منهم من يجمع له الكل ويرقيه الى مزاج الكاملين . وعلامة اثبات الكمال في العلم والعمل ، الاقبال بالكلية على معاملة الحق ومحبته واستيعاب الفضائل كلها فلو تصورت النبوة أن تكتسب لدخلت في كسبه . ومراتب هذا لا يحتملها الوصف . لكونه درة الوجود ، التي لا تكاد تنعقد في الصدف الا في كل ودود . نسأل الله عز وجل توفيقنا لمراضيه وقربه . ونعوذ به من طرده وابعاده .

٢٦٧ - فصل - أكثر الخلايق على طبع ردى لا تقومه الرياضة .

لا يدرون لما خلقوا ولا المراد منهم . وغاية همهم حصول بغيتهم من أغراضهم . ولا يسألون عند نيلها ما اجتلبت لهم من ذم . يبذلون العرض

دون الغرض، ويؤثرون لذة ساعة، وان اجتلبت زمان مرض . يلبسون عند
التجارات ثياب محتال، في شمار مختال . ويلبسون في المعاملات ويسترون
الحال . ان كسبوا فشهية . وان أكلوا فشهوة . ينامون الليل وان كانوا نياما
بالتفاه في المعنى، ولا نوم بهذه الصورة . فاذا أصبحوا سمعوا في تحصيل
شهواتهم بجرص خنزير، وتبصيص كلب، واقتراس أسد، وغارة ذئب،
ودوغان ثعلب . ويتأسفون عند الموت على فقد الهوى لا على عدم التقوى .
ذلك مبلغهم من العلم . كيف يفلح من يؤثر ما يراه بعينه على ما يبصره بعقله،
وما يدركه ببصره أعز عنده مما يراه ببصيرته . تالله لو فتحو أسماعهم
لسمعوا هاتف الرحيل في زمان الاقامة يصيح في عرصات الدنيا، تلمحوا
تقويض خيام الاوائل . لكن غمرهم سكر الجهالة، فلم يفتقروا الا بضرب الحد .

٢٦٨ - فصل - رأيت بعض المتقدمين سئل عن من يكتسب
حلالا وحراما من السلاطين والامراء ثم يبني المساجد والاربطة، هل له
فيها ثواب، فأفتى بما يوجب طيب قلب المنفق، وان له في انفاق ماله ما يملكه
نوع سمسة، لانه لا يعرف أعيان المنصوبين فيرد . فقلت : واعجبا . أمن
متصدين للفتوى لا يعرفون أصول الشريعة . ينبغي أن ينظر في حال هذا
المنفق أولا، فان كان سلطانا فما يخرج من بيت المال قد عرفت وجوه
مصارفه، فكيف يمنع مستحقه ويشغله بما لا يفيد من بناء مدرسة ورباط .
وان كان المنفق من الامراء ونواب السلاطين، فانه يجب أن يرد ما يجب
رده الى بيت المال، وليس فيه الا ما فرض من ايجاب يليق به، فان تصرف
في غير ذلك كان مصروفا فيما ليس له، ولو أذن له كان الاذن جائزا . وان كان
قد أقطع ما لا يقاوم عمله كان ما يأخذ فاضلا من أموال المسلمين لاحق

له فيه . وعلى من أطلقه في ذلك أنم أيضا ، هذا اذا سلم المال وكان من حله . فاما اذا كان حراما أو غصبيا فكل تصرف فيه حرام ، والواجب رده على من أخذ منه أو على ورثتهم . فان لم يعرف طريق الرد كان في بيت مال المسلمين ، يصرف في مصالحهم ، أو يصرف في الصدقة . ولم يحظ أخذه بغير الأثم . أنبانا احمد بن الحسن بن البنا قال أخبرنا محمد بن علي الزجاجي قال أخبرنا عبد الله بن محمد الاسدي قال أخبرنا علي بن الحسن قال حدثنا أبو دارد قال حدثنا محمد بن عون الطائي قال حدثنا أبو المغيرة قال حدثنا الارزاعي قال حدثني موسى بن سليمان قال سمعت القاسم بن مخيمرة يقول قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : من اكتسب مالا من مآثم ، فوصل رحما ، أو تصدق به ، أو أنفقه في سبيل الله ، جمع ذلك جميعا فقد فدى به في جهنم . فاما اذا كان الباني تاجرا مكتسبا للحلال فبني مسجدا أو وقف وقفًا للمتفقهة ، فهذا مما يثاب عليه ، ويبعد من يكتسب الحلال حتى يفضل عنه هذا المقدار ، ويخرج الزكاة مستقصاة ، ثم يطيب قلبه بمثل هذا البناء والنفقة . إذ مثل هذا البنيان لا يجوز أن يكون من زكاة . وابن سلامة النية وخلص المقصد . وإن بناء المدارس اليوم مخاطرة . إذ قد انعكف أكثر المتفقهة على علم الجدل ، وأعرضوا عن علوم الشريعة ، وتركوا التردد في المساجد ، واقتنعوا بالمدارس والالقاب ، وأما بناء الاربطة فليس بشيء أصلا ، لأن جمهور المتصوفة جلوس على بساط الجهل والكسل ، ثم يدعى مدعيهم المحبة والقرب ، ويكره التشاغل بالعلم ، وقد تركوا سيرة سرى وعادات الجنيد : واقتنعوا بأداء الفرائض . ورضوا بالمرقعات . فلا تحسن اعانتهم على بطالتهم وراحتهم . ولا ثواب في ذلك .

٢٦٩ - فصل - عجبت لمن يتصنع للناس بالزهد يرجو بذلك قربه من قلوبهم، وينسى ان قلوبهم بيد من يعمل له، فان رضى عمله وراآه خالصا ألفت القلوب اليه، وان لم يره خالصا أعرض بها عنه. ومتى نظر العامل الى التفات القلوب اليه فقد زاحم الشرك، لانه ينبغي أن يقنع بنظر من يعمل له، ومن ضرورة الاخلاص إلفات القلوب اليه، فذاك يحصل لا لا بقصده بل بكراهته لذلك. وليعلم الانسان ان أعماله كلها يعلمها الخالق جملة. وان لم يطلعوا عليها. فالقلوب تشهد للصالح بالصالح وان لم يشاهدمنه ذلك. فأما من يقصد رؤية الخلق بعمله فقد مضى العمل ضائعا، لانه غير مقبول عند الخالق ولا عند الخلق، لان قلوبهم قد ألفت عنه. فقد ضاع العمل، وذهب العمر. ولقد أخبرنا ابن الحصين قال أخبرنا ابن المذهب قال أخبرنا احمد بن جعفر قال حدثنا عبد الله بن احمد قال حدثني أبي قال حدثنا حسن بن موسى قال حدثنا ابن لهيعة قال حدثنا دراج عن أبي الهيثم عن أبي سعيد الخدري عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قال: لو ان أحدكم يعمل في صخرة صماء ليس لها باب ولا كوة لخرج للناس كائنا ما كان. فليثق الله العبد وليقصد من ينفعه قصده، ولا يتشاغل بمدح من عن قليل بلى هو وم.

٢٧٠ - فصل - قدم علينا بعض فقهاء من بلاد الاعاجم، وكان قاضيا ببلده فرأيت على دابته الذهب ومعه أتوار الفضة واشياء كثيرة من المحرمات. فقلت: أي شيء أفاد هذا العالم. بل والله قد كثرت عليه الحجج. وأكبر الاسباب قلة علم هؤلاء بسيرة السلف وما كان عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم. الا أنهم يجهلون الجملة، ولكنهم يتشاغلون بعلم الخلاف،

ويقصدون التقدم ، ولا سماع حديث ولا نظرا في سير السلف . ويخاطبون
السلاطين فيحتاجون الى التزى بزيمهم ، فربما خطر لهم ان هذا قريب ، وان
لم يخطر لهم فالهوى غالب بلا صاد ، وربما خطر لهم ان هذا يحتمل ويغفر
في جانب تشاغلنا بالعلم . ثم يرون العلماء يكرمونهم لنيل شيء من دنياهم ،
ولا ينكرون عليهم . ولقد رأيت من الذين ينتسبون الى العلم من يستصحب
المردان ، ويشتري للماليك ، وما كان من يفعل هذا الا من قد يئس من
الآخرة . ورأيت من قد بلغ الثمانين من العلماء ، وهو على هذه الحالة .
فالله الله يا من يريد حفظ دينه ويوقن بالآخرة ، اياك والتأويلات الفاسدة ،
والاهواء الغالبة ، فانك ان ترخصت بالدخول في بعضها جرّك الأمر الى
الباقى ، ولم تقدر على الخروج لموضع إلف الهوى ، فاقبل نصيحى ، واقنع
بالكسرة ، وابتعد عن أرباب الدنيا ، فاذا ضج الهوى فدعه لهذا ، وربما قال
لك : فالأمر الفلانى قريب ، فلا تفعل ، فانه يدعو الى غيره ويصعب التلاقي .
فالصبر الصبر على شظف العيش والبعد عن أرباب الهوى ، فما يتم دين
الا بذلك . ومتى وقع الترخص حمل الى غيره ، كالشاطيء الى اللجة : وانما
هو طعام دون طعام ، ولباس دون لباس ، ووجه أصبح من وجه ، وانما
هى أيام يسيرة .

٢٧١ - فصل - من تفكر في عظمة الله عز وجل طاش عقله لانه

يحتاج أن يثبت موجودا لأول لوجوده ، وهذا شيء لا يعرفه الحس ، وانما
يقربه العقل ضرورة . وهو متعير بعد الاقرار . ثم يرى من أفعاله ما يدل على
وجوده فلا يخفى وجوده . ثم يجرى في أقداره أمور لولا ثبوت الدليل على
وجوده لأوجبت الجحد ، فانه يفرق البحر لبنى اسرائيل ، وذلك شيء لا يقدر

عليه سوى الخالق. وبصير العصي حية ثم يعيدها عصا وتلقف ما صنعوا ولا يزيد فيها شيء. فهل بعد هذا بيان. فإذا آمنت السجرة تركهم مع فرعون يصلبهم ولا يمنع. والانبيااء يتلون بالجوع والقتل. وذكرا ينشر. ويحيى تقتله زانية. ونبينا صلى الله عليه وسلم يقول كل عام. من يؤوئني من ينصرني فيكاد الجاهل بوجود الخالق يقول: لو كان موجودا لنصر أوليائه. فينبغي للعاقل الذي قد ثبت عنده وجوده بالأدلة الظاهرة الجلية أن لا يمكن عقله من الاعتراض عليه في أفعاله ولا يطلب بها علة، إذ قد ثبت أنه مالك وحكيم. فإذا خفي عليه وجه الحكمة في فعله نسبنا العجز إلى فهمنا. وكيف لا وقد عجز موسى عليه السلام أن يعرف حكمة خرق السفينة وقتل الغلام، فلما بان له حكمة ذلك الفساد في الظاهر أقر. فلو قد بان الحكمة في أفعال الخالق جحد العقل جحد موسى يوم الخضر. فتى رأيت العقل يقول لم فأخرسه بأن تقول له: يا عاجز أنت لا تعرف حقيقة نفسك. فما لك والاعتراض على المالك. وربما قال العقل: أي فائدة في الابتلاء وهو قادر أن يثيب ولا بلاء، وأي غرض في تعذيب أهل النار وليس ثم تشفي، فقل له: حكمته فوق مرتبتك، فسلم لما لا تعلم، فإن أول من اعترض بعقله أبلis فرأى فضل النار على الطين فأعرض. وقد رأينا خلقا كثيرا وسمعنا عنهم أنهم يقدحون في الحكمة لأنهم يحكمون العقول على مقتضاها، وينسون أن حكمة الخالق وراء العقول. فإياك أن تفسح لعقلك في تعليل أو أن تطلب له جواب اعتراض، وقل له سلم تسلم، فانك لا تدري غور البحر إلا وقد أدركك الفرق قبل ذلك. هذا أصل عظيم، متى فات الآدمي أخرجه الاعتراض إلى الكفر.

٢٧٢ - فصل - العجب ممن يقول : أخرج الى المقابر فاعتبر بأهل البلى . ولو فطن علم انه مقبرة يغنيه الاعتبار بما فيها عن غيرها ، خصوصاً من قد أوغل في السن ، فان شهوته ضعفت ، وقواه قلت ، والحواس كلت والنشاط فتر ، والشعر ابيض ، فليعتبر بما فقد ، وليستغن عن ذكر من فقد ، فقد استغنى بما عنده عن التطلع الى غيره .

٢٧٣ - فصل - متى تكامل العقل فقدت لذة الدنيا فتضاءل الجسم وقوى السقم واشتد الحزن ، لأن العقل كلما تلمح العواقب أعرض عن الدنيا . والتفت الى ما تلمح ولا لذة عنده بشيء من العاجل . وانما يلتذ أهل الغفلة عن الآخرة ، ولا غفلة لكامل العقل ، ولهذا لا يقدر على مخالطة الخلق ، لانهم كأنهم من غير جنسه ، كما قال الشاعر :

ما في الديار أخو وجد نظارحه حديث نجد ولا خلّ نجاريه

٢٧٤ - فصل - ادعى الطبائيون ان مادة الموجودات الماء والتراب والنار والهواء ، فاذا كان في القيامة أذهب الاصول ، ثم أعاد الحيوان ليعلم انها كانت بالقدرة لا عن تأثير الكليات . ومن قدح في البعث قد بالغ في القدح في الحكمة . ومن قال : الروح عرض ، فقد جهل البعث ، لان تعرض لا يبقى والاجساد تصير تراباً ، فان وجد شيء فهو ابتداء خلق . كلا . والله يعيد النفس بعينها بدليل اعادة مذكوراتها « قال قائل منهم اني كان لي قرين » وعزته ان لطفه في البداية دليل على النهاية . حزن الوالدين ، وأجرى اللبن في الثدي ، وانشأ الأطفعة ، وأطلع العقل على العواقب . أفيحسن أن يقال بعد هذا التدبير ، انه يهمل بعد الموت فلا يبعث ! أترى من أحب أن يعرف فانشأ الخلق وقال : كنت كنزاً لا أعرف فأجبت

ان اُعرَف : يؤثر أن يعدمهم فيجهل قدره . سبحان من أعمى أكثر القلوب
عن معرفته .

٢٧٥ - فصل - سبحان من ظهر خلقه حتى لم يبق خفاء ثم خفى
حتى كأنه لا ظهور، أى ظهوراً أجلاً من هذه المصنوعات التى كلها تنطق
بأن لى صانعاً صنعنى وربنى على قانون الحكمة، خصوصاً هذا آدمى
الذى أنشأه من قطرة، وبناه على أعجب فطرة، ورزقه الفهم والذهن واليقظة
والعلم، وبسط له المهاد وأجرى له الماء والريح، وأثبت له الزرع ورفع له من
فوقه السماء فأوقد له مصباح الشمس بالنهار، وجاء بالظلمة ليُسكن ، الى غير
ذلك، مما لا يخفى . وكله ينطق بصوت فصيح يدل على خالقه . وقد تجلى الخالق
سبحانه بهذه الافعال فلا خفاء . ثم بعث الرسل فقراء من الدنيا ضعاف الابدان،
فقهر بهم الجبابرة، وأظهر على أيديهم من المعجزات ما لا يدخل تحت مقدور
بشر . وكل ذلك ينطق وقد تجلى سبحانه بذلك . ثم يأتى موسى عليه السلام
الى البحر فينفرق فلا يبقى شك فى ان الخالق فعل هذا . ويكلم عيسى عليه
السلام الميت فيقوم . ويبعث طيراً أبابيل تحفظ بيته فيهلك قاصديه . وهذا
أمر يطول ذكره كله يدل على أن تجلى الخالق سبحانه بغير خفاء . فاذا ثبت
عند العقلاء ذلك من غير ارباب ولا شك، جاءت أشياء كأنها تستر الظاهر
على ما سبق من تسليط الاعداء على الاولياء، واذا ثبت التجلى بأدلة لا تحتمل
التأويل، علمت ان لهذا الخفا سراً لا نعلمه يفترض على العقل فيه التسليم
للحكيم فمن سلم سلم، ومن اعترض هلك .

٢٧٦ - فصل - قد يدعى أهل مذهب الاجتهاد فى طلب الصواب

لا يقصد الا الحق فترى الراهب يتعبد ويتجوع واليهودى يذل ويؤدى الجزية ، وصاحب كل مذهب يبالغ فيه ويحتمل الضيم والأذى طلباً للهدى وتحصيل الأجر ، ومع هذا فيقطع بضلال الأكرثين. وهذا قد يشكل . وانما كشفه انه ينبغى ان يطالب الهدى بأسبابه ، ويستعمل الاجتهاد بالابانة . فأما من فاتته الاسباب أو فقد بعض الآلات فلا يقال له مجتهد. فاليهود والنصارى بين عالم قد عرف صدق نبينا صلى الله عليه وسلم ثم يسك لرتاسته فهذا معاند . وبين مقلد لا ينظر فهذا مهمل ، فهو يتعبد مع اهمال الأصل ، وهذا لا ينفع . وبين ناظر منهم لا ينظر حق النظر ، فيقول: فى التوراة ان ديننا لا ينسخ . وهو على غير ثقة ان هذا غير معمول ولا مدخل فيها . ويقول النسخ ذا^(١) ولا ينظر فى الفرق ، فينبغى أن ينظر حق النظر . ومن هذا الجنس تعبد الخوارج مع اقتناعهم بعلمهم القاصر ، وهو قولهم: لا حكم الا لله ولم يفهموا ان التحكيم من حكم الله ، فجعلوا قتال على رضى الله عنه وقتله مبيناً على ظنهم الفاسد . ولما نهب مسلم بن عقبة المدينة وقتل الخلق قال : ان دخلت النار بعد هذا اننى لشتى . فظن بجهلهم انهم لما خالفوا بيعة يزيد يجوز استباحتهم وقتلهم . فالويل لعامى قليل العلم لا يتهم نفسه فى واقعة ، ولا يذاكر من هو أعلم منه ، بل يقطع بظنه ويقدم . وهذا أصل ينبغى تأمله ، فقد هلك فى اهماله خلق لا تحصى . وقد رأينا خلقاً من العوام اذا وقع لهم واقعة لم يقبلوا فتوى «وجوه يومئذ عاملة ناصبة تصلى ناراً حامية»

٢٧٧ - فصل - للنفس ذخائر فى البدن . منها الدم والبنى وأشياء تتقوى بها ، فاذا فقدت الذخائر ولم يبق منها شيء ذهبت . ومن ذخائرها

التقوى بالمال والجاه وما يوجب الفرح فاذا فقدت ذلك وكانت عزيزة ذات أنفة خرجت ، وقد يهجم عليها الخوف فلا تجد ذخيرة من الرجاء يقاومه فتذهب ، ويغلب عليها الفرح فلا تجد من الحزن ما يقاومه فتذهب . فاجتهد في حفظ ذخائرها وخصوصاً الشيخ ، فانه ينبغي له أن لا يفرح باخراج الدم ، ولا اخراج المني وان وجد شبقاً ، الا أن يكون الشبق زائداً في الحد فيخرج المؤذى في كل حين . وعلامة أن يكون مؤذياً وجود الراحة عند خروجه . فتى وجد ضعفاً فقد آذى خروجه . وليحفظ ذوالأنفة على نفسه حشمته ، بأن لا يقف في موقف يعاب به ، فانه يتمتع ب ذخيرة العز والأنفة ويضاد النفس وجود ضد ذلك . وكذلك ينبغي أن يستعد لاخر عمره بالمال مخافة أن يحتاج فيذل أو يسعى ، وقد كلت الآلة . ولأن يخلف لعدوه أولى من أن يحتاج الى صديقه ولا يلتفت الى من يذم المسال ، فانهم الحق الجاهل الذين اأكلوا على خبز الراحة ، فاستطابوا الكسل والدعة ، ولم يأنفوا من تناول الصدقة ولا من التمرض للسؤال . وقد كان لكل نبي معاش ولجميع الصحابة ، وخافوا أموالا كثيرة فافهم هذا الأصل ، ولا تلتفت الى كلام الجاهل .

٢٧٨- فصل - رأيت في زهاد زماننا من الكبر وحفظ الناموس ورتبة الجاه في قلوب العامة ما كدت أقطع به على انهم أهل رياء ونفاق . فترى أحدهم يلبس الثوب الذي يرى بعين الزهد ، ويأكل أطيب الطعام ، ويتكبر على أبناء الجنس ويصادق الاغنياء ، ويباعد الفقراء ، ويحب الخطاب لمولانا ، ويمشي بحاجبه ، ويضيع الزمان في الهذيان ، ويتقوت بخدمة الناس له والتسليم عليه . ولو انه لبس ثوباً يخلطه بالفقهاء لذهب

الجاه ، ولم يبق له متعلق . ولو ان أفعاله ناسبت ثيابه لكان الامر ، لكنهم
 بهرجوا على من لا يخفى عليه من الخلق . ، فكيف الخالق سبحانه وتعالى
 ٢٧٩ - فصل - كثيراً ما أعيد هذا المعنى الذى أنا ذاكره فى هذا
 الكتاب بعبارات . ينبغى للمؤمن أن يتشاغل بمعاشه ويرفق فى نفقته . فانه
 قد كان للعلماء شىء من بيت المال ورفق من الاخوان ، ومعونة من العوام ،
 فانقطع الكل ، وبقي المتشاغل بالعلم أو التعبيد مسكيناً ، خصوصاً ذو العائلة .
 وما رأينا مثل هذا الزمان القبيح ، فما بقى من يوماً اليه بمعونة ولا باستقراض
 منه ، فيحتاج الانسان أن يدخل فى مداخل لا تليق به ، وان يتعرض بما
 لا يصلح . فينبغى تقليل العائلة وتقويت القوت وترقيع الخلق وان أمكن
 معاشه وأولى من التشاغل بالتعبيد والتعلم لفضول العلم . والاضاع الدين
 فى مداخل لا تصلح . أو التعرض لبذل ندل .

٢٨٠ - فصل - ينبغى للعاقل أن يحترز غاية ما يمكنه . فاذا جرى
 القدر مع احترازه لم يلم . والاحتراز من كل شىء يمكن وقوعه ، وأخذ
 العدة لذلك . وهذا يكون فى كل حال . قد قص رجلاً ظفره فخاف عليه
 فخبثت يده فمات . ومر شيخنا أحمد الحربى وهو راكب بمكان ضيق
 فتطأطأ على السرج فأنعصر فؤاده فرض فمات . وكان بجي بن نزار شيخنا
 يحضر مجلسى قد طرق عليه ثقل الأذن فاستدعى طرفياً فصّ أذنه فجرى
 شىء من مخه فمات . وانظر الى احتراز رسول الله صلى الله عليه وسلم حين
 مر على حائط مائل فأسرع . وينبغى ان يحترز بالكسب فى زمن شبابه ادخارا
 لزمن شبابه . ولا ينبغى أن يثق بمعامل الا بوثيقة . ويبادر بالوصية مخافة
 أن يطرقة الموت . ويحترز من صديقه فضلاً من عدوه . ولا يثق بمودة

من قد آذاه هو ، فان الحقد في القلوب لا يزول . وليحترز من زوجته .
 فربما أطلعها على سره ثم طلقها فيتأذى بما تفعل به . وقد كان ابن أفلح
 الشاعر يكتب رئيسا في زمن المسترشد فعلم بذلك بوابه ، واتفق انه صرف
 بوابه فتم عليه وتقصت داره . فهذه المذكرات أمثلة تنبه على ما لم يذكر . وأهم
 الكل ان يحترز بأخذ العدة وتحقيق التوبة قبل أن يهجم ما لا يؤمن هجومه
 وليحذر من اص الكسل ، فانه محتمل على سرقة الزمان .

٢٨١ - فصل - تأملت خصومات الملوك وحرص التجار ، ونفاق

المتزهدين ، فوجدت جمهور ذلك على لذات الحس . واذا تفكر العاقل في
 ذلك علم أن امر الحسيات قريب يندفع بأقل شيء ، وان الغاية لا يمكن
 نيلها وان بالغ عاد بالاذى على نفسه اضعا فماناله من اللذة ، كمن يأكل كثيرا
 أو ينكح كثيرا . فالسعيد من اهتم لحفظ دينه . واخذ من ذلك بمقدار
 الحاجة . واعجبا . هذا الملبوس اذا كان وسطا خدما ، واذا كان مرتفعا
 خدما ، فان نظر اللابس اليه معجبا به فان الله لا ينظر اليه حينئذ . وفي الصحيح :
 بينا رجل يتبختر في بردته خسف به . والمشروب ان كان حراما فعقابه
 أضعا لذته . وهتكه العرض بين الناس عقاب آخر . وان كان مباحا
 فالشبه فيه يؤذى البدن . وأما المنكوح فمداواة للمستحسن يؤذى فوق
 كل أذى . ومقاساة المستقبح أشد أذى . فعليك بالتوسط . وتفكر في
 احوال السلاطين كيف قتلوا ظلما وكم ارتكبوا حراما ، وما نالوا الا سيرا
 من لذات الحس ، فانقشع غيم العمر عن حشرات الفضائل . وحصول
 العقاب ، فليس في الدنيا اطيب عيشا من منفرد عن العالم بالعلم . فهو
 أنيس وجليسه ، قد قنع بما سلم به دينه من المباحات الحاصلة . لاعن تكلف

ولا تضييع دين ، وارتدى بالعز عن الذل للدينا وأهلها . والتحف بالقناعة باليسير ، اذا لم يقدر على الكثير فوجدته يسلم دينه وديناه . واشتغاله بالعلم يد له على الفضائل . ويفرجه في البسائين . فهو يسلم من الشيطان والسايطان والعوام بالعزلة . ولكن لا يصاح هذا الا للعالم ، فانه اذا نزل الجاهل فاته العلم فتخطط .

٢٨٢ - فصل - تأملت حالة تدخل على طلاب العلم توجب الغفلة عن المقصود ، وهو حرصهم على الكتابة . خصوصا المحدثين فيستغرق ذلك زمانهم عن ان يحفظوا ويفهموا ، فيذهب العمرو قد عروا عن العلم الا اليسير . فمن وفق جعل معظم الزمان مصروفا في الاعادة والحفظ . وجعل وقت التعب من التكرار للنسخ فيحصل له المراد . والموفق من طلب المهم . فان العمر يعجز عن تحصيل الكل ، وجمهور العلوم الفقه . وفي الناس من حصل له العلم وغفل عن العمل بمقتضاه ، وكأنه ما حصل شيئا . نعوذ بالله من الخذلان .

٢٨٣ - فصل - ما اعتمد أحد أمرا اذا هم بشيء مثل التثبت ، فانه متى عمل بواقعة من غير تأمل للعواقب كان الغالب عليه الندم . ولهذا أمر بالمشاورة لان الانسان بالتثبت يفتكر فتعرض على نفسه بالتفكر الاحوال وكأنه شاور وقد قيل : خير الرأي خير من فطيره . وأشد الناس تفریطا من عمل بمبادرة في واقعة من غير تثبت ولا استشارة . خصوصا فيما يوجب الغضب فانه طلب الهلاك أو الندم العظيم : وكمن غضب فقتل وضرب ثم لماسكن غضبه بقي طول دهره في الحزن والبكا والندم . والغالب في القاتل انه يقتل فتفوت الدنيا والآخرة . فكذلك من عرضت له شهوة فاستعجل لديها ونسى

عاقبتها، فكم من ندم يتجرعه في باقى عمره . وعتاب يستقبله من بعد موته وعقاب لا يؤمن وقوعه . كل ذلك للذة لحظة كانت كبرق . فآله الله التثبت التثبت فى كل الأمور والنظر فى عواقبها . خصوصاً الغضب المثير للخصومة وتعجيل الطلاق .

٢٨٤ - فصل - سألتى سائل، قد قال بعض الحكماء : من لم يحترز بعقله هلك بعقله . فما معنى هذا . فبثيت مدة لا ينكشف لى المعنى . ثم اتضح . وذلك أنه اذا طلبت معرفة ذات الخالق سبحانه من العقل فزرع الى الحس فوق التشبيه فالاحتراز من العقل بالعقل هو أن ينظر فيعلم أنه لا يجوز ان يكون جسمًا ولا شيئًا . واذا نظر العاقل الى أفعال البارى سبحانه رأى أشياء لا يقتضيها العقل ، مثل الآلام والذبح للحيوان وتسليط الاعداء على الاولياء مع القدرة على المنع ، والابتلاء بالمجاعة للصالحين . والمعاقبة على الذنب بعد البعد بزلة وأشياء كثيرة من هذا الجنس يعرضها العقل على العادات فى تدبيره فيرى أنه لا حكمة تظهر له فيها ، فالاحتراز من العقل به ان يقال له : أليس قد ثبت عندى انه مالك وأنه حكيم وأنه لا يفعل شيئًا عبثًا ، فيقول بلى . فيقال : فنحن نحترز من تدبيرك الثانى بما ثبت عندك فى الاول ، فلم يبق الا أنه خفى عليك وجه الحكمة فى فعله ، فيجب التسليم له ، لعلمنا انه حكيم . حينئذ يدعن ويقول : قد سلمت . وكثير من الخلق نظروا لمقتضى واقع العقل الاول فاعترضوا . حتى أن العامى يقول : كيف قضى على سوء عاقبتى ، ولم ضيق رزقى ، وما وجه الحكمة فى ابتلائى بفنون البلاء . ولو أنه تلمح انه مالك حكيم لم يبق الا التسليم لما خفى . ولقد أنس ببديهة العقل خالق من الاكابر أولهم ابليس ، فانه رأى تفضيل النار على

الطين ، فاعترض . ورأينا خلقا ممن نسب الى العلم قد زلوا في هذا واعترضوا
ورأوا ان كثيرا من الافعال لا حكمة تحتها . والسبب ما ذكرنا وهو الانس
بنظر العقل في البديهة والعادات والقياس على أفعال المخلوقة ، ولو استخرجوا
علم العقل الباطن ، وهو انه قد ثبت السكالم للخالق وانتفت عنه النقائص
وعلم أنه حكيم لا يعيث ، لبقى التسليم لما لا يعقل . واعتبر هذا بحال الخضر
وموسى عليهما السلام لما فعل الخضر أشياء تخرج عن العادات ، أنكر موسى
ونسى إعلامه له بأن أنظر فيما لا تعلمه من العواقب . فاذا خفيت مصلحة
العواقب على موسى عليه السلام مع مخلوق فاولى أن يخفى علينا كثير
من حكمة الحكيم . وهذا أصل ان لم يثبت عند الانسان اخرجه الى
الاعتراض والكفر ، وان ثبت استراح عند زول كل آفة .

٢٨٥ - فصل - بلغني عن بعض الكرماء ان رجلا سأله فقال
أنا الذي أحسنت اليك يوم كذا وكذا فقال : مرحبا بمن يتوسل اليينا
بناء ، ثم قضى حاجته . فأخذت من ذلك اشارة فناجيت بها فقلت : أنت الذي
هديته من زمن الطفولة وحفظته من الضلال ، وعصمته عن كثير من
الذنوب ، وألهمته طلب العلم لا يفهم لشرف ، لموضع الصغر ، ولا بحب والده .
ورزقته فهما لتفقهه وتصنيفه ، وهيات له أسباب جمعه ، وقمت برزقه من
غير تعب منه ، ولا ذل للخالق بالسؤال وحاميت عنه الاعداء ، فلم يقصده
جبار . وجمعت له ما لم يجمع لأكثر الخلق من فنون العلم التي لا تكاد
تجتمع في شخص . وأضفت اليها تعلق القلب بمعرفتك ومحبتك وحسن
العبادة ولطفها في الدلالة عليك ووضعت له في القلوب القبول حتى ان
الخلق يقبلون عليه ويقبلون ما يقوله ، ولا يشككون فيه ، ويشتاقون الى كلامه ،

ولا يدركهم الملل منه ، وصنته بالعزلة عن مخالطة من لا يصلح . وأنسته
في خلوته بالعلم نارة وبمناجاتك أخرى . وان ذهبت اعد لم أقدر على
احصاء عشير العشير « وان تعدوا نعمة الله لا تحصوها » فيا محسنا الى قبل
ان اطلب لا تخيب أملى فيك وأنا اطلب . فبا تمامك المتقدم أنوسل اليك .

٢٨٦ - فصل - سبحان من جعل الخلق بين طرفي تقيض

والمتوسط منهم ينذر . منهم من يغضب فيقتل ويضرب . ومنهم من هو
أبله بقوة الحلم لا يؤثر عنده السب . ومنهم شره يتناول كلما يشتهي .
ومنهم متزهّد يتجفف فيمنع النفس حقها . وكذلك سائر الاشياء المحمود
منها المتوسط فالمنفق كلما يجد مبذر . والبخيل يخفي المال ويمنع نفسه حظها .
ومعلوم أن المال لا يراد لنفسه بل للمصالح ، فأذا ابزأ الانسان فيه احتاج
الى بذل وجهه ودينه ومنه البخلا عليه ، وهذا لا يصلح . ولأن يخلف
الانسان لعدوه أحسن ما يحتاج الى صديقه . وفي الناس من يبخل
ثم يتفاوتون في البخل حتى ينتهي بالبخلاء الامر الى عشق عين المال ، فربما
مات أحدهم هزالا ولا ينفعه ، فبأخذه الغير ويندم الخلف . ولقد بلغني في
هذا ما ليس فوقه مزيد ذكرته لتعتبر به . فحدثني شيخنا أبو الفضل بن
ناصر عن شيخه عبد المحسن الصوري ، قال : كان بصور تاجر في غرفة له
يأخذ كل ليلة من البقال رغيفين وجوزة فيدخل الى غرفته وقت المغرب
فيضرم النار في الجوزة فتضيء بمقدار ما ينزع ثوبه ، وفي زمان احراق القشر
قد استوت فيمسح بها الرغيفين ويأكلهما ، فبقي على هذا مدة فمات ، فأخذ
منه ملك صور ثلاثين ألفاً . ورأيت أن رجلا من كبار العلماء قد مرض
فاستلقى عند بعض أصدقائه ليس له من يخدمه ولا يرفقه وهو مضر ، فلما

مات وجدوا بين كتبه خمسمائة دينار . وحدثني أبو الحسن الراندي قال :
مرض رجل عندنا فبعث الى فحضرت فقال : قد ختم القاضى على مالى
فقلت : ان شئت قمت وفتحت الختم وأعطيتك الثلث تفرقه وتعمل به
مانشاء . فقال : لا والله ما أريد أن أفرقه ، بل أريد مالى يكون عندي .
فقلت : ما يعطونك ، بلى أنا آخذ لك الثلث . فقال : لا أريد ، فات وأخذ ماله .
قال : وجاء رجل فحدثني بعجوبة قال : مرضت حماتي فقالت لى . أريد أن
تشتري لى خبيصا فاشتريت لها ، وكانت ملقاة فى صفة ونحن فى صفة أخرى
فجاءنى ولدى الصغير وقال . ياسيدى ، انها تبلع الذهب ، فقلت واذا بها تجعل
الدينار فى شىء من الخبيص فتبلعه ، فامسكت يدها وزجرتها عن هذا
فقالت : أنا أخاف أن تتزوج على بنتى ، فقلت : ما أفعل فقالت : إحلف لى
فعلقت ، فاعطتنى باقى الذهب ثم ماتت فدفتها ، فلما كان بعد أشهر مات
لنا طفل فحملناه اليها ، وأخذت منى خرقة خام وقلت للحفار اجعل لى عظام
تلك العجوز فى الخرقة ، فجئت بها الى البيت وتركتها فى اجانة وصبيت
عليها الماء وحركتها ، فاخرجت ثمانين دينارا أو نحوها كانت قد ابتاعتها .
وحكى لى صديق لنا ، أن رجلا مات ودفن فى الدار ، ثم نبش بعد مدة ليخرج
فوجد تحت رأسه لبنة مقبرة فسئل أهله عنها فقالوا : هو قبر هذه اللبنة
وأوصى أن تترك تحت رأسه فى قبره وقال : ان اللبن يبلى سريعا وهذه لموضع
القار لا تبلى . فاخذوها فوجدوها رزينة ، فكسروها فوجدوا فيها تسعمائة
دينار فتولاهما أصحاب التركات . وبلغنى أن رجلا كان يكنس المساجد ويجمع
ترابها ثم ضربه لبنا فقبل له هذا لآى شىء فقال : هذا تراب مبارك ،
واريد أن يجعلوه على لحدى ، فلما مات جعل على لحده ، ففضل منه لبنات ،

فرموها في البيت : فجاء المطر فتمسخت اللبنيات فاذا فيها دنائير ، فمضوا وكشفوا الابن عن لحيه وكله مملوء دنائير . ولقد مات بعض أصدقائنا و كنت أعلم له مالا كثيرا ، وطال مرضه فما أطلع أهله على شيء ولا أكاد أشك أنه من شحه وحرصه على الحياة ورجائه أن يبقى لم يعلمهم بمدفونه خوفا أن يؤخذ فيحيا هو وقد أخذ المال . وما يكون بعد هذا الخزي شيء . وحدثني بعض أصحابنا عن حالة شاهدها من هذا الفن . قال : كان فلان له ولدان ذكران وبنت وله ألف دينار مدفونة . فمرض مرضا شديدا فاحتوشته أهله ، فقال لأحد ابنيه لا تبرح من عندي ، فلما خلا به قال له ان اخاك مشغول باللعب بالطيور ، وان اختك لها زوج تركي ، ومتى وصل من مالي اليهما شيء انفقوه في اللعب ، وأنت على سيرتي واخلاقي ، ولي في الموضع الفلاني ألف دينار ، فاذا أنامت فخذها وحدك . فاشتد بالرجل المرض فمضى الولد فاخذ المال فعوفى الاب ، فجعل يسأل الولد ان يرد المال اليه فلا يفعل ، فمرض الولد فجعل الأب يتضرع اليه ويقول : ويحك خصصتك بالمال دونهم فتموت فيذهب المال ، ويحك لا تفعل ، فما زال به حتى أخبره بمكانه ، فأخذه ثم عوفى الولد ومضت مدة فمرض الاب ، فاجتهد الولد أن يخبره بمكان المال وبالحال فلم يخبره ومات وضاع المال . فسبحان من أعدم هؤلاء العقول والفهوم . ان هم الا كالانعام بل هم أضل سبيلا .

٢٨٧ فصل — كان لنا أصدقاء واخوان أعتدبهم . فرأيت منهم من الجفاء وترك شروط الصداقة والاخوة عجائب فاخذت اعتب ، ثم اتبعت لنفسى فقلت : وما ينفع العتاب ، فانهم ان صلحوا فللعتاب لا للصفاء فهممت

بمقاطعتهم ، ثم تفكرت فرأيت الناس بين معارف وأصدقاء في الظاهر و إخوة
مباطنين ، فقلت لا تصالح مقاطعتهم ، إنما ينبغي أن تنقلهم من ديوان الاخوة
الى ديوان الصداقة الظاهرة ، فان لم يصلحوا لها نقلتهم الى جملة المعارف ،
وعاملتهم معاملة المعارف ، ومن الغلط ان تعاتبهم ، فقد قال يحيى بن معاذ:
بئس الأخ اخ يحتاج أن تقول له اذكرني في دعائك . وجمهور الناس
اليوم معارف ويندر فيهم صديق في الظاهر ، فان الاخوة والمصافة فذاك
شيء نسخ فلا يطمع فيه . وما أرى الانسان يصفو له أخوة من النسب
ولا ولده ولا زوجته . فدع الطمع في الصفا . وخذ عن الكل جانباً ،
وعاملهم معاملة الغرباء . وإياك ان تنخدع بمن يظهر لك الود ، فانه مع
الزمان يبين لك الحال فيما اظهره وربما اظهر لك ذلك لسبب يناله منك ، وقد
قال الفضيل بن عياض : اذا أردت ان تصادق صديقاً فأغضبه فان رأيتك كما
ينبغي فصادقه . وهذا اليوم مخاطرة . لانك اذا أغضبت احدا صار
عدوا في الحال . والسبب في نسخ حكم الصفا ، ان السلف كان همهم
الآخرة وحدها فصفت نياتهم في الاخوة والمخالطة فكانت ديناً لادينا .
والآن فقد استولى حب الدنيا على القلوب ، فان رأيت متملقاً في باب
الدين فاخبر تَقْلَهُ

٢٨٨ - فصل - رأيت المعافي لا يعرف قدر العافية الا في المرض .
كما لا يعرف شكر الاطلاق الا في الحبس . وتأملت على آدمي حالة عجيبة .
وهو ان يكون معه امرأة لا بأس بها الا أن قلبه لا يتعلق بحببتها تعلقاً
يلتذبه . ولذلك سببان . أحدهما أن تكون غير غاية في الحسن . والثاني أن
كل مملوك مكروه ، والنفس تطلب ما لا تقدر عليه ، فتراه يضح ويشتهي

شيئا يحبه أو امرأة يعشقها، ولا يدري أنه إنما يطلب قيда وثيقا يمنع القلب من التصرف في أمور الآخرة، أوفى علم أو عمل، ويخبطه في تصرف الدنيا، فيبقى ذلك العاشق أسير المعشوق، همه كله معه فالعجب بمطلق يؤثر القيد. ومستريح يؤثر التعب. فإن كانت تلك المرأة تحتاج أن تحفظ فالويل له لاقرار له ولا سكون. وإن كانت من التبرجات اللواتي لا يؤمن فسادهن فذاك هلاكه بكرة. فلا هو أن نام يتلذذ بنومه، ولا أن خرج من الدار يأمن محنة وإن كانت تريد نفقة واسعة وليس له، فكم يدخل مدخل سوء لاجلها. وإن كانت تؤثر الجماع وقد علت سنه فذاك الهلاك العظيم. وإن كانت تبغضه فما بقيت من أسباب تلفه بقية فيكون هذا ساعيا في تلف نفسه كما قال القائل:

نحب القدود ونهوى الحدود ونعلم أنا نحب المنونا

وهذا على الحقيقة كما بد صمم. فليتنق الله من عنده امرأة لا بأس بها وإيعرض عن حديث النفس ومناها فإله منتهى. ولو حصل له غرضه كما يريد وقع الملل وطلب تالفة، ثم يقع الملل ويطلب رابعة، وما لهذا أخير. إنما يفيد به العاجل تعلق قلبه وأسر له، فيبقى كالمبهوت، فسكره كله في تحصيل ما يريد محبوبه، فإن جرت فرقة أو آفة فتلك الحسرات الدائمة إن بقي أو التلف عاجلا. وإن المستحسن المصون الدين القنوع المحب لمن يحبه هذا أقل من الكبريت الأحمر. فليتنظر في تحصيل ما يجمع معظم الهم. ولا يلتفت إلى سواد الهوى وغاية المنى، وقد سلم.

٢٨٩ - فصل - إذا تم علم الإنسان لم ير لنفسه عملا وإنما يرى

إنعام الموفق لذلك العمل الذي يمنع العاقل أن يرى لنفسه عملا أو يعجب به، وذلك بأشياء، منها أنه وفق لذلك العمل «وحب اليكم الإيمان وزينه في قلوبكم» ومنها

انه اذا قيس بالنعم لم يف بمعاشر عشرينها ، ومنها انه اذا لوحظت عظمة المخدم
احتقر كل عمل وتعبد . هذا اذا سلم من شائبة وخلص من غفلة . فاما
والغفلات تحيط به فينبغي ان يغلب الحذر من رده ، ويخاف العتاب على
التقصير فيه ، فيشتغل عن النظر اليه ؛ وتأمل على الفطنا احوالهم في ذلك ،
فالملائكة الذين يسبحون الليل والنهار لا يفترون قالوا : ما عبدناك حق
عبادتك . والخليل عليه السلام يقول « والذي اطمع ان يغفر لي » وما دل
بنصيره على النار وتسليمه الولد الى الذبح . ورسول الله صلى الله عليه وسلم
يقول : ما منكم من ينجيئه علمه قالوا ولانك قال : ولا انا الا ان يتغمدني
الله برحمته . وابو بكر رضى الله تعالى عنه يقول : وهل انا وما الى الا لك
يا رسول الله . وعمر رضى الله عنه يقول : لو ان لي طلاع الارض لا فتديت
بها من هول ما امامي قبل اعلم ما الخبر . وابن مسعود يقول : ليتني اذا مت
لا أبعث . وعائشة رضى الله عنها تقول : ليتني كنت نسيا منسيا . وهذا
شأن جميع العقلاء فرضى الله عن الجميع . وقد روى عن قوم من صلحاء
بنى اسرائيل ما يدل على قلة الافهام لما شربته لا أنهم نظروا الى اعمالهم فأدلوها
بها . فمنه حديث العابد الذي تعبد خمسمائة سنة في جزيرة وأخرج له كل
ليلة رمانة ، وسأل الله تعالى ان يميتة في سجوده . فاذا حشر قيل له ادخل الجنة
برحمتي قال : بل بعملى ، فيوزن جميع عمله بنعمة واحدة فلا يفى ، فيقول :
يا رب برحمتك ، وكذلك اهل الغار الذين انطبقت عليهم الصخرة فان احدم
توسل بعمل كان ينبغي ان يستحي من ذكره ، وهو انه عزم على الزنا ثم
خاف العقوبة فتركه . فليت شمري بماذا يدل من خاف ان يعاقب على شيء
فتركه تخوف العقوبة . انما لو كان مباحا فتركه كان فيه مافيه . ولو فهم

لشفله خجل الهمة عن الادلال، كما قال يوسف عليه السلام: وما أبرئ نفسي .
والآخر ترك صبيانه يتضاغون الى الفجر ليستقي ابويه اللبن . وفي ضمن
هذا البر أذى للأطفال ، ولكن الفهم عزيز . وكأنهم لما احسنوا قال لسان
الحال : أعطوهم ما طلبوا ، فانهم يطلبون أجرة ما عملوا . ولولا عزة الفهم
ما تكبر متكبر على جنسه ولكان كل كامل خائفا محققا لعمله حذرا من
التقصير في شكر ما انعم عليه . وفهم هذا المشروح ينكسر رأس الكبر .
ويوجب مساكنة الذل . فتأمل له فانه اصل عظيم .

٢٩٠ - فصل - ينبغي للعاقل ان يكون على خوف من ذنوبه وان
تاب منها وبكى عليها . واني رأيت اكثر الناس قد سكنوا الى قبول
التوبة ، وكأنهم قد قطعوا على ذلك . وهذا أمر غائب . ثم لو غفرت بقى الخجل
من فعلها . ويؤيد الخوف بعد التوبة انه في الصحاح : ان الناس يأتون الى
آدم عليه السلام فيقولون : اشفع لنا فيقول : ذنبي . والى نوح عليه السلام
فيقول : ذنبي . والى ابراهيم . والى موسى . والى عيسى صلوات الله وسلامه
عليهم فهو لاء اذا اعتبرت ذنوبهم لم تكن اكثرها ذنوبا حقيقة . ثم ان
كانت فقد تابوا منها واعتذروا وهم بعد على خوف منها . ثم ان الخجل بعد
قبول التوبة لا يرتفع وما أحسن ما قال الفضيل بن عياض رحمه الله :
واسوأناه منك وان عفوت . فأفّ والله لمختار الذنوب ومؤثر لذة لحظة
تبقى حمرة لا تزول عن قلب المؤمن وان غفر له . فالحذر الحذر من كل
ما يوجب خجلا . وهذا أمر قل ان ينظر فيه تائب أو زاهد ، لانه
يرى ان العفو قد غمر الذنوب بالتوبة الصادقة وما ذكرته يوجب دوام
الحذر والخجل .

٢١١ - فصل - نعوذ بالله من سوء الفهم وخصوصا من المتسمين بالعلم . روى احمد في مسنده انه تنازع ابو عبد الرحمن السلمي وحيان بن عبد الله . فقال ابو عبد الرحمن لحيان : قد علمت ما ائذى حدا صاحبك يعنى عليا . قال ما هو قال قول النبي صلى الله عليه وسلم : لعل الله اطلع الى اهل بدر فقال : اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم . وهذا سوء فهم من ابى عبد الرحمن حين ظن ان عليا قاتل وقتل اعتمادا على انه قد غفر له . وينبغي ان يعلم ان معنى الحديث لتكن اعمالكم المتقدمة ما كانت فقد غفرت لكم . فأما غفران ماسياتى فلا يتضمنه ذلك أنراه او وقع من اهل بدر وحاشاهم الشرك اذ ليسوا بمعصومين أما كانوا يؤاخذون به فكذلك المعاصى . ثم لو قلنا : انه يتضمن غفران ماسياتى : فالمعنى ان ما لكم الى الغفران . ثم دعنا من معنى الحديث ، كيف يحل لمسلم ان يظن في أمير المؤمنين على رضى الله عنه انه فعل ما لا يجوز اعتمادا على انه سيفغر له حوشى من هذا . وانما قاتل بالدايل المضطر له الى القتال ، فكان على الحق . ولا يختلف العلماء ان عليا رضى الله عنه لم يقال احدا الا والحق مع على . كيف وقد قال رسول الله ﷺ : اللهم ادر معه الحق كيف دار فقد غلط ابو عبد الرحمن غلطا قبيحا ، حمله عليه انه كان عثمانيا

٢٩٢ - فصل - تأملت على متزهدي زماننا اشياء تدل على النفاق والرياء وهم يدعون الاخلاص . منها انهم يلزمون زاوية فلا يزورون صديقا ، ولا يعودون مريضا ، ويدعون انهم يريدون الا تقطاع عن الناس اشتغالا بالعبادة . وانما هي اقامة نواميس ليشار اليهم بالانقطاع . اذ لو مشوا بين الناس زالت هيبتهم . وما كان الناس كذلك . كان رسول الله صلى الله عليه

وسلم يعود المريض ويشترى الحاجة من السوق . وابوبكر وضى الله عنه
يتجر في البر . وابوعبيدة بن الجراح يحفر القبور ، وابوطلحة ايضا . وابن
سيرين يغسل الموتى . وما كان عند القوم اقامة ناموس . واصحابنا يلزمون
الصمت بين الناس والتخشع والتماوت ، وهذا هو النفاق . فقد كان ابن
سيرين يضحك بالنهار وبين الناس ويبكى بالليل . وقد رأيت من المتزهدين
من يلزم المسجد ويصلي فيجتمع الناس فيصلون بصلاته ليلا ونهارا ، وقد
شاع هذا له فتقوى نفسه عليه بحب المحمدة . والنبي صلى الله عليه وسلم
قال في صلاة التطوع : اجعلوا هذه في البيوت . وفي اصحابنا من يظهر
للصوم الدائم ، ويتقوت بقول الناس : فلان ما يفطر اصلا . وهذا الابله
ما يدري انه لاجل الناس يفعل ذلك ، ولولا هذا كان يفطر والناس يرونه
يومين او ثلاثة حتى يذهب عنه ذلك الاسم ثم يعود الى الصوم . وقد كان
ابراهيم بن ادهم اذا مرض يترك عنده من الطعام ما يأكله الاصحاء .
ورأيت في زهادنا من يصلي الفجر يوم الجمعة بالناس ويقرأ المعوذتين والمعنى
قد ختمت ، فان هذه الاعمال هي صريحة في النفاق والرياء ، وفيهم من
يأخذ الصدقات وهو غنى ، ولا يبالي بأخذ من الظلمة او من أهل الخير ،
ويمشي الى الامراء يسألهم ، وهو يدري من اين حصلت اموالهم . فالحمد لله
في اصلاح النيات فان جمهور هذه الأعمال مردودة . قال مالك بن دينار :
وقولوا لمن لم يكن صادقا لا تعنى . وليعلم المرائي ان الذي يقصده يفوته ،
وهو التفات القلوب اليه ، فانه متى لم يخلص حرم محبة القلوب ، ولم يلتفت
اليه . والمخلص محبوب . فلو علم المرائي ان قلوب الذين يرائيهم بيد من
يعصيه . لما فعل . وكمن قد رأى ناسا يلبس الصوف ويظهر النسك لا يلتفت

اليه . وآخر يلبس جيد الثياب ويتبسم والقلوب تحبه . نسأل الله عز وجل اخلاصاً بخلصنا . ونستعين به من رياء يبطل اعمالنا انه قادر .

٢٩٣ - فصل - من الجهل ان يخفى على الانسان مراد التكليف

فانه موضوع على عكس الاغراض . فينبغي للعاقل ان يأنس بانعكاس الاغراض . فان دعا وسأل بلوغ غرض تعبد بالدعاء . فان أُعطي مراده شكر . وان لم ينل مراده فلا ينبغى ان يبالغ في الطلب ، لان الدنيا ليست بلوغ الاغراض . وليقل لنفسه « وعسى ان تذكرهوا شيئاً وهو خير لكم » ومن اعظم الجهل ان يتمنص في باطنه لانعكاس اغراضه . وربما اعترض في الباطن . وربما قال : حصول غرضي لا يضر ، ودعائي لم يستجب . وهذا كله دليل على جهله وقلة ايمانه وتسليمه للحكمة . ومن الذي حصل له غرض ثم لم يكدر . هذا آدم طاب عيشه في الجنة وأخرج منها . ونوح سال في ابنه فلم يعط مراده . والخليل ابتلى بالنار . واسحاق بالذبح . ويعقوب بفقد الولد . ويوسف بمجاهدة الهوى . وأيوب بالبلاء . وداود وسليمان بالفتنة . وجميع الانبياء على هذا . وما لقي نبينا محمد صلى الله عليه وسلم من الجوع والاذى وكدر العيش فملوم . فالدينا وضعت للبلاء فينبغي للعاقل ان يوطن نفسه على الصبر ، وان يعلم ان ما حصل من المراد فلفظ ، وما لم يحصل فعلى أصل الخلق والجبلة للدنيا كما قيل :

طبعت على كدر وأنت تريدها صفوا من الاقضاء والا كدار

ومكاف الايام ضد طباعها متطلب في الماء جذوة نار

وهاهنا يتبين قوة الايمان وضعفه فليستعمل المؤمن من أدوية هذا

المرض التسليم للمالك ، والتحكيم لحكمته ، وليقل قد قيل لسيد الكل

« ليس لك من الامر شيء » ثم ليسل نفسه بان المنع ليس عن بخل ، وانما هو لمصلحة لا يهملها . وليؤجر الصابر عن أغراضه ، وليعلم الله الذين سلموا ورضوا ، وان زمن الابتلاء مقدار يسير ، والاغراض مدخرة تلقى بعد قليل ، وكأنه بالظلمة قد انجلت ، وبفجر الاجر قد طلع : ومتى ارتقى فهمه الى ان ما جرى مراد الحق سبحانه ، اقتضى ايمانه ان يريد ما يريد ، ويرضى بما يقدر ، اذ لو لم يكن كذلك كان خارجا عن بقية العبودية في المعنى . وهذا أصل ينبغى أن يتأمل ويعمل عليه في كل غرض انعكس .

٢٩٤ -- فصل - رأيت خاقا من العلماء والقصاص تضيق عليهم الدنيا فيفزعون الى مخالطة السلاطين لينالوا من أموالهم ، وهم يعلمون أن السلاطين لا يكادون يأخذون الدنيا من وجهها ، ولا يخرجونها في حقها . فان أكثرهم اذا حصل له خراج ينبغى ان يصرف الى المصالح وهبه لشاعر . وربما كان معه جندي يصلح أن تكون مشاهرتة عشرة دنائير فأعطاه عشرة آلاف . وربما غزا فأخذ ما ينبغى ان يقسم على الجيش فأصطفاه لنفسه ، هذا غير ما يجري من الظلم في المعاملات . واول ما يجري على ذاك العالم انه قد حرم النفع بعلمه . وقد رأى بعض الصالحين رجلا عالما يخرج من دار يحيى بن خالد البرمكي فقال : أعوذ بالله من علم لا ينفع ، ألم تر المنكرات ولا تنكر ، وتتناول من طعامهم الذي لا يكاد يحصل الا بظلم فينطمس قلبك ، وتحرم لذة المعاملة للحق سبحانه ، ولا يقدر لك أن يهتدى بك أحد ، بل ربما كان فعل هذا سببا لاضلال الناس في الاقتداء به ، فهو يؤذى نفسه ويؤذى أميره ، لانه يقول لولا اننى على صواب ما صحبني ولا نكر على . ويؤذى العوام تارة بان يروا ان ما فيه الامير صواب وان

الدخول والسكوت عن الانكار جائز . ويحبب اليهم الدنيا . ولا خير والله في سعة من الدنيا ضيقت طريق الآخرة . وانا افدى اقواما صابروا عطش الدنيا في هجير الشهوات زمان العمر حتى دووا يوم الموت من شراب الرضى ، وبقيت اذكارهم تروى فتروى صداً القلوب وتجلو صداهها . هذا الامام احمد يحتاج فيخرج الى اللقاط ولا يقبل مال سلطان . هذا ابراهيم الحربي يتغذى بالبقل ويرد على المعتصم الف دينار . هذا بشر الحافي يشكو الجوع فيقال له : يصنع لك حساء من دقيق فيقول : اخاف ان يقول لى هذا الدقيق من اين لك . بقيت والله اذكار القوم ، وما كان الصبر الا غفوة نوم ، ومضت لذات المرخصين وبليت الابدان ، ووهن الدين . فالصبر الصبر يامن وفق . ولا تغبطن من اتسع له أمر الدنيا ، فانك اذا تأملت تلك السعة رأيتها ضيقا في باب الدين . ولا ترخص لنفسك في تاويل ، فعمرك في الدنيا قليل :

وسواء اذا انقضى يوم كسرى في سرور ويوم صابر كسره

ومتى ضجت النفس لقلّة صبر قاتل عليها اخبار الزهاد ، فانها ترعوى وتستحي وتنكسر ان كانت لها همة او فيها بقظة . ومثل لها بين ترخص علي بن المديني وقبوله مال ابن ابي داود ، وصبر احمد . وكم بين الرجلين والذكرين . وانظر ما يروى عن كل واحد منهما وما يذكران به . وسيندم ابن المديني اذا قال احمد سلم ديني .

٢١٥ - فصل - تأملت احوال الناس فرأيت جمهورهم منسلا من ربة العبودية ، فان تعبدوا فعادة اوفيا لا ينافي اغراضهم منافاة تؤذى القلوب . فاكثر السلاطين يحصلون الاموال من وجوه ردية وينفقونها في وجوه لا تصلح ، وكانهم قد تملكوها . وليست مال الله الذي اذا غزا احدهم فغنم

الاموال اصطفاها لنفسه، واعطاها اصحابه كيف اشتهى. والعلماء لقوة فقرهم وشدة شرهم، يوافقون وينخرطون في سلكهم. والتجار على العقود الفاسدة. والعوام في المعاصي والاهمال لجانب الشريعة. فان فات بعض اغراضهم فربما قالوا ما تريد نصلي. لاصلى الله عليهم. وقد منعو الزكاة وتركوا الامر بالمعروف. فمن الناس من يغره تأخير العقوبة. ومنهم من كان يقطع بالعفو واكثرهم متزلزل الايمان. فنسأل الله ان يمتدنا مسلمين.

٢٩٦- فصل - من العجيب سلامة دين ذى العيال اذا ضاق به الكسب. فمأثله الا كمثل الماء اذا ضرب في وجهه سكر، فانه يعمل باطنا ويبالغ حتى يفتح فتحة. فكذلك صاحب العيال اذا ضاق به الامر لا يزال يحتال، فاذا لم يقدر على الحلال ترخص في تناول الشبهات، فان ضعف دينه مديده الى الحرام. فاللؤم اذا علم ضعفه عن الكسب اجتهد في التعفف عن النكاح، وتقليل النفقة اذا حصل الاولاد، والقناعة باليسير. فاما من ليس له كسب كالعلماء والمترهدين، فسلامتهم ظريفة، إذ قد انقطعت مواد السلاطين ومراعاة العوام، فاذا كثرت عائلاتهم لم يؤمن عليهم شر مما يجرى على الجهال. فمن قدر منهم على كسب بالنسخ وغيره فليجتهد فيه مع تقليل النفقة والقناعة باليسير، فانه من ترخص منهم اليوم أكل الحرام، لانه يأخذ من الظلمة خصوصاً بحجة التتمس والتزهد. ومن كان له منهم مال فليجتهد في تنميته وحفظه، فما بقي من يؤثر ولا من يقرض. وقد صار الجمهور بل الكل كأنهم يعبدون المال، فمن حفظه حفظ دينه. ولا يلتفت الى قول الجهلة الذين يأمرون باخراج المال، فهاذا وقته. واعلم انه اذا لم يجتمع لهم، لم يحصل العلم ولا العمل ولا التشاغل بالفكر في عظمة الله وقد كان هم القدماء يجتمع بأشياء

جمهورها انه كان لهم من بيت المال نصيب في كل عام، وكان يصلهم فيفضل
 عنهم، وفيهم من كان له مال يتجربه كسميد بن المسيب وسفيان وابن
 المبارك وكان همه مجتمعا ، فقال سفيان في الديانة : لولاك لهدلوني .
 وفقدت بضاعة لابن المبارك فبكى وقال : هو قوام ديني . وكان جماعة
 يسكنون الى عطاء الاخوان الذين لا يمتنون . وكان ابن المبارك يبعث الى
 الفضل وغيره . وكان الليث بن سعد يتفقذ الاكابر، فبعث الى مالك الف
 دينار ، والى ابن لهيعة الف دينار ، واعطى منصور بن عمار الف دينار
 وجارية بثلاثمائة دينار . وما زال الزمان على هذا الى ان آل الأمر على
 انحقاق ذلك، فقلت عطايا السلاطين ، وقل من يؤثر من الاخوان ، الا انه
 كان في ذلك التقليل ما يدفع الزمان . فاما زماننا هذا ، فقد اتقبضت الايدي
 كلها ، حتى قل من يخرج الزكاة الواجبة ، فكيف يجتمع هم من يريد
 من العلماء والزهاد ان يعمل همه ليلا ونهارا في وجوه الكسب وليس
 من شأنه ولا يمتدى له . فقد رأينا الامر احوج الى التعرض بالسلاطين
 والترخص في اخذ ما لا يصلح ، وأخرج المتزهدين الى التصنع لتحصيل
 الدنيا . فالحمد لله يا من يريد حفظ دينه ، قد كررت عليك الوصية بالتقليل جهداً ،
 وخفف العلائق مهما امكنتك . واحتفظ بدرهم يكون معك فانه دينك .
 وافهم ما قد شرحتة ، فان ضجت النفس لمراداتها فقل لها : ان كان عندك ايمان
 فاصبري ، وان اردت التحصيل لما يفنى ببذل الدين فما تفعل . فتفكري
 في العلماء الذين جمعوا من غير وجهه وفي المنمسين ذهب دينهم ، وزالت
 دنياهم . وتفكري في العلماء الصادقين كاحمد وبشر ، اندفعت الايام وبقي
 لهم حسن الذكر . وفي الجملة « من يتق الله يجعل له مخرجاً وبرزقه من

حيث لا يحتسب « ورزق الله تارة بإيعاد الصبر على البلاء والايام تندفع ،
وعاقبة الصبر الجميل جميلة .

٢٩٧ - فصل - شكى رجل من بغضه لزوجته وقال : ما أقدر على
فراقها لأمر منها كثرة دينها على وصبري قليل ، ولا أكاد اسلم من فلتات
لساني في الشكوى ، وفي كلمات تعلم بغضى لها فقلت له : هذا لا ينفع وانما
توثى البيوت من ابوابها ، فينبغى ان تخلو بنفسك فتعلم انها انما سلطت عليك
بذنوبك فتبالغ في الاعتذار والتوبة . فاما التضجر والأذى لها فما ينفع كما
قال الحسن بن الحجاج : عقوبة من الله لكم فلا تقابلوا عقوبته بالسيف
وقابلوها بالاستغفار . واعلم انك في مقام مبتلى ولك اجر بالصبر « وعسى
ان تكرهوا شيئا وهو خير لكم » فعامل الله سبحانه بالصبر على ما قضى
واساله الفرج . فاذا جمعت بين الاستغفار وبين التوبة من الذنوب والصبر
على القضاء وسؤال الفرج ، حصلت ثلاثة فنون من العبادة تثاب على كل
منها . ولا تضع الزمان بشيء لا ينفع ، ولا تحتل ظانا منك انك تدفع ما قدر :
« وان يمسسك الله بضر فلا كاشف له الا هو » وقد روينا ان جنديا نزل يوما
في دار ابى يزيد ، فجاء ابو يزيد فراه فوقف وقال لبعض اصحابه : ادخل الى
المكان الفلاني فاقلع الطين الطرى فانه من وجه فيه شبهة فقلعه ، فخرج
الجندي . واما اذاك للمرأة فلا وجه له لانها مسلطة فليكن شغلك بغير هذا .
وقد روى عن بعض السلف ان رجلا شتمه فوضع خده على الارض وقال
اللهم اغفر لى الذنب الذى سلطت هذا به على قال الرجل : وهذه المرأة تحبني
زائدا في الحد ، وتبالغ في خدمتى ، غير ان البغض لها مركوز في طبعي .
قلت له : فعامل الله سبحانه بالصبر عليها فانك تثاب . وقد قيل لابي عثمان

النيسابورى : ما رجبى عملك عندك ، قال كنت فى صبوئى يجتهد اهل ان تزوج
 فأبى فجاءتنى امرأة فقالت : يا أبا عثمان انى قد هويتك ، وانا اسالك بالله ان
 تزوجنى فاحضرت اباهما وكان فتيرا فزوجنى وفرح بذلك . فلما دخلت الى
 رأيتها عوراء عرجاء مشوهة ، وكانت لمحبتها الى تمنهنى من الخروج فأقعد حفظا
 لقلبها ولا اظهر لها من البغض شيئا وكأنى على جمر الغضا من بغضها . فبقيت
 هكذا خمس عشرة سنة حتى ماتت فماتت على شىء هو رجبى عندى من
 حفظى قلبها . قالت له : فهذا عمل الرجال . وائى شىء ينفع ضجيع المبتلى
 بالتضجر باظهار البغض : وانما طريقه ما ذكرته لك من التوبة والصبر
 وسؤال الفرج . وتذكر ذنوبا كانت هذه عقوبتها . وبالحق فان وقع فرج فى
 الحساب ، والا فاستعمال الصبر على القضاء عبادة ، وتكاف اظهار المودة لها
 وان لم يكن فى قلبك تثبت على هذا ، وليس القيد ذنب فيلام ، انما ينبغى
 التشاغل مع من قيده والسلام :

٢٩٨ - فصل - لاريب ان القلب المؤمن بالا اله سبحانه و بأوامره
 يحتاج الى الانعكاف على ذكره وطاعته وامتناله او امره وهذا يفتقر الى
 جمع الهم ، وكفى بما وضع فى الطبع من المنازعة الى الشهوات مشتتة للهم
 المجتمع . فينبغى للانسان ان يجتهد فى جمع همه لينفرد به بذكر الله
 سبحانه وتعالى واوامره والتهى للقائه . وذلك انما يحصل بقطع القواطع
 والامتناع عن الشواغل . وما يمكن قطع القواطع جملة ، فينبغى ان يقطع
 ما يمكن . وما رأيت مشتتة للهم مبددا للقلب مثل شيئين : احدهما ان
 تطاع النفس فى طلب كل شىء تشتهيه وذلك لا يوقف على حذفيه ، فيذهب
 الدين والدنيا ولا ينال كل المراد ، مثل ان تكون الهمة فى المستحسنات

أوفى جمع المال أوفى طلب الرياسة وما يشبه هذه الأشياء . فيأله من شتات
 لأجامع له ، يذهب العمر ولا ينال بعض المراد . والثاني مخالطة الناس
 خصوصا العوام والمشى فى الأسواق ، فإن الطبع يتقاضى بالشهوات وينسى
 الرحيل عن الدنيا ، ويجب الكسل عن الطاعة والبطالة والغفلة والراحة .
 فيثقل على من ألف مخالطة الناس التشاغل بالعلم أو بالعبادة . ولا يزال يخالطهم
 حتى تهون عليه الغيبة وتضيع الساعات فى غير شيء . فمن أراد اجتماع همه
 فعليه بالعزلة بحيث لا يسمع صوت أحد ، فحينئذ يخلو القلب بمعارفه
 ولا تجد النفس رفيقا مثل الهوى يذكرها ما تشتهى ، فإذا اضطرت إلى المخالطة
 كان على وفاق كما تهوى الضفدع لحظة ثم تعود إلى الماء فهذه طريق السلامة ،
 فتأمل فوائدها تطب لك :

٢٩٩ - فصل - ما رأت عيني مصيبة نزلت بالخلق أعظم من سبهم
 للزمان وعيبهم للدهر . وقد كان هذا فى الجاهلية . ونهى رسول الله صلى
 الله عليه وسلم عن ذلك فقال : لا تسبوا الدهر فإن الله هو الدهر . ومعناه انتم
 تسبون من فرق شملكم وامات اها ليكم ، وتنسبون الى الدهر ، والله تعالى
 هو الفاعل لذلك فتمجبت كيف علم اهل الاسقام بهذه الحال وهم على ما كان
 اهل الجاهلية عليه ما يتغيرون حتى ربما اجتمع الفطناء الادباء الظراف على
 زعمهم فلم يكن لهم شغل الا ذم الدهر . وربما جعلوا الله الدنيا ويقولون
 فعلت وصنعت حتى رأيت لأبى القاسم الحريري يقول :

ولما تعامى الدهر وهو ابو الردى عن الرشدى انحاءه ومقاصده
 تعاميت حتى قيل انى اخو عمى ولا غرو ان يخذو الفتى حذو والده
 وقد رأيت خلقا يعتقدون انهم فقهاء وفهماء ويتحاشون من هذا

وهو لا انما ارادوا بالدهر مرور الزمان، فذاك لا اختيار له ولا مراد ولا يعرف
 رشدا من ضلال، ولا ينبغي ان يلام، فانه زمان مدبر لا مدبر فية تصرف فيه
 ولا يتصرف. وما يظن بعقل انه يشير الى ان المذموم المعرض عن الرشدا السيء
 الحكم هو الزمان. فلم يبق الا ان القوم خرجوا عن ربة الاسلام، ونسبوا
 هذه القبايح الى الصانع، فاعتقدوا فيه قصورا للحكمة وفعل ما لا يصح، كما اعتقده
 ابليس في تفصيل آدم. وهو لا ينبغي ان يفهم مع هذا اعتقاد اسلام، ولا فعل صلاة،
 بل هم شر من الكفار، لا اصلح لهم شأنا ولا هداهم الى رشاد.

٣٠٠ - فصل - من عجائب ما اري من نفسى ومن الخلق كلهم الميل
 الى الغفلة عما في ايدينا مع العلم بقصر العمر، وان زيادة الثواب هناك بقدر
 العمل همنا. فيا قصير العمر اغتم يومى منى، وانتظر ساعة النفر وياك تشغل
 قلبك بغير ما خلق له، واحمل نفسك على المرواقتها اذا أبت، ولا تسرح
 لها في الطول، فما انت الا فى مرعى، وقبيح بمن كان بين الصفين اذا تشاغل
 بغير ما هو فيه.

٣٠١ - فصل - قد كررت هذا المعنى فى هذا الكتاب. وهو الامر
 بحفظ السر والحد من الانبساط فيما لا يصلح بين يدي الناس. فرب من بسط
 بين يدي من يظنه صديقا بقول فى صديق او فى سلطان انه لا يتهم فى ذلك،
 فيكون سبب هلاك ذاك. فأوصى السليم الصدر الذى يظن فى الناس الخير
 ان يحترز من الناس، وان لا يقول فى الخلق كلمة لا تصلح للخلق. ولا يغتر
 بمن يظهر الصداقة او التدين فقد عم الخبيث.

٣٠٢ - فصل - تأملت على اكثر الناس عباداتهم فاذا هي عادات. فأما
 أرباب اليقظة فعادتهم عبادة حقيقة. فان الغافل يقول سبحان الله عادة والمتيقظ

لا يزال فكره في عجائب المخلوقات او في عظمة الخالق ، فيحركه الفكر في ذلك فيقول : سبحان الله . ولو ان انسانا تفكر في رمانة فنظر في تصنيف جها وحفظه بالاغشية لثلا يتضاءل ، واقامة الماء على عظم المعجم ، وجعل الغشاء عليه يحفظه . وتصوير الفرخ في بطن البيضة ، والآدمي في حشا الأم ، الى غير ذلك من المخلوقات ، ازعجه هذا الفكر الى تعظيم الخالق . فقال : سبحان الله ، وكان هذا التسبيح ثمرة الفكر . فهذا تسبيح المتيقظين . وما تزال افكارهم تجول فنقع عباداتهم بالتسبيحات محقة . وكذلك يتفكرون في قبائح ذنوب قد تقدمت فيوجب ذلك الفكر حبا للباطن وفاق القلب وندم النفس فيثمر ذلك أن يقول قائلهم : استغفر الله ، فهذا هو التسبيح والاستغفار . فاما الغافلون فيقولون ذلك عادة وشتان ما بين الفريقين .

٣٠٣ - فصل - لا يصفوا التعميد والتزهد والاشتغال بالآخرة الا
بالانقطاع الكلي عن الخلق ، بحيث لا يبصرهم ولا يسمع كلامهم الا في وقت
ضرورة كصلاة جمعة أو جماعة . ويحترز في تلك الساعات منهم . وإن كان
علما يريد نفهم وعدمهم وقتا معروفا واحترز في الكلام . وأما من يمشي في
الاسواق اليوم ويبيع ويشترى مع هذا العالم المظلم ، ويرى المنكرات
والمستمجنات فما يعود الى البيت الا وقد اظلم القلب . فلا ينبغي للمريد أن
يكون خروجه الا الى الصحراء والمقابر . وقد كان جماعة من السلف يبيعون
ويشترون ويحترزون ومع هذا ما صفا لصافهم وقت حتى قاطع الخلق . قال
ابو الدرداء : زاوت العبادات والتجارة فلم يجتمعا فاخترت العبادة . وقد جاء في
الحديث : الاسواق تلهي وتلغى . فن قدر على الحمية النافعة واضطر الى
الحالطة والكسب للعائلة ، فليحترز احترازا لماشى في الشوك . وبعيد سلامته

٣٠٤- فصل - من رزق قلبا طيبا ولذة مناجاة فليبراع حاله وليحترز من التغيير وانما تدوم له حاله بدوام التقوى . وكنت قد رزقت قلبا طيبا ومناجاة خلوة فأحضرني بعض ارباب المناصب الى طعامه ، فإمكان خلافة . فتناولت واكلت منه فلقيت الشدائد ، ورأيت العقوبة في الحال ، واستمرت مدة ، وغضبت علي قلبي ، وفقدت كل ما كنت اجد . فقلت : واعجبا كنت في هذا كالمكره ، فتفكرت واذا به قد يمكن مداراة الامر بلبقيات يسيرة ، وانما التأويل تناول بشهوة اكثر مما يدفع المداراة . فقالت النفس : ومن اين لي ان عين هذا حرام . فقالت اليقظة : واين الورع عن الشبهات . فلما تناولت بالتأويل لقمة استجابتها بالطبع فلقد لقيت الامرين بفقد القلب فاعتبروا يا أولى الابصار .

٣٠٥- فصل - همه المؤمن متعلقة بالآخرة . فكل ما في الدنيا يجره الى ذكر الآخرة . وكل من شغله شيء فهمته شغله ، الا ترى انه لو دخل ارباب الصنائع الى دار معمورة رأيت البزاز ينظر الى الفرش ويحزر قيمته ، والنجار الى السقف والبنا الى الحيطان والحائك الى نسج الثياب . والمؤمن اذا رأى ظلمة ذكر ظلمة القبر . وان رأى مؤلما ذكر العقاب . وان سمع صوتا فظيما ذكر نفخة الصور . وان رأى الناس نياما ذكر الموتى في القبور . وان رأى لذة ذكر الجنة فهمته متعلقة بماثم : وذلك يشغله عن كل ماتم . واعظم ما عنده انه يتخايل دوام البقا في الجنة ، وان بقاءه لا ينقطع ولا يزول ولا يعتره نقصه : فيكاد اذا تخايل نفسه متقلبا في تلك اللذات الدائمة التي لا تغني بطيش فرحا ويسهل عليه ما في الطريق اليها من الم ومرض وابتلاء وفقد محبوب وهجوم الموت ومعالجة غصصه ، فان المشتاق الى السكبة يهون عليه رمل زرود ، والتائق

الى العافية لا يبالي بمرارة الدواء ، ويعلم ان جودة الشر ثم على مقدار
جودة البذر ههنا فهو يتخير الاجود ، ويفتتم الزرع في تشرين العرم من
غير فتور . ثم يتخايل المؤمن دخول النار والعقوبة فيتغنص عيشه ويقوى
قلقه ، فعنده بالحالين شغل عن الدنيا وما فيها ، فقا به هائم في بيداء الشوق تارة
وفي صحراء الخوف أخرى ، فيرى البنيان ، فاذا نازله الموت قوى ظنه الملائكة
بالسلامة ، ورجى لنفسه النجاة فيهن عليه : فاذا نزل الى القبر وجاءه
يسألونه ، قال بعضهم لبعض : دعوه فما استراح الا الساعة . نسأل الله عز وجل
يقظة تامة تحركنا الى طلب الفضائل ، وتمنعنا من اختيار الرذائل ، فانه ان
وفق ، والا فلا نافع :

٣٠٦ - فصل - لقد اعتبرت على مولاي سبحانه وتعالى أمرا
عجيبا وهو أنه تعالى لا يختار لمحبهه والقرب منه الا الكامل صورة ومعنى .
واست أغنى حسن التخاطيط وانما كمال الصورة اعتدالها ، والمعتدلة
ما تخلو من حسن ، فتتبعها حسن الصورة الباطنة ، وهو كمال الأخلق
وزوال الاكدار ، ولا يرى في باطنه خبثا ولا كدرا ، بل قد حسن باطنه كما
حسن ظاهره . وقد كان موسى عليه السلام كل من رآه يحبه . وكان نبينا
صلى الله عليه وسلم كالقمر ليلة البدر . وقد يكون الولي أسود اللون ،
لكنه حسن الصورة لطيف المعاني . فلي قد رما عند الانسان من التمام في
كمال الخلق والخلق ، يكون عمله ، ويكون تقريبه الى الحضرة بحسب
ذلك . فمنهم كالخادم على الباب . ومنهم حاجب ، ومنهم مقرب . ويندر من
يتم له الكمال . ولعله لا يوجد في مائة سنة منهم غير واحد . وهذه حكاية
ما يحصل بالاجتهاد . بل الاجتهاد يحصل منها . لانه اذا وقع تمام حث

على الجد على قدر نقصانه . وهذا لاحيلة في أصله ، انما هو جيلة . واذا ارادك
لامرهياك له .

٣٠٧ - فصل - تأملت على قوم يدعون العقول معترضون على
حكمة الخالق . فينبغي ان يقال لهم هذا الفهم الذى دلكم على رد حكمته
اليس هو من منحه ؛ أفاعطاكم الكمال ورضى لنفسه بالنقص ؛ هذا هو الكفر
المحض الذى يزيد في القبح على الحمد . فاول القوم ابليس ، فانه رأى بعقله
أن جوهر النار أشرف من جوهر الطين فرد حكمة الخالق ، ومر على
هذا خلق كثير من المعترضين ، مثل ابن الراوندى والبصرى وهذا المعرى
اللعين يقول : كيف يعاب ابن الحجاج بالسخف والدهر اقبح فعلامنه ؛ أترى
يعنى به الزمان ؛ كلا . فان ممر الاوقات لا يفعل شيئا وانما هو تسقيف . وكان
يستعجل الموت ظنا منه انه يستريح . وكان يوصى بترك النكاح والنسك .
ولا يرى في الابداد حكمة الا العناء والتعب ومصير الابدان الى البلاء .
وهذا لو كان كما ظن كان الابداد عبثا ، والحق منزله عن العبث . قال تعالى
« وما خلقنا السموات والارض وما بينهما باطلا » فاذا كان ما خلق لنا لم يخلق
عبثا . أفنكون نحن ونحن مواطن معرفته ومحال تسكينه قد وجدنا عبثا .
ومثل هذا الجهل انما يصدر ممن ينظر في قضايا العقول التى يحكم بها
على الظواهر ، مثل ان يرى مبنيًا ينقض ، والعقل بمجرد لا يرى ذلك حكمة
ولو كشفت له حكمة ذلك لعلم انه صواب . كما كشف لموسى مراد الخضر
في خرق السفينة وقتل الغلام . ومعلوم ان ذبح الحيوان وتقطيع الرغيف
ومضغ الطعام لا يظهر له فائدة سوى الاطلاق . فاذا علم انه غذاء لبدن
من هو اشرف بدنا من المذبوح حسن ذلك الفعل . واعجبا أو ماتقتضى

المقول بوجوب طاعة الحكيم الذي يعجز عن معرفة حكم مخلوقاته . فكيف يعارضه في افعاله ، نعوذ بالله من الخذلان .

٣٠٨ - فصل - ينبغي لمن وعظ سلطانا ان يبالي في التلطف ولا يواجهه بما يقتضى انه ظالم ، فان السلاطين حظهم التفرد بالقهر والغلبة فاذا جرى نوع توييخ لهم كان اذلالا وهم لا يحتملون ذلك . وانما ينبغي ان يمزج وعظه بذكر شرف الولاية ، وحصول الثواب في رعاية الرعايا ، وذكر سير العادلين من اسلافهم . ثم لينظر الواعظ في حال الموعوظ قبل وعظه ، فان كانت سيرته حميدة كما كان منصور بن عمار وغيره يعظون الرشيد وهو يبكي . وقصده الخير زاد في وعظه ووصيته . وان رآه ظالما لا يلتفت الى الخير ، وقد غلب عليه الجهل ، اجتهد في ان لا يراه ولا يعظه ، لانه ان وعظه خاطر بنفسه ، وان مدحه كان مدهنا ، فان اضطر الى موعظته كانت كالاشارة . وقد كان اقوام من السلاطين يلينون عند الموعظة ويحتملون الواعظين . حتى انه قد كان المنصور يواجه بانك ظالم فيصبر . وقد تغير الزمان . وفسد اكثر الولاة وداهنهم العلماء ، ومن لا يداهن لا يجد قبولا للصواب فيسكت . وقد كانت الولايات لا يسالها الا من أحكمته العلوم ، وثقفته التجارب ، فكان اكثر الولاة يتساورون في الجهل فتاتي الولاية على من ليس من اهلها . ومثل هؤلاء ينبغي الحذر منهم والبعد عنهم . فمن ابتلى بوعظهم فليكن على غاية التحرز فيما يقول ولا ينبغي ان يغتر بقولهم ظنا فانه لو قال كلمة لا توافق اغراضهم ثارت حراراتهم . وليحذر مذكر السلطان ان يعرض له بارباب الولايات فانهم اذا سمعوا بذلك صار الواعظ مقصودا لهم بالاهلاك خوفا من ان يعتبر السلطان احوالهم تتفسد امورهم . والبعد في هذا الزمان عنهم

اصلح، والسكوت عن المواعظ لهم أسلم، فمن اضطر تلطّف غاية التلطّف، وجعل وعظه للعوام وهم يسمعون ولا يعنيه منه بشيء والله الموفق.

٣٠٩- فصل - الحق لا يشتبه بباطل انما يموه الباطل عند من لا فهم له وهذا في حق من يدعى النبوات، وفي حق من يدعى الكرامات. اما النبوات فانه قد ادعاها خلق كثير ظهرت قبائحهم، وبانت فضائحهم. ومنها ما يوجب خسة الهمة والتهتك في الشهوات، والتهافت في الاقوال والافعال حتى افتضحوا. فمنهم الاسود العنسي، ادعى النبوة ولقب نفسه ذا الحمارة لانه كان يقول ياتيني ذو الحمار، وكان اول امره كاهنا يشعوذ فيظهر الاعاجيب. فخرج في اواخر حياة النبي صلى الله عليه وسلم فكاثبته مزحج وواعد ونجران واخرجوا عمرو بن حزم وخالد بن سميد صاحبي رسول الله صلى الله عليه وسلم وصفاله اليمن، وقا تل شهر بن بادم فقتله وتزوج بنته فاعانت على قتله فهلك في حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم. وبان للعقلاء انه كان يشعبد. ومنهم مسيلمة، ادعى النبوة وتسمى رحن اليمامة لانه كان يقول: الذي ياتيني رحن. فآمن برسول الله صلى الله عليه وسلم وادعى انه قد أشرك معه. فالعجب انه يؤمن برسول ويقول إنه كذاب. ثم جاء بقرآن يضحك الناس، مثل قوله: يا ضفدع بذت ضفدعين تنقي ما تنقيز، اعلاك في الماء واسفلك في الطين، ومن المعجائب شاة سوداء تحلب لبنا أبيض فانتهك ستره في هذه الفصاحة. ثم مسح يده على رأس صبي فذهب شعره، وبصق في بئر فيدست وتزوج سجاح التي ادعت النبوة. فقالوا: لا بد لها من مهر فقال: مهرها اني قد اسقطت عنكم صلاة الفجر والعتمة. وكانت هذه سجاح قد ادعت النبوة بعد موت رسول الله صلى الله عليه

وسلم . فاستجاب لها جاعة . فقالت : اعدوا الركاب ، واستعدوا للنهاب ، ثم اعبروا على الرباب ، فليس دونهم حجاب ، فقاتلوهم . ثم قصدت اليمامة فهابها مسيمة فراسلها وأهدى لها فحضرت عنده فقالت : اقرأ على ما ياتيك به جبريل فقال : انكن معشر النساء خلقن افواجا ، وجعلن لنا ازواجا ، نولجه فيكن ايلاجا . فقالت : صدقت انت نبي . فقال لها : قومي الى المخدع ، فقدمي لك المضجع ، فان شئت مستلقاة وان شئت على اربع ، وان شئت بثلثيه وان شئت به اجمع . فقالت : بل به اجمع فهو للشمل اجمع . فافتضحت عند العقلاء من اصحابها ، فقال منهم عطار بن حاجب :

اضحت نبيتنا انى يطاف بها واصبحت انبياء الناس ذكرا
فلعنة الله رب الناس كلهم على سجاح ومن بالافك اغوا
اعنى مسيمة الكذاب لاسقيت امداؤه من دعيث حيمبا كانا

ثم انها رجعت عن غيها واسلمت ، وما زالت تبين فضائح مسيمة حتى قتل ومنهم طليحة بن خويلد ، خرج بعد دعوى مسيمة النبوة وتبعه عوام ونزل سميرا ، فتسمى بذى النون ، يقول : ان الذى يانيه يقال له ذوالنون ، وكان من كلامه : ان الله لا يصنع بتعفير وجوهكم ولا فيح ادباركم شيئا فاذكروا الله اعفة قياما . ومن قرأه : والجمام واليمام والصراد الصوام ابلغن ملكنا العراق والشام . وتبعه عيينة بن حصين ، فقاتله خالد بن عيينة فجاء عيينة الى طليحة فقال : ويحك اُجاءك الملك . قال لا فارجع فقاتل فقاتل ثم عاد ، فقال اُجاءك . فقال لا فماد فقاتل فقال اُجاءك قال نعم قال ما قال لك قال : ان لك جيشا لاتنساء ، فصاح عيينة الرجل والله كذاب . فانصرف الناس منهزمين وهرب طليحة الى الشام . ثم اسلم وصح

اسلامه وقتل بنهاوند . وذكر الواقدي : ان رجلا من بني يربوع يقال له جندب بن كلثوم ، كان يلقب كрдانا ادعى النبوة على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم . وكان يزعم ان دليله على نبوته انه يسرج مسامير الحديد والطين . وهذا لانه كان يطلى ذلك بدهن البيلسان فتعمل فيه النار . وقد تنبأ رجل يقال له كهش الكلابي ، وكان يزعم ان الله تعالى اوحى اليه : يا ايها الجائم اشرب لبنا تشبع ، ولا تضرب الذي لا ينفع ، فانه ليس بمقنع . وزعم ان دليله على نبوته انه يطرح بين السباع الضاربة فلا تأكله . وحيلته في ذلك انه يأخذ دهن الغار وحجر البرسان و قنفدا محرقا وزبد البحر وصدفا محرقا مسحوقا وشيئا من الصبر والحبط فيطلى به جسمه ، فاذا قربت منه السباع فشمت تلك الارياح وزفورتها نفرت ، وتنبأ بالطايف رجل يقال له ابو جموانة العامري ، وزعم ان دليله انه يطرح النار في القطن فلا يحترق . وهذا لانه يدهنه بدهن معروف . ومنهم هذيل بن يعفور من بني سعد بن زهير ، حكى عنه الاصمعي انه عارض سورة الاخلاص فقال : قل هو الله أحد الله كالاسد جالس على الرصد لا يفوته أحد . ومنهم هذيل بن واسع كان يزعم انه من ولد النابغة الذبياني ، عارض سورة الكوثر فقال له رجل ما قلت فقال : انا اعطيتناك الجواهر ، فصل لربك وجاهر ، فما يردنك الاكل فاجر ، فظهر عليه السنوي فقتله وصلبه على العمود ، فمهر عليه الرجل فقال : انا اعطيتناك العمود ، فصل لربك من قعود ، بلا ركوع ولا سجود ، فما اراك تمود . وممن ظهر فادعى انه يوحى اليه المختار بن ابي عبيد ، وكان متخبطا في دعواه ، وقتل خلقا كثيرا وكان يزعم انه ينصر الحسين رضوان الله عليه ثم قتل . ومنهم حنظلة بن يزيد الكوفي ، كان يزعم ان دليله انه يدخل البيضة في القنينة ويخرجها منها صحيحة .

وذلك انه كان ينقع البيضة في الخل الحامض فيلين قشرها ثم يصب ماء في قنينة ، ثم يدس البيضة فيها ، فاذا لقيت الماء صلبت . وقد تنبأ اقوام قبل نبينا صلى الله عليه وسلم كرزاد شت ماني ، واقتضحوا وما من المدعين الا من خذل . وقد جاءت القرامطة بحيل عجيبة . وقد ذكرت جمهور هؤلاء وحيلهم في كتابي التاريخ المسمى بالمنتظم . وما فيهم من يتم له امر الا ويفتضح . ودليل صحة نبوة نبينا صلى الله عليه وسلم اجلا من الشمس . فانه ظهر فقيرا واخلق أعداؤه فوعده بالملك فملك . واخبر بما سيكون فكان . وصين من زمن النبوة عن الشره وخساسة الهمة والكذب والكبر . وأيد بالثقة والامانة والنزاهة والعفة . وظهرت معجزاته للبعيد والقريب وانزل عليه الكتاب العزيز الذي حارت فيه عقول الفصحاء ، ولم يقدرُوا على الاثيان بآية تشبهه فضلا عن سورة . وقد قال قائلهم واقتضح . ثم أخبر انه لا يعارض فيه فكان كما قال . وذلك قوله تعالى « فأتوا بسورة » . ثم قال « فان لم تفعلوا ولن تفعلوا » . وكذلك قوله « فتمنوا الموت ولن يتمنونه » فاتمناه أحدا لو قال قائل قد تمنيت لبطاط دعواه . وكان يقول ليلة غزاة بدر: غدا مصرع فلان ههنا فلا يتعداه . وقال : اذا هلك كسرى فلا كسرى بعده . واذا هلك قيصر فلا قيصر بعده . فما ملك بعدهما من له كبير قدر ، ولا من استتب له حال . ومن اعظم دليل على صدقه انه لم يرد الدنيا فكان يبيت جائعا ، ويؤثر اذا وجد ، ويلبس الصوف ويقوم الليل . وانما تطلب النواميس لاجتلاب الشهوات ، فلما لم يردّها دل على انه يدل على الآخرة التي هي حق . ثم لم يزل دينه يعلو حتى عم الدنيا . وان كان الكفر في زوايا الارض الا انه منذول . وصار في تابعيه من امته الفقهاء الذين لو سمع كلامهم الانبياء

القدماء تحيروا في حسن استخراجهم ، والزهاد الذين لو رآهم الرهبان تحيروا في صدق زهدهم . والفطناء الذين لا نظير لهم في القدماء . أوليس قوم موسى يعبدون بقرة ، ويتوقفون في ذبح بقرة ، ويمبرون البحر ، ثم يقولون : اجعل لنا الها . وقوم عيسى يدخرون من المائدة وقد نهوا . والمعتدون في السبت يعصون الله لأجل الحيتان . وامتنا بحمد الله تعالى سليمة من هذه الاشياء ، وانما في بعضها ميل الى الشهوات المنهى عنها . وذلك من الفروع لا في الاصول . فاذا ذكروا بكوا وندموا على تفريطهم . فنحمد الله على هذا الدين وعلى اننا من أمة هذا الرسول صلى الله عليه وسلم . وقد كان جماعة من المتصنعين بالزهد مالوا الى طلب الدنيا والرياسة . فاستغوا هم الهوى فخرقوا باظهار ما يشبه الكرامات كالحلاج وابن الشاش وغيرهما ممن ذكرت حال تلبسه في كتاب تلبس ابليس . وانما فعلوا ذلك لاختلاف أغراضهم . ولم يزل الله ينشئ في هذا الدين من الفقهاء من يظهر ماستره المتعلمون ، كما ينشئ من علماء الحديث من يهتك ما اخفاه الواضعون ، حفظا لهذا الدين ، ودفعاً للشبهات عنه . فلا يزال الفقيه والمحدث يظهر ان عوار كل ملبس بوضع حديث أو بأظهار دعوى زهد وتنميس فلا يؤثر ما ادعياه الا عند جاهل بغيث من العلم والعمل «ليحق الحق ويبطل الباطل ولو كره الكافرون .

٣١٠ - فصل - واعجبا من موجود لا يفهم معنى الوجود ،

فان فهم لم يعمل بمقتضى فهمه ، يعلم ان العمر قصير ، وهو يضيقه بالنوم والبطالة والحديث الفارغ وطلب اللذات . وانما أيامه ايام عمل لازمان فراغ . وقد كلف بذل المال بمخالفة الطبع من الشرع فيخل به الى أن تضايق

الخناق فيقول حينئذ : فرقوا عني بعد موتى وافعلوا كذا ، فاين يقع هذا لو فعل ، وبعيد أن يفعل ، وإنما يراد بانفاقك في صحتك مخالفة للطبيع في تكلف مشاق الاخراج في زمن السلامة ، فافرق بين الحالتين ان كان لك فهم . فالسعيد من انتبه بنفسه وعمل بمقتضى عقله ، واغتنم زمنا نهايته الزمن وانتهى عمرا يا قرب انقطاعه . ويحك ما تصنع بادخار مال لا يؤثر حسنة في صحيفة ولا مكرمة في تاريخ . اما سمعت بانفاق ابى بكر وبخل ثعلبة ؟ اما رأيت تأثير مدح حاتم وبخل الجباحب ! ويحك لو ابتلاك في مالك لاستغثت أو في بدنك لisle بمرض اشكوت . فانت تستوفي مطلوباتك منه ، ولا تستوفي حقه عليك «ويل للمطففين» ولتعلم أن هذا القدر المفرط فيه يحل الخلود الدائم في ثواب العمل فيه . فسبحان من من على أقوام فهموا المراد فأتعبوا الاجساد . وغطى على قلوب آخرين فوجودهم كالعدم . وكيف لا يتعب العاقل بدنه انعاب البدن والمقصود منى . أترى ما بال الحق متجليا في ايجادك أيها العبد ! بلى . والله ان وجودك دليل وجوده . وان نعمه عليك دليل جوده . فكما قدمك على سائر الحيوانات ، فقدمه في قلبك على كل المطلوبات . واخية من جهله ، وافقر من أعرض عنه ، واذل من أعتز بغيره ، واحسرة من اشتغل بغير خدمته .

٣١١ - فصل - انى أعجب من عاقل يرى استيلاء الموت

على اقرانه وجيرانه كيف يطيب عيشه ، خصوصا اذا علت سنه . واعجبا لمن يرى الافاعي تدب اليه وهو لا ينزعج . أما يرى الشيخ ديب الموت في أعضائه ، قد اخرج سكين القوى وانزل متغشرم الضعف ، وقلب السواد يياضا ، ثم في كل يوم يزيد الناقص . ففي نظر العاقل الى نفسه ما يشغله

عن النظر الى خراب الدنيا وفراق الاخوان وان كان ذلك مزعجا . ولكن شغل من احترق يده بنقل متاعه يلهيه عن ذكر بيوت الجيران . وانه لما يسلى عن الدنيا ويهون فراقها استبدال المعارف ثم تنكره^(١) فقد راينا اغنياء كانوا يؤثرون وفقراء كانوا يصبرون ، ومحاسبين لأنفسهم . يتورعون فاستبدل السفهاء عن العقلاء ، والبخلاء عن الكرماء . فياسهولة الرحيل ، لعل النفس تلقى من فقدت ، فتلاحق بمن أحبت .

٣١٢ - فصل - نظرت في قول الله تعالى « ألم تر أن الله يسجد له من في السموات ومن في الأرض والشمس والقمر والنجوم والشجر والدواب » ثم قال « وكثير من الناس » فرأيت الجمادات كلها قد وصفت بالسجود ، واستثنى من العقلاء . فذكرت قول بعضهم : شعر

ما جحد العصامت من انشاء ومن ذوى النطق أنى الجحود

فقلت : ان هذه لقدرة عظيمة ، يوهب عقل الشخص ثم يسلب فائدته وان هذا أقوى دلائل على قادر قاهر ، والا فكيف يحسن من عاقل أن لا يعرف بوجوده وجود من أوجده ، وكيف ينحت صنما بيده ثم يعبده غير أن الحق سبحانه وتعالى وهب لأقوام من العقل ما ثبت عليهم الحجة ، واعمى قلوبهم كما شاء عن المحجة .

٣١٣ - فصل - ما رأيت أكثر أذى للمؤمن من مخالطة من لا يصلح ، فان الطبع يسرق ، فان لم يتشبه بهم ولم يسرق منهم فتر عن عمله . فان رؤية الدنيا تحث على طلبها . وقد رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم سترا على بابه فهتكه وقال : مالى وللدنيا . ولبس ثوبا له طراز فرماه وقال : شغلتنى أعلامه . ولبس خاتما ثم رماه وقال : نظرت اليكم ونظرت

اليه . وكذلك رؤية أرباب الدنيا ودورهم واحوالهم ، خصوصاً لمن له نفس
تطلب الرفعة وكذا سماع الاغانى ومخالطة الصوفية اليوم الذى لا نظر
لهم فى الرزق الحاصل ، بل لو كان من اين كان قبلوه ، ولا يتورعون ان
يأخذوا من ظالم ، وليس عندهم خوف كما كان أوائلهم . فقد كان سرى
السقطى يبكى طول الليل ، وكان يبالغ فى الورع ، ولا لهم تعبد الجنيد ،
وانما ثم أكل ورقص وبطالة وسماع اغانى من المرادان ، حتى قال بعض من
يعتبر قوله حضرت مع رجل كبير يوماً اليه من مشائخ الربط ومغنيهم
امرد ، فقام الشيخ ونقطه بدينار على خده . وادعاهم ان سماع هذه الاشياء
تدعوا الى الآخرة فوق الكذب . وليس العجب منهم ، انما العجب من
جهال ينفقون عليهم فينفقون عليهم . ولقد كان جماعة من القدماء يرون
اوائل الصوفية يتعبدون ويتورعون فيعجبهم حالهم ، وهم معزودون
في اعجابهم بهم ، وان كان اكثر القوم فى تعبدهم على غير الجادة ، كما ذكرت
فى كتاب المسمى بتلبيس ابليس . فاما اليوم فقد برح الخفاء . أحدهم يتردد
الى الظلمة ويأكل اموالهم ، ويصافحهم بقميص ليس فيه طراز ، وهذا هو
التصوف فحسب . أو لا يستحي من الله من زهد فى رفيع الأثواب
لاجل الخلائق لا لأجل الحق ، ولا يزهد فى مطعم ولا فى شربة ؛ فالبعد
عن هؤلاء لازم . وينبغى للمنفرد لطاعة الله تعالى عن الخلق ان لا يخرج
الى سوق جهده ، فان خرج ضرورة غض بصره . وان لا يزور صاحب
منصب ولا يلقاه ، فان اضطر دارى الامر . ولا يخالط عامياً الا لضرورة
مع التعرز . ولا يفتح على نفسه بلب الزوج بل يقنع بأمرأة فيها دين
فقد قال الشاعر :

والمرء ما دام ذا عين يقلبها في أعين العين موقوف على الخطر
يسر مقاتته ما ضر مهجته لا مرحبا بسرور عاد بالضرر
فان كان يغلب عليه العلم انفراد بدراسته ، واحترز عن الاتباع المتعلمين .
وان غلبت عليه العبادة ، زاد في احترازه . وليجعل خلوته انيسه . والنظر
في سير السلف جليسه . وليكن له وظيفة من زيارة قبور الصالحين
والخاوة بها . ولا يذنبى أن يفوته ورد قيام الليل ، وليكن بعد النصف
الاول . فليطل مهما قدر ، فانه زمان بعيد المثل . وليمثل رحيله عن قرب
ليقصر أمله . وليتزود في الطريق على قدر طول السفر . نسأل الله عز وجل
يقظة من فضله . واقبالا على خدمته . وان لا يخذلنا بالالتفات عنه . انه
قريب مجيب .

٣١٤ - فصل - كلما نظرت في تواصل النعم على تحيرت في
شكرها . وأعلم أن الشكر من النعم فكيف أشكر ، لكنى معترف بالتقصير .
وارجوا أن يكون اعترافى قائما ببعض الحقوق . وعندى خلة أرجوا
بها كل خير : وهى أن من يصوم أو يصلى يرى انه تعبد ويخدم كأنه
يقضى حق المخدم . وانا أرى أنى اذا صليت ركعتين قائما قمت اكدى
فلنفسى اعمل ، اذ المخدم غنى عن طاعى . وكان بعض المشائخ يقول : جاء فى
الحديث : الدعاء عبادة . وانا أقول : العبادة دعاء . فالعجب ممن يقف
للخدمة يسأل حظ نفسه ، كيف يرى أنه قد فعل شيئا . انما أنت فى
حاجتك . ومنة من أيقظك لا تقاومها خدمتك . فانا أقول كما قال الأول :

يا منتهى الآمال أنت كفلتنى وحفظتنى
وعدا الزمان على كى يجتاحنى فمنعتنى

فاتقاد لي متخشعا لما رآك نصرتي
وكسوتني ثوب الفنا ومن المطالب صنتي
فاذا سكت بدأتني واذا سألت اجبتني
فاذا شكرتك زدتنني ففتحتنني وبهرتنني
أو أن أجد بالمال فأ لأموال أنت أفدتنني

٣١٥ - فصل - رأيت أكثر العلماء يتشغلون بصورة العلم . فهم
الفقيه التدريس . وهم الواعظ الوعظ . فهذا يراعى درسه فيفرح بكثرة من يسمعه ،
ويقدر في كلام من يخالفه ، ويمضي زمانه في التفكير في المناقضات ، ليقهر
من يجادله ؛ وعينه الى التصدر والارتفاع في المجالس . وربما كانت همته
جمع الخطام ، ومخاطبة السلاطين . والواعظ همته مايزوق به كلامه ويكثر
جمعه ويجلب به قلوب الناس الى تعظيمه ، فان كان له نظير في شغله أخذ
يطعن فيه . وهذه قلوب غافلة من الله عز وجل ، اذ لو كانت لها به معرفة
لاشتغلت به ، وكان انسها بمناجاته ، وإيثارها لطاعاته ، وأقبالها على الخلوة به ،
لكنها لما خلت من هذا انشغلت بالديناو ذلك دنيا مثامها . فاذا خلت بخدمة الله تعالى
لم نجد لها طعما ، وكان جميع الناس أحب اليها ، وزيارة الخلق لها آثر عندها .
وهذه علامة الخذلان . وعلى ضد هذا متى كان العالم مقبلا على الله سبحانه
مشغولا بطاعته ، كان أصعب الأشياء عنده لقاء الخلق ومحادتهم ، وأحب
الاشياء اليه الخلوة . وكان عنده شغل عن القدر في النظر أو عن طالب
الرياسة ، فان ما علق به همته من الآخرة اعلا من ذلك . والنفوس لا بد لها
مما تشغل به . فمن اشتغل لخدمة الخلق أعرض عن الحق ، فانما يربى
رياسته ، وذلك يوجب الاعراض عن الحق . وما جعل الله لرجل من قلوبين في جوفه

٣١٦ فصل - قد جاء في الاثر ، اللهم أرنا الأشياء كما هي . وهذا

كلام حسن غاية . وأكثر الناس ما يرون الأشياء بعينها ، فانهم يرون الفاني كأنه باق . ولا يكادون يتخيلون زوال ما هم فيه وان علموا ذلك . الا ان عين الحسن مشغولة بالنظر الى الحاضر . ألا ترى زوال اللذة وبقاء آثها . ولو رأى اللص قطع يده هان عنده المسروق . فمن جمع الاموال ولم ينفقها فما رآها بعينها ، اذ هي آلة لتحصيل الاغراض ، لا تتراد لذاتها . ومن رأى المعصية بعيني الشهوة فما رآها . اذ فيها من العيوب ما شئت ثم ثمرتها عقوبة آجلة ، وفضيحة عاجلة . وانظر الى اكبر شهوات الحس وهو الوطء فان الماء لا يحصل الا بعد مطعم ومشرب ومن تفكر في المطعم نظر الى حرث الارض وانها تفتقر الى بقر للحراثة عابهن المحراث ، وهو حديد ومعه خشب ويتعلق به حبال ، فمن تفكر في عمل الحبال نظر في زرع القنب وتسريحه وفتله والحديد وجلبه وضربه . والخشب ونباته ونجارته . ودوران الدولاب وعمله ، ثم استحصاء الزرع وحصده وتذريته وطحنه وعجنه وخبره . ومن عمل التنور وجاب الشوك . ومن هذا الجنس اذا نظر فيه كثر جدا حتى قالوا لا تنال لقمة الا وقد عمل فيها ثلاثمائة نفس او نحوهم . فاذا أكل تلك اللقمة فليفكر في خلق الاسنان لقطعها والاضراس لطحنها ، وعذوبة ماء الفم خلطها ، واللسان ليقليها ، وعضلات الفم يصعد منها شيء ويبقى شيء حتى يصلح البلع . ثم يتناولها المعافيوصلها الى الكبد فيقوم طابخا لها ، فاذا صارت دما نفت رسوبها الى الطحال ، ومائتها الى المثانة ، واستخلصت من أخلص الدم وأصفاه للكبد والدماع والقلب . واخذت اجود ذلك فحضرتة الى الانثيين معدا لخلق آدمي . فاذا تحركت نيران

الشهوة تورث تلك النطفة ، وقد حكم الشرع بطهارتها ؛ وحكم لها بطهارة الرحم والمحل الذي يباشره الذكر ، فيخلق منها الآدمي الموحد . فما جاء هذا الشخص الا باغلا الغلاء وبعد عجائب أشرنا اليها ، لا أنا عددناها . أفمن فهم هذا يحسن منه ان يبدد تلك النطفة في حرام ، وان يطأ في محل نجس فتضيع . فكم يتعلق بالزنا من محن لا يفى معشار عشرها بلذة لحظة . منها هتك العرض بين الناس . وكشف العورات المحرمة . وخيانة الأخ المسلم في زوجته ان كانت متزوجة . وفضيحة الزنى بها وهي كأخت أو بنت . فان علفت منه ولها زوج الحقته بذلك الزوج . وكان هذا الزانى سببا في ميراث من لا يستحق ، ومنع من يستحق . ثم يتسلسل ذلك من ولد الى ولد . وأما سخط الحق سبحانه فمعلوم . قال تعالى « ولا تقربوا الزنا انه كان فاحشة ومقتا وساء سبيلا » وقال صلى الله عليه وسلم : ما من ذنب بعد الشرك اعظم عند الله تعالى من نطفة وضعها رجل في رحم لا تحل له . ومن له فهم فهو يعلم ان المراد من النطفة ايجاد الموحدين . ولولا تركيب الشهوة لم يقع الوطء ، لأنه التقاء عضوين غير مستحسنين ولا صورتها حسنة ولا ريحها طيب . وانا الشهوة تغطي عين الناظر ليحصل الولد اصلا فهي عارض فمن طلب الشهوة ونسى جنائته بالزنا فما رأى الاشياء على ما هي . وقس على هذا المطعم والمشرب وجمع المال وغير ذلك .

٣١٧ - فصل - ان قال قائل أى فائدة في خلق ما يؤذى ؟ فالجواب

انه قد ثبتت حكمة الخالق فاذا خفيت وجب التسليم . ثم ان المستحسنات في الجملة أنموذج ما أعد من الثواب . والمؤذيات أنموذج ما أعد من العقاب . وما خلق شيء يضر الا وفيه منفعة . قيل لبعض الاطباء : ان فلانا يقول

انا كالعقرب أضرب ولا أنفع . فقال : ما أقل علمه . انها للتنفع اذا شق بطنها ثم شدت على موضع اللسعة . وقد تجعل في جوف فخار مسدود الرأس مطبق الجوانب ، ثم يوضع الفخار في تنور فاذا صارت رمادا سقى من ذلك الرماد مقدار نصف دانق أو أكثر من به الحصاة فيفتتها من غير ان يضر بشيء من سائر الاعضاء . وقد تلسع العقرب من به حمى عتيقة فتزول . ولسمت رجلا مفلوجا فزال عنه الفالج . وقد تلقى في الدهن حتي يجذب قواها فيزيل ذلك الدهن الاورام الغليظة ، ومثل هذا كثير . فالجاهل عدولما جهله . وأكبر الحماقة رد الجاهل على العالم .

٣١٨ - فصل - كلما أوغلت الفهوم في معرفة الخالق فشاهدت عظمته ولطفه ورفعته ، تاهت في محبته فخرجت عن حد الثبوت . وقد كان خلق من الناس غلبت عليهم محبته فلم يقدرُوا على مخالطة الخلق : ومنهم من لم يقدر على السكوت عن الذكر . وفيهم من لم ينم الاغلبة . وفيهم من هام في البراري . وفيهم من احترق في بدنه . فياحسن مخمورهم ما الذسكروه وياعيش قلعهم ما احسن وجده . كان ابو عبيدة الخواص قد غلبه الوجد فكان يمشي في الاسواق ويقول : واشوقاه الى من يراني ولا أراه . وكان فتح بن سخر ف يقول : قد طال شوقي اليك ، فعجل قدومي عليك . وكان قيس بن الربيع كانه مخمور من غير شراب . وكان ابن عقيل يقول : ان التبذل فيه سبحانه احسن من التجميل في غيره . هل رأيت قط عراة احسن من المحرمين ! هل رأيت للمتزينين برياش الدنيا كأثواب الصالحين ! هل رأيت خمارا احسن من نعاس المتهمجين ! هل رأيت سكرًا احسن من صمق الواجدين ! هل شاهدت ماء صافيا اصفى من دموع المتأسفين ! هل

رأيت رؤسا مائلة كرؤس المنكسرين : هل لصق بالارض احسن من حياة المصلين : هل حرك نسيم الاسحار أوراق الاشجار فبلغ مبلغ تحريكه اذيال المتهمجين : هل ارتفعت اكف وانبسدت ايدي فضاهت اكف الراغبين : هل حرك القلوب صوت ترجيع لحن أورنة وتر كما حرك حنين المشتاقين : وانما بحسن التبذل في تحصيل أو في الاغراض . فلذلك حسن التبذل في خدمة المنعم .

٣١٩ - فصل - في سبب تبذير الولاة . اكثرهم لا يعرف ولا يتأدب بأدابه بكرة . ينفق قلة العقل في أصل الوضع ، ثم ذلك القليل لا يماون بل يمان عليه . وذلك ان الجارحة اذا دام تعطلها عن عملها الذي هيئت له تعطلت وخمدت . ولهذا تنقص أبصار النساخ والفائين وتحتد أبصار أهل البوادي . لانه لا صادم لا بصارم . وشغل العقل التفكير والنظر في عواقب الاحوال والاستدلال بالشاهد على الغائب . وهم يمتثلون من الطعام دائما وذلك يؤذى العقل . ثم يطيلون النوم ، فاذا اتقيها شربوا المسكر فانفق للعقل تعطيل وتنطية فساء التدبير .

٣٢٥ - فصل - من المخاطر العظيمة تحدث العوام بما لا يحتمله قلوبهم ، أو بما قد رسخ في نفوسهم ضده . مثاله ان قوما قد رسخ في قلوبهم التشبيه ، وان ذات الخالق سبحانه ملاصقة للعرش ، وهي بقدر العرش ، ويفضل من العرش أربع أصابع ، وسمعوا مثل هذا من أشياخهم ، وثبت عندهم أنه اذ نزل انتقل الى السماء الدنيا ، فثابت منه ست سموات ، فاذا دعي أحدهم الى التنزيه وقيل له ليس كما خطر لك ، انما ينبغي أن تمر الأحاديث كما جاءت من غير مساكنة ما توهمه ، صعب هذا عليه لوجهين : احدهما

لغلبة الحس عليه والحس على العوام أغلب . والثاني لما قد سمعه من ذلك من الاشياخ الذين كانوا أجهل منه . فالتخاطب لهذا مخاطر بنفسه . ولقد بلغنى عن بعض من كان يتدين أنه ممن ند رسخ في قلبه التشبيه انه سمع من بعض العلماء شيئا من التنزيه فقال : والله لو قدرت عليه لقتلته . فإله الله ان تحدث مخلوقا من العوام بما لا يحتمله ، فانه لا يزول ما في نفسه ، ويخاطر المحدث له بنفسه فكذلك كل ما يتعلق بالاصول .

٣٢١ - فصل - لا يفرك من الرجل طنطنته وماتراه يفعل من صلاة وصوم وصدقة وعزلة عن الخلق . انما الرجل هو الذى يراعى شيئا ، حفظ الحدود ، واخلاص العمل ، فكم قد رأينا متعبدا يخرق الحدود بالغيبة وفعل ما لا يجوز مما يوافق هواه . وكم قد اعتبرنا على صاحب دين أنه يقصد بفعله غير الله تعالى . وهذه الآفة تزيد وتنقص في الخلق . فالرجل كل الرجل هو الذى يراعى حدود الله ، وهى ما فرض عليه والزم به ، ويحسن القصد ، فيكون عمله وقوله خالصا لله تعالى ، لا يريد به الخلق ولا تعظيمهم له . فربما خاشع ليقال ناسك ، وصامت ليقال خائف وتارك للدنيا ليقال زاهد . وعلامة المخلص أن يكون في جلوته كخلوته . وربما تكلف بين الناس التبسم والانبساط لينمى عنه اسم زاهد . فقد كان ابن سرين يضعك بالنهار فاذا جن الليل فكانه قتل أهل القرية . واعلم أن الممول معه لا يريد الشركاء . فالمخلص مفرد له بالقصد ، والمرائى قد أشرك ليحصل له مدح الناس ، وذلك ينقلب . لأن قلوبهم بيد من أشرك معه ، فهو يقابها عليه لآله . فالموفق من كانت معاملته باطنة واعماله خالصة . وذلك الذى تحبه الناس وان كرهوا ، كما يمتنون المرائى وان زاد نعبده . ثم أن الرجل الموصوف

بهذه الخصال لا يتناهى عن كمال العلوم ولا يقصر عن طلب الفضائل ، فلا
الزمان أكثر مما يسمعه من الخير ، وقلبه لا يفتر عن العمل القلبي ، إلا أن
شغله بالحق سبحانه وتعالى .

٣٢٢- فصل - رأيت خلقا يفرطون في أديانهم ثم يقولون احملونا
إذا متنا الى مقبرة أحمد . أتواهم ما سمعوا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم
امتنع من الصلاة على من عليه دين وعلى الغال وقال : ما ينفعه صلاتي عليه .
ولقد رأيت أقواما من العلماء حملهم حب الصيت على أن استخرجوا ذنا
من السلطان فدفنوا في دكة أحمد بن حنبل وهم يعلمون أن هناك خالق
بعضهم على بعض ، وما فيهم إلا من يعلم أنه ما يستحق القرب من مثل ذلك .
فأين احتقار النفوس . أما سمعوا أن عمر بن عبد العزيز قيل له تدفن في
الحجرة فقال : لأن التقي الله بكل ذنب ما خلا الشرك أحب الي من أن أرى
نفسى أهلا لذلك لكن . العادات وحب الرياسة غلبت على هؤلاء ، فبقى العلم
يجرى على الألسن عادة لا للعمل به ، ثم آل الأمر الى جماعة خالطوا السلاطين
وباشروا الظلم ، يزاحمون على الدفن بمقبرة أحمد ويوصون بذلك ، فليتهم أوصوا
بالدفن في موضع فارغ ، انما يدفنون على موتى ، ويخرج عظام اولئك فيحشرون
على ما ألفوا من الظلم حتى في موتهم ، وينسون أنهم كانوا من أعوان الظلمة .
أتري ما علموا ان مساعد الظلم ظالم . وفي الحديث : كفى بالمرء خيانة أن يكون
أميना للخونة . قال السجاني لأحمد بن حنبل : هل أنا من أعوان الظلمة ؟ فقال :
لأنك من الظلمة . انما أعوان الظلمة من أعانك في أمر .

٣٢٣- فصل - رأيت الناس يذمون الحاسد ويبالغون ويقولون :
لا يحسد الا شرير يعادى نعمة الله ، ولا يرضى بقضائه ، ويبخل على أخيه

المسلم . فنظرت في هذا فما رأيته كما يقولون . وذاك ان الانسان لا يجب أن يرتفع عليه أحد ، فاذا رأى صديقه قد علا عليه تأثر هو ولم يجب أن يرتفع عليه ، وود أن لو لم يتل صديقه ما ينال ، أو أن ينال هو ما نال ذاك لئلا يرتفع عليه وهذا معجون في الطين . ولا لوم على ذلك . انما اللوم أن يعمل بمقتضاه من قول أو فعل . وكنت أظن أن هذا قد وقع لي عن سرى وفحصى ، فرأيت الحديث عن الحسن البصري قد سبقني اليه . قال أخبرنا عبد الخالق بن عبد الصمد قال أخبرنا ابن النقاد قال أخبرنا المخاض قال حدثنا البغوي قال حدثنا أبو روح قال حدثنا مخلد بن الحسين عن هشام عن الحسن قال : ليس من ولد آدم أحد الا وقد خلق معه الحسد ، فمن لم يجاوز ذلك بقول ولا بفعل لم يتبعه شيء .

٣٢٤ - فصل - من أعظم الضرر الداخل على الانسان كثرة النساء ، وانه أولا يتشتت همه في محبتهم ، ومداراتهم وغيرتهم ، والانفاق عليهم ولا يأمن احداهن أن تكرهه وتريد غيره فلا تتخلص الا بقتله ، ولو سلم من جميع ذلك لم يسلم في الكسب لهن ، فان سلم لم ينج من السامة لهن أو لبعضهن ، ويطلب مالا يقدر عليه من غيرهن ، حتى انه لو قدر على نساء بغداد كلهن فقدمت امرأة مستترة من غير البلد ظن أنه يجد عندها ما ليس عندهن . ولعمري إن في الجدة لذة ، ولكن رب مستور اذا انكشف اقتضح ، واذا سلم من كل أذى يتعلق بهن انهك بدنه في الجماع ، فيكون طلبه للالتذاذ مانعا من دوام الالتذاذ . ورب لقمة منعت لقمات . ورب لذة كانت سببا في انقطاع لذات . والمائل من يقتصر على الواحدة اذا وقعت غرضه ، ولا بد أن يكون فيها شيء لا يوافق انما العمل على الغالب .

فيوهب الخلة الرديّة للمجيدة وينبغي أن يكون النظر الى باب الدين قبل النظر الى الحسن ، فانه اذا قل الدين لم ينتفع ذو مروءة بملك المرأة . ومما يهلك الشيخ سريعا الجماع ، فلا يغتر بما يرى من انبساط الآلة وحصول الشهوة . وذلك مستخرج من قوته ما لا يعود مثله ، فلا ينبغي أن يغتر بحركة وشهوة ولا يقرب من النساء ان كان له رأى في البقاء .

٣٢٥ - فصل - اذا رأيت قليل العقل في أصل الوضع فلا ترج خيره : فأما ان كان وافر العقل لسكنه يغلب عليه الهوى فارجه . وعلامة ذلك أنه يدبر أمره في جهله فيستتر من الناس اذا أتى فاحشة ، ويراقب في بعض الاحوال ، ويبكى عند الموعظة ، ويحترم أهل الدين ، فهذا عاقل مغلوب بالهوى . فاذا انتبه بالندم انبسط شيطان الهوى وجاء ملك العقل . فاما اذا كان قليل العقل في الوضع ، وعلامته أن لا ينظر في عاقبة عاجلة ولا آجلة ولا يستحي من الناس أن يروه على فاحشة ، ولا يدبر أمر ديناه ، فذاك بعيد الرجاء . وقد يندر من هؤلاء من يفلح ، ويكون السبب فيه خيرة من العقل غطى عليها كثرة الهوى . فمثلهم كمثل مصروع أفاق ،

٣٢٦ - فصل - ينبغي الاحتراز من كل ما يجوز أن يكون ، ولا ينبغي أن يقال الغالب السلامة . وقد رأينا من نزل مع الخيل في سفينة فاضطربت ففرق من في السفينة وان كان الغالب السلامة . وكذا ينبغي أن يقدر الانسان في نفقته وان رأى الدنيا مقبلة ، لجواز أن تنقطع تلك الأسباب وحاجة النفس لا بد من قضائها ، فاذا بذّر وقت السعة فجاء وقت الضيق لم يأمن أن يدخل في مداخل سوء ، وان يتعرض بالطلب من الناس . وكذلك

ينبغي للمعافي أن يعد للعرض ويتقوى ان يتهياً للهرم . وفي الجملة فالنظر في العواقب وفيما يجوز أن يقع شأن العقلاء . فاما النظر في الحالة الراهنة فحسب فحالة الجهلة الجمعاء . مثل أن يرى نفسه معافي وينسى المرض ، أو غنيا وينسى الفقر أو يرى لذة عاجلة وينسى ما يحني عواقبها ، وليس للعقل شغل الا النظر في العواقب ، وهو يشير بالصواب أين من يقبل

٢٢٧ - فصل - بين ايمان المؤمن عند الابتلاء ، فهو يبالي في الدعاء ولا يرى أثرا للإجابة ، ولا يتغير أمله ورجاؤه ولو قويت أسباب اليأس ، لعلمه أن الحق أعلم بالمصالح ، أولان المراد منه الصبر أو الايمان فانه لم يحكم عليه بذلك إلا وهو يريد من القلب التسليم لينظر كيف صبره ، أو يريد كثرة اللجا والدعاء . فاما من يريد تعجيل الإجابة ويتذمر ان لم تتمتع به فذلك ضعيف الايمان . يرى أنه له حقا في الإجابة ، وكان يتقاضى باجرة عمله . أما سمعت قصة يعقوب عليه السلام : بقي ثمانين سنة في البلاء ورجاؤه لا يتغير ، فلما ضم الى فقد يوسف فقد ابن يامين لم يتغير أمله وقال « عسى الله أن ياتيني بهم جميعا » وقد كشف هذا المعنى قوله تعالى « أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم الباساء والضراء وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله ألا إن نصر الله قريب » ومعلوم ان هذا لا يصدر من الرسول والمؤمنين الا بعد طول البلاء وقرب اليأس من الفرج . ومن هذا قول رسول الله ﷺ : لا يزال العبد بخير ما لم يستعجل . قيل له وما يستعجل قال : يقول دعوت فلم يستجب لي . فإياك أياك أن تستطيل زمان البلاء ، وتضجر من كثرة الدعاء ، فإياك مبتلى بالبلاء ، متعبد بالصبر والدعاء ، ولا تيأس من روح الله وان طال البلاء .

٣٢٨ - فصل - تذكرة في سبب دخول جهنم فاذا هو المعاصي،

فنظرت في المعاصي فاذا هي حاصلة من طلب اللذات، فنظرت في اللذات فرأيتها خدعا ليست بشيء، وفي ضمنها من الاكدار ما يصيرها نغصا فتخرج عن كونها لذات، فكيف يتبع العاقل نفسه ويرضى بجهنم لأجل هذه الاكدار. فمن اللذات الزنا، فان كان المراد اراقة الماء فقد يراق في حلال، وان كان في معشوق فمراد النفس دوام البقاء مع المعشوق، فاذا هو ملكك فالمملوك مملوك، وان هو قاربه ساعة ثم فارقه فحسرة الفراق تربو على لذة القرب. وان كان ولد من الزنا فالفضيحة الدائمة. والعقوبة التامة. وتنكيس الرأس عند الخالق والمخلوق. وأما الجاهل فيرى لذته في بلوغ ذلك الغرض، وينسى ما يجنى مما يكدر عيش الدنيا والآخرة. ومن ذلك شرب الخمر، فانه تنجيس للغم والثوب، وابعاد للعقل، وتأثيراته معلومة عند الخالق والمخلوق. فالعجب ممن يؤثر لذة ساعة نجى عقابا وذهاب جاه. وربما خرج بالعريضة الى القتل. وعلى هذا فقس جميع المذوقات، فان لذاتها اذا وزنت بميزان العقل لا تفي بمشارع شير عواقبها القباح في الدنيا والآخرة. ثم هي نفسها ليست بكثير شيء فكيف تباع الآخرة بمثل هذا. سبحان من أنعم على أقوام كلما لاحت لهم لذة نصبوا ميزان العقل ونظروا فيما يجنى وتلهجوا ما يؤثر تركها فرجعوا الأصالح. وطمس على قلوب فهي ترى صورة الشيء وتنسى جناباته. ثم العجب انا نرى من يبعد عن زوجته وهو شاب ليعدو في الطريق فيقال ساعى. فيغلب هواه لطلب ما هو أعلى وهو المدح. كيف لا يترك محرما لمدح في الدنيا والاخرى! ثم قدّر حصول ما طلبت من اللذات وذهابها واحسب انها قد كانت وقد

هانت وتخلصت من محنها . وأين تعب عالم قد درس العلم خمسين سنة !
ذهب التعب وحصل العلم . وأين لذة البطال ! ذهبت الراحة واعتقت الندم .

٣٢٩ - فصل - من وقف على موجب الحس هلك . ومن تبع العقل سلم . لأن مجرد الحس لا يرى إلا الحاضر وهو الدنيا . وأما العقل فإنه ينظر الى المخلوقات ، فيعلم وجود الخالق قد منح وأباح واطلق وحظر . واخبر أنى سائلكم ومبتليكم ليظهر دليل وجودى عنكم بترك ما تشتهون طاعة لى . وأنى قد بنيت لكم دارا غير هذه لأتابة من بطيع وعقوبة من يخالف . ثم لو ترك الحس وما يشتهى مع أغراضه قرب الأمر انما يرنى فيجلد . ويشرب الخمر فيعاقب . ويسرق فيقطع ويفعل ذلة فيفضح بين الخلق . ويعرض عن العلم الى البطالة فيقع الندم عند حصول الجهل . ثم انما ترى الكثير ممن عمل بمقتضى عقله قد سلمت دنياه وآخرته . وميز بين الخلق بالتعظيم . وكان عيشه فى لذاته غالبا خيرا من عيش موافق للهوى . فليعتبر ذو الفهم بما قلت . وليعمل بمقتضى الدليل وقد سلم .

٣٣٠ - فصل - العجب لمؤثر شهوات الدنيا . ألا يتدبر امرها بالعقل قبل ان يصير الى منقولات الشرع . ان اعظم لذات الحس الوطء فالمرأة المستحسنة انما يكون حال كمالها من وقت بلوغها الى الثلاثين فاذا بلغت أثر فيها ، وربما ابيضت شعرات من رأسها فينفّر الانسان منها . وقد يقع الملل قبل ذلك ، وطول الصحبة يكشف الميوب . وما عيب نساء الدنيا بابلغ من قوله تعالى « لهم فيها أزواج مطهرة » فلو تفكر الانسان فى جسد مملوء بالنجاسة ما طاب له ضمه ، غير ان الشهوة تغطى عين الفكر . فالعقل من حفظ دينه وصروته بترك الحرام ، وحفظ

قوّته في الحلال فأنفقها في طلب الفضائل من علم أو عمل ، ولم يسمع في
إفناء عمره وتشيت قلبه في شيء لأنحسن عاقبته :

ما في هوا دجكم من مهجتي عوض ان مت شوقا ولا فيها لها ثمن
وعموم من رأينا من الكبار غلبت عليهم شهوة الوطء فأنهدمت
اعمارهم ، ورحلوا سريعا . وقد رأينا من العقلاء من زجر نفسه عن هذه
المحنة ولم يستعملها الا وقت الحاجة ، فبقى لهم سواد شعورهم وقوتهم حتى
تمتعوا بها في الحياة وحصلوا المناقب ، وعرفت منهم النفوس قوة العزيمة
فلم تطلبهم بما يؤذي .

٣٣١ - فصل - قد أشكل على بعض الناس رؤية النبي صلى الله
عليه وسلم وقوله : من رأى في المنام فقد رأى . فقال ظاهر الحديث انه
يراه حقيقة ، وفي الناس من يراه شيئا وشابا ومريضا ومعافا . فالجواب انه
من ظن ان جسد رسول الله صلى الله عليه وسلم المودع في المدينة خرج
من القبر وحضر في المكان الذي رآه فيه فهذا جهل لاجهل يشبهه .
فقد يراه في وقت واحد الف شخص في الف مكان على صور مختلفة ،
فكيف يتصور بهذا في شخص واحد ! وانما الذي يرى مثاله لا شخصه .
فيبقى من رأى فقد رأى معناه قد رأى مثالي الذي يعرفه الصواب
وتحصل به الفائدة المطلوبة . فان قيل : فما تقولون في رؤية الحق سبحانه !
فنقول : يرى مثالا لا مثل والمثال لا يفتقر الى المساواة والمشابهة كما قال تعالى
« أنزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها » فضر به مثالا للقرآن وانتفاع
الخلق به . ويوضح هذا انه انما يرى من رأى الحق سبحانه وتعالى على هيئة
مخصوصة وحق سبحانه وتعالى منزّه قد توحد فوضح ما قلناه .

٣٣٢ - فصل - غزير الفائدة . اعلم انه لو اتسع العمر لم يمنع من الايغال في كل علم الى منتهاه . غير ان العمر قصير . والعلم كثير . فينبغي للانسان أن يقتصر من القرات اذا حفظ القرآن على العشرة . ومن الحديث على الصحاح . والسنن والمسانيد المصنفة . فان علوم الحديث قد انبسطت زائدة في الحد . وما في هذا الجزء . وانما الطرق تختلف ، وعلم الحديث يتعلق ببعضه ببعض وهو مشتبه ، والفقهاء يسمونه علم الكسالى ، لانهم يتشاغلون بكتابته وسماعه ، ولا يكادون يعاونون حفظه ، ويفوتهم الممهم وهو الفقه وقد كان المحدثون قديما هم الفقهاء . ثم صار الفقهاء لا يعرفون الحديث . والمحدثون لا يعرفون الفقه . فمن كان ذاهمة ونصح نفسه تشاغل بالمهم من كل علم ، وجعل جل شغله الفقه ، فهو أعظم العلوم وأهمها . وقد قال أبو زرعة : كتب الى أبو ثور : فان هذا الحديث قد رواه ثمانية وتسعون رجلا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم . والذي صح منه طرق يسيرة . فالتشاغل بغير ماصح يمنع التشاغل بما هو أهم . ولو اتسع العمر كانت استيفاء كل الطرق في كل الاحاديث غاية في الجودة . لكن العمر قصير . ولما تشاغل بالطرق مثل يحيى بن معين فانه من الفقه كثير ، حتى انه سئل عن الحائض أيجوز ان تغسل الموتى ! فلم يعلم ، حتى جاء أبو ثور فقال : يجوز ، لأن عائشة رضي الله عنها قالت : كنت أرجل رأس رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا حائض . فيحیی أعلم بالحديث منه ، ولكن لم يتشاغل بفهمه . فأنا انهي أهل الحديث ان يشغلهم كثرة الطرق . ومن أقبح الاشياء ان تجرى حادثة يسأل عنها شيخ قد كتب الحديث ستين سنة فلا يعرف حكم الله عز وجل فيها .

وكذلك انهى من يتشاغل بالتزهد والانتقطاع عن الناس ان يعرض عن العلم . بل ينبغي ان يجعل لنفسه منه حظا ليعلم ان زل كيف يتخلص .

٣٣٣- فصل - معرفة الله سبحانه لا تحصل الا لكامل العقل .

صحيح المزاج . والترقي الى محبته بذلك يكون . وان اقواما قامت عقولهم وفسدت أمزجتهم فساءت مطاعمهم وقلّت فتخايلت لهم الخيالات الفاسدة فادعوا معرفة الحق ومحبته ، ولم يكن عندهم من العلم ما يصددهم عما ادعوا فهلكوا . وليعلم ان في المأكولات افساد العقل وفيها ما يزيد في السودا فيوجب المالىخوليا ، فترى صاحبها يحب الخلوة ، ويهرب من الناس ، ويقلل المطعم ، فيقوى مرضه فيتخايل له خيالات يظنها حقا . فثم من يقول : انى رأيت الملائكة . وفيهم من يخرج الامر الى دعوى محبة الحق والوله فيه ولا يكون ذلك عن أصل معتمد عليه . وانما العاقل العالم يسير في الطريق بين الرفيقين العلم والعقل . فان تقلل من الطعام فبعقل . وحدّ التقلل ترك فضول المطعم وما يخاف شره من شبهة أو شهوة يحذر تعودها ، واما زيادة التقلل مع القدرة فليس لعقل ولا شرع . الا ان يكون الفقر عم فيتقلل ضرورة . ومن تأمل حال رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه وجدهم يأخذون بمقدار ، ولا يتركون حظوظ النفس التي تصلحها . وما أحسن الامرَ واعدله قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : ثلث طعام ، وثلث شراب ، وثلث نفس ، وقد قال لعلى بن أبى طالب رضى الله عنه وهو مريض : اصب من هذا الطعام فهو اوفق لك من هذا . وكان صلى الله عليه وسلم يشاور الاطباء ويحتجم ويبحث على التداوى ويقول : ما أنزل الله داء الا وأنزل له شفاء فتداؤوا . فجاء اقوام جهلوا العلم والحكمة في

بنيان الابدان . فمنهم من أقام في الجبال يأكل البلوط فأصابه القولنج .
 ومنهم من قتل المطعم الى ان ضعفت قوام . ومنهم من اقتصر على نبات
 الصحراء . ومنهم من كان لا يقوت الا الباقلاء والشعير . فأوجبت هذه
 الافعال أمراضا في البدن ، وترقت الى افساد العقل . واتفق لهم قلة العلم ،
 اذ لو علموا لفهموا ان الحكمة تنهى عن مثل هذا ، فان البدن مبني على
 أخلاط اذا اعتدلت وقعت السلامة . واذا زاد بعضها وقع المرض . وأكثر
 هؤلاء مرضوا وتعجل لهم الموت . وفيهم من خرج الى التسوّدن . وفيهم
 من لاحت له لوائح فادعى رؤية الملائكة الى غير ذلك . فاما أهل العلم
 والعقل فهربهم من الخلق لخوف المعاصي ورؤية المنكر . وفيهم من قويت
 معرفته فشغلته معرفة الحق ومحبته عن ملاقة الخلق . فهذه هي الخلوات
 الصافية ، لانها تصدر عن علم وعقل فتحفظ البدن ، لانه ناقة توصل . ولا
 ينبغي ان ينهاون بالمأكولات ، خصوصا من لم يعتده ، ولا يلبس الصوف
 على البدن من لم يعتد . ولينظر في طريق رسول الله صلى الله عليه وسلم
 وصحابته ، فانهم القدوة . ولا يلتفت الى بنيات الطريق ، فيقال : فلان
 الزاهد قد أكل الطين ، وفلان كان يمشي حافيا ، وفلان بقي شهرا ما أكل ،
 فان المحققين من هؤلاء الخلاصين لله تعالى على غير الجادة ، لأن الجادة اتباع
 رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه وما كانوا يفعلون . هذا ولعمري
 انه قد كان فيهم من يقنع بالمذقة من اللبن ، ويصبر الايام عن الطعام .
 ولكن اما ضرورة ، او لانه معتاد لذلك كما يعتاد البدوي شرب اللبن
 وحده ولا يؤذيه ذلك . وفي الحديث : عودوا كل بدن ما اعتاد وفي المتزهدين
 من أخرج ماله كله عن يده زهدا . ومعلوم ان الحاجات لا تنقضي ، فلما

احتاج تعرض للطلب ، وافترق الى اخذ مال من يد من يعلم انه ظالم وبذل وجهه . وقد كانت الصحابة تنجر وتحفظ المال . وجهال المنزهدين يرون جمع المال ينافي الزهد . فعمّ نخضة هذا الفصل ان اقول : ينبغي لمن رزق فهما ان يسمى في صلاح بدنه ، ولا يحمل عليه ما يؤذيه ، ولا يناوله من القوت ما لا يوافقه ، ولا يضيع ماله ، وليجتهد في استثماره لئلا يحتاج ، فانه ما نافق زاهد الا لأهل الدنيا . ولينظر في سير الكاملين من السلف . وليتشغل بالعلم ، فانه الدليل . فحينئذ يحمله الامر على الخلوة بربه ، والاشتغال بحبه ، فيكون مظهر منه ثمرة نضجة لافجة . والله الموفق .

٣٣٤ - فصل - ما رأيت أظرف من لعب الدنيا بالعقول . وقد سمعنا ورأينا جماعة من الفطناء الكاملين العقل لعبت بهم الدنيا حتى صاروا كالمجانين . فولوا الولايات فخرجوا الى القتل والضرب والحبس والشتم وذهاب الدين ، والمباشرة للظلم كله لاجل دنيا تذهب سريعاً . وفي مدة اقامتها هي معجونة بالنقص . فيأليها المرزوق عقلا لا تبخسه حقه ، ولا تطفىء نوره ، واسمع ما نشير به ، ولا تلتفت الى بكاء طفل الطبيع لفوات غرضه ، فانك ان رحمت بكاءه لم تقدر على فطامه ، ولم يمكنك تأديبه ، فيبلغ جاهلاً فقيراً :

لاتسه عن أدب الصغير --- ر ولو شكى ألم التعب

ودع الكبير لشأنه كبر الكبير عن الأدب

واعلم ان زمان الابتلاء ضيف قراء الصبر ، كما قال أحمد بن حنبل : انما هو طعام دون طعام ، ولباس دون لباس ، وانها أيام قلائل ، فلا تنظر الى لذة المترفين ، وتلمح عواقبهم ، ولا تضيق صدرا بضيق المعاش ، وعلل

الناقة بالحدو تسير :

طاول بها الليل مال النجم أم جنحا وماطل النوم ضنّ الجفن أم سمحا
فان تشكت فملها المجرّة من ضوء الصباح وعدّها بالروح ضحى
وقد كان اهدى الى أحد بن حنبل هدية فردّها ، ثم قال بعد سنة
لاولاده : لو كنا قبلناها كانت قد ذهبت . ومصر بشر على برّ فقال له
صاحبه : أنا عطشان . فقال البئر الأخرى فرّ عليها فقال له الأخرى ، ثم قال :
كذا تقطع الدنيا . ودخلوا الى بشر الخافى وايس في داره حصير ، فقيل له
ألا بذاتؤذى ، فقال هذا أمر ينقضى . وكان لداود الطائي دار يأوى اليها ،
فوقع سقف فانتقل الى سقف الى ان مات في الدهليز . فهؤلاء الذين
نظروا في عواقب الامور . وبعد هذا فلا اطالبك بهذه الرتبة ، بل أقول
لك : ان حصل لك شيء من المباح لا من فيه ولا أذى ولا نلت به بسؤال
ولا من يد ظالم تعلم ان ماله حرام أو شبهة ، فافسح لنفسك في مباحاتها
بمقدار ما تحتاج اليه . وكن مقدراً للنفقة غير مبذر . فان الحلال لا يحتمل
السرف ومتى أسرفت احتجت الى التعرض للخلق والتنازل من الكدار .
وان ضاق بك أمر فاصبر ، فان ضعف الصبر فسل فاتح الابواب ، فهو
الكريم وعنده مفاتيح الغيب . وإياك ان تبذل دينك بتصنع للخلق أو
بتقرب الى الامراء وتستعطى أموالهم . واذكر طريق السلف . كان ابن
سمعون^(١) له ثياب يجلس فيها للناس ثم يطويها الى المجلس الآخر ورثها عن
أبيه بقيت أربعين سنة وكانت ميمونة بنت شافولة تعظ الناس ولها ثياب
قد بقيت أربعين سنة . ومن صفات نظره وتهذب لفظه ، نفع وعظه ، ومن كدر

كُدِّر عليه . والحالة العالية في هذا اقبال القلب على الله عز وجل ، والتوكل عليه والنظر اليه ، والتفات القلب عن الخلق ، فان احتجت فاسأله ، وان ضعفت فارغب اليه . ومتى ساكنت الاسباب انقطعت عنه ومتى استقام باطنك استقامت لك الامور .

٣٣٥ - فصل - رأيت نفسى تأنس بخلطاء نسميهم أصدقاء فبحثت التجارب عنهم فاذا اكثرهم حساد على النعم . وأعداء لا يسترون زلة ، ولا يعرفون لجليس حقاً . ولا يواسون من مالههم صديقاً . فتأملت الامر ، فاذا الحق سبحانه يغار على قلب المؤمن ان يجعل له شيئاً يأنس به ، فهو يكدر عليه الدنيا وأهلها ليكون انسه به . فينبغي ان بعد الخلق كلهم معارف ليس فيهم صديق ، بل تحسبهم أعداء . ولا تظهر شرك الخلق منهم ، ولا تُعدن من يصلح لشدة لاولدا ولا أخا ولا صديقاً ، بل عاملهم بالظاهر ، ولا تخالطهم إلا حالة الضرورة بالتوقي لحظة ، ثم انفر عنهم وأقبل على شأنك متوكلاً على خالقك ، فانه لا يجلب الخير سواه ، ولا يصرف السوء الا إياه ، فليكن جليستك وانيسك وموضع توكلك وشكواك ، فان ضعف بصرك فاستغث به ، وان قل يقينك فسله القوة ، وإياك ان تميل الى غيره ، فانه غيور . وان تشكو من اقداره ، فربما لم يحتمل . أوحى الله عز وجل الى يوسف عليه السلام : من خلصك من الحب ، من فعل من فعل . قال انت قال : فلم ذكرت غيرى . فلا طيلن حبسك ، أو كما قال . هذا وانما تعرض يوسف عليه السلام بسبب مباح « اذكرنى عند ربك » « ويوم حنين اذا اعجبتكم كثر تكلم » وما أعرف العيش الا لمن يعرفه ويعيش معه ويتأدب بين يديه في حركاته وكلماته كأنه يراه ، ويقف على باب طرفه

حارسا من نظرة لا تصلح . وعلى باب لسانه حافظا له من كلمة لا تحسن .
وعلى باب قلبه حماية لمسكنه من دخول الاغيار . ويستوحش من الخلق
شغلا به . وهذا يكون على سيرة الروحانيين . فاما الخلط فالكدر غالب
عليه . والمحق لا يطالب الا الأرفع قال القائل :

الا لأحب السير الا مصاعدا ولا البرق الا ان يكون يمانيا

٣٣٦ - فصل - رأيت أكثر العلماء مشتغلين بصورة العلم
دون فهم حقيقته ومقصوده . فالتقارىء مشغول بالروايات ، عاكف على
الشواذ ، يرى أن المقصود نفس التلاوة ، ولا يتلمح عظمة التكلم ، ولا
زجر القرآن ووعدده . وربما ظن ان حفظ القرآن يدفع عنه ، فتراه يترخص
الذنوب ، ولو فهم لملم ان الحجة عليه اقوى ممن لم يقرأ . والمحدث يجمع
الطرق ، ويحفظ الاسانيد ، ولا يتأمل مقصود المنقول ، ويرى انه قد حفظ
على الناس الاحاديث . فهو يرجو بذلك السلامة . وربما ترخص فى الخطايا
ظنا منه ان ما فعل فى الشريعة يدفع عنه . والفقيه قد وقع له انه بما قد عرف
من الجدل الذى يقوى به خصامه ، والمسائل التى قد عرف فيها المذهب
قد حصل بما يفتى به الناس ما يرفع قدره ، ويمحو ذنبه ، وربما هجم على
الخطايا ظنا منه ان ذلك يدفع عنه ، وربما لم يحفظ القرآن ولم يعرف الحديث
وانهما ينهيان عن الفواحش بزجر ورفق . وينضاف اليه مع الجهل بهما
حب الرياسة ، وايتثار الغلبة فى الجدل . فتزيد قسوة قلبه . وعلى هذا أكثر
الناس ، صور العلم عندهم صناعة . فهى تكسبهم الكبر والحمافة . وقد حكى
بعض المعتبرين عن شيخ افنى عمره فى علوم كثيرة ، انه فتن فى آخر عمره
بفسق اصر عليه ، وبارز الله به ، وكانت حاله تعطى بمضمونها ان علمى

يدفع عنى شر ما أنا فيه ولا يبقى له أثر. وكان كأنه قد قطع لنفسه بالنجاة، فلا يرى عنده أثر لخوف ولا ندم على ذنب قال فتغير في آخر عمره ولازمه الفقر، فكان يلقى الشدائد ولا ينتهى عن قببح حاله، إلى أن جمعت له يوما قراريط على وجه الكدية فاستحيا من ذلك وقال يارب إلى هذا الحد، قال الحاكى: فتعجبت من غفلته كيف نسي الله عز وجل، وأراد منه حسن التدبير له والصيانة وسعة الرزق، وكأنه ما سمع قوله تعالى «وان لو استقاموا على الطريقة لأسقيناهم ماء غدقا» ولا علم أن المعاصى تسد أبواب الرزق. وان من ضيع امر الله ضيعه الله. فما رأيت عالما ما افاد كعلم هذا، لأن العالم إذا زل انكسر. وهذا مصر لا تؤله معصيته، وكأنه يجوز له ما يفعل، أو كأن له التصرف في الدين تحليلا وتحريرا. فرض عاجلا ومات على أقبح حال. قال الحاكى: ورأيت شيئا آخر حصل صور علم فما افادته كان أى فسق امكنه لم يتحاش منه وأى أمر لم يعجبه من القدر عارضه بالاعتراض على المقدر واللوم. فعاش اكدر عيش، وعلى أقبح اعتقاد حتى درج. وهؤلاء لم يفهموا معنى العلم، وليس العلم صور الالفاظ، إنما المقصود فهم المراد منه، وذلك يورث الخشية والخوف، ويرى المنة للمنع بالعلم، وقوة الحاجة له على المتعلم. نسأل الله عز وجل يقظة تفهمنا المقصود، وتعرفنا المعبود. ونعوذ بالله من سبيل رعاي يتسمون بالعلماء لا ينههم ما يحملون، ويعلمون ولا يعملون، ويتكبرون على الناس بما لا يعملون، ويأخذون عرض الأدنى وقد نهوا عما يأخذون، غلبتهم طباعهم، وماراضتهم علومهم، التي يدرسون، فهي أخس حالا من العوام الذين يجهلون «يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون».

٣٣٧ - فصل - للفقهاء ان يطالع من كل فن طرفا من تاريخ وحديث
ولغة وغير ذلك . فان الفقه يحتاج الى جميع العلوم . فليأخذ من كل شيء
منها مهما . ولقد رأيت بعض الفقهاء يقول : اجتمع الشبلي وشريك القاضي
فاستعجبت له كيف لا يدري بعد ما بينهما . وقال آخر في مناظرة : كانت
الزوجة بين فاطمة وعلي رضى الله عنهما غير منقطعة الحركم ، فلها غسلها
فقلت له : ويحك فقد تزوج أمامة بنت زينب وهي بنت اختها فانقطع . ورأيت
في كتاب إحياء علوم الغزالي من هذا ما يدهش من التخليط في الاحاديث
والتواريخ . فجمعت من اغاليطه في كتاب وقد ذكر في كتاب له سماه المستظهرى
وعرضه على المستظهر بالله ان سليمان بن عبد الملك بعث الى أبي حازم فقال له : ابعث
لى من فطورك ، فبعث اليه نخالة مقلوبة فأفطر عليها ، ثم جامع زوجته فجاءت
بعبد العزيز . ثم ولد له عمر . وهذا تخليط قبيح ، فانه جعل عمر بن عبد العزيز
ابن سليمان بن عبد الملك ، فجعل سليمان جده ، وانما هو ابن عمه . وقد ذكر
أبو المعالي الجوينى فى أواخر كتاب الشامل فى الاصول . قال : قد ذكرت
طائفة من الثقات المعتنين بالبحث عن البواطن ان الحلاج والجبائى القرمطى
وابن المقنع تواصلوا على قلب الدول وافساد المملكة واستعطاف القلوب
وارتداد كل منهم قطرا . فقطن الجبائى فى الاحسا ، وتوغل ابن المقنع فى
أطراف بلاد الترك ، وقطن الحلاج ببغداد فحكم ، عليه صاحباه بالهلكة
والتقصود عن بلوغ . الامنية لبعده أهل بغداد عن الانخداع ، وتوفر فطنهم
وصدق فراستهم . قلت : ولو ان هذا الرجل أو من حكى عنه عرف التاريخ
لعلم ان الحلاج لم يدرك ابن المقنع ، فان ابن المقنع أمر بقتله المنصور فقتل
فى سنة أربع وأربعين ومائة . وابو سعيد الجبائى القرمطى ظهر فى سنة

ست وثمانين ومائتين . والحلاج قتل سنة تسع وثلاثمائة . فزمان القرمطي والحلاج متقاربان . فاما ابن المقفع فكلاً . فينبغي لكل ذي علم ان يسام يباقي العلوم فيطالع منها طرفاً ، إذ لكل علم بعلم تعلق ، وما أقبح بمحدث يُسأل عن حادثة فلا يدري ، وقد شغله منها جمع طرق الاحاديث . وقبيح بالفقيه ان يقال له : ما معنى قول رسول الله صلى الله عليه وسلم كذا ! فلا يدري صحة الحديث ولا معناه . نسأل الله عز وجل همة عالية لا ترضى بالنقائص بمنه ولطفه .

٣٣٨ - فصل - كانت همم القدماء من العلماء عليّة ، تدل عليها تصانيفهم التي هي زبدة اعمارهم . الا ان اكثر تصانيفهم دثرت . لان همم الطلاب ضعفت . فصاروا يطلبون المختصرات . ولا ينشطون للمطولات . ثم اقتصروا على ما يدرسون به من بعضها ، فدثرت الكتب ولم تنسخ . فسبيل طالب الكمال . في طلب العلم الاطلاع على الكتب التي قد تخلفت من المصنفات ، فليكثر من المطالعة فانه يرى من علوم القوم وعلومهم ما يشحذ خاطره ويحرك عزيمته للجد ، وما يخلوا كتاب من فائدة . وأعوذ بالله من سير هؤلاء الذين نعاشرهم . لا نرى فيهم ذاهمة عالية فيقتدي بها المبتدى . ولا صاحب ورع فيستفيد منه الزاهد . فالله الله عليكم بملاحظة سير السلف ، ومطالعة تصانيفهم ، وأخبارهم . فالاستكثار من مطالعة كتبهم روية لهم كما قال :

فأني ان أرى الديار بطرفي فلعلني أرى الديار بسمعي
وأنى اخبر عن حالي ، ما اشبع من مطالعة الكتب . واذا رأيت كتاباً
لم اره فكأنني وقعت على كنز . ولقد نظرت في ثبوت الكتب الموقوفة في

المدرسة النظامية، فاذا به يحتوى على نحو ستة آلاف مجلد. وفي ثبت كتب
أبي حنيفة وكتب الحميدى وكتب شيخنا عبد الوهاب وابن زاصر وكتب
أبي محمد بن الخشاب وكانت اجمالا وغير ذلك من كل كتاب أقدر عليه.
ولو قلت : انى طالعت عشرين الف مجلد كان اكثر وانا بعد فى الطلب .
فاستفدت بالنظر فيها من ملاحظة سير القوم وقدرهم منهم وحفظهم وعبادتهم
وغرائب علومهم ما لا يعرفه من لم يطالع فصرت استزرى ما الناس فيه ،
واحتقرهم الطلاب والله الحمد .

٣٣٩ - فصل - ليس للآدمى أعز من نفسه ، وقد عجبت ممن
يخاطربها ويعرضها للهلاك . والسبب فى ذلك قلة العقل وسوء النظر فتمهم
من يعرضها للتلف ليمدح بزعمه . مثل قوم يخرجون الى قتل السبع . ومنهم
من يصعد الى ايوان كسرى ايقال شاطر . وساع يمشى ثلاثين فرسخا .
وهؤلاء اذا تافوا حملوا الى النار . فان هلك ذهبت النفس التى يراد المال
لأجلها . وأعجب من الكل من يخاطر بنفسه فى الهلاك ولا يدري ، مثل
ان يغضب فيقتل المسلم فيشفي غيظه بالتعذيب فى جهنم . وأظرف من هذا
الهود والنصارى ، فان أحدهم يبلغ فيجب عليه ان ينظر فى نبوة نبينا صلى
الله عليه وسلم فاذا فرط فله الخلود فى جهنم . ولقد قلت لبعضهم : ويحك
تخاطر بنفسك فى عذاب الابد ، نحن نؤمن بنبيكم فنقول : لو ان مسلما
آمن بنينا وكذب بنبيكم أو بالتوراة خلد فى النار ، فما بيننا وبينكم خلاف ،
إذ نحن مؤمنون بصدقه وكتابه ، فلو اقيناه لم نخجل ولو عاتبنا مثلا وقال :
هل قتم بالسبت والسبت من الفروع والفروع لا يعاقب عليها بالخلود .
فقال لى رئيس القوم : ما نطالبكم بهذا لأن السبت انما يلزم بنى اسرائيل

فقلت : فقد سلمنا باجماعكم وأنتم هالكون . لانكم تخاطرون بأرواحكم في العذاب الدائم . والعجب بمن يهمل النظر فيما اذا توانى فيه أوجب الخلود في العقاب الدائم . وأعجب من الكل جاحداً الخالق وهو يرى أحكام الصنعة ويقول لاصانع . والسبب في هذه الاشياء كلها قلة العقل وترك إعماله في النظر والاستدلال .

٣٤٠ - فصل - لا ينبغي للعاقل ان يظهر سرا حتى يعلم انه اذا ظهر لا يتأذى بظهوره . ومعلوم ان السبب في بث السر طلب الاستراحة بيته ، وذلك الم قريب فليصبر عليه ، قرب مظهر سرا زوجته فاذا طلقت بثته وهلك . أو لصديقه فيظهره عليه حسدا له اذا كان ممائلا وان كان عاميا فالعامي أحق . ورب سر أظهر فكان سبب الهلاك .

٣٤١ - فصل - ما يتناهى في طلب العلم إلا عاشق العلم . والعاشق ينبغي ان يصبر على المكاره ، ومن ضرورة المتشاغل به البعد عن الكسب . ومذ فقد التفقد لهم من الامراء ومن الاخوان فلازمهم الفقر ضرورة . والفضائل تنادي « هنالك ابتلى المؤمنون وزلزلوا زلزالا شديدا » فكلام خافت من ابتلى قالت :

لا تحسب المجد تمرا أنت آكله لن تبلغ المجد حتى تلعق الصبر
ولما آثر احمد بن حنبل رضى الله عنه طلب العلم وكان فقيرا ، بقى أربعين سنة يتشاغل به ولا يتزوج . فينبغى للفقير ان يصابر فقره كما فعل احمد ، ومن يطيق ما أطاق ، فقد رد من المال خمسين الفا وكان يكل الكامخ ويتأدم بالملح ، فما شاع له الذكر الجميل جزافا ، ولا ترددت الاقدام الى قبره الا لمعنى عجيب . فياله ثناء ملاً الآفاق ، وجمالاً زين الوجود ، وعزا نسخ كل ذل هذا .

في العاجل ، وثواب الآجل لا يوصف . وتلمح قبور أكثر العلماء لا تعرف ولا تزار . ترخصوا وتأولوا وخالطوا السلاطين فذهبت بركة العلم ومحي الجاه ووردوا عند الموت حياض الندم ، فيالها حسرات لا تتلافى ، وخسرانا لا ينجير ، كانت صحبة اللذات طرفة عين ، ولازم الأسف دائما . فالصبر الصبر أيها الطالب للفضائل . فان لذة الراحة بالهوى أو بالبطالة تذهب ويبقى الأسى . وقال الشافعي رضى الله تعالى عنه :

يانفس ما هي الا صبر أيام كان مدتها أضغاث أحلام
يانفس جوزى عن الدنيا مبادرة وخلى عنها فان العيش قدامى
ثم أيها العالم الفقير . أيسرك ملك سلطان من السلاطين ، وان ما تعلمه من العلم لا تعلمه . كلا . ما أظن بالمتيقظ ان يؤثر هذا . ثم أنت اذا وقع لك خالمر مستحسن أو معنى عجيب نجد لذة لا يجدها ملتذ باللذات الحسية ، فقد حرم من رزق الشهوات ما قدر رزقت ، وقد شاركتم في قوام العيش ، ولم يبق الا الفضول الذى اذا أخذ لم يكده يضر . ثم هم على المخاطرة في باب الآخرة غالبا . وأنت على السلامة في الاغلب . فتلمح يا أخى عواقب الاحوال ، واقع الكسل المثبط عن الفضائل ، فان كثيرا من العلماء الذين ماتوا مفرطين يتقلبون في حسرات وأسف . رأى رجل شيخنا ابن الزغوانى فى المنام : فقال له الشيخ : أكثر ما عندكم الغفلة . وأكثر ما عندنا الندامة . فاهرب وفقك الله قبل الحبس ، وافسخ عقد الهوى على الغبن الفاحش . واعلم ان الفضائل لا تنال بالهوين ، وان يسير التفريط يشين وجه المحاسن . فالبدار البدار ونفس النفس يتردد ، وملك الموت غائب ما قدم بعد ، وأنهمض بعزيمة عازم :

إذا هم القى بين عينيه عزمه ونكّب عن ذكر الحوادث جانباً
ولم يستشر في أمره غير نفسه ولم يرض الا قائم السيف صاحباً
وارفض في هذه العزيمة الدنيا وأربابها . فبارك الله لاهل الدنيا في دنياهم ،
فدحن الاغنياء ، وهم الفقراء . كما قال ابراهيم بن آدم : ولو علم الملوك وأبناء
الملوك ما نحن فيه لجالدونا عليه بالسيوف فابناء الدنيا أحدم لا يكاد يأكل
لقمة الا حراماً أو شبهة . وهو وان لم يؤثر ذلك فوكيله يفعله ، ولا يبالي
هو بقلة دين وكيله . وان عمروا دارا سخرّوا الفعلة ، وان جمعوا مالا فن
وجوه لا تصالح . ثم كل منهم خائف أن يقتل أو يعزل أو يشتم ، فعيبهم
نقص . ونحن نأكل ما ظاهر الشرع يشهد له بالاباحة ، ولا نخاف من
عدو . ولا ولا يتنا تقبل العزل . والعز في الدنيا لنا لا لهم . وإقبال الخلق
علينا . وتقييل أيدينا وتعظيمنا عندهم كثير . وفي الآخرة بيننا وبينهم
تفاوت ان شاء الله تعالى . فان ألفت ارباب الدنيا اعناقهم يعلمون قدر مزيقتنا
وان غأت ايديهم عن اعطائنا فلذة العفاف اطيب ، ومرارة المن لا تقي
بالأخوذ : وإنما هو طعام دون طعام ولباس دون لباس . وانها أيام قلائل
والمعجب لمن شرفت نفسه حتى طلبه العلم . اذ لا يطلبه الا نفس شريفة
كيف يذل لبذل ما عزه الا بالدنانير . ولا نخره الا بالمكنة ولقد أنشدني
أبو يعلى العلوي :

رب قوم في خلاقتهم عرقد صيروا غرراً
ستر المال القبيح لهم سرى ان زال ماستراً
أيقظنا الله من رقدة الغافلين . ورزقنا فكر المتيقظين . ووقفنا للعمل
بمقتضى العلم والعقل . إنه قريب محيب :

٣٤٢ - فصل - لا ينبغي للإنسان أن يحمل على بدنه مالا يطيق
 فإن البدن كالراحلة إن لم يرفق بها لم تصل بالراكب . فترى في الناس من
 يتزهد وقد ربي جسده على الترف فيعرض عما ألفه فيتجدد له الأمراض
 فتقطعه عن كثير من العبادات : وقد قيل : عودوا كل بدن ما اعتاد وقد قرب
 إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ضب فقال : أجدني أعافه لأنه ليس
 بارض قوم . وفي حديث الهجرة : إن أبا بكر رضي الله عنه طلب لرسول
 الله صلى الله عليه وسلم الظل وفرش له فروة وصب على القدح الذي فيه
 اللبن ماء حتى برد . وجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم على قوم فقال :
 إن كان عندكم ماء بات في شن والا كرعنا . وكان صلى الله عليه وسلم يأكل
 لحم الدجاج وفي الصحيح : أنه كان يحب الحلوى والعسل . وكان إذا لم يقدر
 أكل ما حضر . ولعمري إن في العرب وأهل السواد من لا يؤثر عنده
 التخشن في المطعم والملبس . وذاك إذا جرى بعدنوبته على عادته لم يستضر .
 فأما من قد ألف اللطف فإنه إذا غير حالته تغير بدنه وقلت عبادته . وقد
 كان الحسن يديم أكل اللحم وقول : لا رغبني مالك ولا صحنى فرقد .
 وكان ابن سيرين لا يخلى منزله من حلوى وكان سفيان الثوري يسافر وفي
 سفرته الحمل المشوى . والفالودج وقالت رابعة : ما أرى لبدن يراد به العمل
 لله إذا أكل الفالودج عيبا . فمن ألف الترف فينبغي أن يتلطف بنفسه
 إذا أمكنه . وقد عرفت هذا من نفسى ، فإني ريت في ترف فلما
 ابتدأت في التقليل وهجر المشتبه ، أثر معي مرضا قطعني عن كثير من
 التعبد حتى أتى قرأت في أيام كل يوم خمسة أجزاء من القرآن ، فتناولت
 يوما مالا يصلح فلم أقدر في ذلك اليوم على قراءتها ، فقلت : إن لقمة تؤثر

قراءة خمسة أجزاء بكل حرف عشر حسنات إن تناولها لطاعة عظيمة .
وان مطعمها يؤذى البدن فيفوته فعل خير ينبغى أن يهجر . وقد رأى رسول
الله صلى عليه وسلم رجلا من أصحابه حضر عنده وقد تغير من التقشف
فقال له : من أمرك بهذا ! فالعقل يعطى بدنه من الغذاء ما يوافق كما ينقى
الغازى شمير الدابة : ولا تظنن أنى أمر بأكل الشهوات ، ولا بالاكثار
من المذوذ ، إنما أمر بتناول ما يحفظ النفس . وانهى عما يؤذى البدن .
فاما التوسع في المطاعم ، فانه سبب النوم . والشبع يعنى القلب . ويهزل
البدن ويضعفه . فافهم ما أشرت اليه . فالطريق هى الوسطى .

٣٤٣ - فصل - إذا تكامل العقل قوى الذكاء والفطنة . والذى
يتخاص اذا وقع فى آفة كما قال الحسن : اذا كان اللص ظريفا لم يقطع . فاما
المغفل فيجنى على نفسه المحن . هؤلاء اخوة يوسف عليهم السلام . ابعده
عن أبيه ليتقدموا عنده ، وما علموا أن حزنه عليه يشغله عنهم وتهمة إياهم
تبعثهم اليه . ثم رموه فى الجب فقالوا ، يلتقطه بعد السيادة « وليس بطفل »
إنما هو صبي كبير . وما علموا أنه اذا التقط يحدث بحاله ، فيبلغ الخبر الى
أبيه . وهذا تغفيل . ثم إنهم قالوا : أكله الذئب ، وجاءوا بقميصه صحيحا ،
ولو خرقوه احتمل الأمر . ثم لما مضوا اليه يمتارون قال « ائتوني بأخ
لكم » فلو فطنوا علموا أن ملك مصر لا غرض له فى أخيه . ثم حبسه
بحجة . ثم قال : هذا الصواع يخبرنى أنه كان كذا وكذا . هذا كله وما يفطنون .
فلما أحس بهذه الاشياء يعقوب عليه السلام قال « اذهبوا فتحسسوا من
يوسف » وكان يوسف عليه السلام قد نهي بالوحى أن يعلم أباه بوجوده .
ولهذا لما التقيا قال له : هل لا كتبت الى فقال : ان جبريل عليه السلام

منعنى . فلما نهى أن يعرفه خبره لينفذ البلاء كان مافعل . باخيه تنبيها .
فصار كأنه يعرض بخطبة المعتدة ، وعلى فهم يوسف والله بكى يعقوب
لاعلى مجرد صورته .

٣٤ - فصل - الآدمى موضوع على مطلوبات تشتت الهم .
لعين تطلب المنظور . واللسان يطلب الكلام . والبطن يطلب المأكول .
والفرج المنكوح . والطبع يحب جمع المال . وقد أمرنا بجمع الهم لذكر
الآخرة والهوى يشتهه . فكيف اذا اجتمعت اليه حاجات لازمة من
طلب قوت البدن وقوت العيال . وهذا يبكر الى دكانه ويفتكر فى
التحصيل ، ويستعمل آلة الفهم فى نيل مالا بد منه ، فأى هم يجتمع منه خصوصا
ان أخذه الشره فى صورة فيمضى العمر ، فينهض من الدكان الى القبر .
فكيف يحصل العلم أو العمل أو اخلاص القصد أو طاب الفضائل .
فن رزق يقظة ، فينبغى أن يصابر لنيل الفضائل . فان كان متزهدا بغير
عائلة فقد كان السبتى يعمل يوم السبت فيكتفى به طول الاسبوع . فان
كان له مال باضع به من يكفيه بدينه ، وثقته أن يهتم هو ، وان كان له
عائلة جمع هم فى نية الكسب عليهم فيكون متعبدا . أو ان يكون قنية
مال كمقار ناصفه فى نفقته ليكفيه دخله . وليقلل الهم على مقدار ما يمكنه
من حذف العلائق جهده ليجمع الهم فى ذكر الآخرة فان لم يفعل أخذ
فى غفلته وندم فى حفرته . وأصبح الأحوال حال عالم فقيه كلما جمع هم
لذكر الآخرة شتته طلب القوت للعائلة ، وربما احتاج الى التعرض بالظلمة
وأخذ الشبهات وبذل الوجه . فيلزم هذا التقدير فى النفقة . واذا حصل له
شئ من وجه دبر فيه . ولا ينبغى أن يحمله قصر الامل على اخراج ما فى

يده ، فقد قال صلى الله عليه وسلم : لأن تترك ورثتك أغنيا خير من أن تتركها
عالة يتكففون الناس . وأذل من كل ذل التعرض للبخلاء والأمراء .
فليدبر أمره ، ويقلل الملائق ، ويحفظ جاهه ، فالأيام قلائل . وقد بُعث
الى أحمد بن حنبل مال فسأله ابنه قبوله فقال : يا صالح صنى . ثم قال أستخير
الله ، فاصبح فقال : يا بنى قد عزم لى أن لأقبله ، هذا وكان العطاء هنيئاً ،
وجاءته من وجوه . فانعكس الأمر اليوم .

٣٤٥ - فصل - العزلة عن الخلق سبب طيب العيش ، ولا بد من
مخالطة بمقدار . فدار العدو واستحلّه ، فربما كادك فاهلكك . وأحسن الى
من أساء اليك ، واستعن على أمورك بالكتمان ، ولتكن الناس عندك
معارف . فاما أصدقاء فلا ، لأن أعز الأشياء وجود صديق ، لان الصديق
ينبغي أن يكون في مرتبة مماثل . فان صادقه عامياً لم تنتفع به لسوء أخلاقه
وقلة علمه وأدبه . وان صادقت مماثلاً أو مقارباً حسدك . واذا كان لك يقظة
تلمحت من أفعاله وأقواله ما يدل على حسدك « ولتعرفهم في لحن القول »
واذا أردت تأكيد ذلك فضع عليه من يضمك عنده ، فلا يخرج اليه
بما في قلبه . فان أردت العيش فابعد عن الحسود ، لأنه يرى نعمتك .
فربما أصابها بالعين ، فان اضطردت الى مخالطته فلا تفش اليه سررك ولا تشاوره ،
ولا يفرئك تملقه لك ، ولا ما يظهره من الدين والتعبد ، فان الحسد يغلب
الدين . وقد عرفت أن قابيل أخرجه الحسد الى القتل . وأن إخوة
يوسف باعوه بثمن بخس . وكان أبو عامر الراهب من المتعبدین العقلاء
وعبد الله بن أبي من الرؤساء . أخرجهما حسد رسول الله صلى الله عليه
وسلم الى النفاق وترك الصواب . ولا ينبغي أن تطلب لحاسدك عقوبة

أكثر مما هو فيه ، فانه في أمر عظيم متصل لا يرضيه الا زوال نعمتك .
وكلما أمتدت أمتد عذابه ، فلا عيش له ، وما طاب عيش أهل الجنة
الا حين تزع الحسد والفيل من صدورهم ، ولولا أنه نزع تحاسدوا وتنقص
عيشهم .

٣٤٦ - فصل - من سار مع العقل وخالف طريق الهوى ونظر
الى العواقب أمكنه أن يتمتع من الدنيا أضعاف ما تمتع من استعمال
الشهوات فاما المستعجل فيفوت نفسه حظا الدنيا والذكر الجميل ، ويكون
ذلك سببا لفوات مراده من اللذات . ويبان هذا من وجهين : أحدهما
ان مال الى شهوات النكاح وأكثر منها قل التذاذه وفنيت حرارته وكان
ذلك سببا في عدم مطلوبه منها . ومن استعمل ذلك بمقدار ما يحيزه العقل
ويحتمله كان التذاذه أكثر ، لبعده ما بين الجماعين ، وأمكنه التردد لبقاء
الحرارة . وكذلك من غش في معاملته أو خان ، فانه لا يعامل فيفوته
ربح المعاملة الدائمة خيائته مرة ، ولو عرف بالذقة دامت معاملة الناس له فزاد
ربحه . والثاني أنه من اتقى الله وتشاغل بالعلم أو بتحقيق الزهد ، فتح له من
المباحات ما يلتهذه كثيرا . ومن تقاعده الكسل عن العلم أو الهوى عن تحقيق
الزهد لم يحصل له الا اليسير من مراده . قال عز وجل «وأن لواسة قاموا على
الطريقة لأسقيناهم ماء غدقا» .

٣٤٧ - فصل - ينبغي أن يكون العمل كله لله ومعه ومن أجله .
وقد كفاك كل مخلوق وجلب لك كل خير . وإياك أن تميل عنه بموافقة
هوى وارضاء مخلوق ، فانه يعكس عليك الحال ، ويفوتك المقصود .
وفي الحديث : من أَرْضَى الناس بسخط الله عاد حامده من الناس ذاماً

وأطيب :المعيش عيش من يعيش مع الخالق سبحانه فان قيل كيف يعيش معه قلت بامثال أمره ، واجتناب نهيه ، ومراعاة حدوده ، والرضى بقضائه ، وحسن الأدب في الخلوة ، وكثرة ذكره ، وسلامة القلب من الاعتراض في أقداره ، فان احتجبت سألته ، فان أعطي والارضيت بالمنع ، وعلمت أنه لم يمنع بخلا ، انما نظرا لك . ولا تنقطع عن السؤال لأنك تتعبد به ، ومتى دمت على ذلك رزقك محبته وصدق التوكل عليه ، فصارت المحبة تدلك على المقصود ، وانثرت لك محبته اياك ؛ تعيش عيش الصديقين . ولا خير في عيش ان لم يكن كذا ، فان أكثر الناس مغبطين في عيشه ، يدارى الأسباب ويميل اليها بقلبه ، ويتعب في تحصيل الرزق بحرص زائد على الحد ، ويرغبه الى الخلق ويعترض عند انكسار الاغراض ، والقدر يجري ولا يبالي بسخط ، ولا يحصل له الا ما قدر ، وقد فاته القرب من الحق والمحبة له ، والتأدب معه ، فذلك المعيش عيش البهائم .

٣٤٨ - فصل - نظرت في حكمة المطعم والمشرب والملبس والمنكح ، فرأيت أن الآدمي لما خلق من أصول تتحلل وهي الماء والتراب والنار والهواء ، وبقاؤه انما يكون بالحرارة والرطوبة دائما ، فلم يكن له بد من شيء بخلف ما بطل ، ولما كان اللحم لا ينوب عنه الا اللحم ، اباح ذبح الحيوان ليتقوى به من هو أشرف منه . ولما كان بدنه يحتاج الى كسوة وله قدرة تميز ، وقدرة يصنع بها ما يقيه الأذى من القطن والصوف ، لم يجعل على جلده ما يقيه خلقه ، بخلاف الحيوان البهيم ، فانه لما لم يكن له قدرة على ما ينطى جلده عوضه بالريش والشعر والوبر . ولما لم يكن بد من فناء الآدمي والحيوان هيج شهوة الجماع لتخلف النسل . فمقتضى العقل الذي

حرك على طلب هذه المصالح أن يكون التناول للمطعم والمشرب مقدار الحاجة والمصلحة ، ليقع الالتذاذ بالعافية : ومن البلية طلب الالتذاذ بالمطعم وإن كان غير صالح منه والشره في تناوله ، وكذلك الكسوة والنكاح . ومن الحزم جمع المال وإدخاره لمعارض حاجة من ذلك . ومن التنفيل انفاق الحاصل ، فربما عرضت حاجة فلم يقدر عليها فآثر عدمها في البدن أو في العرض بطلبها من الآن ذال . ومن أقبح الأمور الانهماك في النكاح طلبا لصدرة اللذة ناسيا ما يجنى ذلك من انحلال القوة ويزيد في الحرام بالعقوبة . فمن مال إلى تدبير العقل سلم في دنياه وآخرته . ومن أعرض عن مشاورته أو عن القبول منه تعجل عطبه . فليفهم مقصود الموضوعات وحكمها والمراد منها ، فمن لم يفهم ولم يعمل بمقتضى ما فهم كان كأجهل العوام . وإن كان عالما .

٣٤٩ - فصل - في مخالطة الامراء . العجب ممن له مسكة من عقل أو عنده قليل من دين كيف يؤثر مخالطتهم . فانه بالمخالطة لهم أو العمل معهم يكون قطعا خائفا من عزل أو قتل أو سيم ، ولا يمكنه أن يعمل إلا بمقتضى أوامره . فإن أمروا بما لا يجوز لم يقدر أن يراجع فقد باع دينه قطعا بدنياء فمنعه بالخوف ولم يبق بيده إلا عاجل التعظيم وإن يقال بين يديه بسم الله ، وإن ينفذ أوامره . وذلك بعيد من السلامة في باب الدين وما يلتذ به منه في الدنيا ممزوج بخوف العزل والقتل .

٣٥٠ - فصل - من الغلط العظيم أن يتكلم في حق معزول بما لا يصلح فانه لا يؤمن أن يلي فينتقم . وفي الجملة لا ينبغي أن يظهر العداوة لأحد أصلا ، فقد يرفع المحتقر وقد يتمكن من لا يعد ، بل ينبغي أن يكتم ما في النفوس على الأعداء ، فإن أمكن الانتقام منهم كان العفو انتقاما

لأنه يذلهم . وينبني أن يحسن الى كل أحد ، خصوصاً من يجوز أن يكون له ولاية ، وان يخدم المعزول ، فربما نفع في ولايته . وقد روينا أن رجلاً استأذن على قاضي القضاة ابن أبي داود وقال : قولوا له ابو جعفر بالبواب فلما سمع دهش لذلك وقال : إئذنوا له ، فدخل فقام وتلقاه واكرمه وأعطاه خمسة آلاف وودعه . فقيل له رجل من العوام فعلت به هذا ! قال انى كنت فقيراً ، وكان هذا صديقاً فجثته يوماً فقلت له : أنا جائع فقال اجلس وخرج فجاء بشواء وحلوى وخبز فقال : كل فقلت كل معى قال لا قلت : والله لا آكل حتى تأكل معى فأكل فجعل الدم يجرى من فيه . فقلت ما هذا فقال : مرض ، فقلت والله لا بد أن تخبرنى ، فقال : انك لما جثتني لم أكن املك شيئاً ، وكانت أسناني مضية بشريط من ذهب ، فنزعته واشتريت به . فهل أكافى مثل هذا . وعلى عكس هذه الاشياء كان ابن الزيات وزير الواثق وكان يضع من المتوكل فلما ولى عذبه بأنواع العذاب . وكذلك ابن الجزرى كان لا يوفر المسترشد قبل الولاية فجرت عليه الآفات لما ولى فواله اقل من تأمل المواقب وداعاها ، وصور كلما يجوز أن يقع فعمل بمقتضى الحزم وأبلغ من هذا تصوير وجود الموت عاجلاً ، لانه يجوز أن يأتى بغتة من غير مرض . فالحازم من استعد له وعمل عمل من لا يندم اذا جاءه ، وحذر من الذنوب فانها كعدو مرصد بالجزاء ، وادخر لنفسه صالح الاعمال فانها كصديق صديق ينفع وقت الشدة . وأبلغ من كل شىء ان يعلم المؤمن انه كلما زاد عمله في الفضائل علت مرتبته في الجنة ، وان نقص نقصت ، فهو وان دخل الجنة ما يجد في نقص بالاضافة الى كمال غيره ، غير انه قدرضى به ولا يشعر بذلك . فرحم الله من تلمح المواقب ، وعمل بمقتضى التلمح . والله تعالى الموفق .

٣٥١ - فصل - لما جمعت كتابي المسمي بالمنتظم ، في تاريخ الملوك والامم ، اطلعت على سير الخلق من الملوك والوزراء والعلماء والأدباء والفقهاء والمحدثين والزهاد وغيرهم ، فرأيت الدنيا قد تلاعبت بالأكثرين تلاعبا أذهب أديانهم ، حتى كانوا لا يؤمنون بالعقاب . فمن الامراء من يقتل ويصادر ويقطع ويحبس بغير حق ثم ينخرط في سلك المعاصي كأن الامر اليه ، أو قد جاءه الأمن من العقاب . فربما تخايل أن حفظي الرعايا يرد غنى؟ وينسى أنه قد قيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم « قل اني أخاف ان عصيت ربي عذاب يوم عظيم » وقد انخرط جماعة ممن يتسم بالعلم في سلك المعاصي لتحصيل أغراضهم العاجلة فما نفعمهم العلم . ورأينا خلقا من المتزهدين لنيل أغراضهم . وهذا لان الدنيا فسخ والناس كمصافير ، والله مفرور يريد الحبة وينسى الخلق قد نسي أكثر الخلق ما لهم ميلا الى عاجل لذاتهم ، فاقبلوا يسامرون الهوى ولا يلتفتون الى مشاورة العقل ، فلفد باعوا بلدة يسيرة خيرا كثيرا ، واستبدلوا بشهوات مرذولة عذابا عظيما ، فاذا نزل باحدهم الموت قال : ليتني لم أكن ، ليتني كنت ترابا ، فيقال له الآن ؟ فوالأسف افانت لا يمكن استدراكه ، ولمرتتهن لا يصبح فكاكه ، ولندم لا ينقطع زمانه ، ولمعذب عز عليه امانه بالله . ما نفعت العقول الا لمن يلتفت اليها ويعول عليها ؟ ولا يمكن قبول مشاورها الا بعزيمة الصبر عما يشتهي . فتأمل في الامراء عمر بن الخطاب وابن عبد العزيز رضي الله عنهما ، وفي العلماء أحمد بن حنبل رحمة الله عليه . وفي الزهاد أويس القرني . لقد أعطوا الحد حقه وفهموا مقصود الوجود ، وما هلك الها لكون الا لقالة الصبر عن المشتى ، وربما كان فيهم من لا يؤمن بالبعث والعقاب . وليس العجب من ذلك انما العجب

من مؤمن يوقن ؛ ولا ينفعه يقينه ويمقل العواقب ولا ينفعه عقله .
 ٣٥٢ - فصل - من رزق همة عالية يعذب بمقدار علوها كما قال
 الشاعر :

واذا كانت النفوس كبارا تعبت في مرادها الاجسام
 وقال الآخر :

ولكل جسم في الذحول بلية وبلاء جسمي من تفاوت همتي
 ويان هذا أن من علت هيمته طلب العلوم كلها ولم يقتصر على بعضها
 وطلب من كل علم نهايته ، وهذا لا يحتمله البدن . ثم يرى ان المراد العمل
 فيجتهد في قيام الليل وصيام النهار ، والجمع بين ذلك وبين العلم صعب .
 ثم يرى ترك الدنيا ويحتاج الى مالا بد منه ، ويحب الايثار ولا يقدر على
 البخل ، ويتقاضاه الكرم البذل ، ويمنعه عز النفس عن الكسب ، فان
 هو جرى على طبعه من الكرم ، احتاج وافترق وتأثر بدنه وعائلته ، وان
 أمسك فطبعه يأبى ذلك . وفي الجملة يحتاج الى معاناة وجمع بين اضداد ،
 فهو ابدا في نصب لا ينتضي ، وتعب لا يفرغ . ثم اذا حقق الاخلاص في
 الاعمال زاد تعبهُ وقوى وصَبُّهُ . فإِنْ هو ومن دنت هيمته . ان كان فقيرا
 فسئل عن حديث قال ما أعرفه . وان كان محدثا فسئل عن مسألة فقهية
 قال ما أدري . ولا يبالي إن قيل عنه مقصر . والعالي الهمة يرى التقصير
 في بعض العلوم فضيحة قد كشفت عيبه ، وقد رأت الناس عورته ، والتقصير
 الهمة لا يبالي بمن الناس ولا يستقبح سؤا لهم ولا يأنف من رد ، والعالي
 الهمة لا يحمل ذلك ، ولكن تعب العالي الهمة راحة في المعنى . وراحة القصير
 الهمة تعب وشين ان كان ثم فهم . والدنيا دار سباق الى أعالي المعالي . فينبغي

لدى المهمة أن لا يقصر في شروطه . فإن سبق فهو المقصود . وإن كبا جواده مع اجتهاده لم يَلَمْ .

٣٥٣ - فصل - المصيبة العظمى رضى الانسان عن نفسه واقتناعه بعلمه . وهذه محنة قد عمت أكثر الخلق . فترى اليهودى والنصرانى يرى أنه على الصواب ، ولا يبحث ولا ينظر فى دليل نبوة نبينا صلى الله عليه وسلم ، وإذا سمع ما يابن قلبه مثل القرآن المعجز هرب لئلا يسمع . وكذلك كل ذى هوى يثبت عليه ، إما لانه مذهب أبيه واهله ، أو لانه نظر نظرا أولا فراه صوابا ، ولم ينظر فيما يناقضه ، ولم يباحث العلماء ليبينوا له خطأه ومن هذا حال الخوارج على أمير المؤمنين على رضى الله تعالى عنه . فانهم استحسنوا ما وقع لهم ولم يرجعوا الى من يعلم . ولما لقيهم عبدالله بن عباس رضى الله عنهما فبين لهم خطأهم رجع عن مذهبه منهم الفان ومن لم يرجع عن هواه ابن ماجه ، فرأى مذهبه هو الحق فاستحل قتل أمير المؤمنين رضى الله تعالى عنه ورآه دينا حتى انه لما قطعت أعضاؤه لم يمانع ، فلما طلب لسانه ليقطع انزعج وقال : كيف ابقى ساعة فى الدنيا لا أذكر الله . ومثل هذا ماله دواء ، وكذلك كان الحجاج يقول : والله ما أرجوا الخير الا بعد الموت ، هذا قوله وكم قد قتل من لا يحل قتله ، منهم سميد بن جبير . وقد أخبرنا عبد الوهاب وابن ناصر الحافظ قالا أخبرنا المبارك بن عبد الجبار قال أخبرنا الحسين ابن محمد النصيبى قال أخبرنا اسماعيل بن سميد قال حدثنا أبو بكر بن الانبارى قال حدثنا أبو عيسى الختلى قال حدثنا أبو يعلى قال حدثنا الاصمعى قال حدثنا أبو عاصم عن عباد بن كثير عن قحدم قال : وجد فى سجن الحجاج ثلاثة وثلاثون ألفا ، ما يجب على واحد منهم قطع ولا قتل ولا صلب . قلت وعموم

السلطانين يقتلون ويقطعون ظلما منهم جواز ذلك ، ولو سألوا العلماء
 ينوالهم . وعموم العوام يبارزون بالذنوب اعتمادا على العفو وينسون العقاب .
 ومنهم من يعتمد أنى من أهل السنة ، أو أنى حسنات قد تنفع ، وكل
 هذا لقوة الجهل . فينبغى للانسان أن يبالغ فى معرفة الدليل ولا يساكن
 شبهته ، ولا يثق بعلم نفسه نسأل الله السلامة من جميع الآفات .

٣٥٤ - فصل - ينبغى تأمله . إعلم أن الجزاء بالمرصاد ان كانت
 حسنة أو كانت . سيئة . ومن الاغترار أن يظن المذنب اذا لم ير عقوبة
 أنه قد سوماح وربما جاءت العقوبة بعد مدة . وقل من فعل ذنبا الا وقوبل
 عليه . قال عز وجل « من يعمل سوءا يجز به » هذا آدم عليه السلام أكل
 لقمة فقد عرفتم ما جرى عليه . قال وهب بن منبه : أوحى الله تعالى اليه
 ألم اصطنعتك لنفسى واحللتك دارى ، وأسجدت لك ملائكتى فعصيت
 امرى ونسيت عهدى ، وعزيتى لو ملأت الأرض كلهم مثلك يعبدون
 ويسبحون فى الليل والنهار ثم عصونى لأثراتهم منازل العاصين . فزع جبريل
 التاج عن رأسه . وحل ميكائيل الاكليل عن جبينه ، وجذب
 بناصيته فأهبط . فبكى آدم ثلاث مائة عام على جبل الهند تجرى
 دموعه فى أودية جبالها ، فنبئت بتلك المدامع أشجار طيبكم هذا
 وكذلك داود عليه السلام ، نظر نظرة فأوجبت عتابه وبكاءه الدائم حتى
 نبئت العشب من دموعه . وأما سليمان عليه السلام فان قوما اختصموا ،
 اليه فكان هواهم أحد الخصمين فموجب وتغير فى أعين الناس . وكان
 يقول : اطعمونى فلا يطعم . وأما يعقوب عليه السلام : فانه يقال أنه ذبح
 عجلا بين يدي أمه . فموجب بفراق يوسف . وأما يوسف عليه السلام

فأخذ بالهم . وكل واحد من إخوته ولد له اثنا عشر ولدا ، ونقص هو ولدا لتلك الهممة . وأما أيوب عليه السلام فانه قصر في الانكار على ملك ظالم لاجل خيل كانت في ناحيته فابتلى . وأما يونس عليه السلام فخرج عن قومه بغير إذن فالتقمه الحوت . وأوحى الله عز وجل الى أرميا : ان قومك تركوا الأمر الذي أكرمت به آبائهم ، وعزتي لأهيجن عليهم جنودا لا يرحمون بكاءهم ، فقال : يا رب هم ولد خليلك ابراهيم ، وأمة تصفيك موسى ، وقوم نبيك داود فأوحى الله تعالى اليه : انما أكرمت ابراهيم وموسى وداود بطاعتي ، ولو عصوني لأنزلهن منازل العاصين . ونظر بعض العباد شخصا مستحسنا فقال له شيخه : ما هذا النظر مستجد غيبه ، فنسى القرآن بعد أربعين سنة . وقال آخر قد عبت شخصا قد ذهب بعض أسنانه فانتثرت أسناني . ونظرت الى امرأة لا تحل . فنظر الى زوجتي من الأوريد . وكان بعض العاقين ضرب أباه وسحبه الى مكان ، فقال له الأب : حسبك الى ههنا سحبت أبي . وقال ابن سيرين : عيرت رجلا بالا فلاس فافلست . ومثل هذا كثير . ومن أعجب ما سمعت فيه عن الوزير ابن حصير الملقب بالنظام ان المقتفى غضب عليه وأمر بان يؤخذ منه عشرة آلاف دينار ، فدخل عليه أهله محزونين وقالوا له : من أين لك عشرة آلاف دينار ؟ فقال : ما يؤخذ مني عشرة ولا خمسة ولا أربعة . قالوا من أين لك قال : اني ظلمت رجلا فالزمته ثلاثة آلاف فما يؤخذ مني أكثر منها . فلما أدى ثلاثة آلاف دينار وقع الخلفية باطلاقة ومساعدته في الباقي . وأنا أقول عن نفسي : ما زلت بي آفة أو غم أو ضيق صدر إلا بزلل أعرفه حتى يمكنني أن أقول : هذ بالشئ الفلاني ، وربما تأولت فيه بعد ، فأرى العقوبة . فينبغي للانسان

أن يترقب جزاء الذنوب فقل أن يسلم منه . وليجتهد في التوبة . فقد روى في الحديث ما من شيء أسرع لحاقاً بشيء من حسنة حديثة لذنوب قديم . ومع التوبة يكون خائفاً من المراجعة متوقفاً لها ، فإن الله تعالى قد تاب على الأنبياء عليهم السلام . وفي حديث الشفاعة يقول آدم ذنبي ويقول إبراهيم وموسى ذنبي . فإن قال قائل : قوله تعالى « من يعمل سوءاً يجز به » خبر فهو يقتضي أن لا يجاوز عن مذهب ، وقد عرفنا قبول التوبة والصفح عن الخاطئين . فالجواب من وجهين : أحدهما أن يحمل على من مات مصرّاً ولم يتب ، فإن التوبة تجب ما قبلها . والثاني أنه على إطلاقه . فهو الذي اختاره أنا وأستدل بالنقل والمعنى . أما النقل ، فإنه لما نزلت هذه الآية قال أبو بكر : يا رسول الله أونجأني بكل ما نعمل فقال : أأنت ترض ، أأنت تحزن ، أليس يصيبك اللأواء فذلك ما تجزون به . وأما المعنى فإن المؤمن إذا تاب وندم كان أسفه على ذنبه في كل وقت أقوى من كل عقوبة . فالويل لمن عرف مرارة الجزاء الدائم ، ثم آثر لذة المعصية لحظة .

٣٥٥ - فصل - تفكرت في نفسي يوماً تفكر محقق ، فحاسبها قبل أن تحاسب ، وزنتها قبل أن توزن ، فرأيت اللطف الرباني ، فبدأ الطفولة وإلى الآن أرى لطفاً بعد لطف ، وسترًا على قبيح ، وعفوا عما يوجب عقوبة وما أرى لذلك شكراً إلا باللسان . ولقد تفكرت في خطايا الوعوقبت ببعضها لملك سريعاً ، ولو كشف للناس بعضها لاستحييت . ولا يعتقد معتقد عند سماع هذا أنها من كبائر الذنوب ، حتى يظن في ما يظن في الفساق ، بل هي ذنوب قبيحة في حق مثلي ، وقعت بتأويلات فاسدة . فصرت إذا دعوت أقول : اللهم بحمدك وسترلك على اغفر لي . ثم طالبت نفسي بالشكر

على ذلك فما وجدته كما ينبغي . ثم انا اتقاضى القدر مراداتي ولا اتقاضى نفسى بصبر على مكروه ولا بشكر على نعمة ، فأخذت أنوح على تقصيرى فى شكر المنعم . وكونى أتلذذ بإيراد العلم من غير تحقيق عمل به . وقد كنت أوجو مقامات الكبار ، فذهب العمر وما حصل المقصود . فوجدت أبا الوفاء بن عقيل قد ناح نحو ما نحت فاعجبته نياحته فكتبها ههنا . قال لنفسه : يارعا . تقومين الالفاظ ليقال مُناظر . وثمرة هذا يا مناظر كما يقال للمصارع الغارة ، ضيقت أعز الأشياء وانفسها عند العقلاء ، وهى أيام العمر حتى شاع لك بين من يموت غدا اسم مناظر ، ويُنسى الذاكِر والمذكور إذا درست القلوب . هذا ان تأخر الأمر الى موتك ، بل ربما نشأ شاب أفره منك فهو هو اله و صار الاسم له . والعقلاء عن الله تشاغلو بما اذا انطواوا نشرهم وهو العمل بالعلم والنظر الخالص لنفوسهم . اف لنفسى وقد سطرت عدة مجلدات فى فنون العلوم وما عبق بها فضيلة . ان نوظرت شمخت ، وان نوصحت تعجرفت ، وان لاحت الدنيا طارت اليها طيران الرخم وسقوط الغراب على الجيف ، فليتها أخذت أخذ المضطر من الميتة . توفر فى المخالطة عيوباً تبلى ولا تحتشم نظر الحق اليها . وان انكسر لها غرض تضجرت . فان امتدت بالنعم اشتغلت عن المنعم . اف والله منى اليوم على وجه الارض وغدا تحتها ، والله ان نئن جسدى بعد ثلاث تحت التراب أقل من نئن خلائقى وأنا بين الاصحاب . والله اننى قد ابهرنى حلم هذا الكريم عني كيف سترنى وانا انتهك وبجمعى وأنا اتشتت . وغدا يقال : مات الخبر العالم الصالح . ولو عرفونى حق معرفتى بنفسى مادفنونى . والله لأنادين على نفسى نداء المتكشفين معائب الاعداء ، ولأنوح نوح الثاكِلين للاعداء

اذ لا نأمنح لى ينوح على هذه المصائب المكتومة ، والخلال المغطاة التى قد
سترها من خبرها ، وغطاها من علمها . والله ما أجد لنفسى خلة استحسن
أن أقول متوسلا بها . اللهم اغفر لى كذا بكذا . والله ما التفت قط الا
وجدت منه سبحانه برا يكفينى ووقاية تحمىنى ، مع تساط الاعداء . ولا
عرضت حاجة فمدت يدي الا قضاها . هذا فعله معى وهو رب غنى عني ،
وهذا فعلى وأنا عبد فقير اليه . ولا عذر لى فاقول مادريت أو سهوت .
والله لقد خلقنى خلقا صحيحا سليما ، ونور قلبى بالفطنة ، حتى ان الغائبات
والسكومات تنكشف لفهمى . فواحسرتاه على عمر انقضى فيما لا يطابق
الرضى . واحرماتى لمقامات الرجال الفطناء . يا حسرتى على ما فرطت فى
جنب الله وشماتة العدوى . واخيبة من أحسن الظن بى اذا شهدت الجوراح
على ، واخذلانى عند اقامة الحجة . سخر والله منى الشيطان وانا الفطن . اللهم
توبة خالصة من هذه الاقدار . ونهضة صادقة لتصفية مابقى من الاكدار ،
وقد جئتكم بعد الحسين وانا من خلق المتاع . وابى العلم الا أن يأخذ بيدي
الى معدن الكرم . وليس لى وسيلة الا التأسف والندم فوالله ما عصيتك
جاهلا بمقدار نعمك ، ولا ناسيا لما أسلفت من كرمك فاعفر لى سالف فعلى .

٣٥٦ - فصل - عداوة الاقارب صعبة . وربما دامت كحرب

بكر وتغلب بنى وائل ، وعيس وذبيان ابنى بغيض ، والأوس والخزرج
ابنى قبيلة . قال الجاحظ ركدت هذه الحرب اربعين عاما . والسبب فى هذا
ان كل واحد من الاقارب يكره أن يفوقه قريبه فيقع التحاسد . فينبغى
لمن فضل على أقاربه أن يتواضع لهم . ويرفعهم جهده ، ويرفق بهم لعله يسلم .
قال رجل لرسول الله صلى الله عليه وسلم : لى أقارب أصلهم فيقطعونى

فقال : فكانما تسفهم المل ، ولن يزال معك من الله ظهير مادمت على ذلك .

٣٥٧- فصل - رأيت كلاب الصيد اذا مرت بكلاب المحلة نبحتها وبالغت وأسرعت خلفها ، وكأنها تراها مكرمة مجللة فتحسدها على ذلك . ورأيت كلاب الصيد حينئذ لا تلتفت اليها ولا تعيرها الطرف ولا تعد نباها شيئا ، فرأيت ان كلاب الصيد كأنها ليست من جنس تلك الكلاب ، لان تلك غليظة البدن كثيفة الاعضاء لا أمانة لها . وهذه لطيفة دقيقة الخلقة ومعها آداب قد ناسبت خلقتها اللطيفة . وأنها تحبس الصيد على مالكتها خوفا من عقابه ، أو مراعاة شكر نعمته عليها . فرأيت أن الأدب وحسن العشرة يتبع لطافة البدن وصفاء الروح . وهكذا المؤمن العاقل لا يلتفت الى حاسده ولا يعمده شيئا ، اذ هو في واد وذاك في واد . ذاك يحسده على الدنيا ، وهذا همته الآخرة فيا بعدما بين الواديين .

٣٥٨- فصل - ملاحظته من أهم الاشياء . ينبغي لمن آمن بالله تعالى أن يسلم له في أفعاله : ويعلم أنه حكيم ومالك ، وانه لا يغيب . فان خفيت عليه حكمة فعله نسب الجهل الى نفسه ، وسلم للحكيم المالك . فاذا طالبه العقل بحكمة الفعل قال : ما بانتي لي ، فيجب على تسليم الامر لمالكه . وان اقواما نظروا بمجرد العقل الى كثير من أفعال الحق سبحانه فرأوها لو صدرت من مخلوق نسب فيها الى ضد الحكمة ، فنسبوا الخالق الى ذلك . وهذا الكفر المحض . والجنون البارد . والواجب نسبة الجهل الى النفوس . فان العقول قاصرة عن مطالعة حكمته . وأول من فعل ذلك ابليس فانه قد رآه قد فضل طينا على نار ، والعقل يرى النار أفضل فعاب حكمته ، وعمت هذه المحنة خلقا ممن ينسب الى العلم وكثير من العوام

فكم قد رأينا عالما يتعرض وعاميا يرد في كفر . وهذه محنة قد شملت
أكثر الخلق ، يرون عالما يضيق عليه وفاسقا وسع عليه . فيقولون هذا
لا يليق بالحكمة . وقد علم العلماء أن الله تعالى قد فرض الزكوات والخراج
والجزية والغنائم والكفارات ليستغنى بها الفقراء ، فاختص بذلك الظلمة ،
وصانع من تجب عليه الزكاة باخراج بعضها ، فجاء الفقير . فينبني أن
نذم هؤلاء الظلمة ولا نعترض على من قدر الكفاية للفقراء . وقد حصل
في ضمن هذا عقوبة الظالمين من حبسهم الحقوق ، وابتلاء الفقراء بصبرهم
عن حظوظهم . وأكثر هؤلاء المعترضين لا يكادون يسلمون وقت خروج
الروح من اعتراض يخرج الى الكفر فتخرج النفس كافرة . فكم عامي
يقول : فلان قد ابتلى وما يستحق . ومعناه أنه قد فعل به ما لا يليق بالصواب
وقد قال بعض الخلقاء :

أيارب تخلق أفمار ليل واغصان بان وكشبان رمل
وتنهي عبادك أن يعشقوا أيأحكم العدل ذا حكم عدل

ومثل هذا يندشه جماعة من العلماء ويستحسنونه ، وهو كفر محض . وما فهم
هؤلاء الثلاثة القائلين لهذا ، لانه مانهى عن العشق وإنما نهى عن العمل
بمقتضى العشق من الأشياء المحرمة كالنظر واللمس والفعل القبيح ، وفي
الامتناع عن المشتبه دليل على وجود الناهي كصبر العطشان في رمضان
عن الماء . فانه دليل على الايمان بوجود من أمر بالصوم . وتسليم النفوس
إلى القتل والجهاد دليل على اليقين بالجزاء . ثم المستحسن انموذج ما قد أعد
فأين العقل المتأمل كلا . لو تأمل وصبر قليلا لربح كثيرا . ولو ذهبت
اذكر ما قد عرفت من اعتراض العلماء والعوام لطال . ومن أحسن الناس

حالا في ذلك ، ما يحكى عن ابن الراوندى أنه جاع يوما واشتد جوعه
فجلس على الجسر وقد أمضه الجوع ، فمرت خيل مزينة بالحرير والديباج ،
فقالوا : لعلى بن بلتق غلام الخليفة . فمرت جوارم مستحسنيات فقال : لمن هذه
فقالوا : لعلى بن بلتق . فمر به رجل فرآه وعليه أثر الضر فرمى إليه رغيفين
فأخذهما ورمى بهما ، وقال هذه لعلى بن بلتق . ونسى الجاهل الاحق
ما يقول ويعترض ويفعل ^(١) قبل هذه المجاعة . فيا معترضين وهم في غاية النقص
على من لا عيب في فعله . انتم في البداية من ماء وطين ، وفي الثانى من ماء
مهبين ، ثم تحملوا الانجاس على الدوام . ولوحس عنكم الهوى لصرتم جيفا .
ولو أليق ^(٢) منكم أهلككم . وكم من رأى يراه حازمكم فاذا عرضه على
غيره تبيّن له قبح رأيه . ثم المعاصى منكم زائدة في الحد . فما فيكم إلا الاعتراض
على المالك الحكيم . ولو لم يكن في هذه البلاوى إلا أن يراد التسليم .
ولو أنه انشأ الخلق ليدلوا على وجوده ثم أهلكهم ولم يُعِدْهم كان ذلك له ،
لأنه مالك ، لكنه بفضله وعد بالاعادة والجزاء والبقاء الدائم في النعيم . فمتى
ما جرى أمر لا تعرف علته فأنسب ذلك الى قصور علمك . وقد ترى مقتولا
ظلما وكم قد قتل وظلم حتى قوبل ببعضه وقل أن يجرى لأحد آفة الا ويستحقها
غير أن تلك الآفات المجازى بها غائبة عنا ورأينا الجزاء . فسلم تسلم واحذر
كلمة اعتراض أو اضمار ، فربما أخرجتك من دائرة الاسلام .

٣٥٩ - فصل - رأيت الناس يوم العيد فشبهت الحال بالقيامة . فانهم

لما انتبهوا من نومهم خرجوا الى عيدهم كخروج الموتى من قبورهم الى حشرهم ،
فمنهم من زينته الغاية ومركبه النهاية ، ومنهم المتوسط . ومنهم الرذول ،

(١) بياض بالأصل (٢) كذلك ايضاً

وعلى هذا أحوال الناس يوم القيامة . قال تعالى « يوم نحشر المتقين الى الرحمن وفدا » أى ركبانا « ونسوق المجرمين الى جهنم وردا » أى عطاشا . وقال عليه الصلاة والسلام : يحشرون ركبانا ومشاة وعلى وجوههم . ومن الناس من يداس فى زحمة العيد . وكذلك الظلمة يطأهم الناس بأقدامهم فى القيامة . ومن الناس يوم العيد الغنى المتصدق . كذلك يوم القيامة أهل المعروف فى الدنيا هم أهل المعروف فى الآخرة . ومنهم الفقير السائل فقد يعطى : أعددت شفاعتى لأهل الكبائر . ومنهم من لا يعطف عليه « فما لنا من شافعين ولا صديق حميم » والأعلام منشورة فى العيد . كذلك أعلام المتقين فى القيامة . والبوق يضرب . كذلك يخبر بحال العبد فيقال : يا أهل الموقف ان فلانا قد سمد سعادة لاشقاوة بعدها ، وان فلانا قد شقي شقاوة لاسعادة بعدها ، ثم يرجعون من العيد بالخواص الى باب الحجره يخبرون بامثال الأوامر « اولئك المقربون » . فيخرج التوقيع اليهم « وكان سعيهم مشكورا » ومن هو دونهم يختلف حاله . فمنهم من يرجع الى بيت عامر « بما أسلفتم فى الأيام الخالية » ومنهم متوسط . ومنهم من يعود الى بيت قفر « فاعتبروا يا أولى الالباب »

٣٦٠ - فصل - يتضمن نصيحة للعلماء والزهاد : يا قوم قد علمتم : أن الأعمال بالنيات . وقد فهمتم قوله تعالى « ألا لله الدين الخالص » وقد سمعتم عن السلف انهم كانوا لا يعملون ولا يقولون حتى تتقدم النية وتصح . أيذهب زمانكم يافقهاء فى الجدل والصياح : وترتفع أصواتكم عند اجتماع العوام تقصدون المغالبة : أو ما سمعتم . من طلب العلم ليباهى به العلماء ، أو ليمارى به السفهاء ، أو ليصرف به وجوه الناس اليه ، لم يرح راحة

الجنة ! ثم يقدم أحدهم على الفتوى وليس من أهلها . وقد كان السلف يتدافعونها . وبالعشر المتزهدين انه يعلم السر وأخفى أتظهرون الفقر في لباسكم وأنتم تستوفون شهوات النفوس : وتظهرون التواضع والبكاء في الجلوات دون الخلوات . كان ابن سيرين يضحك ويقهقه فإذا خلا بكى أكثر الليل . وقال سفيان لصاحبه : ما أوقفك تصلي والناس يرونك : أفدى ظباء فلاة ما عرفن بها مضغ الكلام ولا صبغ الحواجيب آه للمرائي من يوم « وحصل ما في الصدور » وهي النيات . فأففقوا من سكرهم . وتوبوا من زللكم . واستقيموا على الجادة « ان تقول نفس يا حسرتا على ما فرطت في جنب الله »

٣٦١ - فصل - رأيت جمهور الناس حائدين عن الشريعة جائزين على ما ألفوا من العادة . وقد يخلص منهم فريقان علماء وعباد فتأملت جمهور العلماء فرأيتهم في تخليط ، منهم من يقتصر على علم معاملات الدنيا ويعرض عن معاملات الآخرة ، إما لجهله بها ، أو لثقل أمرها عليه ، فهو يجري على ما يثقل عليه مما يوجب العلم ، ويتبع في الباقي العادات . وربما تخيل انه يسامح في الخطايا لكونه طالما ، وقد نسي ان العلم حجة عليه . ومنهم من هو واقف مع صورة العلم ، غافل عن المقصود بالعلم . وفيهم من يخالط السلطان ، فيتآذى المخالط بما يرى من الذنوب والظلم ولا يمكنه الانكار ، وربما مدح . ويتآذى السلطان فيقول : لولا اني على صواب ما جالسنى هذا . ويتآذى العوام فيقولون : لولا ان أمر السلطان قريب ما خالطه هذا العالم . ورأيت الأشراف يثقون بشفاعة آبائهم وينسون ان اليهود من بني اسرائيل . وأما الفريق الثاني وهم العباد فرأيت أكثرهم

في تخطيط . أما الصحيحو القصد منهم فعلى غير الجادة في أكثر عملهم ،
قد وضع لهم جماعة من المتقدمين كتباً فيها دفاين قبيحة ، وأحاديث غير صحيحة ،
ويأمرون فيها بأشياء تخالف الشريعة ، مثل كتب الحرث المحاسبى ، وأبي
عبد الله الترمذى ، وقوت القلوب لأبى طالب المكي ، وكتاب الأحياء
لابى حامد الطوسى ، فإذا فتح المبتدى عينه وهم بسلوك الطريق بهذه
الكتب فحملته الى الخطايا ، لأنهم قد بنوا على أحاديث محالة ويذمون
الدنيا ولا يدرون ما المذموم منها ، فيتصور المبتدى ذم ذات الدنيا ، فيهرب
للمنقطع الى الجبل ، وربما فاته الجماعة والجمعة ، ويقتصر على البلوط والكمثرى
فيورثه القوانج . ويقنع بعضهم بشرب اللبن فينحل الطبع ، أو يأكل الباقلاء
والعدس فيحدث له قراقر . وإنما ينبغى لقاصد الحج أن يرفق أولاً بالنافعة
ليصل . ألا ترى للفظن من الأتراك يهتم بفرسه قبل تحصيل قوت نفسه .
وربما تصدى القاص لشرح احوال قوم من السلف والمتزهدين فيتبعهم
المريد فيتأذى بذلك ومتى رددنا ذلك المنقول وبيننا خطأ فاعله قال الجهال :
أترد على الزهاد . وإنما ينبغى اتباع الصواب ولا ينظر الى أسماء المعظمين
فى النفوس . فانا نقول : قال أبو حنيفة ثم يخالفه الشافعى ، وإنما ينبغى أن
يتبع الدليل . قال المروزى : مدح أحمد بن حنبل النكاح فقلت له قد قال :
ابراهيم بن أدهم فصاح وقال : وقفنا فى بنيات الطريق ، عايك بما كان عليه
رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه . وتكلم أحمد فى الحرث المحاسبى
ورد على سري السقطى حين قال : لما خلق الله الحروف وقف الالف وسجدت
الياء . فقال : نفرّوا الناس عنه . فالحق لا ينبغى أن يحاسب ، فإنه يجد واني أرى
أكثر الناس قد حادوا عن الشريعة ، وصار كلام المتزهدين كأنه شريعة

لهم ، فيقال : قال أبو طالب المكي : كان من السلف من يزن قوته بكربة
فينقص كل يوم ، وهذا شيء ماعرفه رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا أصحابه
وانما كانوا يأكلون دون الشيع . فاما الحمل على النفس بالجوع فممنه عنه .
ويقول قال داود الطائي لسفيان : اذا كنت تشرب الماء البارد منى تحب
الموت ، وكان ماؤه في دن . وما علم أن للنفس حظا ، وان شرب الماء الحار
يرهل المعدة ويؤذى ، وان رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يبرد الماء
ويقول آخر منهم : منذ خمسين سنة اشتهى الشوا ما صفالى درهمه . ويقول
آخر : اشتهى أن أغرس جزرة في دبس فما صح لى . أترام ارادوا حبة منذ
خرجت من المعدن ما دخلت في شبهة ؛ هذا شيء ما نظر فيه رسول الله صلى
الله عليه وسلم وان كان الورع حسنا ولكن لا على حمل المشاق الشديدة . وهذا
بشر الحافى يقول . لا أحدث لاني اشتهى ان أحدث . وهذا تعليل لا يصلح ،
لان الانسان مأمور بالنكاح ، وهو من أكبر المشتهى . وكان بشر حافيا
حتى قيل له الحافى ، ولو ستر أمره بنعلين كان أصالح ، والحفا يؤذى العين ،
وليس من امر الدنيا في شيء . فقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم نعلان
وما كانت سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم واصحابه على ما التزهدون
عليه اليوم . فقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يضحك ويمزح ويختار
المستحسنات ويسابق عايشة رضى الله عنها . وكان يأكل اللحم ، ويجب
الحلوى ، ويستعذب له الماء . وعلى هذا كان طريقة أصحابه . فأظهر التزهدون
طرائق كانها ابتداء شريعة ، وكأها على غير الجادة . ويحتجون بقول المحاسبي
والمكي ، ولا يحتج أحد منهم بصحابي ولا تابعي ولا بإمام من أئمة الاسلام
فان رأوا عالما لبث ثوبا جميلا أو تزوج مستحسنة أو أفطر بالنهار أو ضحك

عابوه . فينبغي أن يعلم أن أكثر من صح قصده منهم على غير الجادة لقلة علمهم ، حتى أن بعضهم يقول : منذ ثمانين سنة ما اضطجعت . ويقول آخر : حلفت لا أشرب الماء سنة ، وهؤلاء على غير الصواب ، فإن للنفس حقاً ، فأما من ساء قصده ممن نافق ورا آ لا اجتلاب الدنيا وتقبييل الأيدي فلا كلام معه ، وهم جمهور المتصوفة ، فأنهم رفعوا الثياب الملونة ليراهم الناس بعين الترك للزينة ، وما معهم أحسن من السفلاطون . وإنما رقع القدماء للفقر . فهم في اللذات وجمع المال وأخذ الشبهات ولستعمال الراحة واللعب ومخالطة السلاطين . وهؤلاء قد كشفوا القناع وباينوا زهداً وأوائلهم ، بلى . أعجب منهم من ينفق عليه .

٣٩٢ - فصل - ان الله عز وجل جعل أحوال الآدمي أمثلة ليعتبر بها . فمن أمثلة أحواله القمر الذي يبتدىء صغيراً ثم يتكامل بدراً ، ثم يتناقص بانحسار . وقد يطرأ عليه ما يفسده كالكسوف . فكذلك الآدمي أوله نطفة ، ثم يترقى من الفساد الى الصلاح . فإذا تم كان بمنزلة البدر الكامل ثم تتناقص أحواله بالضعف فربما هجم الموت قبل ذلك هجوم الكسوف على القمر . قال الشاعر :

والمرء مثل هلال عند طلعه يبدو ضئيلاً لطيفاً ثم يتسق
يزداد حتى إذا ماتم أعقبه كرا الجديد نقصاً ثم ينمحق
ومن أمثلة حاله ، دود القز فإنه يكون حياً الى أن يبتدىء نبات قوته وهو ورق الفرصاد ، فإذا اخضر الورق دبب الروح فيه ثم ينتقل من حال الى حال كانتقال الطفل . ثم يرقد كمنغلة الآدمي عن النظر في العواقب ثم ينتبه فيحرص على الأكل كحرص الشره على تحصيل الدنيا ثم يسدى

على نفسه كما يحطب آدمي الاوزار على دينه ، فيرتهن في ذلك الحبس
كما يرتهن الميت في قبره . ثم يقرض فيخرج خلقا آخر كما تنشر الموتى غرلا
بهمما وقد دله على البعث تكون النطفة كاليت . ثم تصير آدميا والقاء الحب
تحت الارض فيفسد ثم يهتز خضرا .

اذا المرء كانت له فكرة ففي كل شيء له عبرة

٣٦٣ - فصل - انما فضل العقل بتأمل العواقب . فاما القليل العقل
فانه يرى الحال الحاضرة ، ولا ينظر الى عاقبتها ، فان اللص يرى أخذ المال
وينسى قطع اليد . والبطال يرى لذة الراحة وينسى ما يجنى من فوات العلم
وكسب المال فاذا كبر فسئل عن علم لم يدر ، واذا احتاج سأل فذل ، فقد
أربا ما حصل له من التأسف على لذة البطالة . ثم يفوته ثواب الآخرة
بترك العمل في الدنيا . وكذلك شارب الخمر ، يلتذ تلك الساعة وينسى
ما يجنى من الآفات في الدنيا والآخرة . وكذلك الزنا ، فان الانسان يرى
قضاء الشهوة ، وينسى ما يجنى منه فضيحة الدنيا والحد ، وربما كان للمرأة
زوج فالحقت الحمل من هذا به وتسلسل الأمر فقس على هذه النبذة
وانتبه للعواقب ، ولا تؤثر لذة تقوّت خيرا كثيرا ، وصابر مشقة تحصل
ربحا وافرا .

٣٦٤ - فصل - ليس في الدنيا عيش الا لعالم أو زاهد . بلى ، قد يقع
في صفا حالهما كدر . وهو أن العالم يشتغل بالعلم أو بالانقطاع عن الكسب ،
وقد يكون له عائلة ، وربما تعرض بالسلطان ففسد حاله . وكذلك الزاهد
فينبئ للعالم والمعابد أن يحركا في معاش كنسج بأجرة أو عمل الخوص
أو إن فتح له شيء واقتنع باليسير ، فلا يستعبده أحد . كما كان أحمد بن

حنبل له اجرة لعلها لا تبلغ ديناراً يتقوت بها . ومتى لم يقنع أفسدت مخالطة السلاطين والعوام دينه . وفي الناس من يريد التوسع في المطاعم . ومنهم من لا يوافق خشن العيش . وهيهات أن يصح الدين مع تحصيل اللذات . وإذا قنع العالم والزاهد بما يكفى ، لم يتبذل للسلطان ولم يستخدم بالتردد الى بابه . ولم يحتاج الزاهد الى تصنع ، والعيش اللذيذ للمنقطع الذى لا يتبذل به ولا يحمل منه .

٣٦٥- فصل - ما أكثر تفاوت الناس في الفهوم ، حتى العلماء يتفاوتون التفاوت الكثير في الاصول والفروع . فترى أقوماً يسمعون أخبار الصفات فيحملونها على ما يقتضيه الحسن كقول قائلهم : ينزل بذاته الى السماء وينتقل . وهذا فهم ردىء ، لان المنتقل يكون من مكان الى مكان ويوجب ذلك كون المكان أكثر منه ويلزم منه الحركة وكل ذلك محال على الحق عز وجل . وأما في الفروع فكما يروى عن داود أنه قال في قوله : لا يبولن أحدكم في الماء الدائم ثم يتوضأ منه . فقال : ان بال غيره . جاز فما يفهم المراد من التنجيس بل يأخذ بمجرد اللفظ وكذلك يقول : لحم الخنزير حرام لا جلده نعوذ بالله من سوء الفهم وكذلك يتفاوت الشعراء الذين شغلهم التفطن لدقائق الاحوال كقول قائلهم :

لنا الجففات الفر يلمن بالضحي واسياقنا في الحرب يقطرن من دما والجففات عدد يسير فلو قال الجفان لكان أبلغ . ولو قال بالدجى لكان أحسن . ويقطرن دليل على القلة وكذلك قول القائل :

ههنا العطر والفراس يعملو هالجرين منظوم ولؤلؤ
وهذا قاصر ، فانه لو فعلت هذا سوداء لحسنها . إنما المادح هو القائل :

ألم ترأني كلما جئت طارقا وجدت بها طيبا وإن لم تطيب
وكذا قول القائل:

أدعو الى هجرها قلبي فينبغي حتى اذا قلت هذا صادقا نزعا
ولو كان صادقا في المحبة لما كان له قلب يخاطبه . واذا خاطبه في الهجر
لم يوافقه . انما المحب الصادق هو القائل :

يقولون او عاتبت قلبك لارعوى فقلت وهل للعاشقين قلوب
ومثل هذا اذا نوقش كثير . فاقول موجود في الناس الفهم والنوص على
دقائق المعاني .

٢٦٦ - فصل - من تأمل الدنيا علم أنه ليس فيها لذة أصلا ، فان
وجدت لذة شبيت بالنقص التي تزيد على اللذة اضعافا . فمن اللذات النساء .
فربما تثبت المستحسنة ، وربما لم تحب الزوج ، فتي علم ذلك تعزل عنها ،
وربما خانت ، وذلك الهلاك . فان تمت المرادات فذكر الفراق زائد في التألم
على الالتذاذ . ومن اللذات الولد ومقاسات البنت إلى أن تزوج ، وماتلق
من زوجها وخوف عارها محن فيسحق . والابن ان مرض ذاب الفؤاد ،
وإن خرج عن حد الصلاح زاد الاسف ، وإن كان عدوا فراده هلاك
الأب ، ثم إن تم المراد فذكر فراقه يذيب القلوب . ولو أن فاسقا أحب
بعض المرد انتهك عرضه في الدنيا وذهب دينه ، ثم لا يلبث أن تتغير حليته
فيصير مبغوضا مع ما سبق من الهتك والاثم . وكما قد غلبت شهوة رجل
وطي الجوارى السود فجاء الولد أسود فبقى عارا عليه . ومن هذا الجنس
الالتذاذ بالمال ، وفي تحصيله آثام ، وفراقه حسرة ، وذهاب العمر فيه غيبنة .
وهذا النموذج لما لم يذكر فينبغي لمن وفقه الله سبحانه أن يأخذ الضروري

الذى يعيل إلى سلامة الدين والبدن والعاقبة، ويهجر الهوى الذى نُغَصُّهُ
تتضاعف على لذته، ومن صبر على ما يكره قصد النفع فى العاقبة التضاعفاً،
كطالب العلم فانه يتعب يسيراً وينال خير الدارين مع سلامة العاقبة. ولذة
البطالة تعقب عدم العلم والعمل فيزيد الأسى على اللذة أضعافاً. قاله الله
أن يغلبك هوالك العاجل. ومتى هم الهوى بالتوئب فامنعهم وزن عاجله بأجله.
وما يتذكر إلا أولو الالباب.

٣٦٧- فصل - رأيت ابليس قد احتال بفنون الحيل. على الخلق
ومال أكثرهم عن العلم الذى هو مصباح السالك، فتركهم يتخبطون فى
ظلمات الجهل، وشغلهم بأمور الحسن، ولا يلتفتون إلى مشورة العقل.
فاذا ضاق بأحدهم عيشه أونكب اعترض فكفر. فمنهم من ينسب ذلك
الى الدهر. ومنهم من يسب الدنيا. وهذا تسقيف لان الدهر والدنيا
لا يفعلان وانما هو عيب للمقدر. ومنهم من يخرجهم الأمر الى حجب الحكمة،
فيقول أى فائدة فى نقض المبنى. وزعم بعضهم أنه لا يتصور عود المنقوض،
وانكروا البعث. ويقولون ما جاء من ثم أحد. ونسوا أن الوجود ما انتهى
بعد ولو حلفت لصار الايمان بالغيب عياناً، ولا يصلح أن يدل على الاحياء
بالأحياء، ثم نظر ابليس فرأى فى المسلمين قوماً فيهم فطنة فأراهم أن الوقوف
على ظواهر الشريعة حالة يشاركون فيها العوام. فحسن لهم علوم الكلام
وصاروا يحتجون بقول بقراط وجالينوس وفيثاغورس، وهؤلاء ليسوا
بمشرعين ولا تبعوا نبينا صلى الله عليه وسلم. إنما قالوا بمقتضى ماسولت
لهم أنفسهم. وقد كان السلف إذا نشأ لأحدهم ولد شغلوه بحفظ القرآن
وسماع الحديث، فثبت الايمان فى قلبه. فقد توانى الناس عن هذا فصار

الولد الفطن يتشاغل بعلوم الأوائل وينبذ أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم . ويقول أخبار آحاد . وأصحاب الحديث عندهم يسمون حشوية . ويعتقد هؤلاء أن العلم الدقيق علم الظفرة والهيولى والجزء الذى لا يتجزأ ، ثم يتصاعدون إلى الكلام فى صفات الخالق ، فيدفعون ماصح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بواقعاتهم ، فيقول المعتزلة إن الله لا يرى لأن المرئى يكون فى جهة ، ويخالفون قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : انكم ترون ربكم كما ترون القمر لانضمامون فى رؤيته . فأوجب هذا الحديث إثارة رؤيته وإن عجزنا عن فهم كيفيتها . وقد عزل هؤلاء الاغبياء عن التشاغل بالقرآن ، وقالوا مخلوق ، فزالت حرمة من القلوب . وعن السنة وقالوا أخبار آحاد . وانما مذاهبهم السرقة من بقرات وجالينوس . وقد استفاد من تبع الفلاسفة انه يرفه نفسه عن تعب الصلاة والصوم ، وقد كان كبار العلماء يذمون علم الكلام ، حتى قال الشافعى : حكى فيهم أن يركبوا على البال ويشهروا ويقال : هذا جزاء من ترك الكتاب والسنة واشتغل بالكلام . وقد آل بهم الأمر الى ان اعتقدوا أن من لم يعرف تحرير دليل التوحيد فليس بمسلم . فالله الله من مخالطة المبتدعة . وعليكم بالكتاب والسنة ترشدوا .

٣٦٨ - فصل - رأيت العادات قد غلبت الناس فى تضييع الزمان وكان القدماء يحذرون من ذلك . قال الفضيل : أعرف من بعد كلامه من الجمعة إلى الجمعة . ودخلوا على رجل من السلف فقالوا لعلنا أشغلناك فقال : أصدقكم كنت أقرأ فتركت القراءة لأجلكم . وجاء رجل من المتعبدین الى سرى السقطى فرأى عنده جماعة فقال : صرت مناخ البطالين ، ثم مضى

ولم يجلس. ومتى لأن المزور طمع فيه الزائر، فأطال الجلوس فلم يسلم من أذى. وقد كان جماعة قعودا عند معروف فأطالوا فقال : ان ملك الشمس لا يفتر في سوقها أفاتريدون القيام. وممن كان يحفظ اللحظات عامر بن عبد قيس . قال له رجل قف أكلفك ، قال : فأمسك الشمس . وقيل لسكر بن وبرة : لو خرجت الى الصحرا ، فقال : يبطل الزوجار. وكان داود الطائى يستف الفتيات ويقول : بين سف الفتيات وأكل الخبز قراءة خمسين آية . وكان عثمان الباقلوى دائم الذكر لله تعالى ، فقال انى وقت الافطار أحس بروحى كأنها تخرج لأجل اشتغالى بالأكل عن الذكر . وأوصى بعض السلف أصحابه فقال : اذا خرجتم من عندى فتفرقوا لعل أحدكم يقرأ القرآن فى طريقه . ومتى اجتمعتم تحدثتم . واعلم أن الزمان أشرف من أن يضيع منه لحظة ، فان فى الصحيح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : من قال سبعان الله العظيم وبحمده غرست له بها نخلة فى الجنة . فكم يضيع الآدمى من ساعات يفوته فيها الثواب الجزيل . وهذه الايام مثل المزرعة ، فكأنه قيل للانسان . كلما بذرت حبة أخرجنا لك الف كر ، فهل يجوز للعاقل ان يتوقف فى البذر ويتوانى . والذى يعين على اغتنام الزمان الانفراد والعزلة مهما امكن ، والاختصار على السلام او حاجة مهمة لمن يلقى وقلة الأكل ، فان كثرت سبب النوم الطويل وضياح الليل . ومن نظار فى سير السلف وآمن بالجزاء بان له ما ذكرته .

٣٦٩ - فصل - فى معاشرۃ النساء . ينبغى للعاقل ان يتخير امرأة

صالحة من بيت صالح يغلب عليه الفقر ل ترى ما ياتىها به كثيرا وليتزوج من يقاربها فى السن . فاما الشيخ فانه اذا تزوج صببية اذاها ، وربما فحرت أو قتلتها

او طلبت الطلاق وهو يحبها فيتأذى . وليتم تقصه بحسن الاخلاق وكثرة النفقة . ولا ينبغي للمرأة ان تقرب من زوجها كثيرا فتمل ، ولا تبعده عنه فينساها . ولتكن وقت قربها اليه كاملة النظافة متحسنة ، ولتحذر ان يرى فرجها او جسمها كله فان جسم الانسان ليس بمستحسن . وكذلك ينبغي ان لا يريها جسمه وانما الجماع في الفراش . ورأى كسرى يوما كيف يسلمخ الحيوان ويطبخ فتقلبت نفسه ونقى اللحم . فذكر ذلك لوزيره . فقال : أيها الملك ، الطبخ على المائدة . والمرأة في الفراش . ومعناه لا تفتش على ذلك . قالت عائشة رضي الله عنها : ما رأيت من رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا رآه مني ، وقام ليلة عريانا فما رأيت جسمه قبلها . وهذا الحزم ، وكذلك يعيب الرجل المرأة لانه لم يري عيوبها . وليكن للمرأة فراش وله فراش . فلا يجتمعان الا في حال الكمال . ومن الناس من يستهين بهذه الاشياء فيرى المرأة متبذلة تقول هذا أبو أولادي : ويتبذل هو فيرى كل واحد من الآخر مالا يشتهي فينفر القلب وتبقى المعاشرة بغير المحبة . وهذا فصل ينبغي تأمله والعمل به فانه أصل عظيم .

٢٧٠ - فصل - لا عيش في الدنيا الا للقنوع باليسير ، فانه كلما زاد الحرص على فضول العيش زاد الهم وتشتت القلب ، واستعبد العبد . وأما القنوع فلا يحتاج الى مخالطة من فوقه ولا يبالى بمن هو مثله ، اذ عنده ما عنده . وان أقواما لم يقنعوا وطلبوا الذيد العيش فأزروا بدينهم وذلوا اغيهم . وخصوصا أرباب العلم فانهم ترددوا الى الامراء فاستعبدوهم وراوا المنكرات فلم يقدرُوا على انكارها ، وربما مدحوا الظالم اتقاء لشره . فالذي نالهم من الذل وقلة الدين اضعاف ما نالوا من الدنيا . ومن أقبح الناس حالا

من تعرض للقضاء والشهادة ولقد كانتا صريحتين حسنتين وكان عبد الحميد القاضي لا يحابي . فبعث الى المعتضد ، وقال له : قد استأجرت وقوفاً فأد أجرتها ففعل . وقال له المعتضد : قد مات فلان ولنا عليه مال ، فقال : أنت تذكر لما وليتني قلت لي : قد أخرجت هذا الأمر من عنقي ووضعت في عنقك ولا أقبل هذا الا بشاهدين ، وكذلك كان الشهود . دخل جماعة على بعض الخلفاء فقال الخادم : اشهدوا على مولانا بكذا فشهدوا ، فتقدم المجذوعي الى الستر فقال : يا أمير المؤمنين أشهد عليك بما في هذا الكتاب فقال : اشهد ، قال انه لا يكفي في ذلك ، لا أشهد حتى تقول نعم ، قال نعم : فاماني زماننا فتغيرت تلك القواعد من الكل ، خصوصاً من يتقرب بالمال ليستشهد فتراه يُسحب ليشهد على ما لا يرى قال لي أبو المعالي بن شافع : كنت أحمل الى بعض أهل السواد وهو محبوس وأشهد عليه : وأعلم أنه لو لا انه مكره لجاء الى بقميه . وأنا استغفر الله من ذلك . وليس للشهود جناية فيحملون ذلك لاجلها ، وإنما الذي يحصل جر الطيلسان ، وطرق الباب ، وقول المعروف : حرس الله نعمتك شهادة . ولما قيل لابراهيم النخعي : تكون قاضياً ، لبس قميصاً أحمر وجلس في السوق . فقالوا هذا لا يصلح . ودخل بعض الكبار على الرشيد وقد أحضره ليوليه القضاء فسلم وقال له : كيف أنت وكيف الصبيان فقيل هذا مجنون . فيا الله جنون هو العقل . وما أظن الايمان بالآخرة الا متزلزلاً في أكثر القلوب . نسأل الله سبحانه سلامة للدين فانه قادر .

٣٧١ - فصل - قد تكرر معناه في هذا الكتاب ، إلا أن إعادته على النفوس مهمة لئلا يُغفل عن مثله . ينبغي للمؤمن أن يعلم أن الله سبحانه

مالك حكيم لا يعيبث . وهذا العلم يوجب نفي الاعتراض على القدر . وقد
لهج خلق بالاعتراض قدحافى الحكمة ، وذلك كفر . وأولهم إبليس في
قوله : « خلقتني من نار وخلقته من طين » ومعنى قوله أن تفضيلك الطين
على النار ليس بحكمة . وقد رأيت من كان فقيها دأبه الاعتراض ، وهذا
لأن المعارض ينظر الى صورة الفعل ولو أن صورة الفعل صدرت من مخلوق
مثلنا - حسن أن يعترض عليه . فاما من قصص الافهام عن مطالعة حكمته
فاعترض الناقص الجاهل عليه جنون . فاما اعتراض الخلقاء فدائم ، لأنهم
يريدون جريان الأمور على أغراضهم ، فمضى انكسر لأحدهم غرض
اعترض . وفيهم من يتعمد الى ذكر الموت فيقول : بئى ونقض وكان لنا
رفيق قرأ القرآن والقرآت وسمع الحديث الكثير ثم وقع في الذنوب وعاش
أكثر من سبعين سنة فلما نزل به الموت ذكرى أنه قال : قد ضاقت الدنيا
إلا من روى . ومن هذا الجنس سمعت شخصا يقول عند الموت : ربى يظلمنى ،
وهذا كثير . ويكره أن يحكى كلام الخلقاء في جنونهم واعتراضاتهم
الباردة . ولو فهموا أن الدنيا ميدان مسابقة ومارستان صبر ليبين بذلك أثر
الخالق لما اعترضوا . والذي طلبوه من السلامة وبلوغ الأغراض أمامهم
لو فهموا فهم كالزورجارى يتلوث بالطين فاذا فرغ لبس ثياب النظافة . ولما
أريد نقض هذا البدن الذى لا يصلح للبقاء نحييت عنه النفس الشريفة ثم بُنى
بناء يقبل الدوام . وبعد هذا فقل للمعارض : « فليمدد بسبب الى السماء ثم
ليقطع فلينظر هل يذهبن كيده ما يغيظ » قل له إن اعتراض لم يمنع ذلك
جريان القدر وإن سلم جرى القدر ، فلأن يجرى وهو مأجور خير من
أن يجرى وهو مأزور . وما أحسن سكوت وضاح الهمن لما اختبا في صندوق

فقال السلطان : أيها الصندوق ان كان فيك ما نظن فقد محونا أثرك ، وان لم يكن فلايس بدفن خشب من جناح ، فلو أنه صاح ما انتفع بشيء ، ولربما أخرج فقتل أقبح قتلة .

٣٧٢ - فصل - من تلمح أحوال الدنيا علم أن مراد الحق سبحانه اجتنابها . فن مال الى مباحها ليلتمزج مع كل فرحة ترحه ، والى جانب كل راحة تعب . وآخر كل لذة نقصا يزيد عليها . وما رفع شيء من الدنيا إلا ووضع . أحب الرسول صلى الله عليه وسلم عائشة رضى الله عنها فجاء حديث الافك ، ومال الى زينب ، فجاء : « فلما قضى زيد منها وطرا » ثم يكفى أنه إذا حصل محبوبه فمين العقل ترى فراقه فيتنفص عند وجوده كما قال الشاعر :

أنم الحزن عندى فى سرور تيقن عنه صاحبه اتقلا
فيعلم العاقل أن مراد الحق بهذا التكدير التنفير عن الدنيا ، فيبقى أخذ البالغة منها ضرورة ، وترك الشواغل ، فيجتمع لهم فى خدمة الحق ، ومن عدل عن ذلك ندم على الفوات .

٣٧٣ - فصل - العاقل يدبر بمقله عيشته فى الدنيا ، فان كان فقيرا اجتهد فى كسب وصناعة تكفه عن الذل للخلق . وقلل العلائق واستعمل القناعة فعاش سليما من منن الناس عزيزا بينهم . وان كان غنيا فينبغى له أن يدبر فى نفقته خوف أن يفتقر فيحتاج الى الذل للخلق . ومن البلية أن يبذر فى النفقة ويباهى بها ليكمد الاعداء كأنه يتعرض بذلك إن أكثر لاصابته بالمين . وينبغى التوسط فى الاحوال ، وكتمان ما يصلح كتمانها ، ولقد وجد بعض الفساليين مالا فاكثر النفقة فلم به فأخذ منه المال ، وعاد الى الفقر . وانما التدبير حفظ للمال . والتوسط فى الانفاق .

وكتمان مالا يصلح اظهاره . ومن الغلط اطلاع الزوجة على قدر المال . فانه ان كان قليلا هان عندها الزوج . وان كان كثيرا طلبت زيادة الكسوة والحلى . قال الله عز وجل : «ولا توثقوا السفهاء أموالكم» وكذلك الولد . وكذلك الاسرار ، ينبغي أن تحفظ منها ومن الصديق . فربما انقلب فقد قال الشاعر :

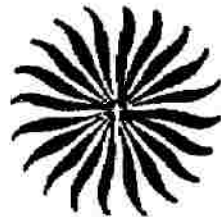
احذر عدوك مرة واحذر صديقك ألف مرة

فلربما انقلب الصديق فكان اعلم بالمضرة

بحمد الله تعالى قد نبجز ما توخاه الفكر الفار من تقييد ما جمعه القلم من صيد الخاطر . مقتصر فيه على ما به التخلي من الامراض النفسية . والتخلي بالآداب الشرعية . والاخلاق المرضية . جعله الله تعالى خيرا هاد على منبر الوعظ والارشاد . وانفع كتاب تجلى في مرايا الظهور لهداية العباد .

والحمد لله أولا وآخرا وصلى الله على سيدنا محمد وعلى

آله وصحبه وسلم



oboeikandi.com

نمرة المصنفه	نمرة الفصل	
١		١ خطبة الكتاب وأسباب التأليف
		قد يعرض عند سماع المواعظ للسامع يقظة عدم دوام اليقظة بعد الموعظة يرجع لسببين أرباب اليقظة يتفاوتون في بقاء الأثر
٢		٢ جواذب الطبع الى الدنيا كثيرة
		جواذب الطبع الى الدنيا أكثر وأقوى من جواذب الآخرة
		٣ من عاين بعين بصيرته تناهى الامور في بدايتها نال خيرها الخ
		مراعاة الحسرات على التفريط تغلب حلاوة اللذات
٣		٤ من تفكر عواقب الدنيا أخذ الحذر
		أعجب المعائب سرورك بفرورك وسهوك في لهوك الخ
		٥ من قارب الفتنة بعدت عنه السلامة الخ
٤		٦ أعظم المعاقبة أن لا يحس المعاقب بالعقوبة الخ
		تدبرت أحوال العلماء والمتزهدين وعقوباتهم
		أول عقوباتهم اعراضهم عن الحق شغلا بالخلق
		من خفي عقوباتهم سلب حلاوة المناجاة ولذة التعبد الخ
		٧ من علامة كمال العقل علو الهمة الخ
		٨ سبحان من سبقت محبته لأحبابه
٥		٩ الواجب على العاقل أخذ العدة لرحيله الخ
		العاقل من أعطى كل لحظة حقها من الواجب عليه الخ

عروة العجيفة	عروة الفصل	نمرة
٥	١٠	خطرت لي فكرة فيما يحرى على كثير من العالم من المصائب الخ
٦	١١	تأملات التحاسد بين العلماء فرأيت منشأه حب الدنيا الخ علماء الآخرة يتواددون ولا يتحاسدون كانوا يتدافعون الفتوى ويحبون الخمول
٧	١٢	من أحب تصفية الأحوال فليجتهد
٨	١٣	تفكرت يوما في التكليف فرأيت أنه ينقسم إلى سهل وصعب من المستصعب النظر والاستدلال الموصولان إلى معرفة الخالق
٩	١٤	ينبغي للإنسان أن يعرف شرف زمانه وقد روقته الخ وقد كان جماعة من السلف يبادرون اللحظات
١٠	١٥	رأيت من أعظم حيل الشيطان ومكره أن يخبط أرباب الأموال بالآمال
١١	١٦	تأملت أحوال الفضلاء فوجدتهم في الأغلب قد بنحسوا من حظوظ الدنيا
١٢	١٧	الدنيا إنما تراد لتعبر لا لتعمر حظوظ الآدمي من مستلذات الدنيا بخوسة بالنسبة للحيوان
١٣	١٨	تأملت إقدام العلماء على شهوات النفس المنهى عنها فرأيتها مرتبة تزاحم الكفر
١٤	١٩	من تأمل أفعال الباري سبحانه وآهه على قانون العدل الخ تأملت أحوال الصوفية والزهاد فوجدت أكثرها منحرفا

الغرفة المحيطة	الغرفة الفصل	
١٤		عن الشريعة الخ أما المطعم فالمراد منه تقوية البدن لخدمة الله عز وجل كان النبي صلى الله عليه وسلم يأكل ما وجد وإنما يكره الأكل فوق الشبع واللبس على وجه الاختيال والبطر ينبغي للإنسان أن يتبع الدليل لا أن يتبع طريقاً ثم يتطلب له الدليل وقد كان يستعذب لرسول الله صلى الله عليه وسلم الماء ما يروى عن جماعة أنهم دفنوا كتبهم منهم يوسف بن أسباط
٢١		٢٠ قد أشكل على الناس أمر النفس وما هيتهما الخ مذهب أهل الحق أن لها وجوداً بعد موتها الخ الصواب أن النفس تخرج بعد الموت إلى نعيم أو عذاب الخ
٢٢		٢١ قلت يوماً في مجلس لو أن الجمال حملت ما حملت لعجزت من ظن أن التكليف سهلة فما عرفها أصعب التكليف فيما لا يعلم العقل معناه كإيلام الأطفال الخ
٢٥		٢٢ تأملت أمر الدنيا والآخرة فوجدت حوادث الدنيا طبيعية وحوادث الآخرة إيمانية عليك بالعزلة والذكر والنظر في العلم الخ
		٢٣ تأملت حرص النفس على ما منعت منه فرأيت حرصها يزيد عن قدر قوة المنع السبب في ذلك راجع إلى أمرين

مرة الصحيحة	مرة النقل	
٢٦	٢٤	لا زالت نفسى تنازعنى بما يوجبه مجلس الوعظ الخ محاورة مقنعة مع ابليس فى الزهد ميل النفس الى التزهد لسبيين
٢٨	٢٥	تأملت المراد من الخلق فاذا هو الذل الخ
	٢٦	تأملت قوله تعالى يحبهم ويحبونه مبحث فى محبة العلم والعمل « فى محبة الله تعالى واسبابها
٣٠	٢٧	تأملت حالة عجيبة الخ مبحث فى أن فعال الخالق حيرت العقول
٣١	٢٨	تأملت فى فوائد النكاح ومعانيه وموضوعه مبحث فى أن النسل خلف عن الأصل فى حكمة وضع الشهوة فى الانسان
		مبحث فى أن وجود الخلل فى المنكوح يوجب اضطرابا فى خروج المني
٣٢		فى أسباب وجود الاضطراب فى أحوال المولود فى حكمة كراهة نكاح الأقارب
	٣٣	مبحث من اراد نجابة الولد وقضاء الوطر فليتخير المنكوح مطلب فى التوراة كل تزويج على غير هدى حسرة وندامة الى يوم القيامة

نمرة الصحيفة	نمرة الفصل	
		مطلب من قدر على امرأة صالحة في الصورة والمعنى فليغض عن عوراتها
٣٥	٢٩	في وصايا مستحسنة لمريد الزواج وتعداد الزوجات كل شيء خلقه الله في الدنيا فهو انموذج ما في الآخرة الخ مبحث في المعاصي وما يترتب عليها والمطاعات وما يترتب عليها
٣٧	٣٠	مطلب قال الحكماء المعصية بعد المعصية عقاب المعصية الخ نظرت في الأدلة على الحق سبحانه وتعالى فوجدتها أكثر من الرمل الخ
		٣١ تأملت الأرض ومن عليها بعين فكري فرأيت خرابها أكثر من عمارها الخ
		نظرة في أنواع الناس وأحوالها
٤٠	٣٢	رأيت ميل النفس إلى الشهوات زائدا في المقدار محاور مع النفس في ميلها إلى الشهوات أحوال المحرمات وما يترتب عليها
٤١	٣٣	خطرت لي خاطر ومجاس قد طاب الخ مبحث في يقظة النفس وقواطعها
٤٣	٣٤	تفكرت فرأيت أن حفظ المال من التمتع الخ مطلب ليس من التوكل الشرعي انفاق ما في اليد وبقاء المنفق كلاً على الناس يزاحم الفقراء والمساكين

- مطلب رفض الاسباب زهدا عصيان بالاجماع
الطبع له حق يتقاضاه
- ٤٥ ٣٥ تأملت في شهوات النفس فرأيتها مصائد هلاك وفخوخ تلف
من قوى عقله على طبعه سلم الخ
أسرع شهوات النفس هلاكلها شهوة الجماع
- ٣٦ بلغنى عن بعض زهاد زماننا أنه قدم اليه طعام فقال لا أكل الخ
مخالفة النفس في شهواتها على الدوام يعنى قلبها ويبلد خاطرها
الشهوة للنفس نعم الباعث لمصلحة البدن إلا اذا أفرطت
الترخص جائز إلا أن يؤذى باب الورع
- ٤٨ ٣٧ تأملت جهاد النفس فرأيت أنه أعظم الجهاد
منع النفس من حظوظها غلط من وجهين
- ٤٩ ٣٨ رأيت من البلاء العجائب أن المؤمن يدعو فلا يجاب
مطلب في حكمة عدم اجابة الدعاء للداعى أو تأخيرها
- ٥١ ٣٩ من نزلت به بلية فأراد تحقيقها فليصورها أكثر مما هي تهن
مطلب فيما يهون وطأة البلية على المبتلى
- ٥٢ ٤٠ لما رأيت رأى نفسى فى العلم حسنا الخ
- ٥٣ ٤١ مما يزيد العلم عندى فضلا الخ
- من الجهل جعل التوكل الشرعى هو قطع الاسباب كلها
العمل على الاسباب مع تعلق القلب بالسبب هو المشروع

نمرة الصفحة	نمرة المحفة
٤٢	٥٦
ما زال اتعجب ممن يرى تفضيل الملائكة على الانبياء والاولياء المزايا التي فضل بها الانسان على الملائكة	
٤٣	٥٧
رأيت كثيرا من الخلق لا ينتهون عن البحث عن اصول الاشياء التي امروا بترك العلم بها كالعقل والروح مطلب في وجوب كف المكلف عن الخوض في البحث عن حقائق صفات الله تعالى كما عليه السلف	
٤٤	٥٨
رأيت اكثر الخلق في وجودهم كالمعدومين الخ الزاهد كراعي الغنم والعالم كؤدب الصبيان والعارف ملقى الحكمة لما تلحمت تدير الصانع في سوق رزقي الخ	
٤٥	٦٠
كنت في بداية الصبوة قد اهلمت سلوك طريق الزهاد الخ مناجاة للمؤلف مع ربه	
٤٦	٦١
أعجب مصائد ابليس التي يصيد بها العلماء وجوب العزلة عن الخلق والحذر من خوادع التأويلات وفواسد الفتاوى	
٤٧	٦٢
تأملت على نفسي تأويلا في مباح أنال به شيئا من الدنيا الخ رأيت نفسي كلما صفا فكرها الخ	
٤٨	٦٣
مطلب العلم طيب يصف كل لحظة لكل داء دواء يلائمه عجبت لقوم يدعون العلم ويميلون الى التشبيه الخ	

مقدمة المقدمة	مقدمة المقدمة
٦٤	مطلب في البحث في التشابه
٦٥	٥٠ تفكرت في السر الذي أوجب حذف آية الرجم من القرآن
	لما طامع ثبوت حكمها إجماعاً الخ
	٥١ عرضت لي حالة جاءت فيها بقلبي إلى الله تعالى وحده
٦٧	٥٢ تلمحت على خلق كثير من الناس إهمال أبدانهم الخ
	مطلب إهمال النظافة يؤدي إلى الخلل في الدين والدنيا
	مطلب في فوائد النظافة الدنيوية والأخروية
٦٩	٥٣ تأملت مبالغة أرباب الدنيا في اتقاء الحرو والبرد فقرأيتها تمكس
	المقصود في باب الحكمة
	مطلب في أن المطلوب الاعتدال في الوقاية منها
٧٠	٥٤ ليس في التكليف أصعب من الصبر على القضاء ولا فيه
	أفضل من الرضاء
	مطلب القدر غالباً ما يجري بمكروه للنفس بأنواع تحير العقول
٧٢	٥٥ لما انتهيت الفصل المتقدم هتف بي هاتف
	محاوره مع الهاتف نفيسة في بحث الرضى بالقضاء والقدر
٧٣	٥٦ رأيت جمهور العلماء يشغلهم طلب العلم في زمن الصبأ عن
	المعاش الخ
٧٤	٥٧ ما زال جماعة من المتزهدين يزدرون بكثير من العلماء إذا
	انبسطوا في مباحات الخ

نمرة المحيفة	نمرة الفصل	
		٥٨ ليس في الوجود شيء أشرف من العلم
		مطلب زين جماعة من القدماء دفنوا كتبهم ورموها في البحر
٧٥	٥٩	مربي حمالان تحت جذع ثقل وهما يتجاوبان بإنشاء النغم
	٦٠	تأملت أشياء تجري في مجالس الوعظ يعقدها العوام وجهال
		العلماء قرابة
		مطاب في التطريب في القرآن وتلحينه
٧٨	٦١	من أضر الأشياء على العوام كلام المتأولين للصفات والاضافات
٨٠		مطلب نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الكلام في القدر
٨٠		مطلب يمنع العامي من الخوض في الصفات ويكفيه الايمان
		الاجالى
		مطلب سيدنا ابراهيم عليه السلام طلب رؤية كيفية احياء
		الموتى فأراه ميتا حيى
		مطلب أنكر ونكير يسألان عن العقائد اجمالا
	٦٢	قرأت هذه الآية «قل أرايتم أن أخذ الله سمعكم وأبصاركم وختم
		على قلوبكم الآية
٨١	٦٣	نظرت فيما تكلم به الحكماء في العشق واسبابه
٨٣	٦٤	عرض لى أمر يحتاج الى سؤال الله عز وجل ودعائه
		مطلب الاعتراف بالتقصير انجح في الاجابة من النظر الى
		حسن العمل

تمرة العجينة	تمرة الفصل
٨٤	٦٥ قرأت من غرائب العلم وعجائب الحكم الخ
٨٥	٦٦ دعوت يوما فقلت اللهم بلغني آمالي من العلم والعمل الخ
	٦٧ قلوب العارفين يغار عليها من الاسباب الخ
٨٦	مطلب غيرة الله تعالى على تعلق القلوب بالاسباب توجب العقوبة
	٦٨ المؤمن لا يبالغ في الذنوب وانما يقوى الهوى ويتوقد نيران الشهوة فيتهدرا الخ
	٦٩ افضل الاشياء التزيد من العلم الخ
٨٨	٧٠ تأملت قوله عز وجل «يؤمنون عليك ان أسأموا قل لا آمنوا على إسلامكم بل الله يمن عليكم ان هداكم للإيمان ان كنتم صادقين»
	فرايت فيه معنى عجيبا
٨٩	بحث في آداب المتقي مع العاصي
	٧١ اعلم ان شرعنا مضبوط الاصول محرر القواعد لا خلل فيه ولا دخل
	مطلب الآفات الداخلة على الدين من المبتدعين والجهال
	كبدع النصارى واليهود
٩٠	مطلب لعب الشيطان بعقول بعض علمائنا لكنه لم يفرقهم
٩١	مبحث في التشابهات وردما وقع فيها من التأويل
٩٦	٧٢ اعلم ان الزمان لا يثبت على حال
	٧٣ تأملت امرا عجيبا وأصلا ظريفا وهو انه يال الابتلاء على

نمرة المحفة	نمرة الفصل	
٩٦		المؤمن وعرض صور الذات عليه مع قدرته على نيلها ٧٤ تأملت حلة عجيبة وهوان المؤمن تنزل به الغزالة فيدعو ويبالغ فلا يرى اثرا للاجابة النخ ٩٧ اياك ان تستطيل مدة الاجابة وكن ناظرا الى انه المالك وانه الحكيم ٩٨ لما كان بدن الآدمى لا يقوم الا باجتلاب المصالح ودفع المؤذى ركب فيه الهوى النخ مطلب لولا الهوى في المطعم والمشرب والمنكح لم يقدم عليها الانسان انما خلقت هذه الاشياء اعانة للبدن على قطع مراحل الدنيا عليها لا للتذاذبها ٩٩ ٧٦ من تأمل عواقب المعاصي رآها قبيحة ٧٧ ينبغي للعاقل ان يلزم باب مولاه على كل حال ١٠٠ ٧٨ ينبغي لمن تظاهرت نعم الله عز وجل عليه ان يظهر منها ما يبين أكثرها ولا يكشف جهلتها رب كلمة جرى بها للسان هلك بها للانسان ١٠١ ٧٩ رأيت كل من يمر بشيء أوزير لى في مطر يلتفت الى ماء به طبعا موضوعا في الخلق ٨٠ تأملت قوله تعالى فمن اتبع هداى فلا يضل ولا يشقى

نمرة المعينة	نمرة الفصل	
١٠٢	٨١	لا ينال لذة المعاصي الا سكران الغفلة
١٠٣	٨٢	بكرت يوما أطلب الخلوة الى جامع الرصافة الخ تأملت الدخول الذي دخل في ديننا في العلم والعمل فرايته من طريقين مساوى العزلة وآفاتا الدينية والدنوية موازنة بين العلم والزهد
١٠٥	٨٣	ينبغي لكل ذى لب وفطنة أن يحذر عواقب المعاصي
١٠٦		مطلب في التحذير من غضب الله تعالى والاغترار بحلمه وعفوه
	٨٤	كثير من الناس يتساحون في أمور يظنونها قريبة
١٠٧	٨٥	رأيت من نفسى عجبا تسأل الله عز وجل حاجاتها وتنسى جنائنها ان اردت السؤال فحقق التوبة ثم اسأل من العجب تسأل مهمات الدنيا ولا تسأل صلاح القلب والدين
١٠٨	٨٦	أعجب العجب دعوى المعرفة مع البعد عن العرفان بالله عز وجل التحذير من العجب والكبر والأمن من البطش والمكر
	٨٧	من عاش مع الله عز وجل طيب العيش في زمن السلامة خفت عليه في زمن البلاء
١٠٩	٨٨	ليس في الدنيا ولا في الآخرة أطيب عيشا من العارفين بالله عز وجل خصائص العارفين ومزاياهم التي فازوا بها في الدنيا والآخرة

نمرة الصحيفة	نمرة الفصل	
١١٠	٨٩	بالله عليك يا مرفوع القدر بالتقوى لا تبع عزها بذل المعاصي
	٩٠	رأيت في العقل نوع منازعة للتطلع الى جميع حكم الحق عز وجل في حكمه
١١٢		اياك والاعتراض على الحكيم اذا خفيت عليك حكمه ان للملوك امرارا انكم فمن أنت وهل للعبد أن ينتقد سيده ويتحكم أصعب الأشياء مجاهدة النفس
	٩١	الحازم من سلك مع نفسه خطة الاعتدال يعطيها ما لها ويستوفي منها ما عليها
	٩٢	رأيت عموم الخلائق يدفعون الزمان دفعا عجيبا
١١٣	٩٣	اضر ما على المريض التخليط وما من أحد إلا وهو مريض بالهوى
	٩٤	رأيت المشائخ أحوالهم مختلفة يتفاوتون في مقاديرهم في العلم
١١٤	٩٥	سبحان الملك العظيم الذي من عرفه خافه ومن أمن مكره قط ما عرفه
	٩٦	تأملت العلم والميل اليه والتشاغل به فاذا هو يقوى القلب الخ
١١٦	٩٧	أظرف الأشياء افاقة المحتضر عند موته
	٩٨	ربما أخذ التيقظ بيت شعرا فخذ منه اشارة فانتفع بها
١١٨	٩٩	أمكنني تحصيل شيء من الدنيا بنوع من أنواع الرخص الخ
١١٩	١٠٠	ما زلت اسمع عن جماعة من الاكابر وارباب المناصب انهم يشربون الخمر الخ

غرة المحبة	غرة الفصل	
١٢٠	١٠١	اجتهاد العاقل فيما يصلحه لازم له بمقتضى العقل وللشرع جمع المال وحفظه وتنميته لازم شرعا لانه سبب بقاء الانسان ذكر عدة من الصحابة كانوا يجتهدون في جمع المال وحفظه
١٢٢	١٠٢	عرض لى في طريق الحج خوف من العرب الخ
١٢٣	١٠٣	للبنات نهايات معلومة الوقت عند الله عز وجل لا بد للمبتلى من الصبر الى انفضاض زمن البلاء واستعجال زواله لا ينفع الصبر واجب وان كان الدعاء مشروعا والمستعجل مزاحم للمدبر
١٢٤	١٠٤	ليس في الوجود شيء أصعب من الصبر الجزع لا يفيد بل يفضح صاحبه
	١٠٥	ينبغي لمن وقع في شدة ثم دعا ان لا يحتلج في قلبه أمر من تأخير الاجابة أو عدمها
١٢٥		حديث مامن مسلم دعا الله تعالى الا أجابه الخ
	١٠٦	من اراد ان يعرف رتبة العلماء على الزهاد فلينظر في رتبة جبريل وميكائيل
		مطلب بزيادة العلم صار آدم مسجودا له وبتقصاته صاوت الملائكة ساجدة له
١٢٦	١٠٧	اعلم أن أصلح الامور الاعتدال في كل شيء

نمرة الفصل	نمرة المحيفة
١٠٨	من أعمل فكره الصافي دله على طلب اشرف المقامات
١٢٨	١٠٩ مما ينبغي للشخص الاجتهاد في الكسب غاية لا تنمعه عن العلم
١١٠	ليس للعلماء انفع من جمع المال للاستغناء عن الناس
١٢٩	أعظم دليل على فضيلة الشيء النظر الى ثمرته
١٣٠	١١١ مطلب الفقه افضل العلوم وما فاق أزباب المذاهب الا بالفقه
١٣١	رأيت كثيرا من الناس يتحززون من رشاش نجاسة ولا يتعاشون من غيبة الخ
١٣٢	١١٢ من أعظم الغلط الثقة بالناس والاسترسال الى الأصدقاء
١٣٣	١١٣ رأيت شخصا ممن أفنى أوائل عمره في طلب العلم الخ
١٣٦	١١٤ رأيت الشره في تحصيل الأشياء يفوت الشره مقصوده
١٣٧	١١٥ ان للخلوة تاثيرات تبين في الجلوة
١٣٨	عواقب الطاعات والمعاصي ظهور آثارهما عند الناس
١٣٩	١١٦ من عرف جريان الأقدار ثبت لها وأجهل الناس بعد هذا من قلوبها
١٤٠	١١٧ سبحانه المتصرف في خلقه بالاغتراب والافلال ليلبوس بهم الخ
	ذكر طرف من بلايا الأنبياء عليهم الصلاة والسلام
١٣٨	١١٨ ينبغي للعاقل أن لا يقدم على الزام حتى يزن نفسه هل يطيقها
١٣٩	١١٩ أجهل الجهال من آثر عاجلا على آجل
١٤٠	١٢٠ اللذات كلها بين حسي وعقلي فنهاية اللذات الحسية النكاح

و غاية اللذات العقلية العلم

- | | | |
|-----|-----|---|
| ١٢١ | ١٤٢ | في تعليم حفظ العلم وفي الاصول المطلوب رعايتها في طلب العلوم |
| | | من الغلط كثرة الانهماك في الطلب فان عاقبته فتور الهمة |
| | | جملة وصايا ثمينة تجب رعايتها اثناء الطلب لا غنى |
| | | للتطالب عنها |
| ١٢٢ | ١٤٣ | من اراد دوام العافية والسلامة فليتق الله عز وجل |
| | ١٤٤ | أحوال العاصي عند القدوم على العصيان انواع |
| | | من اعظم المحن الاغترار بالسلامة بعد الذنب |
| ١٢٣ | ١٤٥ | قدم الى بغداد جماعة من أهل البدع من الاعاجم فارتقوا |
| | | منابر التذكير للعوام الخ |
| | | ذكر شبهتهم في الفاظ القرآن وحروفه |
| | | بيان حل هذه الشبهة على طريقة السلف بأدلة شرعية |
| ١٢٤ | ١٤٩ | أعظم البلايا ان يمطيك همة عالية ويمنعك من العمل بمقتضاها |
| ١٢٥ | ١٥٠ | تراغت على نفسى في طلبها شيئا من أغراضها يتأويل فاسد |
| | | محاورة مع النفس في الصبر على المكاره |
| ١٢٦ | ١٥١ | من نازعته نفسه الى لذة محرمة الخ |
| ١٢٧ | | رأيت الخلق كلهم في وصف محاربة |
| ١٢٨ | ١٥٢ | الدنيا فخر والجاهل باول نظرة يقع |
| ١٢٩ | | اعلموا اخواني ومن يقبل نصيحتي ان للذنوب تأثيرات قبيحة |

نمرة الفصل	نمرة الصحيفة
١٣٠	١٥٣
ضاق بي أمر أوجب غما لازما دائما	
١٣١	١٥٤
التقوى سبب للخروج من كل غم	
١٣١	
من المعجب إلحاحك في طلب أغراضك	
مطلب عدم اجابة الدعوى يرجع لاحد امرين	
١٣٢	
يجب على من لا يدري متى ينفته الموت أن يكون مستعدا	
١٥٥	
طول الامل وآفاته ودواؤه	
١٣٣	
الحذر الحذر من المعاصي فان عواقبها سيئة	
١٥٦	
أعظم العقوبة عدم الاحساس بها	
المبارزة لله تسقط العبد من عين الله	
١٣٤	
اخواني اسمعوا نصيحة من جرب وخبر	
بقدر إجلال العبد لله وتعظيم قدره يحله الله ويعظم قدره	
في قلوب العباد	
١٣٥	١٥٧
أيها المذنب اذا أحسست نفحات الجزاء فلا تكثرن الضجيج	
لادواء للمبتلى الاملازمة محراب التوبة والاناة	
١٣٦	
الواجب على العاقل أن يحذر مغبة المعاصي	
١٣٧	
واعجبا من عارف بالله عز وجل يخالفه ولو في تلف نفسه	
١٣٨	١٥٩
قدرت في بعض الايام على شهوة للنفس هي عندها احلام الماء	
الزال في فم الصادي	
١٦٠	
محاورة في الاخذ بالورع من الشبهات والحث على الصبر عنها	

لا انكر على من طلب للذة الدنيا طريق المباح	١٦٠	١٣٩
الحق عز وجل أقرب الى عبده من حبل الوريد	١٦١	١٤٠
المخالفة توجب الوحشة والطاعة توجب الانس		
الدنيا في الجملة معبر فينبغي للانسان أن لا ينافس بلذاتها	١٦٢	١٤١
نبذة في آداب الزوجين وما يحسن به عشرتهما		
نازعني نفسي الى امر مكروه في الشرع	١٦٤	١٤٢
ما رأيت أعظم فتنة من مقاربة الفتنة		١٤٣
لولا غيبة المعاصي في وقت المعاصي كان كالمعانده		١٤٤
البلايا على مقادير الرجال	١٦٥	١٤٥
الناس قسمان قسم ضيعف راض بما عنده من دين ودنيا وقسم		
عالي المهمة لا قناعة له الا بالورع		
ينبغي لطالب العلم أن يكون جل همته مصروفا الى الحفظ والاعادة		١٤٦
اذا صح قصد العالم استراح من كلف التكليف	١٦٦	١٤٧
كثير من العلماء الذين هم على غير يقين من فتواهم بأنفسهم		
أن يقولوا لا ندري حفظا لجاههم		
من اصلح سريرته فاح عبير فضله وعبقت القلوب بنشر طيبه	١٦٧	
نزلت في شدة وأكثرت من الدعاء اطلب الفرج والراحة		١٤٨
وتاخرت الاجابة		
محاورة مع النفس واقناعها عند عدم اجابة الدعاء بخمسة اوجه		

نمرة الصحيفة	نمرة الفصل	
١٦٨	١٤٩	حضرنا بعض اعذية أرباب الاموال فرأيت العلماء اذل الناس عندهم
١٦٩		الاولى للعالم أن يجتهد في طلب الغنى يصون به شرف العلم ويستغنى به عن الناس
١٧٠	١٥٠	تأملت وقوع المعاصي من العصاة فوجدتهم لا يقصدون المعصيان وانما يقصدون موافقة هوام السبب في هذا الاقدام ملاحظة كرم الخالق مع عدم ملاحظة عظمته وهيبته
	١٥١	رأيت عموم ارباب الأموال يستخدمون العلماء يستذلونهم بشيء يسير .
	١٥٢	مدار الامر كله على العقل اذا تم العقل لم يعمل صاحبه الا على أقوى دليل
١٧١		كثير من الناس من لا يحسنون طرق الاستدلال كاليهود والنصارى .
١٧٣	١٥٣	الواجب على العاقل ان يتبع الدليل ثم لا ينظر فيما لايجب في مكروه .
		بعد ثبوت حكمة الخالق وحسن تديرته في ملكه يجب تسليم الامر اليه والافرار بالمعجز عن معرفة حكمه
		اذا كانت عقولهم من جملة مواهبه فكيف يحكم على تديره

- وحكمته ببعض مخلوقاته
- ١٧٣ المعجب من تلميذ يتعلم على أستاذه ومن مملوك يتيه على سيده
الاعتراض على الخالق ميراث إبليس حيث اعتقد سوء التدبير
في تفضيل آدم عليه السلام
- ١٧٤ ١٥٤ قرأت سورة يوسف عليه السلام فتعجبت من مدحه
١٥٥ رأيت الاشتغال في الفقه وسماع الحديث لا يكاد يكتفي
في صلاح القلب .
- ١٧٥ ١٥٦ ترخصت في شيء يجوز في بعض المذاهب فوجدت
في قلبي قسوة .
- ١٥٧ مما أفادني تجارب الزمان أنه لا ينبغي لأحد أن يظهر
بالعداوة أحدا مما استطاع
- ١٧٦ ١٥٨ رأيت النفس تنظر الى لذات أرباب الدنيا العاجلة
- ١٧٨ ١٥٩ وقع بيني وبين أرباب الولايات معاداة لأجل المذهب
- ١٦٠ روى عن الحلاج الصوفي أنه كان يقعد في الشمس في
الحر الشديد
- ١٧٩ ١٦١ السعيد من ذل وسأل العافية
- قل أن تجري الاقدار الا على خلاف مراد النفس
- ١٦٢ الجادة السليمة والطريق القويمة الاقتداء بمصاحب الشرع

نمرة الصحيحة	نمرة الفصل	
١٨٠		طريقة المصطفى ﷺ العلم والعمل والتلطف بالبدن من رأى حاله ﷺ رأى كاملاً يعطى كل ذى حق حقه
١٨١		مافسد الناس إلا بالانحراف عن الشريعة دخل إبليس على كل قوم من حيث قدر
١٨٢		لو مال الخلق الى التعبد فقط لضاعت الشريعة العمل سعى الآلات الظاهرة والعلم سعى الآلات الباطنة من العقل والفكر والفهم
١٨٣		من أعظم الجهل استبداد الانسان بعلمه
١٨٤	١٦٣	تأملت الدخول الذى دخل فى ديننا فى العلم والعمل فرأيت من طريقين
		الدخول فى باب العلم من الفلسفة وفى باب العمل من الرهبانية
	١٦٤	أعوذ بالله من صحبة البطالين
١٨٥	١٦٥	رأيت من رأى القويم ان نفع التصانيف أكثر من نفع التعليم بالمشافهة
		التصنيف المفيد هو جمع ما تفرق أو ترتيب ما شتت أو شرح ما أهمل .
١٨٦		فى ترتيب وظائف الطالب على حسب درجات عمره
١٨٧	١٦٦	رأيت عادات الناس قد غلبت على عملهم بالشرع
١٨٩	١٦٧	ما أعرف للعالم قط لذة ولا عزاً ولا شرفاً ولا راحة ولا

نمرة العجيفة	نمرة النصل	
		سلامة أفضل من العزلة
١٩٠		جملة خصال بها العلماء يجدون اللذة والراحة
١٦٨		تأملت أحوال الناس في حالة علوشأنهم فرأيت أكثر الخلق
		تبيين خسائهم
١٩١		من انفق عصر الشباب في العلم فانه في زمن الشيخوخة يحمد
		جنى ما غرس
١٩٣	١٦٩	من الامور التي تخفى على العاقل أن يرى أنه متى لم يكن عنده
		امرأة الخ
١٩٤	١٧٠	ما ابتلى الانسان قط بأعظم من علو همته
١٩٦	١٧١	لما سطرت هذا الفصل المتقدم رأيت ادكار النفس بما لا بد
		لها في الطريق منه
١٩٧		ينبغي للعاقل أن يغالط نفسه فيما يكشف العقل عن عوارده
١٩٨	١٧٢	في تعليم التداير
		التحفظات المطلوبة في النكاح
١٩٩		التحفظات المطلوبة في اختيار الزوجة ومعاشرتها
		التداير المطلوبة في معاشرة الخادم
		التداير المطلوبة في تربية الاولاد وتعليمهم
٢٠٠	١٧٣	اشتد الغلاء ببغداد الخ
٢٠١	١٧٤	تأملت حالة أزعجتني الخ

نمرة الفصل	نمرة الفصل
١٧٥	٢٠٢
جری بینی و بین أصحاب الحديث كلام في قول الامام احمد صرح الحديث عن رسول الله ﷺ سبعمائة ألف حديث روى عنه ﷺ أربعة آلاف رجل وامرأة وصحبوه نيفا وعشرين سنة بمكة ثم بالمدينة كان اسحاق بن راهوية يملئ سبعين ألف حديث حفظا وحفظ أبو اسحاق بن عقدة لاهل البيت ثلاثمائة ألف حديث ظهر لابن كريب بالكوفة ثلاثمائة حديث أجمع المسانيد مسند احمد الذي جمع أربعين ألف حديث من سبعمائة ألف وخمسين ألفا منها عشرة آلاف مكررة جمع ابو داود كتابه السنن من ستمائة ألف حديث مجموع المنقول عن رسول الله ﷺ نحو خمسين ألف حديث صحاح الزيادة من الثقة مقبولة وانفراده في الرواية لا عيب فيه اعلم ان الله عز وجل وضع في النفوس أشياء لا تحتاج الى دليل . من الاشياء التي لا تحتاج الى دليل ان المصنوع لا بدله من صانع وان الاثنين أكثر من الواحد وان الجسم الواحد لا يكون في مكانين	
١٧٧	٢٠٤
مفيد تدبرت أحوال الاخيار والاشراذ غرأيت الخ	

نمرة المحيفة	نمرة الفصل	
		سبب صلاح الاختيار النظر وسبب فساد الاشرار إهمال النظر العاقل ينظر الى الفوائد والعواقب والغافل لا يرى الا الحاضر
٢٠٥	١٧٨	خلقت لى همة عالية تطلب الغايات
	١٧٩	ما أقل من يعمل لله تعالى خالصا
٢٠٦	١٨٠	والله ما ينفع تأديب الوالد اذا لم يسبق اختيار الخالق لذلك الولد .
٢٠٧	١٨١	من أكبر الدليل على وجود الخالق سبحانه وتعالى ان هذه النفس الناطقة الخ
	١٨٢	سبحان من من على الخلق بالعلماء الفقهاء الذين فهموا مقصود الأمر
		الاشتغال بالحديث أفضل من التنفل بالصوم والصلاة
٢٠٨	١٨٣	العاقل من يحفظ جانب الله تعالى وان غضب الخلق كل من يحفظ جانب المخلوقين ويضيع حق الخالق يقلب الله قلوبهم ويسخطهم عليه
٢١٠	١٨٤	مفيد ينبغي للعاقل أن ينظر الى الاصول فيمن يخالطه احفظ الاصول فان الشئ يرجع الى أصله وصلاح الصور دليل على صلاح الباطن
٢١١		احذر من به عاهة كالافرع والاعمى ونحوهما فان بواطنهم غالباً ردية .

نمرة الفصل	نمرة الحجفة	
١٨٥		ينبغي أن يكون شغل العاقل في العواقب والتحرز مما يمكن أن يكون
	٢١٢	متى وقع الاسبى مع زكى فينبغى أن يتحرز منه
١٨٦		فى حفظ السر رأيت أكثر الناس لا يتألمكون من إفشاء سرهم .
	٢١٣	كان النبى ﷺ إذا أراد سفرا ودى بغيره الرجل الحازم الذى لا يتعمده سره ولا يفشيه لاحد وستر المصائب من جملة كتمان السر
١٨٧		مارأيت أصعب على النفس من الحفظ للعلم والتكرار
١٨٨	٢١٤	ما أعرف نفعا كالعزلة عن الخلق خصوصا للعالم والزاهد
١٨٩	٢١٥	ما أبله من لا يعلم متى يأتيه الموت وهو لا يستعد للقاءه واجبات الانسان فى تنقلاته فى منازل عمره
١٩٠		مانهى السلف عن الخوض فى الكلام الا لأمر عظيم إذا نظرنا الى ذات الخالق حار العقل
١٩١	٢١٨	لقد غفل طلاب لذة الدنيا عن اللذة فيها واللذة فيها شرف العلم النخ
		بنيت الفتنة على ثلاث النساء وهن فح إبليس المنصوب والشراب وهو سيفه المرفف والدنيا والدرهم وهما سهماء المسمومان .

مرة المعجزة	مرة الفصل	
٢١٨	١٩٢	أصل كل محنة في العقائد قياس أمر الخالق على أحوال الخلق .
		كل من قاس صفة الخالق على صفات المخلوقين خرج إلى الكفر كالفلاسفة والمجسمين ونحوهم
٢١٩	١٩٣	تأملت عجبا وهو أن كل شيء نفيس خطر
٢٢٠	١٩٤	ليس المؤمن بالله الذي يؤدي فرائض العبادات. صورة ويتجنب المحظورات .
		المؤمن الكامل الايمان الذي لا يختلج في قلبه اعتراض ولا وسواس وكلما اشتد البلاء عليه زاد إيمانه
٢٢١		قال الحسن المستوي الناس في العافية فإذا نزل البلاء تباينوا
	١٩٥	أضر ما على العوام المتكلمون
٢٢٢		إن الله سبحانه وتعالى نصب اهلاما تأنس بها النفوس وتطمئن اليها كالكمية وسلمها بيته
		من لم يقنع بمقيدة مثل الصحابة ولا بطريق مثل طريق أحمد والشافعي في ترك الجور فلا كان ما كان
	١٩٦	ماذلت على عادة الخلق في الحزن على من يموت الخ
٢٢٣	١٩٧	ينبغي للعاقل أن لا يتكلم في الخلوة عن أحد بشيء حتى يمثل ذلك الشيء الخ
	١٩٨	رأيت كثيرا من المتغفلين يظهر عليهم السخط بالافذار

- من تفكر علم أن واهب العقل أعلا من العقل
ليس لنا الا ان نضيف العجز الى أنفسنا ونقول هذا فاعل عالم ٢٢٤
- حكيم ونكون مع الخالق كموسى عليه السلام مع الخضر
من أجهل الجهال العبد المملوك اذا طاب أن يطلع على ٢٢٥
سر مولاه
- لا ينبغي المؤمن أن يزعج من مرض أو نزول موت ٢٢٦ ١٩٩
السعيد من وفق لاغتنام العافية ثم اختار الأفضل فالأفضل
في زمن الاغتنام
- حضرنا يوما جنازة شاب مات أحسن ما كانت الدنيا له ٢٠٠
انما خلق هذا البدن ليحمل النفس كما تحمل الناقة الراكب
لا بد من التلطف بالناقة ليحصل المقصود من السير
كان صلى الله عليه وسلم يمدل ماعنده من الخوف فيما زح ٢٢٧
ويسابق عائشة الخ
- غفلة الناس عن الموت نعمة من الله تعالى اذا كانت باعتدال
والمذموم هو الافراط والتفريط
- ما يكاد يحب الاجتماع بالناس الا فارغ لأن المشغول القلب بالحق ٢٢٨ ٢٠١
يفر من الخلق
- من رأى الخلق عبداً وهو لا يعلم ٢٢٩
كل المعاصي قبيحة وبعضها أقبح من بعض ٢٠٢

الزنا أقبح الذنوب فإنه يفسد الفرش ويقبر الأنساب
وبالجارة أقبح

من أقبح الأشياء أن يطول المرض بالشيخ الكبير ولا يتوب ٢٣٠

من ذنب الخ

٢٠٣ اعتبرت على أكثر العلماء والزهاد أنهم يبطنون الكبر

من تلمح خصال نفسه وذنوبها علم أنه على يقين من الذنوب ٢٣١

والتقصير وهو من حال غيره على شك

٢٣٢ متى رأيت صاحبك قد غضب وأخذ يتكلم بما لا يصلح فلا ٢٤

ينبغي الخ

اصبر على حدة الغضبان فإن حاله كحال السكران والأا كنت

كما قل قابل مجنوننا فإذا انتبه ندم على ما فرط وعرف لك

فضل الصبر

٢٠٥ ليس في الدنيا أبله ممن يسيء إلى شخص ويعلم أنه قد بلغ إلى

قلبه بالأذى

متى آذيت شخصا بأذى أترفيه فاحترس منه ولا تثق بمودته فإن

لم تحتل عليه فلا يصف لك

٢٣٣ كل من لا يتلمح العواقب ويستعد لما يجوز وقوعه فليس ٢٠٦

بكامل العقل

بقدر صعود الإنسان في الدنيا تنزل مرتبته في الآخرة

- ٢٣٤ ٢٠٧ الصمود بسبب مخالطة السلاطين بعيد أن يسلم معه الدين
- ٢٣٥ مخاوف السلطنة وغوائلها المنكدة المميشة
- لا عيشة هنية الا للعلماء المخلصين
- ٣٦ « ٠٨ من عرف الشرع كما ينبغي وعلم حالة الرسول الله صلى الله عليه وسلم الخ
- ٠٩ « الكمال عزيز والكمال قليل الوجود
- دليل كمال صورة البدن حسن الصمت والأدب ودليل كمال صورة الباطن حسن الطباع
- ٣٧ « ١٠ ليس في الدنيا أبله ممن يريد معاملة الحق سبحانه وتعالى على بلوغ الأغراض
- ١١ « من الابتلاء العظيم اقامة الرجل في غير مقامه
- ٣٨ « ذكر عدة من أنواع البليات المشتقة للهم والمكدره للعيش ومداواتها .
- ١٢ « لا ينكر ان الطباع تحب المال لأنه سبب بقاء الأبدان
- ٤٠ « ١٣ ينبغي لمن عرف شرف الوجود أن يحصل أفضل موجود
- ١٤ « من عرف قرب الرحيل من مكة استكثر من الطواف
- ذكر عدة من بلاياه صلى الله عليه وسلم وصبره عليها .
- ٤١ « ١٥ من أراد أن يعلم حقيقة الرضا عن الله عز وجل في أفعاله الخ
- ٤٣ « ١٦ أكثر شهوات الحس النساء

- السبب في الاستكثار من زواج النساء
المعنى الذى أوقع الزناة في الفواحش
ليقنع المتزوج بما ظاهره الستر وباطنه الدين والقناعة ومن
استكثر فانما يستكثر من شغل قلبه ورقة دينه
- ٢١٧ سبحان من شغل كل قلب بمن لتنام العيون في الدنيا ٢٤٤
- ١٨ علم الحديث هو الشريعة لأنه مبين للقرآن وموضح للحلال
والحرام النخ
- سبحان من حفظ هذه الشريعة باخبار أخيار ينفون عنها ٤٥
- تحريف الغافلين وانتحال المبطلين
- ١٩ فدسألني بعض أصحاب الحديث هل في سند أحمد ما ليس
بصحيح فقلت نعم
- ٤٦ إنما روى أحمد في مسنده ما اشتهر ولم يقصد الصحيح ولا
السقيم .
- ٢٠ بلغني عن بعض فساق القدماء أنه كان يقول ما أرى العيش
غير أن تتبع النفس هواها
- ٢١ قد تبغت العقوبات وقد يؤخرها الحلم ٤٧
- العاقل من اذا فعل خطيئة بادرها بالتوبة
- أسرع المعاصي عقوبة ما خلا عن لذة تنسى النهي
- مطلب كاتب من خراسان كتب المصحف في ثلاثة أيام

عمرة المحيفة	عمرة الفصل	
٢٤٨	٢٢٢	اعلم أن الآدمي قد خاق لأمر عظيم
» ٤٩	» ٢٣	قد ركب في الطباع حب التفضيل على الجنس
» ٥٠		ينبغي اظهار التجلد عند نزول المصائب حذرا من شمانية الأعداء .
» ٥١	» ٢٤	يحذر الافراط في اظهار النعم خوفا من اصابة العين انما خلقنا لنحيا مع الخالق في معرفته ومحادثته الخ تمثيل لطيف للدنيا وأهلها بالمكتب وصبيانته
» ٥٢	» ٢٥	تأملت حالة عجيبة الخ
» ٥٣		تفاوت الهمم في طلب الفضائل
» ٥٤	» ٢٦	تفكرت في بقاء اليهود والنصارى بيننا وأخذ الجزية منهم فرايت في ذلك حكما عجيبة
» ٥٥	» ٢٧	قد ثبت بالدليل شرف العلم وفضله الا أن طلاب العلم افرقوا طال تعجبي من أقوام لهم أنفة وعندهم كبر زائد في الحد
» ٥٦	» ٢٩	قد سمعنا بجماعة من الصالحين عاملوا الله عز وجل على طريق السلامة والمحبة واللطف فعاملهم كذلك
» ٣٠		منهم أبرخ العابد من الأوائل وأنس بن النضير من الصحابة رأيت جماعة من العلماء يتقسمون ويظنون ان العلم يدفع عنهم .
		العلم النافع هو فهم الاصول ومعرفة المعبود وما يستحقه

- والنظر في سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم الح
- ٢٥٩ ٢٣١ سبب تنغيص العيش فوات الحظوظ العاجلة
- ٢٦٠ إياك أن تساكن من آذيتك بل أحسن إليه وتلطف به تأمن
مكره وتقدر عليه
- ٣٢ تفكرت في قول شيبان الراعي لسفيان يأسفيان عد منع الله
أياك عطاء منه
- ٢٦١ ٣٣ رأيت جماعة من الخلق يتعللون بالافكار الح
إذا كنت تسعى بأدوات استعدادك في تحصيل غرضك
وهواك فاسع بها في إقامة مفروضاتك
- ٢٦٢ ٣٤ افتتح عين الفكر في ضوء العبر لعلك تبصر مواقع خطابك
نظرت في قول أبي الدراء رضي الله تعالى عنه ما أعرف مما كنا
عليه اليوم الا القليلة
- أسباب الانحراف عن طريقه صلى الله عليه وسلم الجهل
والاعراض عن العلوم الشرعية واتخاذ البدع عادات
- ٢٦٤ ٣٥ كنت أسمع علي بن الحسين الواعظ يقول والله لقد بكيت
البارحة من يد نفسي
- مطلب في النكاح وشروطه ومحاذيره
- ٢٦٦ ٣٦ أعجب الأشياء اغترار الانسان بالسلامة الح

٢٦٧ ٢٣٧ تأملت سبب تخايط العقائد فإذا به الميل الى الحس وقياس

الغائبات على الحاضر

ذكر الشبه المفضيه الى ذلك

٢٦٨ بسط هذا المقام ورد الشبه التي فيه ردا مقنعا

٢٧٠ ٣٨ يذنبى للمؤمن بالله سبحانه وتعالى اذا نظر فى الفصل المتقدم

أن لا يعترض على الله سبحانه وتعالى فى شيء

٢٧١ ٣٩ والله انى لا تخايل دخول الجنة ودوام الاقامة فيها الخ

نبذة فى نعم الجنة والترغيب فى الأخذ بأسبابه

٢٧٢ ٤٠ رأيت سبب الهموم والغموم الاعراض عن الله عز وجل

والاقبال على الدنيا

٤١ تفكرت فى نفسى فرأيتنى مفلسا من كل شيء

٢٧٣ ٤٢ ينبغى لمن صحب سلطانا أو محتشما أن يكون ظاهره معه

وباطنه سواء

امتحان ابراويز لرجل من خاصته وبطشه به

٢٧٥ ٤٣ رأيت النفس بعد علو السن يقوى أملها ويزداد حرصها

٤٤ شكالى بعض الاشياخ فقال الخ

٢٨٦ ٤٥ أبله الناس من عمل على الحالة الحاضرة ولم يتصور تغيرها الخ

٢٧٧ العاقل من كان مراقبا للمواقب نحزها مما يجوز وقوعه عاملا

بالاحتياط حافظا للمال والسر

غمرة المحنة	غمرة النصل	
	٢٤٦	من أعجب الأمور طاب الاطلاع على تحقيق العرفان لذات الله تعالى عز وجل وصفاته وأفعاله
٢٧٨		الفقيه من علل أحكام الله تعالى بما يمكن فاذا عجز استطرح للتسليم وعلم ان ادراك حكمه ليست في قوى البشر الله تعالى ستر كثيرا من حكمه على خلقه وليس من الأدب طلب الاطلاع عليها
	٤٧	من رزقه الله العلم والنظر في سير السلف رأى ان هذا العالم ظلمة الخ
		تحذير من مخالطة عموم أنواع الناس وبيان محاذيرها الدنيوية والأخروية .
٨٠	٤٨	من البله أن يبادر عدوا أو حسودا بالخاصمة وصية نافعة في كيفية معاملة الأعداء والتخلص من أذاهم والتغلب عليهم
٨١	٤٩	إذا وقعت في محنة يصعب الخلاص منها فليس لك الا الدعاء والاجابة بعد أن تقدم التوبة
	٥٠	نظرت الى الناس فرأيتهم ينقسمون بين عالم وجاهل الخ
٨٢		تقسيم الناس الى أنواع وبيان ضرر المخالطة والترغيب في الوحدة والانفراد عنهم
٨٣	٥١	من تأمل بعين الفكر دوام البقاء في الجنة في صفاء بلا كدر الخ

نمرة المجينة	نمرة الفصل	
٢٨٥	٢٥٢	من أراد اصطفاء محبوب فالمحبوب نوعان
		التحذير من إفشاء الأسرار للمرأة والولد والصديق
«٨٦	«٥٣	وأما اذا أبغضت شخصا فلا تظهرن ذلك
	«٥٤	طال تعجبي من مؤمن بالله عز وجل مؤمن بجزائه يؤثر
		خدمة السلطان الخ
«٨٧	«٥٥	العجب من الذى أنف من الذل كيف لا يصبر على جلف الخبر
		ولا يتعرض لمن الاندال
	«٥٦	يتضمن وصية للشباب والتحذير من الافراط فى الجماع
«٨٨		المعنى المقصود من الجماع
	«٥٧	ليس على العوام أضر من سماءهم علم الكلام
		ينبغى أن يحذر العوام من الخوض فيه كما يحذر الصبي من
		شاطيء النهر خوف الفرق
«٨٩		بحث ذل فيه كثير من العلماء فكيف بالعوام الغشم
		على العامى الايمان بالاصول الخمسة بالله وملائكته وكتبه
		ورسوله واليوم الآخر ويقنع بما قاله السلف
		النبي صلى الله عليه وسلم لم يكلف الأعراب الا بمجرد الايمان
		فن مات على طريقهم مات سليما من البدعة
	«٥٨	اشد الناس جهلا منهموم بالذات
«٩٠	«٥٩	تأملت علم الخلق فاذا هم فى حالة عجيبة يكاد يقطع منها بفساد العقل

للرجوع الى العصية بعد سماع المواعظ ثلاثة أسباب رؤية
الهوى العاجل والتسويق بالتوبة رجاء الرحمة والغفلة
عن الخوف

٢٩١ نظرت في قول رسول الله صلى الله عليه وسلم لما لبس الخاتم ثم
رمى به شغلني نظره اليكم ونظره اليه

ينبغي ترك كل ما يوجب النظر الى النفس بعين الاعجاب
لتكون دائما ذليلة مخالقاها

٢٩١ من أراد اجتماع همه واصلاح قلبه فليحذر من مخالطة الناس
في هذا الزمان

٢٩٢ قد كان الاجتماع على ما ينفع فصار الاجتماع على ما يضر
العزلة حمية والنظر في سير القوم دواء واستعمال الدواء مع الحمية
عن التخليط نافع

٢٩٣ تفكرت في سبب هداية من يهتدى وانتباه من يتيقظ من
رقاد غفاته فوجدت الحق

السبب الاكبر في الهداية اختيار الحق عز وجل كما جرى
لاهل السكف

٢٩٤ الطريق الموصلة الى الله سبحانه وتعالى ليست مما يقطع بالاقدام
وانما تقطع بالقلوب والشهوات هي قطاع الطريق

عين الموفق هي بصر فرس يرى في الظلمة كما يرى في الضوء

- ٢٦٣ عجبت لمن يعجب بصورته ويختال في مشيته وينسى مبدأ أمره
- ٢٦٤ هيهات أن يجتمع الهم مع التلبس بأموال الدنيا
- ٢٩٥ أن وجدت ما يكفيك من الدنيا فاقنع به والافعالجه بالصبر
أصلح لك من المخاطرة
- حكاية أبي عمرو بن نعيم مع أبي عثمان المغربي
- ٢٩٦ «٦٥» كان المرء في بداية الزمان إذا اظلم قلبه أو مرض ليه قصد زيارة
الصالحين الخ
- «٦٦» تأملت الذين يختارهم الحق عز وجل لولايته والقرب منه
- «٩٧» «٦٧» أ كثر الخلاق على طبع ردى لا تقومه الرياضة
- «٩٨» «٦٨» رأيت بعض المتقدمين سئل عن من يكتسب حلالا وحراما
من السلاطين الخ
- فتوى في حكم بناء الأمراء والسلاطين المساجد والاربطة
من مال حرام وحلال
- ٣٠٠ «٦٩» عجبت لمن يتصنع للناس بالزهد يرجو بذلك قربه من قلوبهم
متى نظر العامل الى التفات القلوب اليه فقد زاحم الشرك
- «٧٠» قدم عاينا بعض فقهاء من بلاد العجم الخ
- ٣٠١ وصايا نافعة في التحذير من التساهل في أمر الدين
- «٧١» من تفكر في عظمة الله تعالى عز وجل طاش عقله
- ٣٠٢ «٧٢» العجب بمن يقول أخرج الى المقابر فاعتبر بأهل البلا

- ٢٧٣ متى تكامل العقل فقدت لذة الدنيا
إذا تلمح العاقل العواقب أعرض عن الدنيا وذهل عن التلذذ
بالمآجل .
- ٢٧٤ ادعى الطبيعيون أن مادة الموجودات الماء والتراب والنار
والهواء النخ .
- من قال الروح عرض فقد جحد البعث
لطفه في البداية دليل على النهاية
- ٣٠٤ «٧٥ سبحانه من ظهر خلقه حتى لم يبق خفاء ثم خفي حتى كأنه
لا ظهور له .
- ٢٧٦ قد يدعى أهل مذهب الاجتهاد في طلب الصواب النخ
بدعى كثير من أهل الاجتهاد أنه لم يقصد إلا الحق ومع
ذلك تقطع بضلال الاكثرين
- ٣٠٥ لا يكون الاجتهاد معتبرا الا بوجود الآلات وتوفر الاسباب
والشروط .
- ٢٧٧ للنفس ذخائر في البدن منها الدم والمني وأشياء تتقوى بها
من ذخائرها التقوى في المال والجاه وما يوجب الفرح .
- ٢٧٨ رأيت في زهاد زماننا من الكبر وحفظ الناموس النخ
- ٣٠٦ «٧٩ كثيرا ما أعيد هذا المعنى الذي أنا ذا كره في هذا الكتاب
بعبارات .

٢٨٠ ينبغي للعاقل أن يحترز غاية ما يمكنه فإذا جاء القدر مع

الاحتراز لم يلم

مر رسول الله ﷺ تحت حائط مائل فاسرع

ينبغي أن يحترز في زمن شبابه ادخارا لزمن شبابه ولا يثق

بمعاملة إلا بوثيقة

يحترز من صديقه فضلا عن عدوه ولا يثق بمودة من آذاه هو

٨١ تأملت خصومات الملوك وحرص التجار ونفاق المتزهدين

فوجدت جمهور ذلك على لذات الحس

إذا تفكر العاقل علم ان أمر الحسيات قريب وان الغاية

لا يمكن نيلها

٨٢ تأملت حالة تدخل على طلاب العلم لم توجب الغفلة عن المقصود

٨٣ ما اعتمد أحد أمرا إذا لم يثبت بشيء مثل التثبيت

من عمل من غير تأمل للعواقب كان الغالب عليه الندم

مما قيل خير الرأي خير من فطيره

٨٤ سألني سائل قد قال بعض الحكماء من لم يحترز بعقله هلك بعقله

٨٥ أنس خلق كثيرون يبدية العقل والعادات وقياس الخالق

على الخلق في أمور لا حكمة فيها فضلوا أولهم إبليس

بعد ثبوت الكمال المطلق للخالق وانه حكيم لا يعبت لم

يبقى للعقل الا التسليم وان لم يعقل

إذا خفيت مصلحة العواقب على موسى عليه السلام مع
الخضر فاولى أن يخفى علينا

٢٨٥ ياغنى عن بعض الكرماء ان رجلا سأله فقال الخ

٢٨٦ سبحان من جعل الخلق بين طرفي تقيض الخ ٣١٢

٢٨٧ كان لنا أصدقاء وإخوان اعتد بهم فرأيت منهم الخ ٣١٤

٢٨٨ رأيت المعافى لا يعرف قدر العافية الا فى المرض ٣١٥

٢٨٩ اذا تم غم الانسان لم ير لنفسه عملا ٣١٦

٢٩٠ ينبغى للعاقل أن يكون على خوف من ذنوبه وان تاب عنها ٣١٨

وبكى عليها .

٢٩١ نعوذ بالله من سوء الفهم الخ ٣١٩

٢٩٢ تأملت على متزهدي زماننا أشياء تدل على النفاق

٢٩٣ من الجمل أن يخفى على الانسان مراد التكليف ٣٢١

٢٩٤ رأيت خلقا من العلماء والقصاص تضيق عليهم الدنيا الخ ٢٢٢

٢٩٥ تأملت أحوال الناس فرأيت جمهورهم منسلا من ربة ٢٢٣

العبودية .

٢٩٦ من العجيب سلامة دين ذى العيال اذا ضاق به الكسب ٢٢٤

٢٩٧ شكى رجل من بغضه ازوجته وقال الخ ٢٢٦

٢٩٨ لا ريب ان قلب المؤمن بالله سبحانه وتعالى وبأوامره يحتاج ٢٢٧

الى الانكاف الخ ..

نمرة الصحيفة	نمرة الفصل	
٣٢٨	٢٩٩	مارأت عيني مصيبة نزلت بالخلق أعظم من سبهم للزمان الخ
٣٢٩	٣٠٠	من عجائب ما أرى من نفسى ومن الخلائق كلهم الميل الى الغفلة .
	٣٠١	قد كررت هذا المعنى فى هذا الكتاب وهو الامر بحفظ السر
	٣٠٢	تأملت على أكثر الناس عباداتهم فاذا هى عادات
٣٣٠	٣٠٣	لا يصفو التعبد والتزهد والاشتغال بالآخرة الا بالانقطاع
	٣٠٤	من رزق قلبا طيبا ولذة مناجاة فليراع حاله
٣٣١	٣٠٥	همة المؤمن متعلقة بالآخرة
٣٣٢	٣٠٦	لقد اعتبرت على مولاى سبحانه وتعالى أمرا عجيبا
٣٣٣	٣٠٧	تأملت على قوم يدعون العقول معترضون على الخالق
٣٣٤	٣٠٨	ينبغى لمن وعظ سلطانا أن يبالغ فى التلطف
٣٣٥	٣٠٩	الحق لا يشتبه بباطل الخ
٣٣٩	٣١٠	واعجبا من موجود لا يفهم معنى الوجود .
٤٠	٣١١	أعجب من عاقل يرى استيلاء الموت على أقرانه الخ
٤١	٣١٢	نظرة فى قول الله تعالى ألم تر ان الله يسجد له من فى السماوات ومن فى الارض الآية
	٣١٣	مارأيت أكثر أذى للمؤمنين من مخالطة من لا يصلح
	٣١٤	كلما نظرت فى تواصل النعم على تحيرت فى شكرها
٣٤٤	٣١٥	أكثر العلماء يتشاغلون بصورة العلم الخ

نمرة المحيفة	نمرة الفصل	
٣٤٥	٣١٦	قد جاء في الأثر اللهم أرنا الاشياء كما هي
٣٤٦	٣١٧	ان قال قائل أى فائدة في خلق ما يؤذى الخ
٣٤٧	٣١٨	كلما أوغلت الفهوم في معرفة الخالق الخ
٤٨	١٩	في سبب تبذير الولاية
	٢٠	من المخاطر العظيمة تحديث العوام بما لا يحتمله عقولهم
٤٩	٢١	لا يفرك من الرجل طنطنته وما تراه يفعل
٥٠	٢٢	رأيت خلقا يفرطون في أديانهم ثم يقولون احملونا إذا متنا الى مقبرة أحمد
	٢٣	رأيت الناس يذمون الحاسد الخ
٥١	٢٤	من أعظم الضرر الداخل على الانسان كثرة النساء الخ
٥٢	٢٥	إذا رأيت قليل العقل في أصل الوضع فلا ترج خيره
	٢٦	يجب الاحتراز من كل ما يجوز أن يكون الخ
٥٣	٢٧	يبين إيمان المؤمن عند الابتلاء
٥٤	٢٨	تذكرت في سبب دخول جهنم فاذا هو المعاصي
٥٥	٢٩	من وقف على موجب الحس هلك ومن تبع العقل سلم
	٣٠	العجب لمؤثر شهوات الدنيا
٥٦	٣١	قد أشكل على الناس رؤية النبي ﷺ في المنام
٥٧	٣٢	غزير الفائدة
٥٨	٣٣	معرفة الله سبحانه وتعالى لا تحصل إلا لكامل العقل الخ

فمرة	فمرة	الفصل
٣٦٠	٣٣٤	ما رأيت أظرف من لعب الدنيا بالعقول
٣٦٢	٣٣٥	رأيت نفسي تأنس بمخطاء تسميهم أصدقاء
٦٣	٣٦	رأيت أن أكثر العلماء مشتغلين بصورة العلم الخ
٦٥	٣٧	للفقيه أن يطالع من كل فن طرفا من تاريخ وحديث و لغة
		وغير ذلك
٦٦	٣٨	كانت هم القدماء من العلماء عليه الخ
٦٧	٣٩	ليس للآدمي أعز من نفسه
٦٨	٤٠	لا ينبغي للعاقل أن يظهر سرا حتى يعلم أنه اذا ظهر لا يتأذى
		بظهوره .
	٤١	ما يتناهى في طلب العلم إلا عاشق العلم
٧١	٤٢	لا ينبغي للإنسان أن يحمل على بدنه ما لا يطيق
٧٢	٤٣	إذا تكامل العقل قوى الذكاء والفطنة
٧٣	٤٤	الآدمي موضوع على مطلوبات تشتت الهم
٧٤	٤٥	العزلة عن الخلق سبب لطيب العيش
٧٥	٤٦	من سار مع العقل وخالف طريق الهوى وخاف العواقب
		أمكنه أن يتمتع من الدنيا الخ
	٤٧	ينبغي أن يكون العمل كله لله الخ
٧٦	٤٨	نظرت في حكم المطعم والمشرب والملبس والمنكح الخ
٧٧	٤٩	في مخالطة الامراء

نمرة الفصل	نمرة الحقيقة
٣٥٠	من الغلط العظيم أن يتكلم في حق معزول بما لا يصح
٣٧٩	٣٥١ لما جمعت كتابي للمسمى بالمنتظم الح
٣٨٠	٥٢ من رزق همة عالية يعذب بمقدار علوها
٨١	٥٣ للمصيبة العظمى رضى الانسان عن نفسه
٨٢	٥٤ ينبئ تأمله .
٨٤	٥٥ تفكرت في نفسى يوما تفكر محقق
٨٦	٥٦ عداوة الاقارب صعبة
٨٧	٥٧ رأيت كلاب الصيد اذا مرت بكلاب المحلة نبحتها
٥٨	ملاحظته من أم الاشياء
٨٩	٥٩ رأيت الناس يوم العيد فشبهت الحال بالقيامة
٩٠	٦٠ يتضمن نصيحة للعلماء والزهاد
٩١	٦١ رأيت جمهور الناس حائذين عن الشريعة الح
٩٤	٦٢ ان الله عز وجل جعل أحوال الآدمى أمثلة ليعت بها
٩٥	٦٣ انما فضل العقل بتأمل العواقب
٦٤	ليس في الدنيا عيش إلا لعالم أو زاهد
٩٦	٦٥ ما أكثر تفاوت الناس في الفهوم
٩٧	٦٦ من قامل الدنيا علم انه ليس فيه الذقة أصلا
٩٨	٦٧ رأيت إبليس قد احتال بفنون الحيل على الخلود
٩٩	٦٨ رأيت العادات قد غلبت الناس في تضيع الزمان

نمرة المصنف	نمرة الفصل
٤٠٠	٣٦٩ في معاشرۃ النساء
٤٠١	٣٧٠ لا عيش في الدنيا إلا للقنوع باليسير
٤٠٢	٧١ « قد تكرر معناه في هذا الكتاب الخ
٤٠٣	٧٢ « من تلمح أحوال الدنيا علم ان مراد الحق سبحانه وتعالى اجتنابها .
٤٠٤	٧٣ « العاقل يدبر بعقله عيشته في الدنيا
٤٠٥	خاتمة الكتاب

خاتمة الكتاب

حمدا لمن أبدع صنع الانسان وأنار عقله بنور العلم والعرفان. وتوجه
بتاج الشريعة الغراء وحلاه بحلية الاسلام والايمان. وصلاة وسلاما على
أشرف هاد الى أقوم دين بسواطع الأدلة والبراهين. وأعظم مآخ لظلمات
الشكوك والأوهام بنور الحق واليقين. وعلى آله المتخلفين باخلافه
المهتدين بهداه. وأصحابه مصاييح الظلام وسفن النجاة.

وبعد. فما برز في مرايا الظهور من خزائن الأسرار. وأشرق في سماء
الوجود من شمس عرائس الأفكار. الكتاب الموسوم بصيدا لخطاظر.
الذي جل في بابه عن شبيهه أو مناظر. لمؤلفه العلامة المحقق ابو الفرج عبد الرحمن
ابن علي بن محمد بن الجوزي طاب ثراه. وأفاض الكريم عليه سوابغ جوده
ورحماء. ومذاشر أبت أعناق الطالبين لاجتماع محاسنه الباهرة. وتاقت
نفوس المتعطشين لارتشاف رحيق فوايده الزاهرة. هبت نسائم التوفيق
لابرازه في قالب الطبع. واهتز تيار الهمة لابرار محاسن عرائسه على ألطف
طراز وأحسن وضع. فبرز بحمد الله تعالى دافلا في حلل البهاء والفخار.
متوجا بتاج القبول والاعتبار. متمثلا بطبعه بعناية ادارة الهام للفضال
السيد أمين افندي الخانجي على ذمة أولاده المحترمين أصحاب المكتبة
الخانجية. وذلك بمطبعة الشرق الواقعة بحارة المدرسة نمرة ٦ بجوار الازهر
الشريف بمصر. بادارة صاحبها السيد عبد الرحمن محمود فايد. وذلك في السنة
الخامسة والأربعين بعد الثلاثمائة والألف من هجرة من هو على
أكمل وصف عليه السلام

﴿ بيان الخطأ والصواب المطبوع في هذا الكتاب ﴾

صحيفة	سطر	خطأ	صواب
٤	٢	بلى	بل
١١	١٧	أقدام	إقدام
١٢	١٦	يترصده	يترصد
٢٢	١٩	أنى	إنى
٢٤	٠٢	راياهم	راياهم
٢٧	١٩	ونهم	ونهم
٢٩	٣	عليًا ابن أبي	عليًا بن أبي
٢٩	٢٠	ماوراها	ماوراءها
٣٠	٢٠	فقال لأنى	فقال لا لأنى
٣٠	٢٠	علل	علاه
٣٤	٢	وحضرت العشاء حضر فابدؤا	وحضرت العشاء فابدؤا
٣٥	١٨	مسموم	مسموم
٣٦	٠٥	ماإغتسلت	ماغتسلت
٣٨	٠١	بأضداها	بأضدادها
٦٠	٥	وكان	وكان
٧٨	٦	فان	فإن
٠٠	١٩	أسلام	إسلام
٠٠	٢٠	الأنبات	الإنبات
٧٩	٣	أنبات	إنبات
٠٠	٢٠	ابتدا	ابتدى
٨٠	٤	على الاختلاف	عن الاختلاف
٨١	٥	ويحذر	وتحذر

صواب	خطأ	صحيفة	سطر
إما في البداية	أما في البداية	٨٢	٩
أو لقله	أولقة	٠٠	٠
ابن مسعود	ابن سعود	٨٣	٣
أنجح	الحح	٨٤	٢
فأى لب	فأى لبا	٨٤	١٧
صوابا	صواب	٨٨	١٩
فقال	فقالوا	٨٩	٠١
فيه فتوسلوا	فيه فتوشلوا	٠٠	٠٣
رؤية	رؤبة	٠٠	٠٦
أغضب	اعضب	٠٠	٠٨
الهمنا	الهنا	٩٠	٤
فمن طلب	فمن طلب	١٠٧	٧
شاغلا	شاغل	١١١	٢٠
مشهدا	مشهد	٠٠٠	٠٢
وما عملك	وما عملك	٠٠٠	١١
قيام للتعبد	قيام التعبد	١٢٥	٠٩
٠٠	بما نزل المبارك	١٢٨	٠٦
٠٠	ابن المبارك واما	١٢٩	٠٧
ولا يبالون	ولا يبالون	١٣٠	٠٥
بعد الفعل	بعد العفل	١٤٤	١
أن لا يحسن	الايحسن	٠٠٠	١٢
فحملني	فيحملني	٠٠٠	١٧
إما وإما	أما وأما	١٤٥	٢٠

صواب	خطأ	سطر	صحيفة
مبارك	مباركا	١٠	١٤٦
إن	أن	١٥	١٤٨
يقع	وقع	٢	١٥٢
إخواني	أخواني	٦	٠٠٠
خبر	خبرا	١١	٠٠٠
ليلاك	ليك	٧	١٥٥
وابن الخلال	وابن الجلا	٣	١٥٦
ايلائه	ايلاوته	١٢	١٥٨
التصفح	التضفح	١٦	١٦٠
ما أقاموا	ما أقلمو	١٩	٠٠٠
مراده	مرادك	١٥	١٦٣
سنع	نسخ	١٩	٠٠٠
مزاحمة العلة	مزاحة العلة	١٣	١٦٥
بقوله	بقول	١٥	١٧١
الحسن	الحس	١٠	١٧٢
هذه	هذا	٠٦	١٧٣
تجنبني	نجبني	١٣	١٧٧
فأيدته	فأيدته	١١	١٩٦
مراده	مرد	١٢	١٩٦
ونعلاه	ونعليه	٠٣	٢٠٦
بالرذائل	بالرذائل	٢١	٠٠٠
عن يعقوب	ابن يعقوب	١٠	١٢٢
لأنا نقوله	لأنا نقوله	١٦	٢٢٢

صواب	خطأ	سطر	صحيفة
من رأى	من رأى	٢١	٢٢٨
منعت	تنعت		
فآثره	فآثره	١٣	٢٤٩
واذا كان لا	وان كان لا	١١	٢٥٥
شيئا الا وعندك	شيئا وعندك	١٩	٢٦١
فما آمن	فما امن		٢٧٣
الرزائل	الرزائل	٥٣	٢٩٠
بجيبه	بجيبه	٢١	٢٩١
في طلب الصواب واكثرهم لا يقصد	في طلب الصواب لا يقصد		٣٠٤
قالعين	لعين		٣٧٣